

البرهان في علوم القرآن

للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي

تحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

المجلد الثالث

مكتبة
دار الشرائع

٢٢ شارع الجمهورية - القاهرة

[جميع الحقوق محفوظة]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القسم الحادي عشر

الثنى وإرادة الواحد (*)

كقوله تعالى : ﴿يَخْرِجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤَ وَالْمَرْجَانَ﴾^(١) ؛ وإنما يخرج من أحدهما .
ونظيره قوله تعالى : ﴿وَمِنْ كُلِّ تَاجَةٍ تَكُونُ لِحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾^(٢) ، وإنما تخرج الحلية من «الملح»^(٣) ، وقد غلط في هذا المعنى أبو ذؤيب الهذلي حيث قال يذكر الدرة :

فجاء بهما ما شئتَ من لَطْمَةٍ يَدُومُ الْفَرَاتُ فَوْقَهَا وَيَمُوجُ^(٤)
والفرات لا يدوم فوقها ؛ وإنما يدوم الأجاج .

وقال أبو علي في قوله تعالى : ﴿عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرَيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾^(٥) : إن ظاهر اللفظ يقتضي أن يكون من مكة والطائف جميعاً ؛ ولما لم يمكن أن يكون منهما دلّ المعنى على تقدير : «رجل من إحدى القريتين» .

وقوله تعالى : ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾^(٦) أى في إحداهن .

* تابع أقسام التوكيد ؛ وهو الأسلوب الأول من أساليب القرآن ، المندرجة تحت النوع السادس والأربعين ؛ وأوله في الجزء الثاني ص ٢٨٢

(٢) سورة فاطر ١٢

(١) سورة الرحمن ٢٢

(٣) وهو المذكور في أول الآية من قوله تعالى : ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ...﴾

(٤) ديوان الهذليين ٥٧:١ . واللطيمة : الدرة المنسوبة إلى اللطيمة ؛ وهي السوق التي تباع فيها العطريات . ويدوم الفرات ؛ من دام الماء بمعنى سكن وركد . وروى بعضهم : «ندوم البجار» مكان «الفرات» ؛ وبهذا يسلم البيت من النقد ؛ وانظر ديوان الهذليين وحواشيه .

(٦) سورة نوح ١٦

(٥) سورة الزخرف ٣١ .

وقوله تعالى : ﴿ نَسِيًا حُوتَهُمَا ﴾ ^(١) والناسى كان يوشع ، بدليل قوله لموسى : ﴿ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ ﴾ ^(١) ؛ ولكن أضيف النسيان لهما جميعا لسكوت موسى عنه .

وقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ ^(٢) والتعجيل يكون في اليوم الثانى ، وقوله : ﴿ فَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ قيل : إنه من هذا أيضاً ، وإن موضع الإثم والتعجيل يجعل المتأخر الذى لم يقصر مثل ما جعل للمقصر . ويحتمل أن يراد : لا يقولن أحدهما لصاحبه : أنت مقصر ؛ فيكون المعنى : لا يؤثم أحدهما صاحبه .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَبْوِيهُ إِلَّا يَكُلُّ وَاحِدٌ مِنْهُمَا الشَّدُسُ ﴾ ^(٣) .

وقوله تعالى : ﴿ جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ ﴾ ^(٤) ، أى أحدهما ، على أحد القولين .

وقوله : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حَدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ﴾ ^(٥) فالجناح على الزوج لأنه أخذ ما أعطى ؛ قال أبو بكر الصيرفى : المعنى : فإن خيف من أحدهما ذلك جازت الفدية ، وليس الشرط أن يجتمعا على عدم الإقامة .

وقوله تعالى : ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ ﴾ ^(٦) قيل هو خطاب لله لك . وقال المبرد : ثناء على « ألقى » ، والمعنى : ألقى ألقى ^(٧) ، وكذلك القول فى « قفا » ^(٨) وخالفه أبو إسحاق ، وقال : بل هو مخاطبة للملكين .

(١) سورة الكهف ٦١ ، ٦٣

(٢) سورة البقرة ٢٠٣

(٣) سورة النساء ١١

(٤) سورة الأعراف ١٩٠

(٥) سورة البقرة ٢٢٩

(٦) سورة ق ٢٤

(٧) نقله صاحب الكشاف : ٤ : ٣٠٧ ؛ والعبارة فيه : « إن تثنية الفاعل قرئت منزلة تثنية الفعل ؛ لاتحادهما كأنه قيل : ألقى ، ألقى » .

(٨) يشير إلى ما نقله صاحب الكشاف أن العرب أكثر ما يرافق الرجل منهم اثنان ؛ فكثرت على ألسنتهم أن يقولوا : خليلي وصاحبي ، وقفا وأسعدا ؛ حتى خاطبوا الواحد خطاب الاثنين .

وقال الفراء في قوله تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ^(١) قال : يخاطب الإنسان مخاطبه بالثنية .

وجعل منه قوله تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴾ ^(٢) : وقوله تعالى : ﴿ جَنَّاتٍ ﴾ ^(٣) قليل : جنة واحدة بدليل قوله تعالى ^(٤) آخر الآية : ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ ﴾ ^(٥) فأفرد بعد ما ثنى .

وقوله : ﴿ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا ﴾ ^(٦) فإنه ما ثنى هنا إلا للإشعار بأن لها وجهين ، وأنت إذا نظرت عن يمينك ويسارك رأيت في كلتا الناحيتين ما يملأ عينك قرّة ، وصدرك مسرّة .

وقوله تعالى : ﴿ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ ^(٧) وإنما المتخذ إلها عيسى دون مريم ؛ فهو من باب « والنجوم الطوالع » ^(٨) قاله أبو الحسن ، وحكاها عنه ابن جني في كتاب " القد " ، وعليه حمل ابن جني وغيره قول امرئ القيس :

* قَفَا نَبْكَ مِنْ ذَكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ * ^(٩)

(١) سورة الرحمن ١٣ .

(٢) سورة الرحمن ٤٦

(٣) سورة الكهف ٣٢ ؛ والآية : ﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ ... ﴾

(٤) كذا في الأصل ؛ ولعل صواب العبارة : « بعد هذه الآية » .

(٥) سورة الكهف ٣٥

(٦) سورة الكهف ٣٣

(٧) سورة المائدة ١١٦

(٨) إشارة إلى بيت الفرزدق :

أخذنا بأفاقِ السماءِ عليكمُ لنا قراها والنجومُ الطوالعُ

ديوانه ٥١٩ ، و « لنا قراها » يريد الشمس والقمر ، وانظر جي الجتين ١٢٧

(٩) ديوانه ٨ وبقية :

* بِسْقَطِ اللَّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ وَحَوْمَلِ *

ويؤيده قوله بعده :

* أَصَاحَ تَرَى بَرَقًا أُرِيكَ وَمِيزَةً * ^(١)

وقول الفرزدق :

عَشِيَّةَ سَالِ الْمَرْبَدَانِ كَلَاهُمَا سَحَابَةُ مَوْتٍ بِالسُّيُوفِ الصَّوَارِمِ ^(٢)
وإنما هو مَرَبْدُ البصرة فقط .

وقوله : « ودار لها بالرقمتين » ^(٣) .

وقوله : « بطن المكتنين » ^(٤) .

وقول جرير :

لَمَّا مَهَرْتُ بِالْدَّيْرَيْنِ أَرْقَنِي صَوْتُ الدَّجَاجِ وَقَرَعُ النَّوَاقِيسِ ^(٥)
قالوا : أراد « دير الوليد » ^(٦) ؛ فتناء باعتبار ما حوله .

الفصل الثاني عشر

إطلاق الجمع وإرادة الواحد

كقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ ^(٧) ، إلى قوله : ﴿ فَذَرُوهُمْ

(١) ديوانه ٢٤ وبقيته :

* كَلَمَعَ الْيَدَيْنِ فِي حَبِيٍّ مُكَلَّلٍ *

(٢) ديوانه ٨٦١ ؛ وروايته : « عجاجة موت » . (٣) من قول زهير :

وَدَارِ لَهَا بِالرَّقْمَتَيْنِ كَأَنَّهَا مَرَّاجِعُ وَشَمٍ فِي نَوَاشِرِ مِعْصَمٍ

ديوانه ٥ . والرقتان : روضتان بناحية الصمان ؛ وهو هنا من النبي الحقيقي ؛ فلا يكون موصفا للشاهد .
(٤) أورد المرتضى منه قول الشاعر :

فَقُولَا لِأَهْلِ الْمَكْتَنِ تَحَاشَدُوا وَسِيرُوا إِلَى أَطَامٍ يَثْرِبَ وَالنَّحْلِ

(٥) ديوانه ٣١١

(٦) سورة « المؤمنون » ٥١ .

الأمل ١٤٨: ٢

(٦) دير الوليد ؛ بالشام ، قاله ياقوت .

فِي غَمَرِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١﴾ ، قال أبو بكر الصيرفي : فهذا خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وحده ؛ إذ لا نبي معه ولا بعده .

ومثله : ﴿ نَحْنُ قَسَمًا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ... ﴾ (٢) الآية ، وهذا مما لا شريك فيه ، والحكمة في التعبير بصيغة الجمع أنه لما كانت تصارييف أقضيته سبحانه وتعالى تجرى على أيدي خلقه نزلت أفعالهم منزلة قبول القول بمورد الجمع . وجعل منه ابن فارس قوله تعالى : ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاطِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾ (٣) ، والرسول كان واحدا ، بدليل قوله تعالى : ﴿ أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ ﴾ (٤) . وفيه نظر ؛ من جهة أنه يحتمل مخاطبة رئيسهم ، فإن العادة جارية — لا سيما من الملوك — ألا يرسلوا واحدا .

ومنه : ﴿ فَفَرَزْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ ﴾ (٥) وغير ذلك ؛ وقد تقدم في وجوه المخاطبات (٦) .

ومنه : ﴿ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ ﴾ (٧) ، والمراد جبريل . وقوله : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ (٨) ؛ والمراد محمد صلى الله عليه وسلم .

وقوله : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ ﴾ (٩) ؛ والمراد بهم ابن مسعود الثقفي (١٠) ؛ وإنما

- | | |
|--------------------------|----------------------------------|
| (١) سورة « المؤمنون » ٥٤ | (٢) سورة الزخرف ٣٢ |
| (٣) سورة النمل ٣٥ | (٤) سورة النمل ٣٧ |
| (٥) سورة الشعراء ٢١ | (٦) الجزء الثاني ص ٢١٧ وما بعدها |
| (٧) سورة النحل ٢ | (٨) سورة النساء ٥٤ |
| (٩) سورة آل عمران ١٧٣ | |

(١٠) روى أن أبا سفيان نادى عند انصرافه من أحد : يا محمد ، ووعدا موسم بدر القابل إن شئت ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إن شاء الله ؛ فلما كان القابل خرج أبو سفيان في أهل مكة حتى نزل مر الظهران ؛ فألقى الله الرعب في قلبه ؛ فبداه أن يرجع ، فلقى نعيم بن مسعود الأشجعي — وقد قدم معتمرا — فقال : يا نعيم ؛ إني واعدت محمدا أن نلتقي بموسم بدر ، وإن هذا عام جرب ، ولا يصلحنا =

جاز إطلاق لفظ « الناس » على الواحد ؛ لأنه إذا قال الواحد قولاً وله أتباعٌ يقولون مثل قوله ، حسنَ إضافة ذلك الفعل إلى الكل ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ﴾ ^(١) ، ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ ^(٢) والقائل ذلك رهوسهم . وقيل : المراد بالناس ركبٌ من عبد القيس ^(٣) دسَّهم أبو سفيان إلى المسلمين وضمن لهم عليه جعلاً ، قاله ابن عباس وابن إسحاق وغيرهما ^(٤) .

القسم الثالث عشر

إطلاق لفظ التثنية والمراد الجمع

كقوله تعالى : ﴿ تُمْ أَرِجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ ﴾ ^(٥) فإنه وإن كان لفظه لفظ التثنية فهو جمع ، والمعنى « كرات » لأن البصر لا يحسُر إلا بالجمع . وجعل منه بعضهم قوله تعالى : ﴿ الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ ﴾ ^(٦) .

القسم الرابع عشر

التكرار على وجه التأكيد

وهو مصدر كرر إذا ردّد وأعاد ؛ هو « تَعَال » بفتح التاء ؛ وليس بقياس ، بخلاف التفعيل .

== إلا عام نزعى فيه الشجر ونشرب فيه اللبن ، وقد بدا لي ، ولكن إن خرج محمد ولم أخرج زاده ذلك جراءة ، فالحق بالمدينة وثبطهم ولك عندي عشر من الإبل . فخرج نعيم فوجد المسلمين يتجهزون فقال لهم : ما هذا بالرأى ، أتوكم في دياركم وقراركم فلم يقلت منكم أحد إلا شريداً ؛ فترددون أن تخرجوا وقد جمعوا لكم عند الموسم ؛ فوائله لا يقلت منكم أحد . الكشف ١ : ٣٣٩ - ٣٤٠ .

(٢) سورة البقرة ٥٥

(١) سورة البقرة ٧٢

(٣) قيل : مر بأبي سفيان ركب من عبد القيس ؛ يريدون المدينة للميرة ؛ فجعل لهم حمل بعير من زيب إن ثبطوهم ؛ فكره المسلمون الخروج ؛ فقال صلى الله عليه وسلم : « والذي نفسي بيده لأخرجن ولو لم يخرج معي أحد ؛ فخرج في سبعين راكباً وهم يقولون : حسبنا الله ونعم الوكيل . » الكشف ١ : ٣٤٠ .

(٥) سورة الملك ٤

(٤) تفسير الطبري ٧ : ٤٠٩

(٦) سورة البقرة ٢٢٩ .

وقال الكوفيون : هو مصدر « فَعَّلَ » والألف عوض من الياء في التفعيل .
والأول مذهب سيويه .

وقد غلط مَنْ أنكر كونه من أساليب الفصاحة ، ظناً أنه لا فائدة له ؛ وليس كذلك بل هو من محاسنها ، لاسيما إذا تعلق بعضه ببعض ؛ وذلك أن عادة العرب في خطاباتها إذا أبهمت بشيء إرادة لتحقيقه وقرب وقوعه ، أو قصدت الدعاء عليه ، كررته تأكيداً ، وكأنها تقيم تكراره مقام المقسم ، عليه أو الاجتهاد في الدعاء عليه ، حيث تقصد الدعاء ؛ وإنما نزل القرآن بلسانهم ، وكانت مخاطباته جارية فيما بين بعضهم وبعض ، وبهذا المسلك تستحكم الحجة عليهم في عجزهم عن المعارضة . وعلى ذلك يحتمل ماورد من تكرار المواعظ والوعيد والوعيد ، لأن الإنسان مجبول من الطبائع المختلفة ، وكلها داعية إلى الشهوات ، ولا يقيم ذلك إلا تكرار المواعظ والقوارع ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ ﴾ ^(١) قال في " الكشف " ^(٢) : أي سهّلناه للدّكار والاعتاظ بأن نسجناه ^(٣) بالمواعظ الشافية وصرفنا فيه من الوعد والوعيد .

ثم تارة يكون التكرار مرتين ؛ كقوله : ﴿ فَقَتِلْ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ ^(٤) .

وقوله : ﴿ أَوَّلَى لَكَ فَأَوَّلَى . ثُمَّ أَوَّلَى لَكَ فَأَوَّلَى ﴾ ^(٥) .

وقوله : ﴿ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ . ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾ ^(٦) .

وقوله : ﴿ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ . ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴾ ^(٧) .

(٢) الكشف ٤ : ٣٤٦

(٤) سورة المدثر ١٩ ، ٢٠

(٦) سورة التكاثر ٦ ، ٧

(١) سورة القمر ١٧

(٣) الكشف : « شجناه »

(٥) سورة القيامة ٣٤ ، ٣٥

(٧) سورة النبأ ٤ ، ٥ .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ ^(١) .
 وقوله : ﴿ فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ ﴾ ^(٢) .

وفائدته العظمى ^(٣) التقرير ، وقد قيل : الكلام إذا تكرر تقرر .

وقد أخبر الله سبحانه بالسبب الذى لأجله كرر الأقاويص والأخبار فى القرآن ^(٤) فقال :
 ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ ^(٥) .

وقال : ﴿ وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ ^(٦) .

وحقيقته إعادة اللفظ أو مرادفه لتقرير معنى ؛ خشية تناسى الأول ، لطول العهد به .

فإن أعيد لا لتقرير المعنى السابق لم يكن منه ، كقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ . وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ . قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ . قُلِ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي . فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ ﴾ ^(٧) .

فأعاد قوله : ﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴾ ^(٧) بعد قوله : ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴾ ، لا لتقرير الأول ؛ بل لغرض آخر ؛ لأن معنى الأول الأمر بالإخبار أنه مأمور بالعبادة لله والإخلاص له فيها ، ومعنى الثانى أنه يخص الله وحده دون غيره بالعبادة والإخلاص ؛ ولذلك قدم ^(٨) المفعول على فعل العبادة فى الثانى ،

(٢) سورة التوبة ٦٩

(٤) ت : « فيه »

(٦) سورة طه ١١٣ .

(٨) ت : « تقدم »

(١) سورة آل عمران ٧٨

(٣) ١ : « ومن الفوائد العظمى التقرير »

(٥) سورة القصص ٥١

(٧) سورة الزمر ١١ - ١٥

وأخر في الأول ؛ لأن الكلام أولاً في الفعل ، وثانياً فيمن فُعل لأجله الفعل .

واعلم أنه إنما يحسن سؤال الحكمة عن التكرار إذا خرج عن الأصل ، أما إذا وافق الأصل فلا ؛ ولهذا لا يتجه سؤالهم : لِمَ كرر « إياك » في قوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ^(١) ؟

ف قيل : إنما كررت للتأكيد ، كما تقول : « بين زيد وبين عمرو مال » .

وقيل : إنما كررت لارتفاع أن يتوهم - إذا حذفت - أن مفعول « نستعين » ضمير متصل واقع بعد الفعل ، فتفتوت إذ ذاك الدلالة على المعنى المقصود ، بتقديم المفعول على عامله .
والتحقيق أن السؤال غير متجه ؛ لأن ههنا عاملين متغايرين ، كلٌّ منهما يقتضى معمولاً ، فإذا ذكر معمول كل واحد منهما بعده فقد جاء الكلام على أصله ، والحذف خلاف الأصل ، فلا وجه للسؤال عن سبب ذكر ما الأصل ذكره ، ولا حاجة إلى تكلف الجواب عنه ، وقس بذلك نظائره .

[فوائد التكرير]

وله فوائد :

أحدها : التأكيد ؛ واعلم أن التكرير أبلغ من التأكيد ، لأنه وقع في تكرار التأسيس ؛ وهو أبلغ من التأكيد ، فإن التأكيد يقرر إرادة معنى الأول وعدم التجوز ، فلهذا قال الزخشرى في قوله تعالى : ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ ^(٢) : إن الثانية تأسيس لا تأكيد ؛ لأنه جعل الثانية أبلغ في الإنشاء فقال : وفي ﴿ ثُمَّ ﴾ تنبيه على أن الإنذار الثاني أبلغ من الأول .

وكذا قوله : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ . ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾ ^(١) ،
وقوله : ﴿ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَرٌ . ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَرٌ ﴾ ^(٢) ، يحتمل أن يكون منه ، وأن يكون
من التماثلين .

والحاصل أنه : هل هو إنذار تأكيد ^(٣) ، أو إنذاران ؟ فإن قلت : « سوف تعلم ،
ثم سوف تعلم » كان أجود منه بغير عطف ؛ لتجريه على غالب استعمال التأكيد ، ولعدم
احتماله لتعدد الخبر به .

وأطلق بدر الدين بن مالك في شرح " الخلاصة " ^(٤) ، أن الجملة التأكيديّة
قد توصل بعاطف ، ولم تختص بتم ، وإن كان ظاهر كلام والده التخصيص ؛ وليس كذلك ؛
فقد قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا
اللَّهَ ﴾ ^(٥) ، فإن المأمور فيهما واحد ، كما قاله النحاس والزمخشري والإمام فخر الدين والشيخ
عز الدين ، ورجحوا ذلك على احتمال أن تكون « التقوى » الأولى مصروفة لشيء غير
« التقوى » الثانية ، مع شأن إرادته .

وقولهم : إنه تأكيد ، فإدراك تأكيد المأمور به بتكرير الإنشاء ، لا أنه تأكيد
لفظي ، ولو كان تأكيدا لفظيا لما فصل بالعطف ، ولما فصل بينه وبين غيره : ﴿ وَلْتَنْظُرْ
نَفْسٌ ﴾ ^(٥) .

فإن قلت : « اتقوا » الثانية معطوفة على « ولتنظر » .

(٢) سورة المائدة ١٩ ، ٢٠

(١) سورة الانقطار ١٧ ، ١٨

(٣) ت : « مؤكدا » .

(٤) هو بدر الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن مالك المتوفى سنة ٦٨٠ ؛ شرح الألفية المعروفة
بالخلاصة في النحو ؛ وهو شرح منقح اشتهر بشرح ابن المصنف ؛ خطأ والده في بعض المواضع . كشف
الظنون ١٥١ .

(٥) سورة الحشر ١٨ .

أجيب بأنهم قد اتفقوا على أن : ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ ^(١) ، معطوف على ﴿ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ ^(١) ، لا على قوله : ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ ^(١) ؛ وهو نظير ما نحن فيه .

وقوله تعالى : ﴿ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾ ^(٢) ، وقوله : ﴿ فَادْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوا كَمَا هَدَاكُمْ ﴾ ^(٣) ويحتمل أن يكون « اصطفاين » و « ذكرين » ، وهو الأقرب في الذكر ، لأنه محل طلب فيه تكرار الذكر .

وكقوله تعالى حكاية عن موسى : ﴿ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا . وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴾ ^(٤) . وقوله : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ ^(٥) ، كرر « أولئك » .

وكذلك قوله : ﴿ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ ^(٦) . وكذا قوله : ﴿ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي... ﴾ ^(٧) إلى قوله : ﴿ مِنْ الْمُضْلِحِينَ ﴾ ^(٧) ، كررت « أن » في أربع مواضع تأكيذا .

وقوله : ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ . وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ ^(٨) .

الثاني : زيادة التنبيه على ما ينفي التهمة ، ليكتمل تلقى الكلام بالقبول ، ومنه قوله

(٢) سورة آل عمران ٤٢
(٤) سورة طه ٣٣ ، ٣٤
(٦) سورة البقرة ٥
(٨) سورة الزمر ١١ ، ١٢ .

(١) سورة البقرة ٨٣
(٣) سورة البقرة ١٩٨
(٥) سورة الرعد ٥
(٧) سورة القصص ١٩

تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ . يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ ﴾ ^(١) فإنه كرر فيه النداء لذلك .

الثالث : إذا طال الكلام وخشى تناسي الأول أعيد ثانياً بطريقة له ، وتجديداً لعهده ، كقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ^(٢) وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ^(٣) .

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ... ﴾ ^(٣) الآية .

وقوله : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ ^(٤) ثم قال : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا ﴾ ^(٤)

فهذا تكرار للأول ، ألا ترى أن لما لا تجبى بالفاء !

ومثله : ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ ﴾ ^(٥) ، ثم قال : ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ ﴾ ^(٥) .

وقوله : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَتَلِ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ ^(٦) ، ثم قال : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ

مَا أَقْتَتَلُوا ﴾ ^(٦) .

ومنه قوله : ﴿ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي

سَاجِدِينَ ﴾ ^(٧) .

وقوله : ﴿ أَعِيدُكُمْ أَنْتَكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْتَكُمْ مُخْرَجُونَ ﴾ ^(٨)

فقوله : ﴿ إِنَّكُمْ ﴾ الثاني بناء على الأول ، إذ كراً به خشية تناسيه .

وقوله : ﴿ وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ ^(٩) .

(٢) سورة النحل ١١٩

(٤) سورة البقرة ٨٩

(٦) سورة البقرة ٢٥٣

(٨) سورة المؤمنون ٣٥

(١) سورة المؤمن ٣٨، ٣٩

(٣) سورة النحل ١١٠

(٥) سورة آل عمران ١٨٨

(٧) سورة يوسف ٥

(٩) سورة الروم ٧

وكذلك قوله : ﴿ إِنَّا كَذَلِكْ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ . وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ ^(١) إلى قوله : ﴿ كَذَلِكْ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ ^(٢) .

بغير ﴿ إِنَّا ﴾ وفي غيره من مواضع ذكر ﴿ إِنَّا كَذَلِكْ ﴾ ، لأنه يبنى على ماسبقه في هذه القصة من قوله ﴿ إِنَّا كَذَلِكْ ﴾ ؛ فكأنه طرح فيما اكتفى بذكره أولاً عن ذكره ثانياً . ولأن التأكيد بالنسبة ، فاعتبر اللفظ من حيث هو دون توكيده .

ويحتمل أن يكون من باب الاكتفاء ؛ وهذا أسلوب غريب ، وقل في القرآن وجوده ، وأكثر ما يكون عند تقدم مقتضيات الألفاظ ، كالابتداء ، وحروف الشرطين الواقعين في الماضي والمضارع . ويستغنى عنه عند أمر محذور التناسي .

وقد يرد منه شيء يكون بناؤه بطريق الإجمال والتفصيل بأن تتقدم التفاصيل والجزئيات في القرآن ، فإذا خشي عليها التناسي لطول العهد بها بنى على ماسبق بها بالذكر الجملي ، كقوله تعالى : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكَفَرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمْ ﴾ ^(١) إلى قوله : ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ ^(٢) فقوله « فبظلم » بيان لذكر الجملي على ماسبق في القول من التفصيل ، وذلك أن الظلم جملي على ماسبق من التفاصيل من النقص والكفر وقتل الأنبياء ، ﴿ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ ^(٣) والقول على مريم بالبهتان ، ودعوى قتل المسيح عليه السلام ، إلى ما تداخل ذلك من أسلوب الاعتراض بها موضعين . وهما قوله : ﴿ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ^(٤) ، وقوله : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ ﴾ ^(٥) إلى قوله : ﴿ شَهِيدًا ﴾ ^(٦) ، وأنه لما ذكر بالبناء جملي الظلم من قوله « فبظلم » لأنه يعم على كل ما تقدم وينطوي عليه ، ذكر حينئذ متعلق الجملي من قوله : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ ﴾ ^(٧) عقب الباء لأن العامل في الأصل حقه أن يلي معموله ، فقال : ﴿ فَبِظْلَمٍ مِنْ

الَّذِينَ هَادُوا حَرَمْنَا^(١) : هو متعلق بقوله : ﴿فَيَظْلَمُ﴾^(٢) . وقد اشتمل الظلم على كل ما تقدم قبله ، كما أنه أيضاً اشتمل على كل ما تأخر من المحرمات الأخر التي عدت بعد ما اشتملت على ذكر الشيء بالعموم والخصوص : فذكرت الجزئيات الأولى بخصوص كل واحد ، ثم ذكر العام المنطوي عليها : فهذا تعميم بعد تخصيص . ثم ذكرت جزئيات أخر بخصوصها ، فتركيب الأساليب من وجوه كثيرة في الآية : وهو التعميم بعد التخصيص ، ثم التخصيص بعد التعميم ، ثم البناء بعد الاعتراض .

ومنه قوله تعالى : ﴿وَلَوْ لَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَرِيسَالٌ مُّؤْمِنَاتٌ﴾^(٣) إلى قوله : ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾^(٤) ، فقوله : ﴿وَلَوْ لَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ﴾^(٥) إلى قوله : ﴿بَغْيَرٍ عَلِيمٍ﴾^(٦) هو المقتضى الأول المتقدم ، وقوله ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾^(٧) هو المقتضى الثانى وهو البناء ، لأنه المذكور بالمقتضى الأول الذى هو «لولا» خشية تناسيه ، فهو مبنى على الأول ، ثم أورد مقتضاها من الجواب بقوله : ﴿لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾^(٨) وروداً واحداً من حيث أخذاً معاً ، كأنهما مقتضى منفرد ، من حيث هما واحد بالنوع ؛ وهو الشرط الماضى . فقوله : ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾^(٩) بناء على قوله : ﴿وَلَوْ لَا رِجَالٌ﴾^(١٠) نظر فى المضارعة . وأما قوله : ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١١) فيجوز أن يكون تكريراً ، ويجوز أن يكون الكلام عند قوله : ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ ويكون الثانى بياناً لجمل لا تكرير .

وقد جعل ابن المنير^(١٢) من هذا القسم قوله تعالى : ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ﴾^(١٣) ثم قال : ﴿مَنْ شَرَحَ بِالْكَفْرِ صَدْرًا﴾^(١٤) .

(٢) سورة الفتح ٢٥

(١) سورة النساء ١٦٠

(٣) سورة النحل ١١٩

(٤) هو الإمام ناصر الدين أحمد بن محمد بن المنير الإسكندرى ؛ صاحب كتاب الاختصاص من فيه ما تضمنه من الاعتزال ؛ وناقشه فى أغاريب وأحسن فهمه الخدال ؛ توفى سنة ٦٨٣ كشف الطنون ١٤٧٧

(٥) سورة النحل ١٦

وقوله : ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ ... ﴾ ^(١) ثم قال : ﴿ لَوْ تَزَيَّلُوا ﴾ ^(٢) ونازعه العراقي ^(٣) لأن المعاد فيها أخص من الأول ؛ وهذا يجيء في كثير مما ذكرنا ، ولا بد أن يكون وراء التكرير شيء أخص منه كما بينا .

الرابع : في مقام التعظيم والتهويل ؛ كقوله تعالى : ﴿ الْحَاقَّةُ . مَا الْحَاقَّةُ ﴾ ^(٤) . ﴿ الْقَارِعَةُ ﴾ ^(٥) . ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴾ ^(٦) . وقوله : ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴾ ^(٧) . وقوله : ﴿ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ . وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴾ ^(٨) .

وقوله : ﴿ لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ ^(٩) .

الخامس : في مقام الوعيد والتهديد ، كقوله تعالى : ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ ^(١٠) وذكر « ثم » في المكرر دلالة على أن الإنذار الثاني أبلغ من الأول ، وفيه تنبيه على تكرار ذلك مرة بعد أخرى ، وإن تعاقبت عليه الأزمنة لا يتطرق إليه تغيير ، بل هو مستمر دائماً .

(١) سورة الفتح ٢٥

(٢) هو الإمام علم الدين عبد الكريم بن علي العراقي ، صاحب كتاب الإنصاف ، جملة حكماء بين الكشاف والانتصاف ، توفي سنة ٧٠٤ . كشف الظنون ١٤٧٧ .

(٣) سورة الحاقة ١ ، ٢

(٤) سورة القارعة ١

(٥) سورة القدر ١ ، ٢

(٦) سورة الواقعة ٢٧

(٧) سورة الواقعة ٩ ، ٨

(٨) سورة المدثر ٣١

(٩) سورة التكاثر ٦ ، ٧ .

السادس : التعجب، كقوله تعالى : ﴿ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَرَ ﴾^(١) ،
فأعيد تعجباً من تقديره وإصابته الغرض ، على حدّ : قاتله الله ما أشجعه !

السابع : لتعدد المتعلق ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾^(٢) ،
فإنها وإن تعددت ؛ فكل واحد منها متعلق بما قبله ، وإن الله تعالى خاطب بها الثقلين
من الإنس والجن ، وعدّد عليهم نعمه التي خلقها لهم ؛ فكلما ذكر فصلا من فصول النعم
طلب إقرارهم واقتضاهم الشكر عليه ، وهي أنواع مختلفة ، وصور شتى .

فإن قيل : فإذا كان المعنى في تكريرها عدّ النعم واقتضاء الشكر عليها ، فما معنى
قوله : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ ﴾^(٣) ؟ وأى نعمة هنا ،
وإنما هو وعيد !

قيل : إن نعم الله فيما أنذر به وحذّر من عقوباته على معاصيه ليحذروها فيرتدعوا عنها ،
نظير أنعمه على ما وعده ، وبشر من ثوابه على طاعته ؛ ليرغبوا فيها ، ويحرصوا عليها ؛ وإنما
تتحقق معرفة الشيء بأن تعتبره بضده ، والوعد والوعيد وإن تقابلا في ذواتهما ، فإنهما
مقتاربان في موضع النعم بالتوقيف على ملاك الأمر منها ، وعليه قول بعض حكماء
الشعراء :

والحادثات وإن أصابك بُوسها فهو الذي أنباك كيف نعيمها
وإنما ذكرنا هذا ، لتعلم الحكمة في كونها زادت على ثلاثة ، ولو كان عائداً لشيء واحد
لما زاد على ثلاثة ؛ لأن التأكيد لا يقع به أكثر من ثلاثة .
فإن قيل : فإذا كان المراد بكل ما قبله ، فليس ذلك بإطناب ، بل هي ألفاظ أريد بها
غير ما أريد بالآخر !

(٢) سورة الرحمن ١٣ وما بعدها

(١) سورة المدثر ١٩ ، ٢٠

(٣) سورة الرحمن ٣٥

قلت : إن قلنا : العبرة بعموم اللفظ ؛ فكل واحد أريد به غير ما أريد بالآخر .
وقد تنكف لتوجيه العدة التي جاءت عليها هذه الآية مكررة ، قال الكرماني :
جاءت آية واحدة في هذه السورة كررت نيفا وثلاثين مرة ، لأن ست عشرة راجعة
إلى الجنان ؛ لأن لها ثمانية أبواب ، وأربعة عشر منها راجعة إلى النعم والنقم ، فأعظم النقم
جهنم ، ولها سبعة أبواب . وجاءت سبعة في مقابلة تلك الأبواب ، وسبعة عقب كل نعمة
ذكرها للتقليل .

وقال غيره : نبه في سبع منها على ما خلقه الله للعباد من نعم الدنيا المختلفة على عدة
أمهات النعم ، وأفرد سبعا منها للتخويف ، وإنذاراً على عدة أبواب الخوف منه ، وفصل
بين الأول والسبع الثواني بواحدة سوى فيها بين الخلق كلهم فيما كتبه عليهم من الفناء ،
حيث اتصلت بقوله : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ ^(١) ، فكانت خمس عشرة ، أتبع
بثمانية في وصف الجنان وأهلها على عدة أبوابها ، ثم بثمانية أخرى في وصف الجنتين اللتين
من دون الأولتين لذلك أيضا فاستكملت إحدى وثلاثين .

ومن هذا النوع قوله تعالى : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ ^(٢) ، في سورة الرسائل
عشر مرات ، لأنه سبحانه ذكر قصصا مختلفة ، وأتبع كل قصة بهذا القول ، فصار كأنه
قال عقب كل قصة : ويل للمكذب بهذه القصة ! وكل قصة مخالفة لصاحبها ،
فأثبت الويل لمن كذب بها .

ويحتمل أنه لما كان جزاء الحسنة بعشر أمثالها ، جعل للكفارة في مقابلة كل مثل
من الثواب ويل .

ومنها في سورة الشعراء قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ .

وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١﴾ في ثمانية مواضع ؛ لأجل الوعظ ، فإنه قد يتأثر بالتكرار مَنْ لا يتأثر بالمرّة الواحدة .

وأما قوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ﴾ فذلك لظهور آيات الأنبياء عليهم السلام ، والعجبُ من تخلف من لا يتأملها مع ظهورها .

وأما مناسبة قوله : ﴿ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ فإنه تعالى نفى الإيمان عن الأكثر ؛ فدل بالمفهوم على إيمان الأقل ، فكانت العزة على من لم يؤمن ، والرحمة لمن آمن ، وهما مرتبتان كترتب الفريقين . ويحتمل أن يكون من هذا النوع قوله تعالى : ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ... ﴾ (٢) الآية ، لأنّ علمهم يقع أولاً وثانياً على نوعين مختلفين بحسب المقام ؛ وهذا أقرب للحقيقة الوضعية وجمال المعبر عنه ؛ فإن المعاملات الإلهية للطائع والعاصي متغيرة الأنواع الدنيوية ؛ ثم البرزخية ، ثم الحشرية ، كما أن أحوال الاستقرار بعد الجميع في الغاية ؛ بل كل مقام من هذه أنواع مختلفة ، وفي « ثم » دلالة على الترقى ؟ إن لم يجعل الزمان مرتباً في الإنذار على التكرار ، وفي المنذر به على التنويع .

ومنه تكرار : ﴿ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ ﴾ (٣) ، قال الزمخشري (٤) : كرّر ليجدوا عند سماع كل نبي منها تعاضاً وتنبيهاً ، وأن كلا من تلك الأنبياء مستحق باعتبار يختص به ، وأن يتنبهوا كيلا يغلبهم السرور والغفلة .

ومنه قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ . لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ... ﴾ (٥) إلى آخرها

(١) سورة الشعراء ٩، ٨ (٢) سورة التكاثر ٧، ٦ (٣) سورة القمر ٣٩

(٤) الكشف ٤ : ٣٤٩ ؛ والمبارة فيه : « فائدة أن يجددوا عند استماع كل نبي من أنبياء الأولين اذكراً وتعاضاً ، وأن يستأنفوا تنبيهاً واستيقاظاً ؛ إذا سمعوا الحث على ذلك والبث ، وأن يقرع لهم العصا مراراً ويقعق لهم الشن تارات ؛ لئلا يغلبهم السهو ، ولا تستولى عليهم الغفلة .. »

(٥) سورة الكافرون ٢، ١

يحكى أن بعض الزنادقة سأل الحسن بن علي رضي الله عنه عن هذه الآية فقال : إني أجد في القرآن تكراراً ، وذكر له ذلك ، فأجابه الحسن بما حاصله : إن الكفار قالوا : نعبد إلهك شهراً وتعبد آلهتنا شهراً ، فجاء النفي متوجهاً إلى ذلك . والمقصود أن هذه ليست من التكرار في شيء ، بل هي بالحذف والاختصار أليق ؛ وذلك لأن قوله : ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾^(١) ؛ أي لا أعبد في المستقبل ما تعبدون في المستقبل ، وقوله : ﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ﴾ ، أي ولا أنا عابد في الحال ما عبدتم في المستقبل ، ﴿ وَلَا أَتَمُّ عَابِدُونَ ﴾ ، في الحال ما أعبد في المستقبل .

والحاصل أن القصد نفي عبادته لآلهتهم في الأزمنة الثلاثة : الحال ، والماضي ، والاستقبال ؛ والمذكور في الآية النفي في الحال والاستقبال ، وحذف الماضي من جهته ومن جهتهم ؛ ولا بد من نفيه ، لكنه حذف لدلالة الأولين عليه .

وفيه تقدير آخر ؛ وهي أن الجملة الأولى فعلية ، والثانية اسمية ، وقولك : لا «أفعله» و «لا أنا فاعله» أحسن من قولك : «لا أفعله» ، «ولا أفعله» ؛ فالجملة الفعلية نفي لإمكانه ، والاسمية نفي لاتصافه ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ ﴾^(٢) ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾^(٣) . والمعنى أنه تبرأ من فعله ومن الاتصاف به ، وهو أبلغ في النفي ؛ وأما المشركون فلم ينتف عنهم إلا بصيغة واحدة ؛ وهي قوله : ﴿ وَلَا أَتَمُّ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ في الموضعين .

وفرق آخر ، وهو أنه قال في نفيه الجملة الاسمية : ﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ﴾ وقال في النفي عنهم : ﴿ وَلَا أَتَمُّ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ عائد في حقه بين الجملتين ، وقال : ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ بالمضارع ، وفي الثاني : ﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ﴾ بالماضي ، فإن المضارع يدل على الدوام ، بخلاف الماضي ، فأفاد ذلك أن ما عبدتموه ولو مرة ما أنا عابد له البتة ، ففيه كمال

برأته ودوامها مما عبده ولو مرة ؛ بخلاف قوله : ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ فإن النفي من جنس الإثبات ، وكلاهما مضارع يظهران جملة ومنفردا .

ومنه تكرير الأمر بالتوجه إلى البيت الحرام في ثلاث آيات من سورة البقرة ^(١) ؛ لأن المنكرين لتحويل القبلة كانوا ثلاثة أصناف من الناس : اليهود ؛ لأنهم لا يقولون بالنسخ في أصل مذهبهم . وأهل النفاق أشدّ إنكاراً له ، لأنه كان أول نسخ نزل . وكفار قریش قالوا : ندم محمد على فراق ديننا فيرجع إليه كما رجع إلى قبلتنا ، وكانوا قبل ذلك يحتجون عليه فيقولون : يزعم محمد أنه يدعونا إلى ملة إبراهيم وإسماعيل ؛ وقد فارق قبليهما وآثر عليها قبله اليهود ؛ وقال الله تعالى حين أمره بالصلاة إلى الكعبة : ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ ^(٢) والاستثناء منقطع ، أى لكن الذين ظلموا منهم لا يرجعون ولا يهتدون . وقال سبحانه : ﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ ^(٣) أى الذين أشركوا فلا تتردد في ذلك ، وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ^(٤) ، أى يكتُمون ما علموا أن الكعبة هى قبله الأنبياء .

ومنه قوله تعالى : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ . وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ ^(٥) .

وقال صاحب "الينبوع" ، ^(٦) : لم يبلغنى عن المفسرين فيه شيء .

(١) وهو قوله تعالى : ﴿ فَوَلَّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ آية ١٤٤ ، ١٤٩ ، ١٥٠

(٢) سورة البقرة ١٤٧

(٣) سورة البقرة ١٥٠

(٤) سورة البقرة ١٤٦

(٥) سورة الصافات ١٧٤ ، ١٧٥ ، وكرر هاتين الآيتين في قوله تعالى بعد ذلك في السورة ١٧٨ ، ١٧٩ :

﴿ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ * وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾

(٦) هو أبو جعفر محمد بن عبد الله بن محمد بن ظفر المكي الصقلي المتوفى سنة ٥٦٥ ؛ صاحب كتاب ينبوع الحياة في التفسير ؛ ذكره صاحب كشف الظنون ؛ منه أجزاء متفرقة مخطوطة بدار الكتب المصرية ، برقم ٣١٠ تفسير .

وقال المفسرون في غريب القرآن : هما في المعنى كالآيتين المتقدمتين ، فكرر للتأكيد وتشديد الوعيد .

ويحتمل أن يكون « الحين » في الأولين ^(١) يوم بدر ، و « الحين » في هاتين ^(٢) يوم فتح مكة .

ومن فوائد قوله تعالى في الأولين : ﴿ وَأَبْصِرْهُمْ ﴾ وفي هاتين : ﴿ فَأَبْصِرْ ﴾ أن الأولى بنزول العذاب بهم يوم بدر قتلا وأسرا وهزيمة ورعبا ، فلما تضمنت التشنى بهم قيل له : ﴿ أَبْصِرْهُمْ ﴾ ، وأما يوم الفتح فإنه اقترن بالظهور عليهم الإنعام بتأمينهم والهداية إلى إيمانهم ، فلم يكن وفقا للتشنى بهم ، بل كان في استسلامهم ، وإسلامهم لعينه قرّة ، ولقلبه مسرة ، ف قيل له : ﴿ أَبْصِرْ ﴾ .

ويحتمل على هذا - إن شاء الله - أن يكون من فوائد قوله تعالى في هذه : ﴿ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ أى يبصرون منك عليهم بالأمان ، ومننا عليهم بالإيمان .
ومنه قوله تعالى : ﴿ لَاهُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ ^(٣) .

وللتكرار [هنا] فائدتان :

إحداها : أن التحريم قد يكون في الطرفين ؛ ولكن يكون المانع من إحداها ؛ كما لو ارتدت الزوجة قبل الدخول ؛ يحرم النكاح من الطرفين ؛ والمانع من جهتها ، فذكر الله سبحانه الثانية ؛ ليدل على أن التحريم كما هو ثابت في الطرفين كذلك المانع منهما .

والثانية : أن الأولى دلت على ثبوت التحريم في الماضي ؛ ولهذا أتى فيها بالاسم الدال على الثبوت ؛ والثانية في المستقبل ، ولهذا أتى فيها بالفعل المستقبل .

(٢) آيتا ١٧٨ ، ١٧٩

(١) آيتا ١٧٤ ، ١٧٥

(٣) سورة المتحنة ١٠

ومنه تكرار الإضراب .

واعلم أن « بل » إذا ذكرت بعد كلام موجب فمعناها الإضراب .
وهو إما أن يقع في كلام الخلق ؛ ومعناه إبطال ماسبق على طريق الغلط من المتكلم ؛
أو أن الثانى أولى .

وإما أن يقع في كلام الله تعالى ، وهو ضربان :
أحدهما : أن يكون ما فيها من الرد راجعا إلى العباد ؛ كقوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَضَلَّكُمُ
أَحْلَامُ بَلٍ أَفْتَرَاهُ بَلٍ هُوَ شَاعِرٌ ﴾ ^(١) .

والثانى : أن يكون إبطالا ؛ ولكنه على أنه قد انقضى وقته ؛ وأن الذى بعده
أولى بالذكر ، كقوله تعالى : ﴿ بَلِ أَدَارِكُ عَنْهُمْ فِي الْآخِرَةِ ﴾ . ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ
ذِكْرِى بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴾ ^(٢) .

وزعم ابن مالك فى شرح " الكافية " ، أن « بل » حيث وقعت فى القرآن فإنها
للاستئناف لغرض آخر ، لا لإبطال الأول ؛ وهو مردود بما سبق ، وبقوله : ﴿ وَقَالُوا
أَتَتَّخِذُ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ ^(٣) ؛ فأضرب بها عن قولهم ،
وأبطال كذبهم .

وقوله : ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ ^(٤) ، أضرب بها عن حقيقة إتيانهم الذكور
وترك الأزواج .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَاشْهَدُوا ذَوَىٰ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ﴾ ^(٥) ،

(٢) سورة ص ٨

(٤) سورة الشعراء ١٦٦

(١) سورة الأنبياء ٢١

(٣) سورة الأنبياء ٢٦

(٥) سورة الطلاق ٢

فالأول للمطلقين . والثاني للشهود ؛ نحو : ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغْنِ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ ﴾ ^(١) ، أو لها للأزواج ، وآخرها للأولياء .

ومنه تكرار الأمثال ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ . وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ . وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ . وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ﴾ ^(٢) . وكذلك ضَرَبَ مثل المنافقين أول البقرة ^(٣) ثناء الله تعالى .

قال الزمخشري : « والثاني أبلغ ^(٤) من الأول لأنه أدلُّ على فَرْطِ الحيرة ، وشدة الأمر وفظاعته » ، قال : « ولذلك أُخِّرَ ، وهم يتدرجون في نحو هذا من الأهون إلى الأغلظ » :

ومنه تكرار القصص في القرآن ؛ كقصة إبليس في السجود لآدم ، وقصة موسى وغيره من الأنبياء ، قال بعضهم : ذكر الله موسى في مائة وعشرين موضعا من كتابه ، قال ابن العربي ^(٥) في " القواصم " : ذكر الله قصة نوح في خمسة وعشرين آية ، وقصة موسى في سبعين آية . انتهى .

وإنما كررها لفائدة خلّت عنه في الموضع الآخر وهي أمور :

(٢) سورة فاطر ١٩ - ٢٢

(١) سورة البقرة ٢٣٢

(٣) يشير إلى قوله تعالى في الآية السابعة عشرة من سورة البقرة : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَ كُهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ . مع قوله في الآية التاسعة عشرة : ﴿ أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ . . . ﴾

(٥) هو الإمام أبو بكر بن العربي صاحب

(٤) الكشاف ١ : ٦١
كتاب القواصم من التواصم .

أحدها : أنه إذا كرر القصة زاد فيها شيئا ، ألا ترى أنه ذكر الحية ^(١) في عصا موسى عليه السلام ، وذكرها في موضع آخر ثعبانا ، ففأدته أن ليس كل حية ثعبانا ^(٢) ، وهذه عادة البلغاء ، أن يكرر أحدهم في آخر خطبته أو قصيدته كلمة ، لصفة زائدة .

الثانية : أن الرجل كان يسمع القصة من القرآن ثم يعود إلى أهله ، ثم يهاجر بعده آخرون يحكون عنه ما نزل بعد صدور الأولين ؛ وكان أكثر من آمن به مهاجريا ؛ فلولا تكرار القصة لوقعت قصة موسى إلى قوم ، وقصة عيسى إلى آخرين ، وكذلك سائر القصص ، فأراد الله سبحانه وتعالى اشتراك الجميع فيها ، فيكون فيه إفادة القوم ، وزيادة [تأكيد وتبصرة] ^(٣) ، لآخرين وهم الحاضرون ، وعبر عن هذا ابن الجوزي وغيره .

الثالثة : تسليته لقلب النبي صلى الله عليه وسلم مما اتفق للأنبيا مثله مع أمهم ^(٤) قال تعالى : ﴿ وَكَلاَّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ ^(٥) .

الرابعة : أن إبراز الكلام الواحد في فنون كثيرة وأساليب مختلفة لا يخفى ما فيه من الفصاحة .

الخامسة : أن الدواعي لا تتوفر على نقلها كتوفرها على نقل الأحكام ، فلهذا كررت القصص دون الأحكام .

-
- (١) في قوله تعالى في سورة طه ٢٠ : ﴿ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴾
 (٢) من قوله تعالى في سورة الأعراف ١٠٧ : ﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴾
 وقوله في سورة الشعراء ٣٢ : ﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴾
 (٣) تكملة من م
 (٤) ت « أمهم » ، صوابه من م .
 (٥) سورة هود ١٢٠

السادسة : أن الله تعالى أنزل هذا القرآن ، وعَجَزَ القوم عن الإتيان بمثل آية لصحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم بين وأوضح الأمر في عجزهم ؛ بأن كرر ذكر القصة في مواضع ، إعلاما بأنهم عاجزون عن الإتيان بمثله بأى نظم جاؤوا ، بأى عبارة عبروا ، قال ابن فارس ^(١) : وهذا هو الصحيح .

السابعة : أنه لما سَخِرَ العرب بالقرآن قال : ﴿ فَاتُّوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ ﴾ ^(٢) ، وقال في موضع آخر : ﴿ فَاتُّوا بِعَشْرِ سُوَرٍ ﴾ ^(٣) ، فلو ذكر قصة آدم مثلا في موضع واحد واكتفى بها لقال العربى بما قال الله تعالى : ﴿ فَاتُّوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ ﴾ ، « إيتونا أتم بسورة من مثله » ، فأنزلها سبحانه في تعداد السور ، دَفْعًا لِحُجَّتِهِمْ من كل وجه .

الثامنة : أن القصة الواحدة من هذه القصص ؛ كقصة موسى مع فرعون - وإن ظُنَّ أنها لا تغاير الأخرى - فقد يُوجد في ألفاظها زيادة ونقصان وتقديم وتأخير ، وتلك حال المعانى الواقعة بحسب تلك الألفاظ ؛ فإن كلَّ واحدة لا بدَّ وأن تخالف نظيرتها من نوع معنى زائد فيه ، لا يوقف عليه إلا منها دون غيرها ؛ فكان الله تعالى فرَّق ذكرَ ما دار بينهما وجعله أجزاء ، ثم قَسَمَ تلك الأجزاء على تاراتٍ ^(٤) التكرار لتوجد متفرقة فيها ؛ ولو جمعت تلك القصص في موضع واحد لأشبهت ما وُجد الأمر عليه من الكتب المتقدمة ؛ من انفراد كل قصة منها بموضع ؛ كما وقع في القرآن بالنسبة ليوسف عليه السلام خاصة ، فاجتمعت في هذه الخاصة ؛ من نظم القرآن عدة معانٍ مجيبة :

منها : أن التكرار ^(٥) فيها مع سائر الألفاظ لم يُوقع في اللفظ هجئة ، ولا أحدثَ مَلَلًا ، فباين بذلك كلامَ المخلوقين .

ومنها : أنه ألبسها زيادة ونقصانا وتقدما وتأخيرا ؛ ليخرُجَ بذلك الكلام أن

(٢) سورة البقرة ٢٣ .

(٤) م : « منارات »

(١) فقه اللغة ١٧٨

(٣) سورة هود ١٣

(٥) م : « منها » .

تكون ألفاظه واحدة بأعيانها ، فيكون شيئاً معاداً ؛ فنزّهه عن ذلك بهذه التغييرات .

ومنها : أن المعاني التي اشتملت عليها القصة الواحدة من هذه القصص صارت متفرقة في تارات التكرير فيجد البليغ - لما فيها من التغيير - ميلا إلى سماعها ، لما جُبلت عليه النفوس من حبّ التنقل في الأشياء المتجددة التي لكل منها حصة من الالتذاذ به مستأنفة .

ومنها : ظهور الأمر العجيب في إخراج صور متباينة في النظم بمعنى واحد ؛ وقد كان المشركون في عصر النبي صلى الله عليه وسلم يعجبون من اتساع الأمر في تكرير هذه القصص والأنباء مع تغاير أنواع النظم ، وبيان وجوه التأليف ، فعرفهم الله سبحانه أن الأمر بما يتعجبون منه مردود إلى قدرة من لا يلحقه نهاية ، ولا يقع على كلامه عدد ؛ لقوله تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ ^(١) وكقوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمْدُهُ ... ﴾ ^(٢) الآية .

وقال القفال ^(٣) في تفسيره : ذكر الله في أفاصيص بنى إسرائيل وجوها من المقاصد : أحدها : الدلالة على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه أخبر عنها من غير تعلم ؛ وذلك لا يمكن إلا بالوحى .

الثاني : تعديد النعم على بنى إسرائيل ، وما منّ الله على أسلافهم من الكرامة والفضل ؛ كالنجاة من آل فرعون ، وفرق البحر لهم ، وما أنزل عليه في التيه من المنّ والسلوى ، وتفجّر الحجر ، وتظليل الغمام .

(٢) سورة لقمان ٢٧

(١) سورة الكهف ١٠٩

(٣) هو محمد بن أحمد بن الحسين الشافى القفال ؛ رئيس الشافعية في عصره . توفي سنة ٥٠٧ .

(ابن خلكان) : ٤٦٤ .

الثالث : إخبار الله نبيه بتقديم كفرهم وخلافهم وشقاوتهم وتعنتهم على الأنبياء ، فكأنه تعالى يقول : إذا كانت هذه معاملتهم مع نبيهم الذى أعزهم الله به ، وأنقذهم من العذاب بسببه ؛ فغير بدع ماعامله به أخلافهم محمدا صلى الله عليه وسلم .

الرابع : تحذير أهل الكتاب الموجودين فى زمن النبي صلى الله عليه وسلم من نزول العذاب بهم ؛ كما نزل بأسلافهم .

وهنا سؤالان :

أحدهما : ما الحكمة فى عدم تكرار قصة يوسف عليه السلام ، وسوقها مساقاً واحداً فى موضع واحد ، دون غيرها من القصص ؟ .

والجواب من وجوه :

الأول : ما فيها من تشبيب النسوة به ، وتضمن الإخبار عن حال امرأة ونسوة افتتنن بأبدع الناس جمالا ، وأرفعهم مثالا ، فناسب عدم تكرارها لما فيها من الإغضاء والستر عن ذلك . وقد صحح الحاكم فى مستدركه حديثا مرفوعا : النهى عن تعليم النساء سورة يوسف .

الثانى : أنها اختصت بمحصول الفرج بعد الشدة ، بخلاف غيرها من القصص ، فإن ما لها إلى الوبال ، كقصة إبليس ، وقوم نوح ، وقوم هود ، وقوم صالح وغيرهم ، فلما اختصت هذه القصة فى سائر القصص : بذلك اتفقت الدواعى على نقلها لخروجها عن سمت القصص .

الثالث : قاله الأستاذ أبو إسحاق الإسفراينى إنما كرر الله قصص الأنبياء ، وساق قصة يوسف مساقاً واحداً ، إشارة إلى عجز العرب ، كأن النبي صلى الله عليه وسلم قال لهم :

إن كان من تلقاء نفسى تصديره على الفصاحة ، فافعلوا فى قصة يوسف ما فعلت فى قصص سائر الأنبياء .

السؤال الثانى : أنه سبحانه وتعالى ذكر قصة قوم نوح ، وهود ، وصالح ، وشعيب ، ولوط ، وموسى ، فى سورة الأعراف وهود والشعراء ، ولم يذكر معهم قصة إبراهيم ، وإنما ذكرها فى سورة الأنبياء ، ومريم ، والعنكبوت ، والمصافات .

والسر فى ذلك أن تلك السور الأول ذكر الله فيها نصر رسله بإهلاك قومهم ، ونجاء الرسل وأتباعهم ، وهذه السور لم يقتصر فيها على ذكر من أهلك من الأمم ؛ بل كان المقصود ذكر الأنبياء وإن لم يذكر قومهم ؛ ولهذا سميت سورة الأنبياء ؛ فذكر فيها إكرامه للأنبياء ؛ وبدأ فيها بقصة إبراهيم ، إذ كان المقصود ذكر كرامته الأنبياء قبل محمد ، وإبراهيم أكرمهم على الله ، وهو خير البرية ، وهو أب أكثرهم ، وليس هو أب نوح ووط ؛ لكن لوط من أتباعه ، وأيوب من ذريته ؛ بدليل قوله تعالى فى سورة الأنعام : ﴿ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ ﴾ ^(١) .

وأما سورة العنكبوت ؛ فإنه سبحانه وتعالى ذكر فيها امتحانه للمؤمنين ، ونصره لهم ، وحاجتهم إلى الجهاد ؛ وذكر فيها حسن العاقبة لمن صبر ، وعاقبة من كذب الرسل ؛ فذكر قصة إبراهيم ؛ لأنها من النمط الأول .

وكذلك فى سورة الصافات قال فيها : ﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ . وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ . فَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذِرِينَ ﴾ ^(٢) ؛ وهذا يقتضى أنها عاقبة رديئة ؛ إما بكونهم غلبوا وذلّوا ؛ وإما بكونهم أهلكوا ؛ ولهذا ذكر قصة إلياس دون غيرها ولم يذكر إهلاك قومها ، بل قال : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْهَبُوا لَمْخَضَرُونَ ﴾ ^(٣) . وقد

(٢) سورة الصافات ٧١، ٧٣

(١) سورة الأنعام ٨٤

(٣) سورة الصافات ١٢٧

رُوي أن الله رفع إلياس ؛ وهذا يقتضى عذابهم فى الآخرة ؛ فإن إلياس لم يقم بينهم ، وإلياس المعروف بعد موسى من بنى إسرائيل ، وبعد موسى لم يهلك المكذبين بعذاب الاستئصال ؛ وبعد نوح لم يهلك جميع النوع ، وقد بعث الله فى كل أمة نذيراً ، والله سبحانه لم يذكر عن قوم إبراهيم أنهم أهلكوا ، كما ذكر ذلك عن غيرهم ؛ بل ذكر أنهم ألقوه فى النار ، فجعلها برداً وسلاماً ، وفى هذا ظهور برهانه وآياته ؛ حيث أذلّهم ونصره ؛ ﴿ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴾ ^(١) وهذا من جنس المجاهد [الذى يعرض عدوه ، والقصاص الأول من جنس المجاهد الذى] ^(٢) قتل عدوه ، وإبراهيم بعد هذا لم يقم بينهم بل هاجر وتركهم ؛ وأولئك الرسل لم يزالوا مقيمين بين أظهرهم حتى هلكوا ، ولم يوجد فى حق إبراهيم سبب الهلاك ؛ وهو إقامته فيهم ، وانتظار العذاب النازل ؛ وهكذا محمد صلى الله عليه وسلم مع قومه ، لم يقم فيهم ، بل خرج عنهم حتى أظهره الله عليهم بعد ذلك ؛ ومحمد وإبراهيم أفضل الرسل ؛ فإنهم إذا علموا حصل المقصود ، وقد يتوب منهم من تاب ، كما جرى لقوم يونس ؛ فهذا - والله أعلم - هو السرّ فى أنه سبحانه لم يذكر قصة إبراهيم مع هؤلاء ؛ لأنها ليست من جنس واقعته .

فإن قيل : فما وجه الخصوصية بمحمد وإبراهيم بذلك ؟

فالجواب : أمّا حالة إبراهيم فكانت إلى الرحمة أميل ؛ فلم يسع فى هلاك قومه لا بالدعاء ولا بالمقام ودوام إقامة الحجة عليهم ؛ وقد قال الله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ . وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ ^(٣) ، وكان كل قوم يطلبون هلاك نبيهم فعوقبوا ؛ وقوم إبراهيم وإن أوصلوه إلى العذاب ؛ لكن جعله الله عليه برداً وسلاماً ،

(٢) تكملة من ت .

(١) سورة الصافات ٩٨

(٣) سورة إبراهيم ١٣، ١٤

ولم يفعلوا بعد ذلك ما يستحقون به العذاب ؛ إذ الدنيا ليست دار الجزاء العام ؛ وإنما فيها من الجزاء ما تحصل به الحكمة والمصلحة ؛ كما في العقوبات الشرعية ، فمن أرادوا عداوة [أحد] من أتباع الأنبياء ليهلكوه فعصمه الله ، وجعل صورة الهلاك نعمة في حقه ؛ ولم يهلك أعداءه بل أخزاهم ونصره ؛ فهو أشبه بإبراهيم عليه السلام ؛ إذ عصمه الله من كيدهم ، وأظهره حتى صارت الحرب بينهم وبينه سجلاً ، ثم كانت له العاقبة فهو أشبه بحال محمد صلى الله عليه وسلم ، فإن محمداً سيد الجميع ، وهو خليل الله ، كما أن إبراهيم عليه السلام خليله ، والخليلان هما أفضل الجميع ، وفي طريقهما من الرأفة والرحمة ما ليس في طريق غيرها ، ولم يذكر الله عن قوم إبراهيم ذنباً غير الشرك ، وكذلك عن قوم نوح ، وأما عاد فذكر عنهم التجبر ، وعمارة الدنيا ، وقوم صالح ذكر عنهم الاشتغال بالدنيا عن الأنبياء ، وأهل مدين الظلم في الأموال مع الشرك ، وقوم لوط استحلال الفاحشة ، ولم يذكر أنهم أقروا بالتوحيد ، بخلاف سائر الأمم ، وهذا يدل على أنهم لم يكونوا مشركين ؛ وإنما كان دينهم استحلال الفاحشة وتوابع ذلك ، وكانت عقوبتهم أشد .

وهذه الأمور تدل على حكمة الرب وعقوبته لكل قوم بما يناسبهم ؛ ولما لم يكن في قوم نوح خيرٌ يرجى غرق الجميع . والله المستعان .

فتأمل هذا الفصل وعظم فوائده وتدبر حكمته ، فإنه سر عظيم من أسرار القرآن العظيم ، كقوله تعالى : ﴿ أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ﴾ ^(١) ، فأعاد ذكر « الأنهار » مع كل صنف ؛ وكان يكفي أن يقال فيها : « أنهار من ماء ، ومن لبن ، ومن خمر ، ومن

عسل « ؛ لكن لما كانت الأنهار من الماء حقيقة ؛ وفيما عدا^(١) الماء مجازاً للتشبيه ؛ فلو اقتصر على ذكرها مع الماء وعطف الباقي عليه لجمع بين الحقيقة والمجاز .
فإن قلت : فهلاً أفرد ذكر الماء وجمع الباقي صيغة واحدة ؟ قيل : لو فعل ذلك لجمع بين محامل من المجاز مختلفة في صيغة واحدة ، وهو قريب في المنع من الذي قبله .

فائدة

[في صنيعهم عند استئصال تكرار اللفظ]

قد يستثقلون تكرار اللفظ فيعدلون لمعناه ؛ كقوله تعالى : ﴿ فَمَهْلِ السَّكَافِرِينَ أَهْمِلَهُمْ رُوَيْدًا ﴾^(٢) ؛ فإنه لما أعيد اللفظ غير « فَعَلَ » إلى « أَفْعَلَ » فلما ثلث ترك اللفظ أصلاً ، فقال : « رويدا » .

وقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكَرًا ﴾^(٣) ، ثم قال : ﴿ إِنَّمَا ﴾^(٤) .

قال الكسائي : معناه شيئاً منكراً كثيراً الدهاء من جهة الإنكار ؛ من قولهم : أَمِرَ القوم إذا كثروا .

قال الفارسي : وأنا استحسن قوله هذا .

وقوله تعالى : ﴿ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ ﴾^(٥) ، قال الفارسي : ﴿ وَرَاءَكُمْ ﴾ في موضع فعل الأمر ، أى تأخروا ؛ والمعنى ارجعوا تأخروا ؛ فهو تأكيد وليست ظرفاً ؛ لأن الظروف لا يؤكد بها .
وإذا تكرر اللفظ بمرادفه جازت الإضافة ؛ كقوله تعالى : ﴿ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ

(٢) سورة الطارق ١٧

(٤) سورة الحديد ١٣

(٣) — برهان — ثالث

(١) ت : « وما »

(٣) سورة الكهف ٧٥، ٧٤

أَلِيمٌ^(١) ، والقصد المبالغة ، أى عذاب مضاعف ، وبالعطف كقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾^(٢) ، وقوله : ﴿ فَأَعْفُوا وَاصْفَحُوا ﴾^(٣) .

القسم الخامس عشر

الزيادة فى بنية الكلمة

واعلم أنّ اللفظ إذا كان على وزن من الأوزان ثم نقل إلى وزن آخر أعلى منه ؛ فلا بد أن يتضمّن من المعنى أكثر مما تضمنه أولاً ؛ لأن الألفاظ أدلة على المعانى ؛ فإذا زيدت فى الألفاظ وجب زيادة المعانى ضرورة .

ومنه قوله تعالى : ﴿ فَأَخَذْنَا مِنْهُمُ اخْذًا عَزِيزًا مُّقْتَدِرًا ﴾^(٤) ؛ فهو أبلغ من « قادر » لدلالته على أنه قادر متمكّن القدرة ؛ لا يُردّ شيء عن اقتضاء قدرته ؛ ويسمى هذا قوة اللفظ لقوة المعنى .

وكقوله تعالى : ﴿ وَاصْطَبِرْ ﴾ فإنه أبلغ من الأمر بالصبر من « اصبر » .

وقوله : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾^(٥) لأنه لما كانت السيئة ثقيلة وفيها تكلف زيد فى لفظ فعلها .

وقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا ﴾^(٦) ؛ فإنه أبلغ من « يتصارخون » .

وقوله تعالى : ﴿ فَكُفُّوا فِيهَا ﴾^(٧) ولم يقل « وكبوا » قال الزمخشري^(٨) : والكبكة

تكرير الكب ، جعل التكرير فى اللفظ دليلاً على التكرير فى المعنى ، كأنه إذا ألقى

(٢) سورة يوسف ٨٦

(٤) سورة القمر ٤٢

(٦) سورة فاطر ٣٧

(٨) الكشف ٣ : ٢٥٣

(١) سورة سبأ ٥

(٣) سورة البقرة ١٠٩

(٥) سورة البقرة ٢٨٦

(٧) سورة الشعراء ٩٤

في جهنم [ينكب] ^(١) كبة مرة بعد أخرى حتى يستقر في قعرها ، اللهم أجربنا منها خير مستجار !

وقريب من هذا قول الخليل في قول العرب : صرَّ الجندب ، وصرصر البازي ، كأنهم توهوا في صوت الجندب استطالة ، فقالوا : صرَّ صريرا ، فمدوا وتوهوا في صوت البازي تقطيعاً ، فقالوا : « صرصر » .

ومنه الزيادة بالتشديد أيضا ؛ فإنَّ « ستَّاراً » و « غفَّاراً » أبلغ من « سائر » و « غافر » ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً ﴾ ^(٢) ؛ ومن هذا رجح بعضهم معنى « الرحمن » على معنى « الرحيم » لما فيه من زيادة البناء ، وهو الألف والنون ، وقد سبق في السادس .

ويقرب منه التضعيف - ويقال التكثير - وهو أن يؤتى بالصيغة دالة على وقوع الفعل مرة بعد مرة . وشرطه أن يكون في الأفعال المتعدية قبل التضعيف ؛ وإنما جعله متعدياً تضعيفه ؛ ولهذا ردُّ على الزمخشري في قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ ^(٣) ؛ حيث جعل ﴿ نَزَّلْنَا ﴾ ؛ هنا للتضعيف .

وقد جاء التضعيف دالاً على الكثرة في اللازم قليلاً ، نحو مَوَّتَ المالُ .

وجاء حيث لا يمكن فيه التكثير ، كقوله تعالى : ﴿ لَوْلَا أَنْزَلْ عَلَيْهِ آيَةً مِنْ رَبِّهِ ﴾ ^(٤) ﴿ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴾ ^(٥) .

فإن قلت : ﴿ فَأَمْتَعُهُ قَلِيلًا ﴾ ^(٦) مشكل على هذه القاعدة ، لأنه إذا كان « فَعَلَ » للتكثير ، فكيف جاء « قليلاً » نعتاً لمصدر « مَتَعَ » وهذا وصف كثير بقليل ، وإنه ممنوع .

(١) تكملة من الكشاف

(٢) سورة البقرة ٢٣

(٣) سورة الإسراء ٩٥

(٤) سورة نوح ١٠

(٥) سورة الرعد ٧

(٦) سورة البقرة ١٢٦

قلت : وصف بالقلّة من حيث صيرورته إلى نفاذ ونقص وفناء .

واعلم أن زيادة المعنى في هذا القسم مقيد بنقل صيغة الرباعى غير موضوعة لمعنى ؛ فإنه لا يراد به ما أريد من نقل الثلاثى إلى مثل تلك الصيغة ؛ فقوله تعالى : ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ ^(١) ؛ لا يدل على كثرة صدور الكلام منه ؛ لأنه غير منقول عن ثلاثى . وكذا قوله : ﴿ وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴾ ^(٢) يدل على كثرة القراءة على هيئة التانى والتدبر .

وكذا قوله تعالى : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ ﴾ ^(٣) ، ليس النفى المبالغة ؛ بل نفي أصل الفعل .

القسم السادس عشر

التفسير

وتفعله العرب في مواضع التعظيم ، كقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ ^(١) ، قال البيهقي في شرح الأسماء الحسنى : قرأت في تفسير الجنيدى ^(٥) أن قوله : ﴿ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ ﴾ ^(٢) ، تفسير للقيوم . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا . إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا . وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ ^(٦) .

وقوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ ^(٧) فإن هذا تفسير للوعد .

(٢) سورة الزمل ٣
(٤) سورة البقرة ٢٥٥
(٦) سورة المارج ١٩، ٢١

(١) سورة النساء ١٦٤
(٣) سورة يس ٦٩
(٥)
(٧) سورة المائدة ٩٥ .

وقوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ ﴾ ^(١)
تفسير للوعد وتبيين له ، لامفعول ثان ؛ فلم يتعد الفعل منها إلا إلى واحد .

وقوله تعالى : ﴿ إِنْ مَثَلٌ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ﴾ ^(٢) و « خلقه »
تفسير للمثل .

وقوله تعالى : ﴿ يَسْؤُمُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يَذَّبَحُونَ ﴾ ^(٣) ، و « يذبحون » وما بعده
تفسير للسؤم ، وهو في القرآن كثير .

قال أبو الفتح بن جني : ومتى كانت الجملة تفسيراً لم يحسن الوقف على ما قبلها دونها ؛
لأن تفسير الشيء لاحق به ، ومتم له ، وجارٍ مجرى بعض أجزائه ؛ كالصلة من الموصول ،
والصفة من الموصوف .

وقد يحىء لبيان العلة والسبب ، كقوله تعالى : ﴿ فَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنْآ نَعْلَمُ
مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ ^(٤) ؛ وليس هذا من قولهم ، وإلا لما حزن الرسول ؛ وإنما يحىء به
ليان السبب في أنه لا يحزنه قولهم .

وكذلك قوله : ﴿ وَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ ^(٥) .

ولو جاءت الآيتان على حد ما جاء قوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ ^(٦) ، لكانت « أن » مفتوحة ، لكنها جاءت
على حد قوله . . . ^(٧)

(٢) سورة آل عمران ٥٩

(٤) سورة يس ٧٦

(٦) سورة المائدة ٩

(١) سورة النور ٥٥

(٣) سورة البقرة ٤٩

(٥) سورة يونس ٦٥

(٧) كذا ورد الكلام ناقصاً في الأصلين ت ، م

قُدْرَة

قيل : الجملة التفسيرية لا موضع لها من الإعراب . وقيل : يكون لها موضع إذا كان
المفسر موضع ؛ ويقرب منها ذكره تفصيلا ، كما سبق في قوله : ﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ
لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِمَشْرِ قَتْمٍ مِّمَّاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ ^(١) .
ومثل : ﴿ فَصَيَّامٌ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ ﴾ ^(٢) .

القسم السابع عشر

خروج اللفظ مخرج الغالب

كقوله تعالى : ﴿ وَرَبَّائِكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ نِّسَائِكُمْ ﴾ ^(٣) ، فإن الحِجْر
ليس بقيد عند العلماء ؛ لكن فائدة التقيد تأكيد الحكم في هذه الصورة مع ثبوته
عند عدسها ؛ ولهذا قال بعده : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ ^(٣)
ولم يقل : « ﴿ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ ﴾ ولم يكن في حجوركم » فدل على أن الحِجْر
خرج مخرج العادة .

واعترض بأن الحرمة إذا كانت بالجموع فالحلّ يثبت بانتفاء الجموع ، والجموع ينتفى
بانتفاء جزئه ، كما ينتفى بانتفاء كل فرد من الجموع .

وأجيب بأنه إذا نفى أحد شطري العلة كان جزء العلة ثابتا ؛ فيعمل عملها .
فإن قيل : لما قال : ﴿ مِّنْ نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ ﴾ ^(٣) ، قال في الآية بعدها :

(٢) سورة البقرة ٩٦

(١) سورة الأعراف ١٤٢

(٣) سورة النساء ٢٣ .

﴿وَأَحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ ^(١) عَلِمَ من مجموع ذلك أن الريبة لا تحرم إذا لم يدخل بآتمها ؛ فما فائدة قوله تعالى : ﴿فَإِنْ لَمْ تَسْكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ ^(٢) ؟ قيل : فائدته ألا يتوهم أن قيد الدخول خرج مخرج الغالب لا مخرج الشرط ؛ كما في الحجر المفهوم إذا خرج مخرج الغالب ، فلا تقييد فيه عند الجمهور ، خلافا لإمام الحرمين والشيخ عز الدين بن عبد السلام والعراق ، حيث قالوا : إنه ينبغي أن يكون حجة بلا خلاف إذا لم تغلب ؛ لأن الصفة إذا كانت غالبية دلّت العادة عليها ؛ فاستغنى المتكلم بالعادة عن ذكرها ، فلما ذكرها مع استغنائه عنها دلّت ذلك على أنه لم يُرد الإخبار بوقوعها للحقيقة ؛ بل ليترب عليها نفي الحكم من المسكوت ؛ أما إذا لم تكن غالبية أمكن أن يقال : إنما ذكرها ليعرف السامع أن هذه الصفة تعرض لهذه الحقيقة .

ومنه قوله تعالى : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ ^(٣) . وقوله تعالى : ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ﴾ ^(٤) ، وجوزوا أن الرهن لا يختص بالسفر ، لكن ذكر لأن فقد الكاتب يكون فيه غالبا ، فلما كان السفر مظنة إعواز الكاتب والشاهد الموثوق بهما ، أمر على سبيل الإرشاد بحفظ مال المسافرين بأخذ الوثيقة الأخرى ؛ وهي الرهن .

وقوله تعالى : ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ﴾ ^(٥) ، والقصر جائز مع أمن السفر ؛ لأن ذلك خرج مخرج الغالب لا الشرط ، وغالب أسفار رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه لم تخل من خوف العدو .

ومنها من جعل الخوف هنا شرطا إن حمل القصر على ترك الركوع والسجود والنزول

(٢) سورة النساء ٢٣
(٤) سورة البقرة ٢٨٣

(١) سورة النساء ٢٤
(٣) سورة الإسراء ١١
(٥) سورة النساء ١٠١

عن الدابة والاستقبال ونحوه ؛ لا في عدد الركعات ؛ لكن ذلك شدة خوف لا خوف ،
وسبب النزول لا يساعده .

وكقوله تعالى : ﴿ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ ^(١) .

القسم الثامن عشر

القسم

وهو عند النحويين جملة يؤكد بها الخبر ، حتى إنهم جعلوا قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ
يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ ^(٢) ، قسماً وإن كان فيه إخبار ؛ إلا أنه لما جاء
توكيداً للخبر سُمي قسماً .

ولا يكون إلا باسم معظم ، كقوله : ﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾ ^(٣) .

وقوله : ﴿ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾ ^(٤) .

وقوله : ﴿ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَتَّبِعَنِّي ﴾ ^(٥) .

وقوله : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ﴾ ^(٦) .

وقوله : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسَاءً لَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ^(٧) .

وقوله : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ^(٨) .

وقوله : ﴿ فَلَا أَقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ﴾ ^(٩) .

فهذه سبعة مواضع أقسم الله فيها بنفسه والباقي كله أقسم بمخلوقاته .

(٢) سورة المنافقين ١

(٤) سورة يونس ٥٣

(٦) سورة مريم ٦٨

(٨) سورة النساء ٦٥

(١) سورة النور ٣٣

(٣) سورة التاريات ٢٣

(٥) سورة التناين ٧

(٧) سورة الحجر ٩٢

(٩) سورة المعارج ٤٠ .

كقوله : ﴿وَالْتَيْنِ وَالزَّيْتُونِ﴾ ^(١) .

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ . وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ ^(٢) .

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْحَنَسِ . الْجَوَارِي الْكُنَّسِ﴾ ^(٣) .

وإنما يحسن في مقام الإنكار .

فإن قيل : ما معنى القسم منه سبحانه ؟ فإنه إن كان لأجل المؤمن ، فالمؤمن بصدق مجرد الإخبار ؛ وإن كان لأجل الكافر فلا يفيد .

فالجواب : قال الأستاذ أبو القاسم القشيري : إن الله ذكر القسم لكمال الحجة وتأكيدها ، وذلك أن الحكم يفصل باثنين : إما بالشهادة ، وإما بالقسم ، فذكر تعالى في كتابه النوعين حتى لا يبقى لهم حجة .

وقوله : ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ^(٤) .

وعن بعض الأعراب أنه لما سمع قوله تعالى : ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ . قَوْرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ ^(٥) صاح وقال : من الذي أغضب الجليل حتى أُلْجَأَ إلى اليمين ؟ قالها ثلاثا ، ثم مات .

فإن قيل : كيف أقسم بمخلوقاته وقد ورد النهي علينا ألا نقسم بمخلوق ؟

قيل : فيه ثلاثة أجوبة :

أحدها : أنه حذف مضاف ، أي « ورب الفجر » و « رب التين » ، وكذلك الباقي .

والثاني : أن العرب كانت تعظم هذه الأشياء وتُقَسِّمُ بها ؛ فنزل القرآن على ما يعرفون .

(٢) سورة الواقعة ٩٥

(٤) سورة الحجر ٢٢

(١) سورة التين ٩

(٣) سورة التكاوير ١٦، ١٥

(٥) سورة الذاريات ٢٢ ، ٢٣ .

والثالث : أن الأقسام إنما تجب بأن يُقسم الرجلُ بما يعظمه ، أو بمن يحله ؛ وهو فوقه والله تعالى ليس شيء فوقه ؛ فأقسم تارةً بنفسه ، وتارةً بمصنوعاته ، لأنها تدلّ على باريِّ وصانع ؛ واستحسنه ابن خالويه .

وقسمه بالنبي صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ لَعَمْرُكَ ﴾ ليعرف الناس عظمته عند الله ، ومكانته لديه ، قال الأستاذ أبو القاسم القشيري في " كنز اليواقيت " : والقسم بالشيء لا يخرج عن وجهين : إما لفضيلة أو لمنفعة ؛ فالفضيلة كقوله تعالى : ﴿ وَطُورِ سِينِينَ وَهَذَا أَلْبَدُ الْأَمِينِ ﴾ ^(١) ، والمنفعة نحو : ﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴾ ^(٢) .

وأقسم سبحانه بثلاثة أشياء :

أحدها : بذاته ، كقوله تعالى : ﴿ فَوَرَبُّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ ^(٣) ﴿ فَوَرَبُّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ^(٤) .

والثاني : بفعله ، نحو : ﴿ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا . وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا . وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ ^(٥) .

والثالث : مفعوله ، نحو : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ﴾ ^(٦) ، ﴿ وَالطُّورِ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ﴾ ^(٧) .

وهو ينقسم باعتبار آخر إلى مظهر ومضمَر :

فالظاهر كقوله تعالى : ﴿ فَوَرَبُّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ ^(٧) ونحوه .

(٢) سورة الذاريات ٢٣

(٤) سورة الشمس ٧، ٥

(٦) سورة الطور ١

(١) سورة التين ٣، ٢

(٣) سورة الحجر ٩٢

(٥) سورة النجم ١

(٧) سورة الذاريات ٢٣

والمضمر على قسمين : قسم دلت عليه لام القسم ، كقوله : ﴿ تَسْتَبِشُونَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ﴾ ^(١) وقسم دل عليه المعنى ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ ^(٢) تقديره « والله » .

وقد أقسم تعالى بطوائف من الملائكة في أول سورة الصافات ^(٣) ، والمرسلات ^(٤) ، والنازعات ^(٥) .

فوائد

الأولى : أكثر الأقسام المحذوفة الفعل في القرآن : لا تكون إلا بالواو ، فإذا ذكرت الباء أتى بالفعل ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ ^(٦) ﴿ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ ﴾ ^(٧) . ولا تجيء الباء والفعل محذوف إلا قليلا ؛ وعليه حمل بعضهم قوله : ﴿ يَا بُنَيَّ

(٢) سورة مريم ٧١

(١) سورة آل عمران ١٨٦

(٣) وهو قوله تعالى : ﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا . فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا . فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴾ قال الزمخشري في الكشاف ٤ : ٢٥٠ : أقسم الله سبحانه بطوائف الملائكة أو بنفوسهم الصافات أقدامها في الصلاة .

(٤) وهو قوله تعالى : ﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ غُرَفًا . فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا . وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا . فَالْفَارِقَاتِ فَرَقًا . فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا . عُذْرًا أَوْ نَذْرًا إِنَّمَا تُوْعَدُونَ لَوَاقِعٍ ﴾ قال الزمخشري في الكشاف ٤ : ٥٤١ : « أقسم سبحانه بطوائف من الملائكة أرسلهن بأوامره فعصفن في مضيئ كما تصف الرياح ؛ تخففا في امتثال أمره » .

(٥) وهو قوله تعالى : ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غُرَفًا . وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا . وَالسَّائِحَاتِ سَبْحًا . فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا . فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا . يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴾ قال الزمخشري في الكشاف ٤ : ٥٥٣ : « أقسم سبحانه بطوائف الملائكة التي تنزع الأرواح من الأجساد ؛ وبالطوائف التي تنشطها ، أي تخرجها . . . وبالطوائف التي تسبح في مضيئها ، أي تسرع فتسبق إلى ما أمروا به ، فتدبر أمرا من أمور العباد بما يصلحهم في دينهم أو دنياهم » .

(٧) سورة التوبة ٦٢ .

(٦) سورة النحل ٣٨

لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ» ^(١) وقال : الباء باء القسم ؛ وليست متعلقة بـ « تُشْرِكْ » ، وكأنه يقول : « يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ » ثم ابتداء فقال : ﴿ بِاللَّهِ ﴾ لا تُشْرِكْ ؛ وحذف « لا تُشْرِكْ » لدلالة الكلام عليه . وكذلك قوله : ﴿ أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ ﴾ ^(٢) ؛ قيل : إن قوله : « بما عهد » قسم ؛ والأولى أن يقال : إنه سؤال لا قسم . وقوله : ﴿ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ ﴾ ^(٣) فتقف على ﴿ لِي ﴾ وتبتدىء ﴿ بِحَقِّ ﴾ فتجعله قسماً .

هذا مع قول النحويين : إن الواو فرع الباء ؛ لكنه قد يكثر الفرع في الاستعمال ويقل الأصل .

الثانية : قد علمت أن القسم إنما جيء به لتوكيد المقسم عليه ؛ فتارة يزيدون فيه للمبالغة في التوكيد ، وتارة يحذفون منه للاختصار والعلم بالحذف .

فما زادوه لفظ « إى » بمعنى « نعم » ، كقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِي وَرَبِّي ﴾ ^(٤) . ومما يحذفونه فعل القسم وحرف الجر ، ويكون الجواب مذكورا ، كقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ ﴾ ^(٥) أى « والله » . وقوله : ﴿ لَا قُطْعَنَ أَيْدِيَكُمْ ﴾ ^(٦) ، ﴿ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴾ ^(٧) ، ﴿ لَيَسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ ^(٨) .

وقد يحذفون الجواب ويعقون القسم للعلم به ، كقوله تعالى : ﴿ صَّ وَالْقُرْآنِ

(٢) سورة الزخرف ٤٩

(٤) سورة يونس ٥٣

(٦) سورة الشعراء ٤٩

(٨) سورة يوسف ٣٢

(١) سورة لقمان ١٣

(٣) سورة المائدة ١١٦

(٥) سورة الأحزاب ٢١

(٧) سورة الماعق ١٥

ذِي الذِّكْرِ^(١) على أحد الأقوال ؛ أن الجواب حُذِفَ لطول الكلام ؛ وتقديره « لأعذبهم على كفرهم » .

وقيل : الجواب : إن ذلك لحق .

ومما حذف فيه القسم به قوله تعالى : ﴿ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ﴾^(٢) ، أى نخلف إنك لرسول الله ؛ لأن الشهادة بمعنى اليمين ، بدليل قوله : ﴿ أَيْمَانَهُمْ جُتَّةً ﴾^(٣) .

وأما قوله تعالى : ﴿ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴾^(٤) ، فالأول قسم بمنزلة ، « والحق » وجوابه « لأملأن » ، وقوله : ﴿ وَالْحَقُّ أَقُولُ ﴾^(٥) تأكيد للقسم .

وأما قوله : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴾^(٦) ، ثم قال : ﴿ قَتَلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴾^(٧) قالوا : وهو جواب القسم ، وأصله « لقد قتل » ثم حذف اللام وقد .

الثالثة : قال الفارسي فى الحجّة : الألفاظ الجارية مجرى القسم ضربان :

أحدهما : ما تكون جارية كغيرها من الأخبار التى ليست بقسم ، فلا تجاب بجوابه ، كقوله تعالى : ﴿ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾^(٧) ، ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ ﴾^(٨) ، ﴿ فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ﴾^(٩) ؛ فهذا ونحوه يجوز أن يكون قسمًا وأن يكون حالًا لخلوه من الجواب .

والثانى : ما يتعلق بجواب القسم ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا

(٢) سورة النافقين ١

(٤) سورة س ٨٤

(٦) سورة البروج ٤١

(٨) سورة البقرة ٦٣

(١) سورة س ٢٤١

(٣) سورة المنافقين ٢٠

(٥) سورة س ٨٤

(٧) سورة الحديد ٨

(٩) سورة المجادلة ١٨

الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ^(١) ، ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾^(٢) .

الرابعة : القسم والشرط ، يدخل كل منهما على الآخر ؛ فإن تقدم القسم ودخل الشرط بينه وبين الجواب كان الجواب للقسم ؛ وأغنى عن جواب الشرط ؛ وإن عكس فبالعكس ؛ وأيهما تصدر كان الاعتماد عليه والجواب له .

ومن تقدم القسم قوله تعالى : ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُحَنَّكَ﴾^(٣) ، تقديره « والله لئن لم تنته » ، فاللام الداخلة على الشرط ليست بلام القسم ، ولكنها زائدة ، وتسمى الموطئة للقسم ويعنون بذلك أنها مؤذنة بأن جواب القسم منتظر ؛ أى الشرط لا يصلح أن يكون جواباً ؛ لأن الجواب لا يكون إلا خبراً .

وليس دخولها على الشرط بواجب ، بدليل حذفها في قوله تعالى : ﴿وَإِنْ لَمْ يَنْتَهِوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٤) .

والذى يدل على الجواب للقسم لا للشرط دخول اللام فيه ؛ وأنه ليس بمجزوم ، بدليل قوله تعالى : ﴿لَئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾^(٥) ولو كان جواب الشرط لكان مجزوماً .

وأما قوله تعالى : ﴿وَلَئِنْ مَتَّعْتُمْ أَوْ قَتَلْتُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَحْشَرُونَ﴾^(٦) ؛ فاللام في «ولئن» هي الموطئة للقسم ، واللام في ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ هي لام القسم ؛ ولم تدخل نون التوكيد على الفعل للفصل بينه وبين اللام بالجار والمجرور . والأصل « لئن متَّعْتُمْ أَوْ قَتَلْتُمْ تَحْشَرُونَ إِلَى اللَّهِ » فلما قدم معمول الفعل عليه حذف منه .

(٢) سورة النحل ٣٨

(٤) سورة المائدة ٢٣

(٦) سورة آل عمران ١٥٨

(١) سورة آل عمران ١٨٧

(٣) سورة مريم ٤٦

(٥) سورة الإسراء ٨٨

القسم التاسع عشر

إبراز الكلام في صورة المستحيل على طريق المبالغة ليدل على بقية جملة

كقول العرب : لا أكلك حتى يبيض القار ، وحتى يشيب الغراب ، وكقوله تعالى : ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلْبِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ ^(١) ، يعنى والجل لا يلج في السم ؛ فهؤلاء لا يدخلون ، فهو في المعنى متعلق بالحال ، فالمعنى أنهم لا يدخلون الجنة أصلاً ، وليس للغاية هنا مفهوم ، ووجه التأكيده كدعوى الشيء بيينة ، لأنه جعل ولوج الجل في السم غاية لنفي دخولهم الجنة ، وتلك غاية لا توجد ، فلا يزال دخولهم الجنة منتفياً .

وغالى بعض الشعراء في وصف جسمه بالنحول ؛ فجاء بما يزيد على الآية ، فقال : وَلَوْ أَنَّ مَا بِي مِنْ جَوْىِ وَصْبَابَةٍ عَلَى جَمَلٍ لَمْ يَبْقَ فِي النَّارِ خَالِدٌ وهذا على طريقة الشعراء في اعتبار المبالغة ؛ وإلا فعارضات القرآن لا تجوز ، كما سبق التنبيه عليه .

ومنه قوله تعالى : ﴿وَلَا تَمْكِكُوا مَا نَكَحَّ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ ^(٢) ، فإن المعنى : إن كان ما سلف في الزمن السالف يمكن رجوعه فخله ثابت ، لكن لا يمكن رجوعه أبداً ، ولا يثبت خلّه أبداً ، وهو أبلغ في النهى المجرد .
ومنه قوله تعالى : ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ ^(٣) ، أى ولكن ليس له ولد ؛ فلا أعبد سواه .

(١) سورة الأعراف ٤٠

(٢) سورة النساء ٢٢

(٣) سورة الزخرف ٨١

وقوله تعالى : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا ﴾ ^(١) ، أى إن كان تسليم بعضهم على بعض ، أو تسليم الملائكة عليهم لغوا ، فلا يسمعون لغوا إلا ذلك ؛ فهو من باب قوله : وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُبُوحَهُمْ بِهِمْ قُلُوبٌ مِنْ قِرَاعِ الْكِتَابِ ^(٢) ومنه قوله تعالى : ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى ﴾ ^(٣) ، فإن الناس استشكلوا وجه الاستثناء ، مع أنهم لا يذوقون فيها الموت مطلقاً . ومقتضى استثنائها من النفي أنهم يذوقونها فى الجنة وليس كذلك .

ووجهه الرخشى ^(٤) بأنه من التوكيد فى الدلالة ، والموتة الأولى لا يذوقونها أصلاً ؛ إذ يستحيل عود ما وقع ؛ فلا يذوقون فيها الموت أصلاً ، أى إن كانوا يذوقون فلا يكون ذلك إلا الموتة الأولى ، وإن كان إيقاع الموتة الأولى فى الجنة مستحيلاً ، فعرض بالاستثناء إلى استحالة الموت فيها .

هذا إن جعلنا الاستثناء متصلاً ؛ فإن كان منقطعاً ، فالعنى : « لكن الموتة الأولى قد ذاقوها » .

ويحتمل على الاتصال أن يكون المعنى فيها ، أى فى مقدماتها ، لأن الذى يرى مقامه فى الجنة عند موته ينزل منزلة من هو فيها ، بتأويل الذوق على معنى المستحيل . فهذه ثلاثه أوجه .

القسم الثانى المسمى الاستثناء والاستدراك

ووجه التأكيده فيه أنه تى ذكره مرتين ، مرة فى الجملة ومرة فى التفصيل .

(٢) البيت للناطقة الديبانية ، ديوانه ٦ .

(٤) انظر الكشف ١ : ٢٢٣ .

(١) سورة مريم ٦٢

(٣) سورة الدخان ٥٦

فإذا قلت : قام القوم إلا زيدا ، فكأنه كان في جملتهم ، ثم خرج منهم ؛ كقوله تعالى : ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ . إِلَّا إِبْلِيسَ ۖ ﴾ ^(١) ؛ فإن فيه معنى زائدا على الاستثناء ، هو تعظيم أمر الكبيرة التي أتى بها إبليس ، من كونه خرق إجماع الملائكة ، وفارق جميع الملائكة الأعلى بخروجه مما دخلوا فيه من السجود لآدم ؛ وهو بمثابة قولك : أمر الملك بكذا فأطاع أمره جميع الناس ؛ من أمير ووزير إلا فلانا ؛ فإن الإخبار عن معصية الملك بهذه الصيغة ، أبلغ من قولك : أمر الملك فعصاه فلان .

وفي ضمن ذلك وُصِفَ الله سبحانه بالعدل فيما ضربه على إبليس من خزي الدنيا ، وختم عليه من عذاب الآخرة .

ومنه قوله تعالى : ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ۖ ﴾ ^(٢) فإن في الإخبار عن المدة بهذه الصيغة تهويلاً على السامع ؛ ليشهد عذراً نوح عليه السلام في الدعاء على قومه . وحكمة الإخبار عن المدة بهذه الصيغة تعظيم المدة ؛ ليكون أول ما يباشر السمع ذكر « الألف » واختصار اللفظ ؛ فإن لفظ القرآن أخصر من « تسعمائة وخمسين عاما » ؛ ولأن لفظ القرآن يفيد حصر العدد المذكور ولا يحتمل الزيادة عليه ولا النقص .

ومنه قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ . خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ۖ ﴾ ^(٣) فإنه سبحانه لما علم أن وصف الشقاء يعم المؤمن العاصي والكافر ، استثنى من حكم بخلوده في النار بلفظ مطمع ؛ حيث أثبت الاستثناء المطلق ، وأكد بقوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۖ ﴾ ؛ أي أنه لا اعتراض عليه في إخراج أهل الشقاء من النار . ولما علم أن أهل السعادة لا خروج لهم من الجنة أكد خلودهم بعد الاستثناء بما يرفع أصل الاستثناء ، حيث قال : ﴿ عَطَاءٌ غَيْرَ ۖ ﴾

(٢) سورة النكبات ١٤

(١) سورة الحجر ٣٠، ٣١

(٣) سورة هود ١٠٦، ١٠٧

مُجْدُوذٍ^(١) أى غير منقطع ؛ ليعلم أن عطاءه لهم الجنة غير منقطع . وهذه المعاني زائدة على الاستثناء اللغوى .

وقيل : وجه الاستثناء فيه الخروج من الجنة إلى منزلة أعلى كالرضوان والرؤية ، ويؤيده قول بعض^(٢) الصحابة :

* وَإِنَّا لَنَزْجُو فَوْقَ ذَلِكَ مَطْهَرًا *

وصوبه النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وجعل الزمخشري الاستثناء الأول لخروج أهل النار إلى الزمهير ، أو إلى نوع آخر من العذاب بناء على مذهبه من تخليد أهل الكبائر فى النار ، وجعل الاستثناء الثانى دالاً على نجات أهل الكبائر من العذاب ، فكأنه تصور^(٣) أن الاستثناء الثانى لما لم يحمل على انقطاع النعيم ، لقوله تعالى : ﴿ عَطَاءٌ غَيْرَ مُجْدُوذٍ ﴾ فكذا الاستثناء الأول لا يحمل على انقطاع عذاب الجحيم لتناسب أطراف الكلام . وقال : معنى قوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ عقب الاستثناء الأول فى مقابلة قوله : ﴿ عَطَاءٌ غَيْرَ مُجْدُوذٍ ﴾ عقب الثانى ، أن الله تعالى يفعل بأهل النار ما يريد من العذاب كما يعطى لأهل الجنة عطاءه الذى لا انقطاع له^(٤) .

قيل : وما أصدق فى سياق الزمخشري فى هذا الموضع قول القائل :

* حَفِظْتَ شَيْئًا وَغَابَتْ عَنْكَ أَشْيَاءُ *

وذلك لأن ظاهر الاستثناء ؛ هو الإخراج عن حكم ما قبله ، ولا موجب للعدول عن

(٢) هو النابغة الجعدي ؛ أتى النبي صلى الله

(١) سورة هود ١٠٨

عليه وسلم فأنشده قصيدته ؛ فلما بلغ إلى قوله :

بَلَعْنَا السَّمَاءَ مَجْدُنَا وَجْدُونَا وَإِنَّا لَنَزْجُو فَوْقَ ذَلِكَ مَطْهَرًا

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إلى أين يا أبا ليلى ؟ » ، فقال : إلى الجنة ؛ فقال رسول الله صلى

الله عليه وسلم : « إن شاء الله » الشعر الشعراء ٢٤٧ (٣) م : « يتصور »

(٤) راجع الكشف ٢ : ٣٣٦ .

الظاهر في الاستثناء الأول ، فحمل على النجاة . ولما كان إنجاء المستحق العذاب محل تعجب وإنكار ، عقبه بقوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ ؛ أى من العذاب والإنجاء منه ، بفضل ، ولا يتوجه عليه اعتراض أحد ؛ يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد .

وأما الاستثناء الثانى فلما لم يكن على ظاهره ، كان إخراج أهل الجنة المستحقين للثواب وقطع النعيم عنهم لا يناسب إنجاء أهل النار المستحقين للعذاب ، فلذا عقب بقوله : ﴿ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَّجْدُودٍ ﴾ ^(١) بيانا للمقصود .

ورعاية هذا الباب أولى من رعاية الباب الذى توهم الزمخشري ؛ فإنَّ حاصله يرجع إلى أن الاستثناء الثانى لما لم يكن على ماهو الظاهر فى باب الاستثناء ، ينبغى ألا يكون الاستثناء الأول أيضاً على ماهو الظاهر . ولا يخفى على المنصف أنه تعسف .

وأما قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ﴾ ^(٢) فالمعنى لا طعام لهم أصلاً ؛ لأن الضريع ليس بطعام البهائم فضلاً عن الإنس ؛ وذلك كقولك : ليس لفلان ظل إلا الشمس ؛ تريد بذلك نفى الظل عنه على التوكيد ، والضريع نبت ذو شوك يسمى الشبرق فى حال خضرته وطراوته ، فإذا يبس سُمِّيَ الضريع ، والإبل ترعاه طرياً لا يابساً .

وقريب منه تأكيد المدح بما يشبه الذم ، بأن يستثنى من صفة ذم منفية عن الشئ صفة مدح ، بتقدير دخولها فيها ، كقوله تعالى : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا . إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾ ^(٣) التأكيد فيه من وجوب : على الإتصال فى الاستثناء والاقطاع .

القسم الحادى والعشرون

المبالغة

وهى أن يكون للشئ صفة ثابتة ؛ فتزيد فى التعريف بمقدار شدته أو ضعفه ؛ فيدعى

(٢) سورة الفاشية ٦

(١) سورة هود ١٠٨

(٣) سورة الواقعة ٢٥، ٢٦

له من الزيادة فى تلك الصفة ما يستبعد عند السماع ؛ أو ^(١) يحيلُ عقله ثبوته .

ومن أحسنها قوله تعالى : ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَفْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ ^(٢) وهى ^(٣) ظلمة البحر ، وظلمة الموج فوقه ، وظلمة السحاب فوق الموج .

وقوله تعالى : ﴿ بَلَغَتْ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ﴾ ^(٤) ، أى كادت تبلغ ؛ لأن القلب إذا زال عن موضعه مات صاحبه .

وقيل : هو حقيقة ، وإن الخوف والروع يوجب للخائف أن تنتفخ رئته ، ولا يبعد أن ينهض بالقلب نحو الخنجر . ذكره الفراء وغيره .

أو أنها لما اتصل وجيئها واضطربا بها بلغت الحناجر .

ورد ابن الأنبارى ^(٥) تقدير « كادت » فإن « كاد » لا تضم .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِنَزُولٍ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾ ^(٦) .

وقوله تعالى : ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا . أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴾ ^(٧) .

ومنه المبالغة فى الوصف بطريق التشبيه ؛ كقوله تعالى : ﴿ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ . كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ ﴾ ^(٨) .

(٢) سورة النور ٤٠

(١) م « إذ » ؛ والصواب ما أثبتته من ت

(٣) : « فنى » ، والصواب ما أثبتته من ت

(٤) سورة الأحزاب ١٠

(٥) هو أبو بكر محمد بن القاسم الأنبارى ؛

وقله أيضا الشريف المرتضى ؛ ورده . وانظر غرر القوائد ٢ : ٣٣٤

(٦) سورة مريم ٩٠

(٦) سورة إبراهيم ٣٦

(٨) سورة الرسائل ٣٢، ٣٣ .

وقد يخرج الكلام مخرج الإخبار عن الأعظم الأكبر للمبالغة وهو مجاز ، كقوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ ^(١) ، فجعل مجيئ جلائل آياته ، مجيئاً له سبحانه ، على المبالغة .

وكقوله سبحانه : ﴿ وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ ﴾ ^(٢) ، فجعل نقله بالهلكة من دار العمل إلى دار الجزاء وجداناً للمجازى .

ومنه ماجرى مجرى الحقيقة ، كقوله تعالى : ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴾ ^(٣) ، فإن اقتران هذه بـ « يكاد » صرفها إلى الحقيقة ، فانقلب من الامتناع إلى الإمكان .

وقد تجيئ المبالغة مدحجة ، كقوله تعالى : ﴿ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾ ^(٤) ، فإن المبالغة في هذه الآية مدحجة في المقابلة ، وهى بالنسبة إلى المخاطب ، لا إلى المخاطب ؛ معناه أن علم ذلك متعذر عنكم ؛ وإلا فهو بالنسبة ^(٥) إليه سبحانه ليس بمبالغة .

وأما قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي . . . ﴾ ^(٦) الآية ، فقيل ^(٧) : سببها أن اليهود جاءوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالوا له : كيف عُنَفْنَا بهذا القول : ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ^(٨) ، ونحن قد أوتينا التوراة ، وفيها كلام الله ^(٩) وأحكامه ، ونور وهدى ! فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : « التوراة قليل من كثير » ، ونزلت هذه الآية .

(١) سورة الفجر ٢٢ (٢) سورة النور ٣٩ (٣) سورة النور ٤٣

(٤) سورة الرعد ١٠ (٥) كذا في م ، وفي ت : « لله »

(٦) سورة الكهف ١٠٩ (٧) نقله الواحدى فى أسباب النزول ٢٢٥ ،

(٨) سورة الإسراء ٨٥

(٩) عبارة أسباب النزول : « أوتينا التوراة ، ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيراً كثيراً » .

(١) سورة الفجر ٢٢

(٤) سورة الرعد ١٠

(٦) سورة الكهف ١٠٩

عن ابن عباس .

وقيل : إنما نزلت ﴿ وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ ﴾ ^(١) .

قال المفسرون : والغرض من ذلك الإيلاء بكثرة كلماته ؛ وهي في نفسها غير متناهية ، وإنما قرب الأمر على أفهام البشر بما يتناهى ؛ لأنه غاية ما يعهده البشر من الكثرة .

وقال بعض المحققين : إن ما تضمنت الآية أن كلمات الله تعالى لم تكن لتنفد ، ولم تقتض الآية أنها تنفذ بأكثر من هذه الأقلام والبحور ؛ وكما قال الخضر عليه السلام : ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا كما نقص هذا العصفور من ماء البحر حين غمس منقاره فيها .

وعدّ بعضهم من هذا القبيل ما جاء من المبالغة في القرآن من الإغضاء عن العيوب ، والصفح عن الذنوب ، والتغافل عن الزلات ، والستر على أهل المروءات ، كقوله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ خُذِ الْعَمَلْ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ ^(٢) .

وقيل في تفسيره : أن تصلَ مَنْ قَطَعَكَ ، وتعطى من حرمك وتعفو عمن ظلمك .

وقوله تعالى : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ... ﴾ ^(٣) الآية .

(١) سورة لقمان ٢٧ ، وفي أسباب النزول للواحدى ص ٢٦٠ أيضاً : « قال المفسرون : سألت اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الروح ، فأنزله الله : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ؛ فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ؛ أنه أجاب اليهود فقالوا : يا محمد ، بلغنا عنك أنك تقول : ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أفنعينا أم قومك ؟ فقال : كلا عيت ؛ قالوا ألسنت تلو فيما جاءك إنا قد أوتينا النوراة وفيها علم كل شيء . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هي في علم الله سبحانه قليل ، ولقد آتاكم الله ما أنعم الله به انفعتم به » ، فقالوا : يا محمد ، كيف تزعم هذا وأنت تقول : ﴿ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ وكيف يجمع هذا ! علم قليل وخبر كثير ! فأنزله الله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ

مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ ... ﴾

تنبيه

(١) تحصل مما سبق أن قصد المبالغة يستلزم في الحال الإيجاز ؛ إما بالحذف ، وإما بجعل الشيء نفس الشيء ، أو بتكرار لفظ يتم بتكرره التهويل والتعظيم ، ويقوم مقام أوصاف ، كقوله تعالى : ﴿ الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ ﴾ (٢) .

وقد نص سيبويه على هذا كله في مواضع شتى من كتابه لافتراقها في أحكام .

فائدة

[في اختلاف الأقوال في تقدير المبالغة في الكلام]

اختلف في المبالغة على أقوال :

أحدها : إنكار أن تكون من محاسن الكلام لاشتغالها على الاستحالة .

والثاني : أنها الغاية في الحسن ؛ وأعذب الكلام ما بولغ فيه ؛ وقد قال النابغة :

لَنَا الْجَفْنَاتُ الْغُرُّ يَعْنَى فِي الضُّحَى وَأَسْيَافُنَا يَقْطُرْنَ مِنْ نَجْدَةٍ دَمَا

والثالث : وهو الأصح ؛ أنها من محاسن الكلام ؛ ولا ينحصر الحسن فيها - فإن

فضيلة الصدق لا تُنكر - لو كانت معيبة لم ترد في كلام الله تعالى ؛ ولها طريقتان :

أحدها : أن يستعمل اللفظ في غير معناه لغة ، كما في الكناية والتشبيه والاستعارة

وغيرها ، من أنواع المجاز .

والثاني : أن يُشفع ما يفهم المعنى بالمعنى على وجه يقتضى زيادة ؛ فتترادف (٣) الصفات

(٢) سورة الحاقة ١

(١) هذا التنبيه ساقط من ت

(٣) ق : « قترداد » .

بقصد التهويل ، كما في قوله تعالى : ﴿ فِي بَحْرِ مُّجَيّ يَفْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ ^(١) .

الفهم الثاني والمفسرون

الاعتراض

وأسماء قدامة ^(٢) : « التفاتاً » ^(٣) ، وهو أن يؤتى في أثناء كلام أو كلامين متصلين معنى ، بشيء يتم الغرض الأصلي بدونه ، ولا يفوت بفواته ، فيكون فاصلاً بين الكلام والكلامين ، لنكتة .

وقيل : هو إرادة وصف شيئين : الأول منهما قصداً ، والثاني بطريق الانجرار ؛ وله تعلق بالأول بضرب من التأكيد .

وعند النحاة جملة صغرى تتخلل جملة كبرى ؛ على جهة التأكيد .

وقال الشيخ عز الدين في أماليه : الجملة المعارضة تارة تكون مؤكدة ، وتارة تكون مشددة ؛ لأنها إما ألا تدل على معنى زائد على ما دل عليه الكلام ؛ بل دلت عليه فقط ، فهي مؤكدة . وإما أن تدل عليه وعلى معنى زائد ، فهي مشددة . انتهى .

وذكر النحاة مما تتميز به الجملة الاعتراضية عن الحالية كونها طلبية ، كقوله تعالى :

(١) سورة النور ٤٠

(٢) هو أبو الفرج قدامة بن جعفر ؛ صاحب كتاب نقد الشعر .

(٣) قال : « ومن نفوت المعاني الالتفات ؛ وهو أن يكون الشاعر آخذاً في معنى ؛ فكأنه يعترضه ؛ لما شك فيه ، أو ظن أن راداً يرد عليه قوله ؛ أو سائلاً يسأله عن سببه ؛ فيعود راجعاً إلى ما قدمه فيما أن يذكر سببه ؛ أو يحل الشك فيه » وانظر نقد الشعر ٨٧ ، وبديع القرآن ٤٢

﴿وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾^(١) ، فإنه معترض بين : ﴿فَاسْتَغْفِرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾^(١) ، وبين : ﴿وَلَمْ يَصِرُوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا﴾^(١) .

وله أسباب :

منها تقرير الكلام ، كقولك : فلان أحسن بفلان - ونعم مافعل . ورأى من رأى كذا - وكان صوابا .

ومنه قوله تعالى : ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ﴾^(٢) ، ﴿لقد علمتم﴾ اعتراض والمراد تقرير إثبات البراءة من تهمة السرقة .

وقوله : ﴿وَأَمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾^(٣) .
﴿وَجَعَلُوا أُعْزَةَ أَهْلِهَا أَدِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾^(٤) ، واعتراض بقوله : ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾^(٤) ، بين كلامها .^(٥)

وقوله : ﴿وَأَتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾^(٦) .

ومنها قصد التنزيه ، كقوله تعالى : ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾^(٧) ، فاعتراض ﴿سبحانه﴾ لغرض التنزيه والتعظيم ، وفيه الشناعة على من جعل البنات لله .

ومنها قصد التبرك ، كقوله تعالى : ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾^(٨) .

(٢) سورة يوسف ٧٣

(٤) سورة النمل ٣٤

(٥) أى من كلام بلقيس ؛ وبقية كلامها : ﴿إِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ...﴾

(٧) سورة النحل ٥٧

(١) سورة آل عمران ١٣٥

(٣) سورة القتال ٢

(٦) سورة البقرة ٢٥

(٨) سورة الفتح ٢٧

ومنها قصد التأكيد ، كقوله : ﴿ فَلَا أَقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ . وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ ^(١) .

وفيها اعتراضان ؛ فإنه اعترض بقوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ ﴾ ^(١) بين القسم وجوابه ، واعترض بقوله : ﴿ لَوْ تَعْلَمُونَ ﴾ ^(١) بين الصفة والموصوف ؛ والمراد تعظيم شأن ما أقسم به من مواقع النجوم ، وتأكيد إجلاله في النفوس ، لاسيما بقوله : ﴿ لَوْ تَعْلَمُونَ ﴾ ^(١)

وقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا . أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾ ^(٢) ذ « أولئك » الخبر و « إِنَّا لَا نُضِيعُ » اعتراض .

ومنها كون الثاني بياناً للأول ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ ^(٣) ؛ فإنه اعترض وقع بين قوله : ﴿ فَأَتَوْهُنَّ ﴾ ^(٣) ، وبين قوله : ﴿ نِسَاءُكُمْ حَرِّثَ لَكُمْ ﴾ ^(٤) ، وهما متصلان معنى ؛ لأنَّ الثاني بيان الأول ؛ كأنه قيل : فأتوهن من حيث يحصل منه الحرث . وفيه اعتراض بأكثر من جملة .

ومنها تخصيص أحد المذكورين بزيادة التأكيد على أمر علق بهما ، كقوله تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَلَّتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ ﴾ ^(٥) ، فاعترض بقوله : ﴿ حَلَّتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ ﴾ ^(٥) بين « ووصينا » وبين الموصى به ، وفائدة ذلك إذكاء الولد بما كابדתه أمه من المشقة في حمله وفساله ، فذكر الحمل والفضال يفيد زيادة التوصية بالأم ، لتحملها من المشاق والمتاعب في حمل الولد ما لا يتكلفه الوالد ، ولهذا جاء في الحديث التوصية بالأم ثلاثاً ، وبالأب مرة .

(٢) سورة الكهف ٣٠، ٣١

(٤) سورة البقرة ٢٢٣

(١) سورة الواقعة ٧٥، ٧٦

(٣) سورة البقرة ٢٢٢

(٥) سورة لقمان ١٤٠

ومنها زيادة الرد على الخصم ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا... ﴾ ^(١)
 الآية فقوله : ﴿ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ ﴾ ^(٢) اعترض بين المعطوف والمعطوف عليه . وفائدته أن يقرر
 في أنفس المخاطبين أن تدارؤ بني إسرائيل في قتل تلك الأنفس لم يكن نافعا لهم في إخفائه
 وكتمائه ، لأن الله تعالى مظهرٌ لذلك ^(٣) ومخرجه ، ولو جاء الكلام خالياً من هذا الاعتراض
 لكان ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ﴾ ^(١) ﴿ فَقُلْنَا أَضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ﴾ ^(٣) .
 وقوله : ﴿ وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزِلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ ﴾ ^(٤) ،
 فاعترض بين « إذ » وجوابها بقوله : ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزِلُ ﴾ ^(٢) ؛ فكأنه أراد أن يجيبهم
 عن دعواهم فجعل الجواب اعتراضاً .

وقوله : ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾ ^(٥)
 إلى قوله : ﴿ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ^(٥) .

وقوله : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ^(٣) إلى قوله : ﴿ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا
 بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ اعترض في أثناء الكلام . وهو قوله : ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ
 اشْمَأَزَّتْ ﴾ الآية ، وذلك لأن قوله : ﴿ فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ ﴾ سبب عن قوله : ﴿ وَإِذَا
 ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ ﴾ على معنى أنهم يشمئزون من توحيد الله تعالى ، ويستبشرون
 بالشرك الذي هو ذكر الآلهة ؛ فإذا مسَّ أحدهم ضُرٌّ أو أصابته شدة تناقض في دعواه ،
 فدعا من اشمأز من ذكره وانقبض من توحيده ولجأ إليه دون الآلهة ، فهو اعتراض بين
 السبب والسبب ، فقيد القول بما فيه من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم بأمره بذلك ، وبقوله :
 ﴿ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ ﴾ ، ثم عقبه من الوعيد العظيم أشدَّ التأكيد وأعظمه وأبلغه ؛

(٢) م : « ذلك »
 (٤) سورة النحل ١٠١

(١) سورة البقرة ٧٢
 (٣) سورة البقرة ٧٣
 (٥) سورة الزمر ٤٥-٤٩ .

ولذلك كان اتصال قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ﴾^(١) للسبب الواقع فيها، وخلق الأول، منه من الأمر اشتراك جملة مع جملة، ومناسبة أوجبت العطف بالواو الموضوع لطلاق الجمع، كقولهم: قام زيد وعمرو. وتسبب السبب مع ما في ظاهر الآية من اشتمالهم ليس يقتضى التجاءهم إلى الله تعالى، وإنما يقتضى إعراضهم عنه من جهة أن سياق الآية يقتضى إثبات التناقض؛ وذلك أنك تقول: زيد يؤمن بالله تعالى؛ فإذا مسه الضر لجأ إليه فهذا سبب ظاهر مبنى على اطراد الأمر، وتقول: زيد كافر بالله، فإذا مسه ضر لجأ إليه، فتجىء بالفاء هنا كالأول لغرض التزام التناقض، أو العكس، حيث أنزل الكافر كفره منزلة الإيمان في فصل سبب الالتجاء؛ فأنت تلزمه العكس؛ بأنك إنما تقصد بهذا الكلام الإنكار والتعجب من فعله^(٢).

وقوله: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(٣) بقوله: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾. له مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ^(٤) استراض رافع في أشياء كلام متصل؛ وهو قوله: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(٥)، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾^(٥)، وهو على مهيئ أسلوب القرآن؛ من ذكر الضد عقب الضد؛ كما قيل:

* وبضدها تبين الأشياء *

ومنها الإدلاء بالحجة؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ﴾^(٦)، فاعترض بقوله: ﴿فَاسْأَلُوا﴾ بين قوله: ﴿نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ وبين قوله: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ﴾^(٦) إظهاراً لقوة الحجة عليهم.

(٢) كذا وردت العبارة في الأصول وفيها غموض.

(٤) سورة الزمر ٦٣

(٦) سورة النحل ٤٤، ٤٣

(١) سورة الزمر ٥٨

(٣) سورة الزمر ٦٢

(٥) سورة الزمر ٦٤

وبهذه الآية رد ابن مالك على أبي على الفارسي قوله : إنه لا يعترض بأكثر من جملة واحدة .

وردد بأن جملة الأمر دليل للجواب عند الأكثرين ونفسه عند آخرين ، فهو مع جملة الشرط ، كالجملة الواحدة . نعم جوزوا في قوله تعالى : ﴿ مَتَكَيِّثِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَاطُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ ^(١) ، أن يكون حالا من قوله : ﴿ وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴾ ^(٢) ، فلزم الاعتراض بسبع جمل مستقلات ؛ إن كان : ﴿ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴾ ^(٣) ، خبر مبتدأ محذوف ؛ وإلا فيكون بست جمل .

وقال الزمخشري في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ . أَفَأَمِّنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ ... ﴾ ^(٤) الآية : إن في هذه الآية الكريمة سبع جمل معترضة : جملة الشرط ، و« اتقوا » و« فتحننا » و« كذبوا » و« أخذناهم » و« بما كانوا يكسبون » . وزعم أن ﴿ أفأمن ﴾ ^(٥) معطوف على ﴿ فَأَخَذْنَاهُمْ بِفِتْنَةٍ ﴾ ^(٦) ، وكذا نقله ابن مالك عن الزمخشري وتبعه أبو حيان ، ولم يوجد ذلك في كلام الزمخشري .

قال ابن مالك : ورد عليه من ظن أن الجملة والكلام مترادفان ، قال : وإنما اعترض بأربع جمل ؛ وزعم أن من عند ﴿ وَلَوْ أَنَّ ﴾ ^(٤) إلى ﴿ وَالْأَرْضِ ﴾ ^(٤) جملة ؛ لأن الفائدة إنما تتم بمجموعه . انتهى .

وفي القولين نظر ؛ أما على قول ابن مالك فينبغي أن يكون بعدها ثمان جمل ؛ أحدها :

(٢) سورة الرحمن ٤٦

(٤) سورة الأعراف ٩٦

(٦) سورة الأعراف ٩٥

(١) سورة الرحمن ٥٤

(٣) سورة الرحمن ٤٨

(٥) سورة الأعراف ٩٧

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وأربعة في حيز «لو» وهي ﴿آمنوا﴾ و﴿اتقوا﴾ و«فتحنا» ،
والمركة مع أن وصلتها مع «ثبت» مقدراً على الخلاف في أنها فعلية أو اسمية ، والسادسة
﴿ولكن كذبوا﴾ والسابعة ﴿فأخذناهم﴾ والثامنة ﴿بما كانوا يكسبون﴾ .
وأما قول المعترض فلا أنه كان من حقه أن يعدها ثلاث جمل ؛ أحدها ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ؛
لأنها حال مرتبطة بعاملها وليست مستقلة برأسها ، والثانية لو وما في حيزها ، جملة واحدة فعلية
إن قدر : «ولو ثبت أن أهل القرى آمنوا واتقوا» ، أو اسمية وفعلية إن قدر : إيمانهم ،
واتقوا ثابتان ، والثالثة : ﴿وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ^(١) ،
كله جملة .

وينبغي على قواعد البيانين أن يعدوا الكل جملة واحدة لارتباط بعضها ببعض ،
وعلى رأى النحاة ينبغي أن يكون ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ ^(١) جملة واحدة
لارتباط الشرط بالجزاء لفظاً ، ﴿وَلَكِنْ كَذَّبُوا﴾ ثانية أو ثالثة ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ﴾ ثالثة
أو رابعة ، و﴿بما كانوا يكسبون﴾ متعلق بـ «أخذناهم» فلا يعد اعتراضاً .
وقوله : ﴿وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَىٰ الْجُودِيِّ﴾ ^(٢) ، فهذه ثلاث
جمل معترضة بين ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ﴾ ^(٣) وبين ﴿وَقِيلَ بَعْدًا﴾ .
وفيه اعتراض في اعتراض ؛ فإن ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ معترض بين ﴿غِيضَ الْمَاءِ﴾
وبين ﴿واستوت﴾ .

ولا مانع من وقوع الاعتراض في الاعتراض ، كقوله : ﴿وَأَنَّهُ لَقَدْ لَوْ تَعْلَمُونَ
عَظِيمٌ﴾ ^(٣) .

(٢) سورة هود ٤٤

(١) سورة الأعراف ٩٦

(٣) سورة الواقعة ٧٦

ومنه قوله تعالى في سورة العنكبوت ذاكراً عن إبراهيم قوله : ﴿ اَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ ﴾ ^(١) ، ثم اعترض تسليةً لقلب النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : ﴿ وَإِنْ تَكْذَبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ ^(٢) ، وذكر آيات ، إلى أن قال : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ ﴾ ^(٣) يعني قوم إبراهيم ، فرجع إلى الأول .

وجعل الزمخشري قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ ﴾ ^(٤) ، في آخر الصفات معطوفاً على ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ ﴾ ^(٥) في أول السورة ^(٦) : وقال في قول بعضهم في : ﴿ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ﴾ ^(٧) : إنه حال من فاعل ﴿ قُمْ ﴾ ^(٨) في أول هذه السورة ، هذا من بدع التفاسير ^(٩) وهذا الذي ذكره في الصفات منه .

ومن العجب دعوى بعضهم كسر همزة « إن » في قوله تعالى : ﴿ إِنْ ذَلِكْ لَخَقٌّ تَخَاصُّمُ أَهْلِ النَّارِ ﴾ ^(١٠) على جواب القسم في قوله تعالى : ﴿ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴾ ^(١١) ، حكاه الرماني .

فإن قيل : أين خبر « إن » في قوله تعالى : ﴿ إِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ ^(١٢) ؟ قيل الخبر : ﴿ أُولَئِكَ يَنَادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ ^(١٣) .

(١) سورة العنكبوت ١٦

(٢) سورة العنكبوت ٢٤

(٣) سورة الصفات ١٤٩ ، والآية : ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبُنُونَ ﴾

(٤) سورة الصفات ١١ ، والآية : ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنْ خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ﴾

(٥) سورة المدثر ٣٦

(٦) سورة المدثر ٢٨ : وهو قوله تعالى :

(٧) الكشاف ٤ : ٤٨ ، وعبارته : « معطوف على مثله في أول السورة وإن تباعدت بينهما المسافة » .

(٨) الكشاف ٤ : ٥٢٢

(٩) يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ

(١٠) سورة فصلت ٤٤

(١١) سورة فصلت ٤١

فوائد

قال ابن عمرو ^(١): لا يجوز وقوع الاعتراض بين واو العطف وما دخلت عليه ؛ وقد أجازته قوم في « ثم » و « أو » فتقول : « زيد قائم ثم والله عمرو » .
وقوله تعالى : ﴿ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ﴾ ^(٢) اعتراض بين الشرط وجوابه مع أن فيه فاء والجملة مسندة لـ « يَكُنْ » .

قال الطيبي : سئل الزمخشري عن قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴾ ^(٣) أهو اعتراض ؛ قال ؟ لا ، لأن من شرط الاعتراض أن يكون بالواو ونحوها ؛ وأما بلقاء فلا .
وفهم صاحب " فرائد القلائد " من هذا اشتراط الواو ، فقال : وقد ذكر الزمخشري : ﴿ إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا ﴾ ^(٤) هذه الجملة أعتراض بين البدل وبين المبدل منه ، أعني « إبراهيم » و « إذ » قال : هذا معترض لأنه اعتراض بدون الواو بعيد عن الطبع وعن الاستعمال ، وليس كما قال فقد يأتي بالواو كما سبق في الأمثلة ، وبدونها كقوله سبحانه : ﴿ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ ^(٥) . وقد اجتمعا في قوله : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ . وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ . إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ ^(٦) .

الفصل الثالث والعشرون

الاحتراس

وهو أن يكون الكلام محتملا لشيء بعيد فيؤتي بما يدفع ذلك الاحتمال ؛ كقوله

(١) هو محمد بن محمد بن أبي علي بن أبي سعد عمرو ، النحوي ؛ أخذ عن ابن يعيش ؛ وله شرح على المفصل ؛ توفي سنة ٦٤٩ هـ . بنية الوعاة ٩٩

(٣) سورة المدثر ٥٥

(٢) سورة النساء ١٣٥

(٥) سورة النحل ٥٧

(٤) سورة مريم ٥٦ ، ٤١

(٦) سورة الواقعة ٧٥ - ٧٧٧

تعالى : ﴿ أَسْأَلُكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ ^(١) ، فاحترس سبحانه بقوله : ﴿ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ عن إمكان أن يدخلَ في ذلك البهق والبرص .

وقوله تعالى : ﴿ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ ^(٢) فإنه لو اقتصر على وصفهم بالذلة وهو السهولة لتوهم أن ذلك لضعفهم ، فلما قيل : ﴿ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ علم أنها منهم تواضع ؛ ولهذا عدى « الذل » بعلی لتضمنه معنى العطف .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ ^(٣) .

وقوله تعالى : ﴿ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ ^(٤) فقوله : ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ ^(٤) احتراس بين أن من عدل سليمان وفضله وفضل جنوده أنهم لا يحطمون غلة فما فوقها إلا بالآ لا يشعروا بها .

وقد قيل : إنما كان تبسم سليمان سروراً بهذه الكلمة منها ؛ ولذلك أكد التبسم بالضحك ؛ لأنهم يقولون : تبسم كتبسم الغضبان ؛ لينبه على أن تبسمه تبسم سرور .

ومثله قوله تعالى : ﴿ فَتَصِيبُكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ ^(٥) التفات إلى أنهم لا يقصدون ضرراً مسلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ ^(٦) ؛ فإنه سبحانه لما أخبر بهلاك مَنْ هلك بالطوفان ، عقبهم بالدعاء عليهم ، ووصفهم بالظلم ، ليعلم أن جميعهم كان مستحقاً للعذاب ،

(٢) سورة المائدة ٥٤

(٤) سورة النمل ١٨

(٦) سورة هود ٤٤

(١) سورة القصص ٣٢

(٣) سورة الفتح ٢٩

(٥) سورة الفتح ٢٥

احتراس من ضعف يؤهم أن الهلاك بعمومه ربما شمل من لا يستحق العذاب ؛ فلما دعا على الهالكين ، ووصفهم بالظلم علم استحقاقهم لما نزل بهم وحل بساحتهم ، مع قوله أولا : ﴿ وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴾ ^(١) .

وأعجب احتراس وقع في القرآن قوله تعالى مخاطباً لنبيه عليه السلام : ﴿ وَمَا كُنْتُ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْتُ إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ ﴾ ^(٢) الآية .

وقال حكاية عن موسى : ﴿ وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ ﴾ ^(٣) ، فلما نفى سبحانه عن رسوله أن يكون بالمكان الذي قضى لموسى فيه الأمر عرّف المكان بالغربي ؛ ولم يقل في هذا الموضع « الأيمن » كما قال : ﴿ وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ ﴾ ^(٣) أدباً مع النبي صلى الله عليه وسلم أن ينفى عنه كونه بالجانب الأيمن ، أو يساب عنه لفظاً مشتقاً من اليمن ، أو مشاركاً لمادته ، ولما أخبر عن موسى عليه السلام ذكر الجانب الأيمن تشريفاً لموسى ، فراعى في المقامين حسن الأدب معهما ، تعليماً للأمة ، وهو أصل عظيم في الأدب في الخطاب .

وقوله : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ ^(٤) فإنه لو اختصر لترك : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ﴾ ؛ لأن سياق الآية لتكذيبهم في دعوى الإخلاص في الشهادة ، لكن حسن ذكره رفع توهم أن التكذيب للمشهود به في نفس الأمر .

وقوله حاكياً عن يوسف عليه السلام : ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ ﴾ ^(٥) ، ولم يذكر الجلب مع أن النعمة فيه أعظم لوجهين :

(٢) سورة القصص ٤٤

(٤) سورة المنافقون ١ .

(١) سورة هود ٣٧

(٣) سورة مريم ٥٢

(٥) سورة يوسف ١٠٠ .

أحدهما : لئلا يستحيَ إخوته، والكريم يفضى ؛ ولا سيما في وقت الصفاء .

والثاني : لأن السجن كان باختياره ، فكان الخروج منه أعظم ، بخلاف الحب .

وقوله : ﴿ تَكَلَّمُ النَّاسُ فِي الْمَهْدِ وَكَهَلًا ﴾ ^(١) ؛ وإنما ذكر الكهولة مع أنه لا إجماع

فيه ؛ لأنه كان في العادة ، أن من يتكلم في المهد أنه لا يعيش ولا يتمادى به العمر ، فجعل

الاحتراس بقوله : ﴿ وَكَهَلًا ﴾ .

ومنه قوله تعالى : ﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾ ^(٢) ، والسقف لا يكون إلا من

فوق ؛ لأنه سبحانه رفع الاحتمال الذي يتوهم من أن السقف قد يكون من تحت بالنسبة ؛

فإن كثيراً من السقوف يكون أرضاً لقوم وسقفاً لآخرين ؛ فرفع تعالى هذا الاحتمال بشيئين :

وهما قوله : ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ ، ولفظه ﴿ خَرَّ ﴾ لأنها لا تستعمل إلا فيما هبط أو سقط من العلو إلى

سفل .

وقيل : إنما أكد ليعلم أنهم كانوا حالين تحته ، والعرب تقول : خَرَّ علينا سقف ووقع علينا

حائط ، فجاء بقوله : ﴿ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾ ، ليخرج هذا الشك الذي في كلامهم ، فقال :

﴿ من فوقهم ﴾ ، أى عليهم وقع ؛ وكانوا تحته ، فهلكوا وما أفلتوا .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَتُوا حَرَّ ثَكْمٍ أَتَى شِئْثُ ﴾ ^(٣) ؛ لأنه لما كان يحتمل معنى « كيف »

و« أين » احتس بقوله : ﴿ حَرِّ ثَكْمٍ ﴾ ؛ لأن الحرث لا يكون إلا حيث تنبت البذور ، وينبت

الزرع ، وهو الحل المخصوص .

وقوله : ﴿ وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ أَلْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ ^(٤) ؛

وذلك لأن الاشتراك في المصيبة يخفف منها ، ويسلى عنها ؛ فأعلم سبحانه أنه

لا ينفعهم ذلك .

(٢) سورة الزخرف ٣٩

(٤) سورة النحل ٢٦

(١) سورة البقرة ٢٢٣

(٣) سورة المائدة ١١٠

قائدة

عاب قدامة على ذى الرمة قوله :

أَلَا يَا سَلَمَى يَا دَارَ مَيِّ عَلَى الْبَلَى وَلَا زَالَ مِنْهَا بِجَرَ عَائِكَ الْقَطَرُ^(١)
ففيه لم يحتس ، وهلا قال كما قال طرفة^(٢) :

* فَسَقَى دِيَارَكَ غَيْرَ مُفْسِدِهَا *

وأجيب بأنه قدّم الدعاء بالسلامة للدار .

وقيل : لم يرد بقوله : « وَلَا زَالَ مِنْهَا » اتصال الدوام بالسقي من غير إقلاع ، وإنما ذلك بمثابة من يقول : ما زال فلان يزورنى ، إذا كان متعاهداً له بالزيارة .

القسم الرابع والعشرون

التذييل

مصدر « ذيل » للمبالغة ؛ وهى لغة ، جعلُ الشيء ذيلًا للآخر . واصطلاحاً أن يؤتى بعد تمام الكلام بكلام مستقل فى معنى الأول ؛ تحقيقاً للدلالة منطوق الأول ، أو مفهومه ؛ ليكون معه كاللذيل ، ليظهر المعنى عند من لا يفهم ؛ ويكمل عند من فهمه .
كقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِمَا كَفَرُوا ﴾^(٣) ، ثم قال عز من قائل : ﴿ وَهَلْ

(٢) ديوانه ٧٢ (من مجموعة العقد الثمين) ،

(١) ديوانه ٢٠٦

* صَوَّبُ الرِّبْعِ وَدِيمَةٌ مَّهْمَى *

وبقيته :

(٣) سورة سبأ ١٧ .

نُجَازَى إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١﴾ ، أى هل يجازى ذلك الجزاء الذى يستحقه الكفور
إلا الكفور ؛ فإن جعلنا الجزاء علما كان الثانى مفيداً فائدة زائدة .

وقوله : ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْخَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ (٢) .

وقوله : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِشَرٍّ مِنْ قَبْلِكَ أَلْتَلَدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ ﴾ (٣) .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ . إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا
دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكُمْ
مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ (٤) .

فقوله : ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكُمْ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ تذييل لاشتماله على . . . (٥) .

وقوله : ﴿ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴾ (٦) .

وقوله : ﴿ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴾ (٧) .

وجعل القاضى أبو بكر فى كتابه ” الإيجاز ” منه قوله تعالى : ﴿ إِنْ فِرْعَوْنَ
عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْ أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَذَّيْحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِ
نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (٨) .

وقوله : ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنْ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ
وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴾ (٩) .

ويحتمل أن يكون من التعليل .

وقوله : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ ﴾ (١٠) ، فقوله :

(٢) سورة الإسراء ٨١

(٤) سورة فاطر ١٣ ، ١٤

(٦) سورة المؤمنين ٤٦

(٨) سورة القصص ٤

(١٠) سورة الزخرف ٢٢ .

(١) سورة سبأ ١٧

(٣) سورة الأنبياء ٣٤

(٥) بياض فى الأصلين

(٧) سورة الأعراف ١٣٣

(٩) سورة القصص ٩

﴿وَكَذَلِكَ﴾ ^(١) ، تذييل ، أى فذلك شأن الأمم مع الرسل ، وقوله : ﴿مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ﴾ ^(٢) ، جعل التذييل هنا من التفسير .

القسم الخامس والعشرون التميم

وهو أن يتم الكلام ، فيلحق به ما يكمله ، إما مبالغة ، أو احتقاراً ، أو احتياطاً .
وقيل : هو أن يأخذ في معنى فيذكره غير مشروح ؛ وربما كان السامع لا يتأمله ليعود المتكلم إليه شارحاً ؛ كقوله تعالى : ﴿وَيُطْعَمُونَ الْطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ ^(٣) ، فالتميم في قوله : ﴿عَلَى حُبِّهِ﴾ ، جعل الهاء كناية عن الطعام مع اشتهاؤه .
وكذلك قوله : ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾ ^(٤) .

وكقوله تعالى : ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ ^(٥) ، فقوله : ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ تميم في غاية الحسن .

القسم السادس والعشرون الزيادة

والأكثرون يتكرون إطلاق هذه العبارة في كتاب الله ، ويسمونه التأكيد . ومنهم من يسميه بالصلة . ومنهم من يسميه المقحم .

(٢) سورة الدهر ٨
(٤) سورة النساء ١٢٤ .

(١) سورة الزخرف ٢٣
(٣) سورة البقرة ١٧٧

قال ابن جنى: كل حرف زيد فى كلام العرب فهو قائم مقام إعادة الجملة مرة أخرى .
وبابها الحروف والأفعال .

كقوله تعالى: ﴿فَمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ﴾ ^(١) . ﴿فَمَا رَحْمَةً مِنْ اللَّهِ﴾ ^(٢) .
وقوله: ﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْأَمَدِ صَبِيًّا﴾ ^(٣) قيل: ﴿كان﴾ هاهنا
رائدة ؛ وإلا لم يكن فيه إجماز ؛ لأن الرجال كلهم كانوا فى المهد ، وانتصب ﴿صبيًّا﴾
على الحال .

وقال ابن عصفور: هى فى كلامهم زيدت فى وسط الكلام للتأكيد ؛ وهى مؤكدة
للماضى فى ﴿قالوا﴾ .

ومنه زيادة « أصبح » ، قال حازم: إن كان الأمر الذى ذكر أنه أصبح فيه لم يكن
أمسى فيه ، فليست زائدة ، وإلا فهى زائدة ؛ كقولك: أصبح العسل حلواً .

وأجاب الرماني عن قوله: ﴿فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾ ^(٤) ، فإن العادة أن مَنْ به علة
تزداد عليه بالليل يرجو الفرج عند الصباح ، فاستعمل « أصبح » لأن الخسران جعل لهم
فى الوقت الذى يرجون فيه الفرج ، فليست زائدة .

وهو معنى قول غيره: إنها تأتى للدوام واستمرار الصفة ، كقوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا
لَا يَرَى إِلَّا مَسَا كِنُهُمْ﴾ ^(٥) ، ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ﴾ ^(٦) .

وأما قوله تعالى: ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسَوِّدًا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ^(٧) فهو على الأصل ، لظهور
الصفة نهارة ، والمراد الدوام أيضاً ، أى استقرت له الصفة نهارة ^(٨) .

- | | |
|---------------------|------------------------------------|
| (١) سورة المائدة ١٣ | (٢) سورة آل عمران ١٥٩ |
| (٣) سورة مريم ٢٩ | (٤) سورة المائدة ٥٣ |
| (٥) سورة الأحقاف ٢٥ | (٦) سورة القصص ٨٢ |
| (٧) سورة النمل ٥٨ | (٨) كلمة: « نهارة » ، ساقطة من ت . |

واعلم أن الزيادة واللغو من عبارة البصريين ، والصلة والحشو من عبارة الكوفيين ، قال ^(١) سيويه عقب قوله تعالى : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ ﴾ ^(٢) : إن « ما » لغو ؛ لأنها لم تُحْدِث شيئاً .

والأولى اجتناب مثل هذه العبارة في كتاب الله تعالى ؛ فإن مراد النحويين بالزائد من جهة الإعراب ، لا من جهة المعنى ؛ فإن قوله : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ ﴾ ^(٣) معناه : « ما لنت لهم إلا رحمة » ؛ وهذا قد جمع نفيًا وإثباتًا ، ثم اختصر على هذه الإرادة ، وُجِع فيه بين لفظي الإثبات وأداة النفي التي هي « ما » .

وكذا قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ ﴾ ^(٤) ف « إِنَّمَا » هاهنا حرف تحقيق وتحقيق ، إن ههنا للتحقيق ، وما للتحقيق فاختصر ، والأصل : « ما الله اثنان فصاعداً ، وأنه إله واحد » .

وقد اختلف في وقوع الزائد في القرآن ؛ فمنهم من أنكره ، قال الطرطوسي في « العُمدة » ، ^(٥) : زعم المبرد وثعلب الأصل في القرآن ، والدّهءاء من العلماء والفقهاء والمفسرين على إثبات الصّلات في القرآن ، وقد وجد ذلك على وجه لا يسهل إنكاره فذكر كثيرًا .

وقال ابن الخباز ^(٦) في التوجيه ^(٧) : وعند ابن السراج أنه ليس في كلام العرب زائد ، لأنه تكلم بغير فائدة ، وما جاء منه حمّله على التوكيد .

(٢) سورة النساء ١٠٥

(١) الكتاب ٢ : ٣٠٥

(٤) سورة النساء ١٧١

(٣) سورة آل عمران ١٥٩

(٥) هو كتاب عمدة المحكام فيما لا ينفذ من الأحكام ؛ للقاضي نجم الدين إبراهيم بن علي الطرطوسي

الحنفى المتوفى سنة ٧٥٨ . كشف الظنون ١١٦٦ - ١١٦٧

(٦) هو أحمد بن الحسين بن أحمد بن معالي ، الإربلى الضرير ، المعروف بابن الحجاز ؛ توفي سنة ٦٣٩ .

(٧) ذكره صاحب كشف الظنون .

نكت الهيمان ٩٦ .

ومنهم من جوزه وجعل وجوده كالعدم ؛ وهو أفسد الطرق .

وقد رُدَّ على فخر الدين الرازي قوله : إِنَّ الْحَقَّيْنِ عَلَى أَنَّ الْمَهْمَلَ لَا يَقَعُ فِي كَلَامِ اللَّهِ سبحانه ؛ فأما في قوله تعالى : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ ﴾ ^(١) فيمكن أن تكون استفهامية للتعجب ، والتقدير « فبأى رحمة » ؟ فجعل الزائد مهملاً ، وليس كذلك ، لأن الزائد ما أتى به لغرض التقوية والتوكيد ، والمهمل ما لم تضعه العرب ، وهو ضد المستعمل ، وليس المراد من الزيادة- حيث ذكرها النحويون - إهمال اللفظ ، ولا كونه لغوا فتحتاج إلى التكبُّب عن التعبير بها إلى غيرها ؛ فإنهم إنما سَمَّوْا « ما » زائدة هنا لجواز تعدّي العامل قبلها إلى ما بعدها ، لا لأنها ليس لها معنى .

وأما ما قاله في الآية : إنها للاستفهام التعجبي ، فقد انتقد عليه بأن قيل : تقديره « فبأى رحمة » دليل على أنه جعل « ما » مضافة للرحمة ، وأسماء الاستفهام التعجبي لا يضاف منها غير « أَيْ » ؛ وإذا لم تصح الإضافة كان ما بعدها بدلاً منها ، والمبدل من اسم الاستفهام يجب معه ذكر همزة الاستفهام ، وليست الهمزة مذكورة ، فدل على بطلان هذه الدعوى ؛ وسنبين في فصل زيادة الحروف الفائدة في إدخال « ما » هاهنا ، فانظره هناك .

تذبيحات

الأول : أهل الصناعة يُطلقون الزائد على وجوه : منها ما يتعلق به هنا وهو ما أقحم تأكيذاً ،

نحو : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ ﴾ ^(٢) . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً ﴾ ^(٣) . ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ ^(٤) .

(٢) سورة آل عمران ١٥٩

(٤) سورة الشورى ١١

(١) سورة آل عمران ١٥٩

(٣) سورة البقرة ٢٦

ومعنى كونه زائداً أن أصل المعنى حاصل بدونه دون التأكيّد ؛ فبوجوده حصل فائدة التأكيّد ، والواضع الحكيم لا يضع الشيء إلا لفائدة .

وسئل بعض العلماء عن التوكيد بالحرف ، ومأمعنا ؛ إذ إسقاط الحرف لا يخلّ بالمعنى ؟ فقال : هذا يعرفه أهل الطباع إذ يجدون أنفسهم بوجود الحرف على معنى زائد لا يجدونه بإسقاط الحرف ، قال : ومثال ذلك مثال العارف بوزن الشعر طبعاً ؛ فإذا تغير البيت بزيادة أو نقص أنكره وقال : أجد في نفسى على خلاف ما أجده بإقامة الوزن ، فكذلك هذه الحروف تتغير نفس المطبوع عند نقصانها ، ويجد نفسه بزيادتها على معنى بخلاف ما يجدها بنقصانها .

الثانى : حق الزيادة أن تكون فى الحرف وفى الأفعال كما سبق ؛ وأما الأسماء فنصّ أكثر النحويين على أنها لا تزداد . ووقع فى كلام كثير من المفسرين الحكم عليها فى بعض المواضع بالزيادة ، كقول الزمخشري فى قوله تعالى : ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ^(١) : إن اسم الجلالة مقحم ، ولا يتصوّر مخادعتهم لله تعالى ^(٢) .

الثالث : حقها أن تكون آخرًا وحشوا ؛ وأما وقوعها أولاً فلما فيه من التناقض ، إذ قضية الزيادة إمكان أطراحها ، وقضية التصدير الاهتمام ، ومن ثم ضُغف قول بعضهم بزيادة « لا » فى قوله تعالى : ﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ ^(٣) . وأبعد منه قول آخر : إنها بمعنى « إلا » ، والظاهر أنها ردّ لكلام تقدم فى إنكار البعث ، أى ليس الأمر كما تقولون ، ثم قال بعده : ﴿ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ ^(٣) ، وعليه فيجوز الوقف على « لا » ، وفيه بعد .

فصل

[في حروف الزيادة]

الزيادة إما أن تكون لتأكيد النفي ، كالباء في خبر ليس وما ، أو لتأكيد الإيجاب ، كاللام الداخلة على المبتدأ .

وحروف الزيادة سبعة : إن ، وأن ، ولا ، وما ، ومن ، والباء ، واللام . بمعنى أنها تأتي في بعض الموارد زائدة ؛ لأنها لازمة للزيادة . ثم ليس المراد حصر الزوائد فيها ، فقد زادوا الكاف وغيرها ؛ بل المراد أن الأكثر في الزيادة أن تكون بها .

[زيادة « إن »]

فأما إن الخفيفة فتطرد زيادتها مع ما النافية ، كقول امرئ القيس ^(١) :

حَلَفْتُ لَهَا بِاللَّهِ حَلْفَةً فَاجِرٍ لَنَأْمُوا مَا إِنْ مِنْ حَدِيثٍ وَلَا صَالٍ

أي فما حديث . فزاد « إن » للتوكيد ، قال الفراء : إن الخفيفة زائدة ، فجمعوا بينها وبين ما النافية ، تأكيذا للنفي ، فهو بمنزلة تكرارها ، فهو عند الفراء من التأكيذ اللفظي ، وعند سيويوه من التأكيذ المعنوي .

وقيل : قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِيمَا إِنْ مَكَنَّاكُمْ فِيهِ ﴾ ^(٢) : إنها زائدة .

وقيل نافية ؛ والأصل « في الذي ما مكنناكم فيه » بدليل : ﴿ مَكَنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ ﴾ ^(٣) ؛ وكأنه إنما عدل عن « ما » لئلا تتكرر فيثقل اللفظ .

ووهم ابن الحاجب ؛ حيث زعم أنها تزداد بعد « لما » الإيجابية ؛ وإنما تلك في « أن » المفتوحة .

(٢) سورة الأنعام ٢٦

(١) ديوانه ٣٢

(٣) سورة الأنعام ٦

[زيادة «أن»]

وأما أن المفتوحة قتراد بعد لما الظرفية ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئًا بِهِمْ ﴾ ^(١) ، وإنما حكموا بزيادتها ؛ لأن « لما » ظرف زمان ؛ ومعناها وجود الشيء لوجود غيره ؛ وظروف الزمان غير المتمكنة لا تضاف إلى المفرد ، « وأن » المفتوحة تجعل الفعل بعدها في تأويل المفرد ؛ فلم تبق « لما » مضافة إلى الجمل ؛ فلذلك حكموا بزيادتها .

وجعل الأخفش من زيادتها قوله تعالى : ﴿ وَمَا لَنَا إِلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ ﴾ ^(٢) ، ﴿ وَمَا لَنَا إِلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ^(٣) . وقيل : بل هي مصدرية ؛ والأصل « وما لنا في ألا نفعل كذا » ! فليست زائدة ؛ لأنها عملت النصب في المضارع .

[زيادة «ما»]

وأما « ما » قتراد بعد خمس كلمات من حروف الجر ؛ قتراد بعد « من » و « عن » غير كافة لها عن العمل ، وتزاد بعد الكاف ، ورب ، والباء ؛ كافة وغير كافة أخرى .

والكافة إما أن تكف عن عمل النصب والرفع ؛ وهي المتصلة بإن وأخواتها ؛ نحو : ﴿ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ ﴾ ^(٤) . ﴿ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ ﴾ ^(٥) . وجعلوا منها : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ ^(٦) ؛ ويحتمل أن تكون موصولة بمعنى « الذي » و « العلماء » خبر ، والعائد مستتر في « يخشى » ، وأطلقت « ما » على جماعة العقلاء ،

(٢) سورة إبراهيم ١٢

(٤) سورة النساء ١٧١

(٦) سورة فاطر ٢٨ .

(١) سورة العنكبوت ٢٣

(٣) سورة البقرة ٢٤٦

(٥) سورة الأتفال ٦

كما في قوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾^(١).

وإما أن تكف عن عمل الجر، كقوله تعالى: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾^(٢) وقيل: بل موصولة؛ أي «كالذي هو لهم آلهة».

وغير الكافة تقع بعد الجازم؛ نحو: ﴿وَأَيُّ مَا يَنْزَعُكَ﴾^(٣)، ﴿أَيُّ مَا تَدْعُوا﴾^(٤).

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا﴾^(٥).

وبعد الخافض؛ حرفاً كان، نحو: ﴿فِيمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ﴾^(٦)، ﴿فِيمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ﴾^(٧).

﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾^(٨)، ﴿مِمَّا خَطِئْتُمْ بِهِمْ﴾^(٩)، أو اسماً، نحو: ﴿أَيُّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ﴾^(١٠).

وتزاد بعد أداة الشرط؛ جازمة كانت، نحو: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمْ

الْمَوْتُ﴾^(١١). أو غير جازمة، نحو: ﴿حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمُومُهُمْ﴾^(١٢).

وبين المتبوع وتابعه؛ نحو: ﴿مَثَلًا مَا بَعُوضَةً﴾^(١٣)، قال الزجاج: ما حرف زائد

للتوكيد عند جميع البصريين. انتهى.

ويؤيده سقوطها في قراءة ابن مسعود. و«بعوضة» بدل. وقيل «ما» اسم نكرة

صفة لـ «مثلاً»، أو بدل و«بعوضة» عطف بيان.

وقيل في قوله: ﴿فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ﴾^(١٤) بأنها زائدة لمجرد تقوية الكلام؛ نحو:

- | | |
|----------------------|------------------------|
| (١) سورة النساء ٣ | (٢) سورة الأعراف ١٢٨ |
| (٣) سورة الأعراف ٢٠٠ | (٤) سورة الإسراء ١١٠ |
| (٥) سورة النساء ٧٨ | (٦) سورة آل عمران ١٥٩ |
| (٧) سورة المائدة ١٣ | (٨) سورة «المؤمنون» ٤٠ |
| (٩) سورة نوح ٢٥ | (١٠) سورة القصص ٢٨ |
| (١١) سورة النساء ٧٨ | (١٢) سورة فصلت ٢٠ |
| (١٣) سورة البقرة ٢٦ | (١٤) سورة البقرة ٨٨ |

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ﴾^(١) و « قليلا » فى معنى النفى ، أولافادة التقليل كما فى نحو « أكلت أكلاما » ، وعلى هذا فىكون : « قليلا بعد قليل » .

[زيادة « لا »]

وأما « لا » فتزاد مع الواو بعد النفى ، كقوله تعالى : ﴿وَلَا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾^(٢) ؛ لأن « استوى » من الأفعال التى تطلب اسمين أى لا تليق بفاعل واحد ؛ نحو « اختصم » ، فلم أن « لا » زائدة . وقيل : دخلت فى السيئة لتحقيق أنه لا تساوى الحسنه السيئة ، ولا السيئة الحسنه .

وتزاد بعد « أن » المصدرية ؛ كقوله : ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾^(٣) ؛ أى ليعلم ؛ ولولا تقدير الزيادة لا نعكس المعنى ؛ فزيدت « لا » لتوكيد النفى . قاله ابن جنى .

واعترضه ابن مذكون ؛ بأنه ليس هناك نفى حتى تكون هى مؤكدة له . ورد عليه السكوفى بأن هنا ما معناه النفى ؛ وهو ماوقع عليه العلم من قوله : ﴿أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ﴾^(٤) ؛ ويكون هذا من وقوع النفى على العلم ، والمراد ماوقع عليه العلم كقوله : « ما علمت أحداً يقول ذلك إلا زيدا » فأبدلت من الضمير الذى فى « يقول » ما بعد « إلا » ؛ وإن كان البدل لا يكون إلا فى النفى ؛ فكما كان النفى هنا واقعاً على العلم وحكم لما وقع عليه العلم بحكمه ، كذلك يكون تأكيد النفى أيضاً على ماوقع عليه العلم ، ويحكم العلم بحكم النفى ، فيدخل على العلم تأكيد النفى ، والمراد به تأكيد نفى ما دخل عليه العلم .

(٢) سورة فصلت ٣٤

(١) سورة آل عمران ١٥٩

(٣) سورة الحديد ٢٩

وإذا كانوا قد زادوا « لا » في الموجب المعنى لما توجه عليه فعل منفي في المعنى ؛ كقوله تعالى : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ ﴾ ^(١) ، المعنى « أن تسجد » ، فزاد « لا » تأكيداً للنفي المعنوي الذي تضمنه « منعك » ؛ فكذلك تزداد « لا » في العلم الموجب تأكيداً للنفي الذي تضمنه الموجه عليه .

قال السَّلَوِيُّ بين : وأما زيادة « لا » في قوله : ﴿ لَيْسَ يَلْعَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ ﴾ ^(٢) ؛ فشيء متفق عليه ؛ وقد نصّ عليه سيبويه ، ولا يمكن أن تحمل الآية إلا على زيادة « لا » فيها ، لأن ما قبله من الكلام وما بعده يقتضيه .

ويدل عليه قراءة ابن عباس وعاصم والحميدى : « لَيَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ » وقرأ ابن مسعود وابن جبير « لِكَيْ يَعْلَمَ » وهاتان القراءتان تفسير لزيادتها ؛ وسبب النزول يدل على ذلك أيضاً ؛ وهو أن المشركين كانوا يقولون : إن الأنبياء منّا ، وكفروا مع ذلك بهم ، فأنزل الله تعالى : ﴿ لَيْسَ يَلْعَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ ... ﴾ ^(٣) الآية .

ومنه : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَنْ لَا تَسْجُدَ ﴾ ^(٤) ، بدليل الآية الأخرى : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ ﴾ ^(٥) ؛ وليس المعنى : ما منعك من ترك السجود ؟ فإنه ترك ؛ فلا يستقيم التوبيخ عليه .

وقيل : ليست بزائدة من وجهين :

أحدهما : أن التقدير مادعاك إلى ألا تسجد ؟ لأن الصارف عن الشيء دافع إلى تركه ، فيشتركان في كونهما من أسباب عدم الفعل .
الثاني : أن التقدير ما منعك من ألا تسجد .

(٢) سورة الحديد ٢٩
(٤) سورة الأعراف ١٢

(١) سورة الأعراف ١٢
(٣) سورة الحديد ٢٩٠
(٥) سورة ص ٧٥ .

وهذا أقرب مما قبله ؛ لأن فيه إبقاء المنع على أصله ، وعدم زيادتها أولى ؛ لأن حذف حرف الجر مع « أن » كثير كثرة لا تصل إلى المجاز ، والزيادة في درجتها .

قالوا : وفائدة زيادتها تأكيد الإثبات ؛ فإن وضع « لا » نفي ما دخلت عليه ، فهي معارضة للإثبات ؛ ولا يخفى أن حصول الحكم مع المعارض أثبت مما إذا لم يعترضه المعارض ؛ أو أسقط معنى ما كان من شأنه أن يسقط .

ومنه : ﴿ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا إِلَّا تَتَّبِعَنِ ﴾ ^(١) .

قيل : وقد تزايد قبل القسم ، نحو : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ﴾ ^(٢) .
﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ ^(٣) . ﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ ^(٤) ؛ أى أقسم ببنيتها .

وضُفَّ في الأخيرة ، بأنها وقعت صدرا ، بخلاف ما قبلها ، لوقوعها بين الفاء ومعطوفها .

وقيل : زيدت توطئة لنفي الجواب ؛ أى لا أقسم بيوم القيامة ، فلا يتركون سُدى .
ورد بقوله تعالى : ﴿ لَا أُقْسِمُ بِهِذَا الْبَلَدِ ... ﴾ ^(٥) الآيات ؛ فإن جوابه مثبت ، وهو : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾ ^(٥) .

وقيل غير زائدة .

وقيل : هي ردّ لكلام قد تقدّم من الكفار ؛ فإن القرآن كله كالسورة الواحدة ؛ فيجوز أن يكون الادعاء في سورة ، والردّ عليهم في أخرى ؛ فيجوز الوقف على « لا » هذه .

(٢) سورة الماعز ٤٠

(٤) سورة القيامة ١

(١) سورة طه ٩٢، ٩٣

(٣) سورة الواقعة ٧٥

(٥) سورة البلد ١، ٤

واختلف في قوله تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ ﴾ ^(١) .

ف قيل : زائدة ليصحّ المعنى ؛ لأنّ المحرّم الشّرك .

وقيل : نافية أو ناهية .

وقيل : الكلام تمّ عند قوله : ﴿ حَرَّمَ رَبُّكُمْ ﴾ ، ثم ابتدأ : ﴿ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ^(٢) ؛ فيمن فتح الهمزة ^(٣) ، ف قيل « لا » زائدة ، وإلا لكان عذراً للكفار .

ورده الزجاج بأنها نافية في قراءة الكسر ^(٤) ، فيجب ذلك في قراءة الفتح .

وقيل : نافية وحذف المعطوف ؛ أى وأنهم يؤمنون .

وقوله تعالى : ﴿ وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ ^(٥) .

وقيل : « لا » زائدة ، والمعنى : ممتنع ^(٦) على أهل قرية قدرنا إهلاكهم لكفرهم أنهم لا يرجعون عن الكفر إلى قيام الساعة .

وعلى هذا ف « حرام » خبر مقدم وجوبا ؛ لأنّ المخبر عنه « أن وصلتها » .

وقوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ

(١) سورة الأنعام ١٥١

(٢) سورة الأنعام ١٠٩

(٣) هي رواية العراقيين قاطبة عن أبي بكر من طريق يحيى ، قال صاحب إتحاف فضلاء البشر ٢١٥ « على أنها بمعنى لعل ؛ وهي في مصحف أبي كذلك ، أو على تقدير لام العلة ؛ والتقدير : إنا الآيات التي يقترحونها عند الله ؛ لأنها إذا جاءت لا يؤمنون ، وما يشعركم اعتراض بين العلة والمعلول » .

(٤) هي قراءة ابن كثير وأبي عمرو وأبي بكر ويعقوب وخلف . الإتحاف ٢١٥

(٥) سورة الأنبياء ٩٥

(٦) ت « يمتنع » .

يَقُولُ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ
الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ . وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الصَّلَاطَ وَالنَّبِيِّينَ
أَرْبَابًا ﴿١﴾ على قراءة من نصب ﴿يَأْمُرُكُمْ﴾ (٢) عطفًا على ﴿يُؤْتِيهِ﴾ فـ « لا » زائدة
مؤكدة لمعنى النفي السابق .

وقيل : عطف على ﴿يَقُولُ﴾ ، والمعنى : ما كان لبشر أن ينصبه الله للدعاء إلى عبادته
وترك الأنداد ، ثم يأمر الناس بأن يكونوا عبادًا له ؛ ويأمرهم أن تتخذوا الملائكة
والنبيين أربابًا .

وقيل : ليست زائدة لأنه عليه الصلاة والسلام كان ينهى قريشًا عن عبادة الملائكة ،
وأهل الكتاب عن عبادة عَزِيزٍ وَعِيسَى ؛ فلما قالوا له : ألتخذك ربًّا ؟ قيل لهم :
ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكمة ، ثم يأمر الناس بعبادته ، وبينها من
عبادة الملائكة والأنبياء .

[زيادة « من »]

وأما « من » فإنها تزداد في الكلام الوارد بعد نفي أو شبهه ؛ نحو : ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ
وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ﴾ (٣) . ﴿ مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَافُوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى
مِنْ فُطُورٍ ﴾ (٤) . ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ ﴾ (٥) .

- (١) سورة آل عمران ٧٩ ، ٨٠ (٢) قال صاحب كتاب إتحاف فضلاء
البشر ١٧٧ : « واختلف في ﴿ وَلَا يَأْمُرُكُمْ ﴾ ، فابن عامر وعاصم وحزمة وكذا يعقوب وخلف بنصب
الراء ؛ أى ولاله أن يأمرهم ، فأن مضمرة ، أو منصوب بالعطف على ﴿ يُؤْتِيهِ ﴾ ، والفاعل ضمير
« بشر » ، ووافقهم الحسن واليزيدى والأعمش ؛ والباقون بالرفع على الاستثنا ، وفاعله ضمير اسم الله
تعالى أو بشر » (٣) سورة الأنعام ٥٩
(٤) سورة الملك ٣
(٥) سورة المؤمنون ٩١

وجوز الأخفش زيادتها مطلقاً ؛ محتجاً بنحو قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيٍّ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ^(١) . ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ﴾ ^(٢) . ﴿ يُحَلِّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ ﴾ ^(٣) . ﴿ وَيُكْفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ ^(٤) .

وأما « ما » في نحو قوله تعالى : ﴿ فَمَا رَحْمَةٌ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ ﴾ ^(٥) ، وقوله : ﴿ فَمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ ﴾ ^(٦) « ما » في هذين الموضعين زائدة ؛ إلا أن فيها فائدة جلية ؛ وهى أنه لو قال : فبرحمة من الله لت لهم ، وبنقضهم ، جوزنا أن اللين واللعن كانا للسينين المذكورين ولغير ذلك ، فلما أدخل « ما » في الموضوعين قطعنا بأن اللين لم يكن إلا للرحمة ، وأن اللعن لم يكن إلا لأجل نقض الميثاق .

[زيادة الباء]

وأما الباء فتزاد في الفاعل ؛ نحو « كفى بالله » ، أى كفى الله ، ونحو « أحسن بزيدي » ! إلا أنها في التعجب لازمة . ويجوز حذفها في فاعل ﴿ كفى بالله شهيداً ﴾ ، ﴿ وكفى بنا حاسبين ﴾ ^(٧) وإنما هو « كفى الله » و « كفىنا » .

وقال الزجاج : دخلت لتضمن « كفى » معنى اكتفى ؛ وهو حسن .

وفي المفعول ، نحو : ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ ^(٨) ؛ لأن الفعل يتعدى بنفسه ؛ بدليل قوله : ﴿ وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ ^(٩) ، ونحو : ﴿ وَهَزَى إِلَيْكَ جِدْعَ النَّخْلَةِ ﴾ ^(١٠) . ﴿ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ﴾ ^(١١) . ﴿ فَلَيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ﴾ ^(١٢) .

- | | |
|---------------------|------------------------------|
| (٢) سورة نوح ٤ | (١) سورة الأنعام ٣٤ |
| (٤) سورة البقرة ٢٧١ | (٣) سورة الحج ٢٣ ، والكهف ٣١ |
| (٦) سورة المائدة ١٣ | (٥) سورة آل عمران ١٥٩ |
| (٨) سورة البقرة ١٩٥ | (٧) سورة الأنبياء ٤٧ |
| (١٠) سورة مريم ٢٥ | (٩) سورة الحجر ١٩ |
| (١٢) سورة الحج ١٥ | (١١) سورة العلق ١٤ |

﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْخَادِ بَطْلٌ﴾ ^(١) . ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ ^(٢) ، أى يمسح السوق مسحاً .

وقيل فى الأول : ضَمَنَ « تَلَقَّوْا » معنى « تَفَضُّوا » .

وقيل : المعنى لا تلقوا أنفسكم بسبب أيديكم ؛ كما يقال : لا تنفسد أمرك برأيك .

وقيل فى قوله تعالى : ﴿تَنَبَّأُ بِالدُّهْنِ﴾ ^(٣) : إن الباء زائدة ؛ والمراد : « تنبت الدهن » .

وفى المبتدأ ؛ وهو قليل ؛ ومنه عند سيويوه : ﴿بِأَيِّكُمْ الْمُفْتُونُ﴾ ^(٤) .

وقال أبو الحسن : ﴿بِأَيِّكُمْ﴾ متعلق باستقرار مخذوف مخبر عنه بالمفتون ؛

ثم اختلف فقيل : « المفتون » مصدر بمعنى الفتنة ، وقيل : الباء ظرفية ، أى فى أيكم الجنون .

وفى خبر المبتدأ ؛ نحو : ﴿جَزَاهُ سَيِّئَةً مِّمَّنْهَا﴾ ^(٥) . وقال أبو الحسن : الباء زائدة ، بدليل قوله فى موضع آخر : ﴿وَجَزَاهُ سَيِّئَةً سَيِّئَةً مِّمَّنْهَا﴾ ^(٦) .

وفى خبر ليس : كقوله تعالى : ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُخْسِيَ الْمَوْتَى﴾ ^(٧) . ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ ^(٨) .

وقال ابن عصفور فى " المقرب " ^(٩) : وتزاد فى نادر كلام لا يُقاس عليه ، كقوله

تعالى : ﴿بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُخْسِيَ الْمَوْتَى﴾ ^(٧) . انتهى .

- | | |
|---|---------------------------------|
| (١) سورة الحج ٢٥ | (٢) سورة من ٣٣ |
| (٣) سورة المؤمنون ٢٠ | (٤) سورة ن ٦ والمفتون : المجنون |
| (٥) سورة يونس ٢٧ | (٦) سورة الشورى ٤٠ |
| (٧) سورة القيامة ٤٠ | (٨) سورة الزمر ٣٦ |
| (٩) المقرب فى النحو ؛ لابن عصفور على بن مؤمن الحضرمي ؛ المتوفى سنة ٦٦٣ ؛ وعليه شرح له ؛ ومنه نسخ خطية بدار الكتب المصرية . وانظر كشف الظنون . | |

ومراده الآية التي أولها : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزِ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ ﴾ ^(١) ، ولذا صرح به ابن أبي الربيع ^(٢) في القراءتين .

ويدل على الزيادة الآية التي في : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ ^(٣) .

وزعم ابن النحاس ^(٤) أنه أراد الآية الأولى ، أعنى قوله : ﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾ ^(٥) ، فاعتذر عنه بأنه : إنما قال ذلك - وإن كان في خبر ليس - لأن « ليس » هنا بدخول الهمزة عليها لم يبق معناها من النفي ، فصار الكلام تقريراً ويعنى بقوله : « في نادر » في القياس لا في الاستعمال .

[زيادة اللام]

وأما اللام ، فتزاد معترضة بين الفعل ومفعوله ؛ كقوله :

وملكت ما بين العراق ويثرب مُلْكًا أجار لمسلم ومعاهد

وجعل منه المبرد قوله تعالى : ﴿ رَدِفَ لَكُمْ ﴾ ^(٦) ، والأكثر أن ضَمَّنَ ﴿ رَدِفَ ﴾ معنى : « اقترب » ؛ كقوله : ﴿ أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ﴾ ^(٧) .

واختلف في قوله تعالى : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ ﴾ ^(٨) ، فقيل زائدة ، وقيل للتعليل والمفعول محذوف ، أى يريد الله التبيين وليبين لكم ويهديكم ، أى فيجمع لكم بين الأمرين .

(١) سورة الأحقاف ٢٣ (٢) هو أحمد بن سليمان الكتاني الأندلسي .

مسند القراء بالأندلس توفي سنة ٤٦٠ . طبقات القراء ١ : ٥٨

(٤) كذا في م ، وفي ت : « وظن »

(٦) سورة النمل ٧٢

(٨) سورة النساء ٢٦ .

(١) سورة الأحقاف ٢٣

(٣) سورة الإسراء ٩٩

(٥) سورة القيامة ٤٠

(٧) سورة الأنبياء ١

وقال الزخشرى فى قوله تعالى : ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَن أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ ^(١) ،
 فى سورة الزمر ^(٢) : لك أن تجعل اللام مزيدة مثلها فى « أردت لأن أفعل » ، ولا تزداد
 إلا مع « أن » خاصة دون الاسم الصريح ؛ كأنها زيدت عوضاً من ترك الأصل إلى ما يقوم
 مقامه ؛ كما أنت ^(٣) السين فى « أسطاع » يعنى بقطع الهمزة عوضاً من ترك الأصل
 الذى هو « أطوع » والدليل على هذا بجيئه بغير لام ؛ فى قوله تعالى : ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَن أَكُونَ
 أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ ^(٤) . انتهى .

وزيادتها فى « أردت لأن أفعل » لم يذكره أكثر النحويين ؛ وإنما تعرضوا لها
 فى إعراب : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾ ^(٥) .

وتزاد لتقوية العامل الضعيف إما لتأخره ، نحو : ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ
 يَرْهَبُونَ ﴾ ^(٦) ، ونحو : ﴿ إِن كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ ^(٧) .
 أو لكونه فرعاً فى العمل ، نحو : ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ ^(٨) ، ﴿ فَقَالَ لِمَا يُرِيدُ ﴾ ^(٩)
 ﴿ نَزَّاعَةً لِلشَّوَى ﴾ ^(١٠) .

وقيل منه : ﴿ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ ﴾ ^(١١) ، وقيل : بل يتعلق بمستقر محذوف
 صفة لعدو ؛ وهى للاختصاص .

وقد اجتمع ^(١٢) التأخر والفرعية ، فى نحو : ﴿ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴾ ^(١٣) .

(٢) الكشف ٤ : ٦٣

(١) سورة الزمر ١٢

(٣) عبارة الكشف : « كما عوض السين » .

(٥) سورة النساء ٢٦

(٤) سورة الزمر ١٢

(٧) سورة يوسف ٤٣

(٦) سورة الأعراف ١٥٤

(٩) سورة البروج ١٦

(٨) سورة البقرة ٩١

(١١) سورة طه ١١٧

(١٠) سورة المعارج ١٦

(١٣) سورة الأنبياء ٧٨ .

(١٢) م : « يجتمع »

وأما قوله تعالى : ﴿ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ﴾ ^(١) ، فإن كان « نذيراً » ^(٢) بمعنى المنذر ، فهو مثل : ﴿ فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ ^(٣) ، وإن كان بمعنى الإنذار ، فاللام مثلها في : « سقيا لزيد » .

وقد تجيء اللام للتوكيد بعد النفي ، وتسمى لام الجحود ، وتقع بعد « كان » مثل : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ ﴾ ^(٤) ، وهذه اللام لتأكيد النفي ، كالباء الداخلة في خبر « ليس » ، ومعنى قوله : « إنها لتأكيد » أنك إذا قلت : « ما كنت أضربك » ، بغير لام ، جاز أن يكون الضرب مما يجوز كونه ؛ فإذا قلت : « ما كنت لأضربك » ؛ فاللام جعلت بمنزلة ما لا يكون أصلاً .

وقد تأتى مؤكدة في موضع ، وتحذف في آخر لاقتضاء المقام ذلك . ومن أمثله قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ . ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ ^(٥) ، فإنه سبحانه أكد إثبات الموت الذي لا ريب فيه تأكيدين ، وأكّد إثبات البعث الذي أنكروه تأكيذاً واحداً ، وكان المتبادر العكس ، لأن التأكيّد إنما يكون حيث الإنكار ؛ لكن في النظم وجود :

أحدها : أن البعث لما قامت البراهين القطعية عليه صار المنكر له كالمنكر للبيهيات ؛ فلم يحتاج إلى تأكيد ؛ وأما الموت فإنه - وإن أقروا به - لكن لما لم يعلموا ما بعده نزلوا منزلة من لم يقرب به ؛ فاحتاج إلى تأكيد ذلك ؛ لأنه ^(٦) قد يُنزل المنكر كغير المنكر إذا كان معه ما لو تأمله ارتدع من الإنكار ^(٧) . ولما ظهر على المخاطبين من التماهى في الغفلة والإعراض عن العمل

(٢) ت « النذير »

(٤) سورة الأنفال ٣٣

(٦) ت : « وذلك أن قه ينزل المنكر » .

(١) سورة المدثر ٣٦

(٣) سورة البروج ١٦

(٥) سورة المؤمنون ١٥ ، ١٦

(٧) م : « عن إنكار » .

لما بعده والانهمالك في الدنيا ، وهى من أمارات إنكار الموت ، فلهذا قال : « ميتون » ولم يقل : تموتون ؛ وإنما أكد إثبات البعث الذى أنكروه تأكيداً واحداً ، لظهور أدلته المزيلة للإنكار ، إذا تأملوا فيها ، ولهذا قيل : « تبعثون » على الأصل ، وهو الاستقبال بخلاف « تموتون » .

الثانى : أن دخول اللام على « ميتون » أحق ؛ لأنه تعالى يرد على الدهرية القائلين ببقاء النوع الإنسانى ، خلفاً عن سلف ؛ وقد أخبر تعالى عن البعث فى مواضع من القرآن ، وأكده وكذب منكره ؛ كقوله : ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ﴾ ^(١) قاله الشيخ تاج الدين بن الفرقاح ^(٢) .

الثالث : أنه لما كان العطف يقتضى الاشتراك فى الحكم استغنى به عن إعادة لفظ اللام ؛ وكأنه قيل : « لتبعثون » واستغنى بها فى الثانى لذكرها فى الأول .

الرابع : قال الزمخشري : بولغ فى تأكيد الموت ؛ تنبيهاً للإنسان أن يكون الموت نصب عينيه ، ولا يغفل عن ترقبه ؛ فإن مآله إليه ؛ فكأنه أكد جملته ثلاث مرات ؛ لهذا المعنى لأن الإنسان فى الدنيا يسعى فيها غاية السعى ؛ حتى كأنه مغلّد ، ولم يؤكد جملة البعث إلا ؛ « إن » لأنه أبرز بصورة المقطوع به الذى لا يمكن فيه نزاع ، ولا يقبل إنكاراً .

قلت : وهذه الأجوبة من جهة المعنى ؛ وأما الصناعة فتوجب ما جاءت الآية الشريفة عليه وهو حذف اللام فى « تبعثون » ، لأن اللام تخلّص المضارع للحال ؛ فلا يجاء [به] مع يوم القيامة ، لأنه مستقبل ، ولأن « تبعثون » عامل فى الظرف المستقبل .
وأما قوله : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ ^(٣) ؛ فيمكن تأويلها بتقدير عامل .

(١) سورة النباين ٧

(٢) هو عبد الرحمن بن إبراهيم التوفى سنة ٦٩٠ .
طبقات الشافعية ٥ : ٦٠٠ .

(٣) سورة النحل ١٢٤

ونظير هذا آية الواقعة ؛ وهي قوله سبحانه : ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلَمُ تَفَكَّهُونَ﴾^(١) .
وقال سبحانه في الماء : ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ أَجَاغًا﴾^(٢) بغير لام ؛ والفرق بينهما من أربعة أوجه :

أحدها : أن صيرورة الماء ملحاً أسهل وأكثر من جعل الحرث حطاماً ، إذ الماء العذب يمر بالأرض السبخة فيصير ملحاً ، فالتوعد به لا يحتاج إلى تأكيد ، وهذا كما أن الإنسان إذا توعد عبده بالضرب بعضاً ونحوه لم يحتاج إلى تأكيد ؛ وإذا توعد بالقتل احتاج إلى تأكيد .

والثاني : إن جعل الحرث حطاماً - قلب للمادة والصورة ، وجعل الماء أجاجاً قلب : للكيفية فقط ، وهو أسهل وأيسر .

الثالث : أن « لو »^(٣) لما كانت داخلة على جملتين معلقة ثانيتهما بالأولى تعليق الجزاء [بالشرط]^(٤) أتى باللام علماً على ذلك ، ثم حذف الثاني للعلم بها ، لأن الشيء إذا علم [وشهر موقعه ، وصار مألوفاً ومأنوساً به]^(٥) لم يُبالَ بإسقاطه عن اللفظ [استغناء بمعرفة السامع]^(٦) ويساوى لشهرته حذفه وإثباته ، مع ما في حذفه من خفة اللفظ ورشاقتها ؛ لأن تقدم ذكرها - والمسافة قصيرة - يغني عن ذكرها ثانياً .

الرابع : أن اللام أَدْخِلَتْ في آية المطعوم ؛ للدلالة على أنه يقدم على أمر المشروب ، وأن الوعيد ببقده أشدّ وأصعب ، من قبل أن المشروب إنما يحتاج إليه تبعاً للمطعوم ؛ ولهذا قُدِّمَت آية المطعوم على آية المشروب . ذكر هذا والذي قبله الزمخشري .

ومن ذلك حذف اللام في قوله تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ

(١) سورة الواقعة ٦٥ ، ٧٠

(٢) الكشاف ٤ : ٢٧١ ؛ مع تصرف في العبارة (٣) تكملة من الكشاف

(٤) تكملة من الكشاف .

وَالرَّسُولِ ﴿١﴾ وإثباتها بعد قوله : ﴿ فَإِنَّ لِلَّهِ حُسْهٗ وَلِلرَّسُولِ ... ﴾ (٢) الآية ، والجواب أنك إذا عطفت على مجرور (٣) ...

القسم السابع والعشرون

باب الاشتغال

فإن الشيء إذا أضمر ثم فسر كان ألحم ، مما إذا لم يتقدم إضمار ؛ ألا ترى أنك تجد اهتزازاً في نحو قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ ﴾ (٤) .

وفي قوله : ﴿ قُلْ لَوْ أَتَمَّ تَمَلِّكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي ﴾ (٥) .

وفي قوله : ﴿ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ (٦) .

وفي قوله : ﴿ فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ﴾ (٧) - لا نجد مثله إذا قلت : وإن

استجارك أحد من المشركين فأجره . وقولك : لو تملكون خزائن رحمة ربي . وقولك :

يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَأَعَدَّ لِلظَّالِمِينَ عَذَاباً أَلِيماً ؛ وقولك : هَدَى فَرِيقًا وَأَضَلَّ

فَرِيقًا ؛ إذ الفعل المفسر في تقدير المذكور مرتين .

وكذا قوله تعالى : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ ﴾ (٨) ، ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴾ (٩) ، ونظائره ،

فهذه فائدة اشتغال الفعل عن المفعول بضميره (١٠) .

(٢) سورة الأنفال ١٤

(٤) سورة التوبة ٦

(٦) سورة الدهر ٣١

(٨) سورة الانشقاق ١

(١٠) هذا القسم جميعه ساقط من نسخة ت .

(١) سورة الأنفال ١

(٣) كذا ورد الكلام ناقصاً في الأصول .

(٥) سورة الإسراء ١٠٠

(٧) سورة الأعراف ٣٠

(٩) سورة الانقطار ١

القسم الثامن والعشرون

التعليل

بأن يُذكر الشيء معالاً ؛ فإنه أبلغ من ذكره بلا علة ، لوجهين :
أحدهما : أن العلة المنصوصة قاضية بعموم المعلول ؛ ولهذا اعترفت الظاهرية بالقياس في
العلة المنصوصة .

الثاني : أن النفوس تنبعث إلى نقل الأحكام المعللة ، بخلاف غيرها ؛ وغالب التعليل في
القرآن فهو على تقدير جواب سؤال اقتضته الجملة الأولى ؛ وهو سؤال عن العلة .
ومنه : ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ ^(١) . ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ ^(٢) .
﴿ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾ ^(٣) .
وتوضيح التعليل أن الفاء السببية لو وضعت مكان « إِنَّ » لحسن .

والطرق الدالة على العلة أنواع :
الأول : التصريح بلفظ الحكم ، كقوله تعالى : ﴿ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ ﴾ ^(٤) .
وقال : ﴿ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ ^(٥) ، والحكمة هي العلم النافع .
والعمل الصالح .

(٢) سورة الحج ١

(٤) سورة القمر ٥

(١) سورة يوسف ٥٣

(٣) سورة التوبة ١٠٣

(٥) سورة النساء ١١٣

الثانى : أنه فعل كذ لكذا ، أو أمر بكذا لكذا ، كقوله تعالى : ﴿ ذَلِكْ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ ^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا ﴾ ^(٢) .

﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ ﴾ ^(٣) .

﴿ لِنَسَلًا يَعْلَمَ أَهْلَ الْكِتَابِ ﴾ ^(٤) .

﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ ﴾ ^(٥) .

﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَ بِهِ ﴾ ^(٦) .

﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ ﴾ ^(٧) ، وهو كثير .

فإن قيل : اللام فيه للعاقبة ، كقوله تعالى : ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ

عَدُوًّا وَحَرَمًا ﴾ ^(٨) ، وقوله : ﴿ لِيَجْعَلَ مَا يُبْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً ﴾ ^(٩) ، وإنما قلنا ذلك لأن

أفعال الله تعالى لا تعلل !

فالجواب أن معنى قولنا : إن أفعال الله تعالى لا تعلل ، أى لا تجب ؛ ولكنها لا تخلو عن

الحكمة ، وقد أجاب الملائكة عن قولهم : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا ﴾ ^(١٠) بقوله :

﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ^(١١) .

ولو كان فعله ^(١٢) سبحانه مجرداً عن الحكم والغايات لما يسأل الملائكة عن حكمته ،

ولم يصح الجواب بكونه يعلم ما لا يعلمون من الحكمة والمصالح ، وفرق بين العلم والحكمة ؛

(٢) سورة الطلاق ١٢

(٤) سورة البقرة ١٤٣

(٦) سورة آل عمران ١٢٦

(٨) سورة الحج ٥٣

(١٠) م : « تعليمه تصحيف »

(١) سورة المائدة ٩٧

(٣) سورة الحديد ٢٩

(٥) سورة الأنفال ١١

(٧) سورة القصص ٨

(٩) سورة البقرة ٣٠

ولأن لام العاقبة إنما تسكون في حق من يجهل العاقبة ، كقوله : ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ ^(١) ؛ وأما مَنْ هو بكل شيء عليم فمستحيلة في حقه ؛ وإنما اللام الواردة في أحكامه وأفعاله لام الحكمة والغاية المطلوبة من الحكمة . ثم قوله : ﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ هو تعليل لقضاء الله بالتقاطه وتقديره لهم ، فإن التقاطهم له إنما كان بقضائه وقدره ، وذكر فعلهم دون قضائه ؛ لأنه أبلغ في كونه حزنًا لهم وحسرة عليهم .

قاعدة تفسيرية ^(٢) :

حيث دخلت واو العاطف على لام التعليل فله وجهان :
أحدهما : أن يكون تعليلًا معللًا محذوف ، كقوله تعالى : ﴿ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا ﴾ ^(٣) ؛ فالمعنى وللإحسان إلى المؤمنين فعل ذلك .
الثاني : أن يكون معطوفًا على علة أخرى ، مضمرة ليظهر صحة العطف ، كقوله تعالى : ﴿ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى ﴾ ^(٤) ؛ التقدير : ليستدل بها المكلف على قدرته تعالى ولتجزى : وكقوله : ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ ﴾ ^(٥) ؛ التقدير : ليتصرف فيها ونعلمه .
والفرق بين الوجهين أنه في الأول عطف جملة على جملة ، وفي الثاني عطف مفرد على مفرد .

وقد يحتملها الكلام ، كقوله تعالى : ﴿ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ ﴾ ^(٦) ، فالتقدير على الأول ولنجعل آية فعلنا ذلك ، وعلى الثاني ولنبين للناس قدرتنا ولنجعل آية . ويطرد الوجهان في نظائره ويرجح كل واحد بحسب المقام ، وحذف المعلل هاهنا أرجح ، إذ لو فرض علة أخرى لم يكن بد من معلل محذوف ، وليس قبلها ما يصلح له .

(٢) هذه القاعدة بما سقطت من ت .

(٤) سورة الجاثية ٢٢

(٦) سورة البقرة ٢٥٩

(١) سورة القصص ٨

(٣) سورة الأنفال ١٢

(٥) سورة يوسف ٢١

فإن قلت : لم قدر المعلن مؤخراً ؟

قلت : فائدة هذا الأسلوب هو أن يجاء بالعلة بالواو للاهتمام بشأن العلة المذكورة ؛ لأنه إما أن يقدر علة أخرى ليعطف عليها ، فيكون اختصاص ذكرها لكونها أهم ، وإما أن يكون على تقدير معلل ؛ فيجب أن يكون مؤخراً ليشعر بتقديمه بالاهتمام .

الثالث : الإتيان بكى ؛ كقوله تعالى : ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَثِيلًا يَكُونُ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنَكُمْ ﴾ ^(١) ، فعلى سبحانه قسمة النىء بين هذه الأصناف كيلا يتداوله الأغنياء دون الفقراء .

وقوله : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنْ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ . لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ ^(٢) ، وأخبر سبحانه أنه قدر ما يصيبهم من البلاء في أنفسهم قبل أن تبرا الأنفس أو المصيبة أو الأرض أو المجموع ، ثم أخبر أن مصدر ذلك قدرته عليه وأنه هين عليه ، وحكمته البالغة التي منها ألا يخزن عباده على ما فاتهم ، ولا يفرحوا بما آتاهم ، فإنهم إذا علموا أن المصيبة فيه مقدرة كائنة ولا بد قد كتبت قبل خلقهم هان عليهم الفأث ، فلم يأسوا عليه ولم يفرحوا .

الرابع : ذكر المفعول له وهو علة للفعل المعلن به ، كقوله : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ ^(٣) .

(٢) سورة الحديد ٢٢

(١) سورة الحشر ٧

(٣) سورة النحل ٨٩ .

ونصب ذلك على المفعول له أحسن من غيره ، كما صرح به في قوله : ﴿ لَتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ ^(١) .

وقوله : ﴿ وَلَا تَمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ ^(٢) .

وقوله : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ ﴾ ^(٣) ، أى لأجل الذكر ؛ كما قال تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ ^(٤) .

وقوله : ﴿ فَالْمُتَّقِيَاتَ ذِكْرًا . عَذْرَاءٌ أَوْ نُذْرًا ﴾ ^(٥) ، أى للإعذار والإنذار .

وقد يكون معلولا بعلة أخرى ، كقوله تعالى : ﴿ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ﴾ ^(٦) ، ف « من الصواعق » يحتمل أن تكون فيه « من » لابتداء الغاية فتتعلق بمحذوف ، أى خوفاً من الصواعق ، ويجوز أن تكون معللة بمعنى اللام كما في قوله تعالى : ﴿ كَلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ ﴾ ^(٧) ، أى لغم .

وعلى كلا التقديرين ف « من الصواعق » في محل نصب ؛ على أنه مفعول له ، والعامل فيه « يجعلون » . و « حذر الموت » مفعول له أيضاً فالعامل فيه « من الصواعق » ، ف « من الصواعق » علة ل « يجعلون » . معلول لحذر الموت ، لأن المفعول الأول الذى هو « من الصواعق » يصلح جواباً لقولنا : لم يجعلون أصابعهم في آذانهم ؟ والمفعول الثانى الذى هو « حذر الموت » يصلح جواباً لقولنا : لم يخافون من الصواعق ؟ فقد ظهر ذلك .

الخامس : اللام في المفعول له وتقوم مقامه الباء ، نحو : ﴿ فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا ﴾ ^(٨) .

- (٢) سورة البقرة ١٥٠
(٤) سورة الدخان ٥٨
(٦) سورة البقرة ١٩
(٨) سورة النساء ١٦٠ .

- (١) سورة النحل ٤٤
(٣) سورة القمر ١٧
(٥) سورة المرسلات ٥٤
(٧) سورة الحج ٢٢

ومن ، نحو : ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا ﴾ ^(١) .

والكاف ، نحو : ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ ﴾ ^(٢) ، وقال : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ ^(٣) ، وقال : ﴿ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ ﴾ ^(٤) ، أى لإرسالنا وتعليمنا .

السادس : الإتيان بإنّ ، كقوله تعالى : ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ^(٥) .

﴿ وَصَلَّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾ ^(٦) .

﴿ وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالشُّوءِ ﴾ ^(٧) .

﴿ فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا ﴾ ^(٨) .

وكقوله : ﴿ فَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّآ نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ ^(٩) ، وليس هذا

من قولهم ، لأنه لو كان قولهم لما حزن الرسول ، وإنما جرىء بالجملة لبيان العلة والسبب في أنه لا يحزنه قولهم .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ ^(١٠) والوقف على

القول في هاتين الآيتين والابتداء بإنّ لازم .

وقد يكون غلة لعل كقوله : ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا . إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ ^(١١)

وفيها وجهان لأهل المعاني .

(٢) سورة البقرة ١٥١ ، ١٥٢ ، ٢٣٩

(٤) سورة التوبة ١٠٣

(٦) سورة طه ١٠

(٨) سورة يونس ٦٥

(١) سورة المائدة ٣٢

(٣) سورة الزمل ٢٠

(٥) سورة يوسف ٥٣

(٧) سورة يس ٧٦

(٩) سورة الفرقان ٦٥ ، ٦٦

أحدها : أن سؤلهم لصرف العذاب معلل بأنه غرام ، أى ملازم الغريم ، وبأنها ساءت مستقبرا ومقاما .

الثانى : أن « ساءت » . تعليل لكونه غراما .

السابع : أن والفعل المستقبل بعدها ؛ تعليل لما قبله ، كقوله تعالى : ﴿ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا ﴾ ^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ ﴾ ^(٢) .

وقوله : ﴿ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴾ ^(٣) ؛

كأنه قيل : لمَ فاضت أعينهم من الدمع ؟ قيل : للحزن ، فقيل ^(٤) : لم حزنوا ؟ فقيل : لثلاث يجدوا .

وقوله : ﴿ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى ﴾ ^(٥) .

ونظائره كثيرة . وفى ذلك طريقتان :

أحدها للكوفيين ؛ أن المعنى لثلاث يقولوا ، ولثلاث تقول نفس .

الثانى للبصريين ؛ أن المفعول له محذوف ؛ أى كراهة أن يقولوا ، أو حذار أن يقولوا .

فإن قيل : كيف يستقيم الطريقتان فى قوله : ﴿ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى ﴾ ^(٥) ؟ فإنك إذا قدرت : « لثلاث تضل إحداها » لم يستقم عطف « فتذكر »

عليه ؛ وإن قدرت « حذار أن تضل إحداها » لم يستقم العطف أيضاً ؛ لأنه لا يصح أن تكون الضلالة علة لشهادتهما .

(٢) سورة الزمر ٥٧

(٤) ت : « فستل » .

(١) سورة الأنعام ١٥٦

(٣) سورة التوبة ٩٢

(٥) سورة البقرة ٢٨٢

قيل : بظهور المعنى يزول الإشكال ؛ فإن المقصود إذكّار إحداها الأخرى إذا ضلّت ونسيت ؛ فلما كان الضلال سبباً للإذكّار جعل موضع العلة ، تقول : « أعددت هذه الخشبة أن تميل الحائط فأدعّم بها » ؛ فإنما أعددتها للدعّم لا للميل ^(١) ؛ وأعددت هذا الدواء أن أمرض فأداوى به ونحوه ، هذا قول سيويو والبصريين .

وقال الكوفيون : تقديره في « تذكّر إحداها الأخرى » : إن ضلّت ، فلما تقدم الجزاء اتصل بما قبله ، ففتحت أن .

الثامن : « من أجل » في قوله تعالى : ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِفَيْْرِ نَفْسٍ ﴾ ^(٢) فإنه لتعليل الكتب ، وعلى هذا فيجب الوقف على : ﴿ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ ^(٣) . وظن قوم أنه لتعليل لقوله : ﴿ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ ؛ أى من أجل قتله لأخيه ؛ وهو غلط ، لأنه يشوش صحّة النظم ، ويخلّ بالفائدة .

فإن قلت : كيف يكون قتل أحد ابني آدم للآخر علة للحكم على أمة أخرى بذلك الحكم ؟ وإذا كان علة فكيف كان قتل نفس واحدة بمنزلة قاتل الناس كلهم ؟ .

قيل : إن الله - سبحانه - يجعل أقضيته وأقداره عللاً لأسبابه الشرعية وأمره ، فجعل حكمه الكوني القدرى علة لحكمة أمره الديني ؛ لأن القتل لما كان من أعلى

(١) الكتاب لسيويو ١ : ٤٣ ؛ وعبارة بعد أن أورد الآية : بنصب ﴿ فَتَذَكَّرْ ﴾ : « فانصب لأنه أمر بالإشهاد لأن تذكر إحداها الأخرى ، ومن أجل أن تذكر . فإن قال إنسان : كيف جاز أن تقول : أن تضل ولم يعد هذا للضلال والالتباس ، فإنما ذكر ﴿ أَنْ تَضِلَّ ﴾ ؛ لأنه سبب الإذكّار ؛ كما يقول الرجل : أعددت أن تميل الحائط فأدعّمه ؛ وهو لا يطلب بأعداد ذلك ميلان الحائط ؛ ولكنه أخبر بعلة الدعّم وبسببه ، وقرأ أهل الكوفة : ﴿ فَتَذَكَّرُ ﴾ رفعا وانظر الكتاب أيضاً ١ : ٧٦ ،

(٢) سورة المائدة ٣١ ، ٣٢

أنواع الظلم والفساد، فَنَحْمُ أَمْرَهُ ، وَعَظَمُ شَأْنُهُ ، وَجُعِلَ إِثْمُهُ أَعْظَمُ مِنْ إِثْمِ غَيْرِهِ ، وَنَزَلَ قَاتِلُ
النَّفْسِ الْوَاحِدَةِ مَنْزِلَةَ قَاتِلِ الْأَنْفُسِ كُلِّهَا فِي أَصْلِ الْعَذَابِ ؛ لَا فِي وَصْفِهِ .

التاسع : التعليل بلعلّ ، كقوله تعالى : ﴿ اُعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ
قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ ^(١) ، قيل : هو تعليل لقوله : ﴿ اُعْبُدُوا ﴾ ^(١) ، وقيل لقوله :
﴿ خَلَقَكُمْ ﴾ .

وقوله : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ
تَتَّقُونَ ﴾ ^(١) ؛ حيث لمح فيها معنى الرجاء رجعت إلى المخاطبين .

العاشر : ذكر الحكم الكوني أو الشرعي عقب الوصف المناسب له ، فتارة يذكر
بأن ، وتارة بالفاء ، وتارة يجرّد .

فالأول : كقوله تعالى : ﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ
خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ ^(٢) إلى قوله : ﴿ خَاشِعِينَ ﴾ . وقوله : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ .
آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴾ ^(٣) .

والثاني : كقوله : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾ ^(٤) . ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي
فَأَجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴾ ^(٥) .

والثالث : كقوله : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . أُدْخِلُوهَا بِسَلَامٍ ﴾ ^(٦) . ﴿ إِنَّ الَّذِينَ

(٢) سورة الأنبياء ٨٩

(٤) سورة المائدة ٣٨

(٦) سورة الحجر ٤٥ ، ٤٦

(١) سورة البقرة ٢١ ، ١٨٣

(٣) سورة الذاريات ١٦ ، ١٥

(٥) سورة النور ٢

آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١﴾ .

الحادى عشر : تعليله سبحانه عدم الحكم بوجود المانع منه ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ لَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ ... ﴾ (٢) الآية .

وقوله : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ ﴾ (٣) .
﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ﴾ (٤) ، أى آيات الاقتراح ، لا الآيات الدالة على صدق الرسل التى تأتى منه سبحانه ابتداء .
وقوله : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ﴾ (٥) .

وقوله : ﴿ وَلَوْ لَا أَنْزَلْ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ﴾ (٦) ، فأخبر سبحانه عما يمنع (٧) من إنزال الملك عيانا بحيث يشاهدونه ، وإن عنايته وحكمته بخلقه اقتضت منع ذلك ؛ بأنه لو أنزل عليه الملك ثم عاينوه ولم يؤمنوا به لعوجلوا بالعقوبة ، وجعل الرسول بشراً ليكنهم التلقى عنه ، والرجوع إليه . ولو جعله ملكاً ؛ فإما أن يدعه على هيئته الملكية ، أو يجعله على هيئة البشر ؛ والأول يمنعهم من التلقى عنه ، والثانى لا يحصل مقصوده ؛ إذ كانوا يقولون : هو بشر لا ملك .

الثانى عشر : إخباره عن الحكيم والغايات التى جعلها فى خلقه وأمره ، كقوله :

(٢) سورة الزخرف ٣٣

(٤) سورة الإسراء ٥٩

(٦) سورة الأنعام ٨

(١) سورة البقرة ٢٧٧

(٣) سورة النورى ٢٧

(٥) سورة فصلت ٤٤

(٧) م : « منع » .

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً...﴾ ^(١) الآية .

وقوله : ﴿أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا...﴾ ^(٢) الآيات .

وقوله : ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا...﴾ ^(٣) الآية .

وكما يقصدون البسط والاستيفاء ، يقصدون الإجمال والإيجاز ، كما قيل :

يَرْمُوزُ بِالْخُطْبِ الطُّوَالَ وَتَارَةً وَحَى الْمَلَاظِ خِفَةَ الرُّقْبَاءِ ^(٤)

وقوله : ﴿وَمِن آيَاتِهِ أَنْ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ ^(٥) .



(٢) سورة النبأ ٦

(١) سورة البقرة ٢٢

(٣) سورة النحل ٨٠

(٤) البيت لأبي دؤاد بن حريز الإباضي ؛ ذكره الجاحظ في البيان والتبيين ١ : ٤٤ ، ١٥٥

(٥) سورة الروم ٢١

الأسلوب الثاني الحذف

وهو لغة الإسقاط ؛ ومنه حذفُ الشعر إذا أخذت منه .

واصطلاحاً إسقاطُ جزء الكلام أو كله لدليل . وأما قول النحويين : الحذف لغير دليل ، ويسمى اقتصاراً ؛ فلا تحزير فيه ، لأنه لا حذف فيه بالكلية كما سنبينه فيما يلتبس به الإضمار والإيجاز .

والفرق بينهما أن شرط الحذف والإيجاز أن يكون [في الحذف] ثمّ مقدر ؛ نحو : ﴿وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ﴾ ^(١) ؛ بخلاف الإيجاز ؛ فإنه عبارة عن اللفظ القليل الجامع للمعاني الجمة بنفسه . والفرق بينه وبين الإضمار أن شرط المضمّر بقاء أثر المقدر في اللفظ ، نحو : ﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ ^(٢) . ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ﴾ ^(٣) . ﴿أَتَتْهُوَ خَيْرًا لَكُمْ﴾ ^(٤) . أى أتوا أمراً خيراً لكم ؛ وهذا لا يشترط في الحذف . ويدلّ على أنه لا بدّ في الإضمار من ملاحظة المقدر باب الاشتقاق ؛ فإنه من أضمرت الشيء : أخفيته ، قال :

* سيبقى لها في مضمّر القلب والحشا * ^(٥)

(٢) سورة الدهر ٣١
(٤) سورة النساء ١٧١ وانظر الكشاف ١: ٤٦٠

(١) سورة يوسف ٨٢
(٣) سورة الأحزاب ٢٤
(٥) بقيته :

* سَرِيرَةٌ وَدَّيَوْمَ تُنْبَلَى السَّرَائِرُ *

من أبيات نسبها صاحب اللسان (١٦٣: ٦) إلى الأحوس بن محمد الأنصاري .

وأما الحذف ؛ فمن حذف الشيء قطعه ؛ وهو يُشعر بالطرح ، بخلاف الإضمحار ، ولهذا قالوا : « أن » تنصب ظاهرة ومضمرة .

ورد ابن ميمون قول النحاة : إن الفاعل ^(١) يحذف في باب المصدر ، وقال : الصواب أن يقال : يضر ولا يحذف ؛ لأنه عمدة في الكلام .

وقال ابن جني في خاطرياته : من اتصال الفاعل بالفعل أنك تضمه في لفظ إذا عرفته نحو قم ؛ ولا تحذفه ^(٢) كحذف المبتدأ ؛ ولهذا لم يحز عندنا ما ذهب إليه الكسائي في « ضربي ، وضربت قومك » .

فصل

[في أن الحذف نوع من أنواع المجاز على المشهور]

المشهور أن الحذف مجاز ؛ وحكى إمام الحرمين ^(٣) في " التلخيص " عن بعضهم : أن الحذف ليس بمجاز ؛ إذ هو استعمال اللفظ في غير موضعه ، والحذف ليس كذلك . قال ابن عطية في تفسير سورة يوسف : وحذف المضاف هو عين المجاز أو معطيه ؛ وهذا مذهب سيوييه وغيره من أهل النظر ، وليس كل حذف مجازاً . انتهى . وقال الزنجاني في " المعيار " ^(٤) : إنما يكون مجازاً إذا تغير بسببه حكم ^(٥) ؛

(١) كذا في ت ، وفي م : « بأن » (٢) ساقطة من م

(٣) هو أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني الشافعي المعروف بإمام الحرمين ؛ توفي سنة ٤٧٨ هـ ؛ وكتابه تلخيص التقريب ؛ ذكره ابن خلكان ١ : ٨٧ هـ

(٤) هو كتاب معيار النظار في علوم الأشعار ؛ لعز الدين أبي المعالي عبد الوهاب بن إبراهيم الزنجاني ؛ منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم ١٣٦ م أدب

(٥) م : « إذا تغير به حكمه » .

فأما إذا لم يتغير به حكم ، كقولك : زيد منطلق وعمرو ، بحذف الخبر فلا يكون مجازاً
إذا لم يتغير حكم ما بقى من الكلام .

والتحقيق أنه إن أريد بالجاز استعمال اللفظ في غير موضعه فالحذف ليس كذلك ،
لعدم استعماله ، وإن أريد بالجاز إسناد الفعل إلى غيره - وهو الجاز العقلي - فالحذف كذلك .

فصل

[في أن الحذف خلاف الأصل]

والحذف خلاف الأصل ؛ وعليه ينبغي فرعان :

أحدهما : إذا دار الأمر بين الحذف وعدمه كان الحمل على عدمه أولى ، لأن الأصل
عدم التغيير .

والثاني : إذا دار الأمر بين قلة المحذوف وكثرته ؛ كان الحمل على قلته أولى .

[أوجه الكلام على الحذف]

ويقع الكلام في الحذف من خمسة أوجه : في فائدته ، وفي أسبابه ، ثم في أدلته ، ثم في
شروطه ، ثم في أقسامه .

[فوائد الحذف]

الوجه الأول في فوائد :

ففيها التفخيم والإعظام ؛ لما فيه من الإبهام ، لذهاب الذهن في كل مذهب ، وتشوفه
إلى ما هو المراد ، فيرجع ^(١) قاصراً عن إدراكه ، فعند ذلك يعظم شأنه ، ويعلو في
النفس مكانه . ألا ترى أن المحذوف إذا ظهر في اللفظ زال ما كان يختلج في الوهم من
المراد ، وخَاصَّ للمذكور !

(١) م : « فرجع » ، وما أثبتته عن ت

ومنها : زيادة لذة بسبب استنباط الذهن للمحذوف ، وكلما كُنَّ الشعور بالمحذوف أعسر ، كان الالتذاذ به أشدَّ وأحسن .

ومنها : زيادة الأجر بسبب الاجتهاد في ذلك ؛ بخلاف غير المحذوف ، كما تقول في العلة المستنبطة والمنصوصة .

ومنها : طلب الإيجاز والاختصار ، وتحصيل المعنى الكثير في اللفظ القليل .

ومنها : التشجيع على الكلام ؛ ومن ثم سماه ابن جني : « شجاعة العربية » .

ومنها : موقعه في النفس في موقعه على الذكر ؛ ولهذا قال شيخ الصنائع عبد القاهر الجرجاني : ما من أسمٍ حُذِفَ في الحالة التي ينبغي أن يحذف فيها إلا وحذفه أحسن من ذكره .
ولله در القائل :

إذا نطقتُ جاءت بكلِّ مَليحةٍ وإن سكنتُ جاءت بكلِّ مَليحٍ

[أسباب الحذف]

الثاني في أسبابه :

فمنها : مجرد الاختصار والاحتراز عن العبث ببناء على الظاهر ، نحو : الهلال والله ، أي هذا ، فحذف المبتدأ استغناء عنه بقرينة شهادة الحال ، إذ لو ذكره مع ذلك لكان عبثاً من القول .
ومنها : التنبيه على أن الزمان يتقاصر عن الإتيان بالمحذوف ، وأن الاشتغال بذكره يُفَضِّى إلى تفويت المهم ، وهذه هي فائدة باب التحذير ؛ نحو : إياك والشرّ ، والطريقُ ،
الطريقُ ، الله الله . و باب الإغراء هولوم أمر يحمد به ، وقد اجتمعا في قوله تعالى : ﴿ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴾ ^(١) على التحذير ؛ أي احذروا ناقة الله فلا تقر بوها ، و « سقياها » ، إغراء بتقدير الزموا ناقة الله .

ومنها التفتيح والإعظام ؛ قال حازم في " منهاج البلاء " : إنما يحسن الحذف ما لم

يشكل به المعنى ، لقوة الدلالة عليه ، أو يقصد به تعديد أشياء ، فيكون في تعدادها طول وسامة ، فيحذف ويكتفى بدلالة الحال عليه ، وتترك النفس تجول في الأشياء المكتفى بالحال عن ذكرها على الحال . قال : وبهذا القصد يؤثر في المواضع التي يراد بها التعجب والتهويل على النفوس ، ومنه قوله تعالى في وصف أهل الجنة : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ ^(١) فحذف الجواب ؛ إذ كان وصف ما يجدونه ويلقونه عند ذلك لا يتناهى ، فجعل الحذف دليلاً على ضيق الكلام عن وصف ما يشاهدونه ، وترك النفوس تقدر ما شأنه ، ولا يبلغ مع ذلك كنه ما هنالك ، لقوله عليه الصلاة والسلام : « لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » .

قلت : ومنه : ﴿ فَغَشِيَهُمْ مِنْ آلَيمٍ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ ^(٢) ما لا يعلم كنهه إلا الله ، قال الزمخشري : وهذا من باب الاختصار ومن جوامع الكلم المتحملة مع قلتها للمعاني الكثيرة .
ومنها : التخفيف ؛ لكثرة دورانه في كلامهم ، كما حذف حرف النداء ، في نحو : ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ﴾ ^(٣) وغيره . قال سيبويه : العرب تقول لا أدر ؛ فيحذفون الياء ، والوجه « لا أدرى » ، لأنه رفع ، وتقول : « لم أبل » ، فيحذفون الألف ، والوجه « لم أبال » . ويقولون : « لم يك » ، فيحذفون النون ؛ كل ذلك يفعلونه أستخفافاً لكثرتهم في كلامهم .

ومنها : حذف نون التثنية والجمع وأثرها باقى ، نحو « الضاربون زيد » والضاربون زيد وقراءة من قرأ : ﴿ وَالْمَقِيمِ الصَّلَاةِ ﴾ ^(٤) كأن النون ثابتة ، فعلاوا ذلك لاستطالة الموصول

(١) سورة الزمر ٧٣ (٢) سورة طه ٧٨
(٣) سورة يوسف ٢٩ (٤) سورة الحج ٣٥ ؛ بالنصب وسمى قراءة أبى عمرو ؛ على توم النون ؛ وأن حذفها لتخفيف لطول الاسم ؛ وأنشد سيبويه :

الحَافِظُ عَوْرَةَ الْعَشِيرَةِ لَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ورائِنَا نُطْفُ

وانظر الكتاب ٩٥:١ ، وتفسير القرطبي ٩٢:٥٩

في الصلاة ، نحو : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ ^(١) حذفت الياء للتخفيف .

ويحكى عن الأخفش أن المورج السدوسي سأله : [عن ذلك] فقال : لا أجيبك حتى تنام على بابي ليلة ، ففعل ، فقال له : إن عادة العرب إذا عدلت بالشئ عن معناه نقصت حروفه ، والليل لما كان لا يسرى ، وإنما يسرى فيه ، نقص منه حرف ، كما في قوله : ﴿ وَمَا كَانَتْ أُمَّكَ نَفِيًا ﴾ ^(٢) ، الأصل « نَفِيَّة » فلما حوّل ونقل عن فاعل نقص منه حرف . انتهى .

ومنها : رعاية الفاصلة ، نحو : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾ ^(٣) . ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ ^(٤) ونحوه . وقال الرماني : إنما حذفت الياء في الفواصل لأنها على نية الوقف ، وهي في ذلك كالقوافي التي لا يوقف عليها بغير ياء .

ومنها : أن يُحذف صيانة له ؛ كقوله تعالى : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ ^(٥) إلى قوله : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ^(٥) ؛ حذف المبتدأ في ثلاثة مواضع : قبل ذكر الرب ، أى هو رب السموات . والله ربكم . والله رب المشرق ؛ لأن موسى عليه السلام استعظم حال فرعون وإقدامه على السؤال تهيباً وتفخياً ، فاقصر على ما يستدل به من أفعاله الخاصة به ، ليعرفه أنه ليس كمثل شئ ، وهو السميع البصير .

ومنها : صيانة اللسان عنه ، كقوله تعالى : ﴿ صُمُّ بَكْمٌ عُتَى ﴾ ^(٦) ، أى هم .

(٢) سورة مريم ٢٨

(١) سورة الفجر ٤

(٤) سورة الفجر ٤

(٣) سورة الضحى ٣

(٥) سورة الشعراء ٢٣-٢٨ ؛ والآيات بتمامها : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ : قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ . قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ . قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ . قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ . قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

(٦) سورة البقرة ١٨

ومنها : كونه لا يصلح إلا له ، كقوله تعالى : ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾^(١) . ﴿فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾^(٢) .

ومنها شهرته حتى يكون ذكره وعدمه سواء ، قال الزمخشري : وهو نوع من دلالة الحال التي لسانها أنطق من لسان المقال ، كقول رؤبة : خير ، جواب من قال : كيف أصبحت ؟ فحذف الجار ، وعليه حمل قراءة حمزة : ﴿تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾^(٣) لأن هذا مكان شهر بتكرير الجار ، فقامت الشهرة مقام الذكر .

وكذا قال الفارسي متخلصاً من عدم إعادة حرف الجر في المعطوف على الضمير المجرور : إنه مجرور بالجار التقدير أى و « بالأرحام » وإنما حذف استثناء به في المضمير المجرور قبله .

فإن قلت : هذا التقدير يحيل المسألة ؛ لأنه يصير من عطف الجار والمجرور على مثله ! قلت : إعادة الجار شرط لصحة العطف ؛ لا أنه مقصود لذاته .

[أدلة الحذف]

الوجه الثالث في أدلته :

ولما كان الحذف لا يجوز إلا للدليل احتيج إلى ذكر دليله .

والدليل تارة يدل على محذوف مطلق ، وتارة على محذوف معين .

ففيها : أن يدل عليه العقل حيث تستحيل صحة الكلام عقلاً إلا بتقدير محذوف ، كقوله تعالى : ﴿وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ﴾^(٤) ؛ فإنه يستحيل عقلاً تكلم الأمكنة إلا معجزة .

ومنها : أن تدل عليه العادة الشرعية ، كقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ﴾^(٥)

(٢) سورة البروج ١٦

(٤) سورة يوسف ٨٢

(١) سورة المؤمنون ٩٢

(٣) سورة النساء ١

(٥) سورة النحل ١١٠

فإن الذات لا تتصف بالحلّ والحرمة شرعا ، إنما هما من صفات الأفعال الواقعة على الذوات ، فلم أن المحذوف التناول ؛ ولكنه لما حذف وأقيمت الميئة مقامه أسند إليها الفعل ، وقطع النظر عنه ، فلذلك أنث الفعل في بعض الصور ، كقوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمِيتَةُ ﴾ ^(١) ، وقول صاحب التلخيص ^(٢) : إن هذه الآية من باب دلالة العقل بمنوع ، لأن العقل لا يدرك محل الحلّ ولا الحرمة ، فلماذا جعلناه من دلالة العادة الشرعية .

ومنها : أن يدلّ العقل عليهما ، أى على الحذف والتعيين ، كقوله تعالى : ﴿ وَجَاء رَبُّكَ ﴾ ^(٣) ، أى أمره أو عذابه أو ملائكته ؛ لأن العقل دلّ على أصل الحذف ، ولاستحالة مجيء الباري عقلا ؛ لأن المجيء من سمات الحدوث . ودلّ العقل أيضاً على التعيين ، وهو الأمر ونحوه ، وكلام الزمخشريّ يقتضى أنه لا حذف البتة ؛ فإنه قال : هذه الآية ^(٤) الكريمة تمثيل ؛ مثلّت حاله سبحانه وتعالى في ذلك بحال الملك إذا حضر بنفسه . وكقوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ ﴾ ^(٥) ؛ لأنه في معرض التوحيد فعدم الفساد دليل على عدم تعدد الآلهة ، وإنما حذف لأن انتفاء اللازم يستلزم انتفاء الملزوم ضرورة ، ولذلك لم يذكر المقدمة الثانية عند استعمال الشرط بلوغاً لها .

ومنها : أن يدلّ العقل على أصل الحذف ، وتدللّ عادة الناس على تعيين المحذوف ، كقوله تعالى : ﴿ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ﴾ ^(٦) ؛ فإن يوسف عليه السلام ليس ظرفاً للومهنّ ؛ فتعين أن يكون غيره ؛ فقد دلّ العقل على أصل الحذف . ثم يجوز أن يكون الظرف جثة ، بدليل : ﴿ شَفَعَهَا جُبًّا ﴾ ^(٧) ، وأمرأوته بدليل : ﴿ تَرَاوَدُّ فَتَاهَا ﴾ ^(٧) ، لكن

(٢) تلخيص المفتاح للخطيب القزويني

(٤) الكشاف ٤ : ٦٠٠

(٦) سورة يوسف ٣٢

(١) سورة المائدة ٣

(٣) سورة الفجر ٢٢

(٥) سورة الأنبياء ٢٢

(٧) سورة يوسف ٣٠

العقل لا يعين واحداً منها ؛ بل العادة دلت على أن المحذوف هو الثانى ، فإن الحب لا يلام عليه صاحبه ؛ لأنه يقره ويغلبه ، وإنما اللوم فيما للنفس فيه اختيار ، وهو المرادة ، لقدرتة على دفعها .

ومنها : أن تدل العادة على تعيين المحذوف ، كقوله تعالى : ﴿ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا ﴾ ^(١) ، أى مكان قتال ، والمراد مكاناً صالحاً للقتال ، لأنهم كانوا أخبر الناس بالقتال ؛ والعادة تمنع أن يريدوا : لو نعلم حقيقة القتال ؛ فلذلك قدره مجاهد : « مكان قتال » .
وقيل : إن تعيين المحذوف هنا من دلالة السياق لا العادة .

ومنها : أن يدل اللفظ على الحذف ، والشروع فى الفعل على تعيين المحذوف كقوله : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ ﴾ ^(٢) فإن اللفظ يدل على أن فيه حذفاً ؛ لأن حرف الجر لا بد له من متعلق ، ودل الشروع على تعيينه ؛ وهو الفعل الذى جعلت التسمية فى مبدئه ؛ من قراءة ، أو أكل أو شرب ونحوه ، ويقدر فى كل موضع ما يليق ، فى القراءة : أقرأ ، وفى الأكل : آكل ؛ ونحوه .

وقد اختلف : هل يقدر الفعل أو الاسم ؟ وعلى الأول فهل يقدر عام كالابتداء أو خاص كما ذكرنا ؟

ومنها اللغة كضربت ؛ فإن اللغة قاضية أن الفعل المتعدى لا بد له من مفعول ؛ نعم هى تدل على أصل الحدث لا تعيينه . وكذلك حذف المبتدأ والخبر .

ومنها : تقدم ما يدل على المحذوف وما فى سياقه ، كقوله : ﴿ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ ^(٣) ، وفى موضع آخر نحو : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ ﴾ ^(٤) . وفى موضع :

(٢) سورة الفاتحة ١

(٤) سورة ص ٧٥

(١) سورة آل عمران ١٦٧

(٣) سورة الصافات ١٧٩

﴿أَلَا تَسْجُدَ﴾^(١). وكقوله: ﴿لَمْ يَلْبَسُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ﴾^(٢) أى هذا، بدليل ظهوره في سورة إبراهيم، فقال تعالى: ﴿عَذَابٌ بَلَاغٌ لِلنَّاسِ﴾^(٣)، ونظائره.

ومنها اعتضاده^(٤) بسبب النزول: كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾^(٥)، فإنه لا بد فيه من تقدير فقال زيد بن أسلم: أى قتم من المضاجع - يعنى النوم - وقال غيره: إنما يعنى إذا قتم محدثين.

واحتجَّ لزيد بأن هذه الآية إنما نزلت بسبب فقدان عائشة رضى الله عنها عقدها، فأخروا الرحيل إلى أن أضاء الصبح، فطلبوا الماء عند قيامهم من نومهم فلم يجدوه؛ فأنزل الله هذه الآية.

وربما رجَّح من طريق النظر بأن الأحداث المذكورة بعد قوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ﴾^(٦) الأولى أن يحمل قوله ﴿إِذَا قُمْتُمْ﴾ معنى غير الحدث، لما فيه من زيادة الفائدة، فتكون الآية جامعة للحدث ولسبب الحدث؛ فإن النوم ليس بحدث بل سبب للحدث.

[شروط الحذف]

الوجه الرابع في شروطه:

فمنها أن تكون في المذكور دلالة على المحذوف؛ إما من لفظه أو من سياقه، وإلا لم يتمكن من معرفته، فيصير اللفظ مُحْذَلاً بالفهم. ولثلاثا يصير الكلام لغزاً فيهجن^(٧) في الفصاحة، وهو معنى قولهم: لا بد أن يكون فيما أُتْبِقَ دليل على ما أُلتِجَ. وتلك الدلالة مثالية وحالية.

فالمثالية قد تحصل من إعراب اللفظ، وذلك كما إذا كان منعوباً، فيعلم أنه لا بد له

(٢) سورة الأحقاف ٣٥

(٤-٤) ساقط من ت

(٦) ت: « فيهجر »

(١) سورة الأعراف ١٢

(٣) سورة إبراهيم ٥٢

(٥) سورة المائدة ٦

من ناصب ، وإذا لم يكن ظاهرا لم يكن بُدَّ من أن يكون مقدرا ، نحو : أهلا وسهلا ومرحبا ، أى وجدت أهلا وسلكت سهلا ، وصادفت رحبا . ومنه قوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ ^(١) على قراءة النصب . وكذلك قوله : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ﴾ ^(٢) والتقدير : احمدا والحمد ، واحفظوا الأرحام ؛ وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِغَةً ﴾ ^(٣) . ﴿ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ﴾ ^(٤) .

والحالية قد تحصل من النظر إلى المعنى والنظر والعلم ؛ فإنه لا يتم إلا بمحذوف ، وهذا يكون أحسن حالا من النظم الأول لزيادة عمومه ، كما فى قولهم : فلان يحلّ ويربط ، أى يحلّ الأمور ويربطها ، أى ذو تصرف .

وقد تدل الصناعة النحوية على التقدير ؛ كقولهم فى : ﴿ لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ ^(٥) إن التقدير لأننا أقسم ؛ لأن فعل الحال لا يقسم عليه . وقوله تعالى : ﴿ تَقْتَبِئُ تَذْكُرُ يُوسُفَ ﴾ ^(٦) ، التقدير : لا تفتأ ؛ لأنه لو كان الجواب مثبتا لدخلت اللام والنون ، كقوله : ﴿ بَلَى وَرَبِّى لَتُبْعَثَنَّ ﴾ ^(٧) .

وهذا كله عند قيام دليل واحد ، وقد يكون هناك أدلة يتعدد التقدير بحسبها ، كما فى قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ﴾ ^(٨) ، فإنه يحتمل ثلاثة أمور : أحدها : كمن لم يزين له سوء عمله ، والمعنى : ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ

(١) سورة الفاتحة ٢ ؛ قال أبو عبد الله القرطبي : « وروى عن سفيان بن عيينة ورؤية بن العجاج ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ ، بنصب الدال ، على إضمار فعل . وقراءة الرفع هى قراءة القراء السبعة وجمهور الناس . الجامع لأحكام القرآن ١ : ١٣٥

(٣) سورة البقرة ١٣٨

(٢) سورة النساء ١

(٥) سورة القيامة ١

(٤) سورة الحج ٧٨

(٧) سورة التغابن ٧

(٦) سورة يوسف ٨٥

(٨) سورة فاطر ٨

حَسَنًا ﴿^(١) من التريقين اللذين تقدم ذكرهما ، كمن لم يزين له ! ثُمَّ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما قيل له ذلك ، قال : لا ، فقيل : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ ﴾ ^(١) .

ثانيها : تقدير : ذهبت نفسك عليهم حسرات ، فحذف الخبر للدلالة ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ ﴾ .

ثالثها : تقدير : « كمن هداه الله » ، فحذف للدلالة : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ ^(١) .

واعلم أن هذا الشرط إنما يحتاج إليه إذا كان المحذوف الجملة بأسرها ؛ نحو : ﴿ قَالُوا سَلَامًا ﴾ ^(٢) ، أى سَلَمْنَا سَلَامًا ، أو أحد ركنيها نحو : ﴿ قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴾ ^(٣) أى « سلام عليكم أتم قوم منكرون » ، فحذف خبر الأولى ومبتدأ الثانية .

وأما إذا كان المحذوف فَضْلَةً فلا يشترط لحذفه دليل ؛ ولكن يشترط ألا يكون فى حذفه إخلال بالمعنى أو اللفظ ، كما فى حذف العائد المنصوب ونحوه .

وشرط ابن مالك فى حذف الجار أيضاً أمن اللبس ، ومنع الحذف فى نحو : رغبت فى أن تفعل ، أو عن أن تفعل ، لإشكال المراد بعد الحذف .

وأورد عليه ﴿ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ ﴾ ^(٤) ، فحذف الحرف .

وجوابه أن النساء يشتملن على وصفين ؟ وصف الرغبة فيهنّ وعهنّ ، فحذف للتعميم .

(٢) سورة هود ٦٩

(٤) سورة النساء ١٢٢

(١) سورة فاطر ٨

(٣) سورة التاريات ٢٥

وشرط بعضهم في الدليل اللفظي أن يكون على وفق المحذوف . وأنكر قول القراء في قوله تعالى : ﴿ أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ لَنْ تَجْمَعَ عِظَاهُ ۚ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ۚ ﴾ ^(١) أن التقدير : بلى حسبنا قادرين ، والحساب المذكور بمعنى الظن ، والمحذوف بمعنى العلم ؛ إذ التردد في الإعادة كفر ، فلا يكون مأمورا به .
ويجيب بأن الحساب المقدر بمعنى الجرم والاعتقاد ؛ لا بمعنى الظن ، وتقديره بذلك أولى ، لموافقته للمقوظ .

وقد يدل على المحذوف ذكره في مواضع أخر .
منها : وهو أقواها ، كقوله : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ ﴾ ^(٢) أى أمره ، بدليل قوله : ﴿ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ ^(٣) .
وقوله في آل عمران : ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ ^(٤) ، أى كعرض ؛ بدليل التصريح به في آية الحديد ^(٥) .
وفيه إيجاز بليغ ؛ فإنه إذا كان العرض كذلك ، فما ظنك بالطول ! كقوله : ﴿ بَطَّأَتْنَاهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ ^(٦) .

وقيل : إنما أراد التعظيم والسعة لأحقية العرض ، كقوله :
كَأَنَّ بِلَادَ اللَّهِ وَهِيَ عَرِيضَةٌ عَلَى الْخَائِفِ الْمَظْلُومِ كِفَّةً حَابِلٍ
ومنها : ألا يكون الفعل طالبا له بنفسه ^(٧) ، فإن كان امتنع حذفه كالفعل ، ومفعول ما لم يسم فاعله ، واسم كان وأخواتها ، وإنما لم يحذف لما في ذلك من نقض الغرض .

(٢) سورة الأنعام ١٥٨

(١) سورة القيامة ٤، ٣

(٤) سورة آل عمران ١٣٣

(٣) سورة النحل ٣٣

(٥) آية ٢١ ؛ وهو قوله تعالى : ﴿ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ

(٦) سورة الرحمن ٤٤ قال صاحب الكشاف :

السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾

« إذا كانت البطائن من استبرق ، فما ظنك بالظواهر ! » . (٧) ت : « بينة » .

ومنها : قال أبو الفتح بن جنى : ومن حق الحذف أن يكون في الأطراف لا في الوسط ؛ لأن طَرَفَ الشيء أضعف من قلبه ووسطه ، قال تعالى : ﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ ^(١) ، وقال الطائي الكبير ^(٢) :

كَانَتْ هِيَ الْوَسْطَ الْمُنَوَّعَ فَاسْتَلَبْتُ مَا حَوْلَهَا الْخِلُّ حَتَّى أَصْبَحْتُ طَرَفَا
فَكَانَ الطَّرَفَيْنِ سِيَاحٌ لِلْوَسْطِ وَمَبْذُولَانِ لِلْعَوَارِضِ دُونَهُ ، ولذلك تجدد الإعلال
عند التصريفيين ، بالحذف منها ^(٣) ، فحذفوا الفاء في المصادر من باب وعد ، نحو العدة والزنة
والهبة ، واللام في نحو اليد والدم والقم والأب والأخ ، وقلما تجدد الحذف في العين لما ذكرنا ،
وبهذا يظهر لطف هذه اللغة العربية .

تنبيهات

الأول : قد توجب صناعة النحو التقدير وإن كان المعنى غير متوقف عليه ؛ كما في قوله :
« لا إله إلا الله » فإن الخبر محذوف ، وقدره النحاة بـ « موجود » أو « لنا » .

وأنكره الإمام فخر الدين ، وقال : هذا كلام لا يحتاج إلى تقدير ، وتقديرهم فاسد ،
لأن نفي الحقيقة مطلقة أعم من نفيها مقيدة ، فإنها إذا انتفت مطلقة كان ذلك دليلاً على سلب
الماهية مع القيد ، وإذا انتفت مقيدة بقيد مخصوص لم يلزم نفيها مع قيد آخر .

ولا معنى لهذا الإنكار ؛ فإن تقدير « في الوجود » ، يستلزم نفي كل إله غير الله قطعاً
فإنَّ العدم لا كلام فيه ، فهو في الحقيقة نفي للحقيقة مطلقة لا مقيدة . ثم لا بد من تقدير
خبر لاستحالة مبتدأ بلا خبر ، ظاهراً أو مقدراً ؛ وإنما يقدر النحوي ليعطى القواعد
حقها وإن كان المعنى مفهوماً ، وتقديرهم هنا أو غيره ليروا صورة التركيب من حيث

(١) سورة الرعد ٤١

(٢) هو أبو تمام حبيب بن أوس ، ديوانه ٣٧٤ : ٢ .

(٣) أى من الأطراف .

اللفظ مثالا ، لا من حيث المعنى ، ولهم تقديران : إعرابى ، وهو الذى خفي على المعترض ، ومعنوى وهو الذى ألزمه وهو غير لازم .

ومن المنكر فى هذا أيضاً قول ابن الطراوة : إن الخبر فى هذا « إلا الله » ، وكيف يكون المبتدأ نكرة والخبر معرفة !

الثانى : اعتبر أبو الحسن فى الحذف التدرىج حيث أمكن ؛ ولهذا قال فى قوله تعالى : ﴿ وَأَتَقُوا يَوْمًا لَا تَجْزَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا ﴾ ^(١) : إن أصل الكلام : « يوم لا تجزى فيه » لحذف حرف الجر ، فصار « تجزيه » ، ثم حذف الضمير فصار « تجزى » .

وهذا ملاطمة فى الصناعة ، ومذهب سيبويه أنه حذف فيه دفعة واحدة .

قال أبو الفتح ^(٢) فى " المحتسب " : وقول أبى الحسن أوثق فى النفس وآنس من أن يحذف الحرفان معا فى وقت واحد .

الثالث : المشهور فى قوله تعالى : ﴿ فَأَنْفَجَرَتْ مِنْهُ ﴾ ^(٣) ، أنه معطوف على جملة محذوفة ، التقدير : « فضرِبَ فأنفجرت » ، ودل « انفجرت » على المحذوف ، لأنه يُعلم من الانفجار أنه قد ضرب .

وكذا : ﴿ أَنْ أَضْرِبَ بِمِصَاكِ الْبَحْرِ فَأَنْفَلَقَ ﴾ ^(٤) ، إذ لا جائز أن يحصل الانفجار والاتلاق دون ضرب .

وابن عصفور يقول فى مثل هذا : إن حرف العطف المذكور مع المعطوف هو الذى كان مع المعطوف عليه ، وإن المحذوف هو المعطوف عليه ، وحذف حرف العطف من المعطوف ،

(٢) هو أبو الفتح عثمان بن جنى ؛ وكتابه

(١) سورة البقرة ٤٨

المحتسب فى إعراب الشواذ ؛ ومنه نسخة مخطوطة بدار الكتب (٣) سورة البقرة ٦٠

(٤) سورة الشعراء ٦٣ .

فالفاء في « انفلق » هي فاء الفعل المحذوف وهو « ضرب » فذكرت فاءه وحذف فعلها وذكر فعل « انفلق » وحذفت فاءه ليدلّ المذكور على المحذوف ؛ وهو تحيّل غريب .

[أقسام الحذف]

الخامس في أقسامه :

الأول : الاقتطاع ، وهو ذكر حرف من الكلمة وإسقاط الباقي ، كقوله :

* دَرَسَ الْمَنَّا يَمْتَالِعُ فَأَبَانَ *

أى المنازل ، وأنكر صاحب " المثل السائر " ،^(١) ورود هذا النوع في القرآن العظيم ، وليس كما قال .

وقد جعل منه بعضهم فوائح السور ؛ لأن كل حرف منها يدل على اسم من أسماء الله تعالى ، كما روى ابن عباس « أَلَمْ » معناه : « أنا الله أعلم وأرى » ، و « أَلَمْص » أنا الله أعلم وأفصل ؛ وكذا الباقي .

وقيل في قوله : ﴿ وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ ﴾^(٢) : إن الباء هنا أول كلمة « بعض » ، ثم حذف الباقي ، كقوله^(٣) :

* قلت لها قفى لنا قالت قاف *

أى وقفت ، وفي الحديث : « كفى بالسيف شا » أى شاهدا .

(١) المثل السائر لابن الأثير ٢ : ١١٣ ؛ قال : واعلم أن العرب قد حذفت من أصل الألفاظ شيئا لا يجوز القياس عليه ، كقول بعضهم [علقمة بن عبدة] :

كَأَنَّ إِبْرِيْقَهُمْ ظَبْيٌ عَلَى شَرْفٍ مُّقَدَّمٌ بِسَبَا الْكَتَّانِ مَلْثُومٌ

فقوله : « بسبا الكتان » ، يريد : د « سباب الكتان » ، وكذلك قول الآخر :

يُذَرِّينَ جَنْدَلَ حَائِرٍ لِحُنُوبِهَا فَكَأَنَّمَا تَذْكِي سَنَا بِكُهَا أَلْبَا

فهذا وأمثاله مما يقيح ولا يحسن ؛ وإن كانت العرب استعملته فإنه لا يجوز لنا أن نستعمله .

(٢) سورة المائدة ٦ (٣) هو الوليد بن غلبة ، وبعده :

* لَا تَحْسِبِينَا قَدْ نَسِينَا الْإِيحَافَ *

وانظر شواهد الشافية ٢٧١ ، والخصائص ١ : ٣٠ .

وقال الزمخشري في قوله : « من الله » في القسم : إنها « أئمن » التي تستعمل في القسم ، حذفت نونها ^(١) .

ومن هذا الترخيم ، ومنه : قراءة بعضهم : ﴿ يَا مَالِ ﴾ ^(٢) على لغة مَنْ يَنْتَظِرُ ، ولما سمعها بعضُ السلف قال : ما أشغل أهل النار عن الترخيم ! وأجاب بعضهم بأنهم لشدة ما هم فيه عجزوا عن إتمام الكلمة .

الثاني : الاكتفاء وهو أن يقتضى المقام ذكرَ شيءٍ بينهما تلازم وارتباط ؛ فيكتفى بأحدهما عن الآخر ، ويخصّ بالارتباط العطفى غالباً ؛ فإن الارتباط خمسة أنواع : وجودى ، ولزومى ، وخبرى ، وجوابى ، وعطفى .

ثم ليس المراد الاكتفاء بأحدهما كيف اتفق ؛ بل لأنَّ فيه نكتة تقتضى الاختصارَ عليه .

والعلم المشهور فى مثال هذا النوع قوله تعالى : ﴿ سَرَّابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ ﴾ ^(٣) أى والبرد ، هكذا قدره . وأوردوا عليه سؤال الحكمة من تخصيص الحرّ بالذكر . وأجابوا بأن الخطاب للعرب ، وبلادهم حارة ، والوقاية عندهم من الحرّ أهم ؛ لأنه أشدّ من البرد عندهم .

والحق أن الآية ليست من هذا القسم ، فإن البرد ذكرَ الامتنان بوقايته قبل ذلك صريحاً فى قوله : ﴿ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا ﴾ ^(٤) وقوله : ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ

(١) انظر الفصل ٣٤٤ ، وابن يعيش ٩٢ : ٩٢ (٢) هى قراءة ابن مسعود لآية الزخرف ٧٧ :

﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ ؛ وانظر الكشاف ٤ : ٢٠٨

(٤) سورة النحل ٨٠ .

(٣) سورة النحل ٨١

الْجِبَالِ أَكُنَّا^(١) ، وقوله في صدر السورة : ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقْنَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءً^(٢) .
فإن قيل : فما الحكمة في ذكر الوفايتين بعد قوله : ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ
ظِلَالًا^(٣) فإن هذه وقاية الحر ، ثم قال : ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا^(٤) ، فهذه
وقاية البرد على عادة العرب ؟

قيل : لأن ما تقدم بالنسبة إلى المساكن ، وهذه إلى الملابس ، وقوله : ﴿وَجَعَلَ
لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا^(٥) لم يذكره^(٦) السهيلي ، وفيه الجوابان السابقان .

وأمثلة هذا القسم كثيرة ؛ كقوله تعالى : ﴿وَلَهُ مَاسْكِنٌ فِي الْأَيْلِ وَالنَّهَارِ^(٧) ۝
فإنه قيل : المراد : « وما تحرك » ، وإنما أثر ذكر السكون لأنه أغلب الحالين على المخلوق
من الحيوان والجماد ، ولأن الساكن أكثر عدداً من المتحرك . أولأن كل متحرك يصير إلى
السكون ، ولأن السكون هو الأصل ، والحركة طارئة .

وقوله : ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ^(٨) تقديره « والشر » ، إذ مصادر الأمور كلها بيده جل جلاله ؛
وإنما أثر ذكر الخير ؛ لأنه مطلوب العباد ومرغوبهم إليه ؛ أو لأنه أكثر وجوداً في العالم
من الشر ؛ ولأنه يجب في باب الأدب ألا يضاف إلى الله تعالى ، كما قال صلى الله عليه وسلم :
« والشر ليس إليك » .

وقيل : إن الكلام إنما ورد ردّاً على المشركين فيما أنكروه مما وعده الله به على لسان
جبريل ، من فتح بلاد الروم وفارس ؛ ووعد النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بذلك ؛ فلما
كان الكلام في الخير خصّه بالذكر باعتبار الحال .

(٢) سورة النحل ٥

(٤) سورة الأنعام ١٣

(١) سورة النحل ٨١

(٣) م : « ولم ينقله » .

(٥) سورة آل عمران ٢٦

وقوله : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ ^(١) أى والشهادة ؛ لأن الإيمان بكل منهما واجب ، وآثر الغيب لأنه أبدع ^(٢) ، ولأنه يستلزم ^(٣) الإيمان بالشهادة من غير عكس .

ومثله : ﴿ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا . عَالِمُ الْغَيْبِ ﴾ ^(٤) ، أى والشهادة ، بدليل التصريح به فى موضع ^(٥) آخر .

وقوله : ﴿ يَسْكَدُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ﴾ ^(٦) ؛ فإنه سبحانه ذكر أولاً الظلمات والرعد والبرق ، وطوى الباقي .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ﴾ ^(٧) أى والبر ، وإنما آثر ذكر البحر لأن ضرره أشد .

وقوله : ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ﴾ ^(٨) ، أى والمغرب .

وقوله : ﴿ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ ^(٩) ، أى ولا غير إلحاف .

وقوله : ﴿ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ ﴾ ^(١٠) ، أى وأخرى غير قائمة .

وقوله : ﴿ وَلَنَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ ^(١١) ، أى والمؤمنين .

وقوله : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ ^(١٢) ، أى والكافرين . قاله ابن الأنبارى ، ويؤيده

قوله : ﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ ^(١٣) .

(٢) كذا فى ت ، وفى م : « أمدح »

(٤) سورة الجن ٢٥ ، ٢٦

(٥) ذكر النيب مع الشهادة فى القرآن فى أكثر من موضع ؛ منها قوله تعالى فى الأنعام ٧٣ :

﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ ، وفى التوبة ٩٤ : ﴿ ثُمَّ تَرَدُّونَ إِلَى

عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ ؛ و ١٠٥ : ﴿ وَتَرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾

(٦) سورة البقرة ٢٠

(٨) سورة الصافات ٥

(١٠) سورة آل عمران ١١٣

(١٢) سورة البقرة ٢

(١) سورة البقرة ٣

(٣) ت : « مستلزم » .

وغیر هذا كثير

(٧) سورة الإسراء ٦٧

(٩) سورة البقرة ٢٧٣

(١١) سورة الأنعام ٥٥

(١٣) سورة البقرة ١٨٥

وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾^(١)، قيل: المعنى وآخر كافر به، لحذف المعطوف لدلالة قوة الكلام، من جهة أن أول الكفر وآخره سواء، وخصت الأولوية بالذكر لقبها بالابتداء.

وقوله: ﴿أَوَّلَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ﴾^(٢)، أى ويبسطن، قاله الفارسي.

وحكى في "التذكرة" ^(٣) عن بعض أهل التأويل في قوله تعالى: ﴿أَكَادُ أَخْفِيهَا لِتُجْزَى﴾^(٤) أن المعنى: «أكاد أظهرها أخفيها لتجزى»، لحذف «أظهرها» لدلالة «أخفيها» عليه.

قال: وعندي أن المعنى: «أزيل خفاءها»، فلا حذف.

وقوله: ﴿لَا تَفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾^(٥)، أى بين أحد وأحد ^(٦).

وقوله: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلْ﴾^(٧)، أى ومن أنفق بعده وقاتل، لأن الاستواء يطلب اثنين؛ وحذف المعطوف لدلالة الكلام عليه؛ ألا تراه قال بعده: ﴿أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾^(٨).

وقوله: ﴿وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرْهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً﴾^(٩)، أى ومن لا يستنكف ولا يستكبر؛ بدليل التقسيم بعده بقوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾^(١٠) ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا﴾^(١١).

(١) سورة البقرة ٤١

(٢) سورة الملك ١٩

(٣) كتاب التذكرة المروى بتذكرة أبي علي؛ ذكره صاحب كشف الظنون وقال: «وهو كبير في جلدات لحصه أبو الفتح عثمان بن جني النحوي».

(٤) سورة البقرة ٢١٥

(٥) سورة طه ١٥

(٦) سورة الحديد ١٠

(٧) ت: «واحد وواحد».

(٨) سورة النساء ١٧٣

(٩) سورة النساء ١٧٣

وقوله : ﴿ ثُمَّ لَا تَدِينَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ ﴾ ^(١) ، فاكثفى هنا بذكر الجهات الأربع عن الجهاتين .

وقوله : ﴿ إِذْ جَاءَهُمُ الرَّسُولُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ ^(٢) ، الا كثفاء بجهتين عن سائرهما .

وقوله : ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنَّهَا عَلَى أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ ^(٣) ، أى ولم تعبدنى .

وقوله : ﴿ إِنْ أَمْرُوْهُ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ ﴾ ^(٤) ، أى ولا والد ؛ بدليل أنه أوجب للأخت النصف ؛ وإنما يكون ذلك مع فقد الأب ؛ فإن الأب يُسقطها .

وقوله : ﴿ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَمَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴾ ^(٥)

ولم يذكر القسم الآخر الذى تقتضيه « أما » ؛ إذ وضعها لتفصيل كلام مجمل ؛ وأقل أقسامها قسمان ، ولا ينفك عنها فى جميع القرآن إلا فى موضعين هذا أحدهما ؛ والتقدير وأما من لم يتب ولا يؤمن ولم يعمل صالحاً فلا يكون من المفلحين . والثانى فى آل عمران : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ ﴾ ^(٦) إلى قوله ﴿ إِلَّا اللَّهُ ﴾ ^(٧) هذا أحد القسمين ، والقسم الثانى ما بعده ، وتقديره : وأما الراسخون فى العلم فيقولون .

وقوله : ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ ﴾ ^(٧) ، أى وفعلًا غير الذى

أمروا به ؛ لأنهم أمروا بشيئين : بأن يدخلوا الباب سجداً ، وبأن يقولوا حطة ، فبدلوا القول فى « حطة » « حطة » وبدلوا الفعل بأن دخلوا يزحفون على أستاههم ؛ ولم يدخلوا ساجدين ؛ والمعنى : إرادتنا حطة ، أى حط عنا ذنوبنا .

وقوله : ﴿ وَمَا يَسْتَوِى الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ وَلَا الظِّلُّ

(٢) سورة فصلت ١٤

(٤) سورة النساء ١٧٦

(٦) سورة آل عمران ٧

(١) سورة الأعراف ١٧

(٣) سورة الشعراء ٢٢

(٥) سورة القصص ٦٧

(٧) سورة البقرة ٥٩

وَلَا أُخْرُورُ^(١)، قال ابن عطية : دخول « لا » على نية التكرار كأنه قال : ولا الظلمات والنور، ولا النور والظلمات ، واستغنى بذكر الأوائل عن الثواني ؛ ودلّ بمذكور الكلام على متروكه .

وقوله : ﴿ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ﴾^(٢) .
فإن قيل : ليس للفجر خيط أسود ، إنما الأسود من الليل .

فأجيب : إن ﴿ مِنَ الْفَجْرِ ﴾ متصل بقوله : ﴿ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ ﴾ والمعنى : حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الفجر من الخيط الأسود من الليل ؛ لكن حذف « من الليل » لدلالة الكلام ثم عليه ولوقوع الفجر في موضعه ؛ لأنه لا يصح أن يكون ﴿ مِنَ الْفَجْرِ ﴾ متعلقاً بالخيط الأسود ؛ ولو وقع ﴿ مِنَ الْفَجْرِ ﴾ في موضعه متصلاً بالخيط الأبيض لضعفت الدلالة على المحذوف ؛ وهو « من الليل » فحذف « من الليل » للاختصار ، وآخر « من الفجر » للدلالة عليه .

الثالث : من هذا قسم يسمى الضمير والتثيل ؛ وأعنى بالضمير أن يضر من القول المجاور لبيان أحد جزأيه ؛ كقول الفقيه : النبيذ مسكر فهو حرام ، فإنه أضمر « وكل مسكر حرام » .

ويكون في القياس الاستثنائي ، كقوله : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾^(٣) .
وقوله : ﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾^(٤) ، وقد شهد الحسن والعيان أنهم ما انفضوا من حوله ؛ وهى المضمره ؛ وانتفى عنه صلى الله عليه وسلم أنه فظ غليظ القلب .

(٢) سورة البقرة ١٨٧

(٤) سورة آل عمران ١٥٩

(١) سورة فاطر ١٩-٢١

(٣) سورة الأنبياء ٢٢

وقوله : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَقَوَّلُوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ ^(١) ؛
المعنى لو أنهم متهم لما أجدى فيهم التفهيم ؛ فكيف وقد سلبوا القوة الزاهمة ! فعلم بذلك أنهم
مع انتفاء الفهم أحق بفقد القبول والهداية .

الرابع : أن يستدل بالفعل لشئئين وهو في الحقيقة لأحدهما ؛ فيضمر للآخر فعل
يناسبه ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ ﴾ ^(٢) أى واعتقدوا الإيمان .
وقوله تعالى : ﴿ سَمِعُوا لَهَا تَفِيْظًا وَزَفِيرًا ﴾ ^(٣) ، أى وشموا لها زفيرا .
وقوله تعالى : ﴿ لَهْدَمْتُ صَوَامِعُ وَبَيْعٌ وَصَلَوَاتٌ ﴾ ^(٤) ، والصلوات لاهتدَم ؛ فالتقدير :
ولتركت صلوات .

وقوله : ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴾ ^(٥) فالفاكهة ولحم الطير والخور العين
لا تطوف ، وإنما يطاف بها .

وأما قوله تعالى : ﴿ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ﴾ ^(٦) ، فنقل ابن فارس عن
البصريين أن الواو بمعنى « مع » أى مع شركائكم ، كما يقال : لو تركت الناقة وفصيلها لرضعها ؛
أى مع فصيلها .

وقال الآخرون : أجمعوا أمركم وادعوا شهداءكم ، اعتباراً بقوله تعالى : ﴿ وَأَدْعُوا
مَنْ أَسْطَقْتُمْ ﴾ ^(٧) .

واعلم أن تقدير فعل محذوف للثاني ليصح العطف هو قول الفارسي والفراء وجماعة من
البصريين والكوفيين لتعذر العطف . وذهب أبو عبيدة والأصمعي واليزيدي وغيرهم إلى أن
ذلك من عطف المفردات ، وتضمنين العامل معنى ينتظم المعطوف والمعطوف عليه جميعاً ؛ فيقدّر

(٢) سورة الحشر ٩

(٤) سورة الحج ٤٠

(٦) سورة يونس ٦١

(١) سورة الأنفال ٢٣

(٣) سورة الفرقان ١٢

(٥) سورة الواقعة ١٧

(٧) سورة هود ١٣

آثروا الدار والإيمان^(١)، ويبقى النظر في أنه: أيهما أولى؟ ترجيح الإضمار أو التضمن؟ واختار الشيخ أبو حيان^(٢) تفصيلاً حسناً وهو: إن كان العامل الأول تصح نسبته إلى الاسم الذي يليه حقيقة كان الثاني محمولاً على الإضمار؛ لأنه أكثر من التضمن؛ نحو «يخدع الله أنفه وعينه»، أي ويفقأ عينيه، فنسبته الجذع إلى الأذن حقيقة؛ وإن كان لا يصح فيه ذلك كان العامل مضمناً معنى ما يصح نسبته إليه؛ لأنه لا يمكن الإضمار؛ كقولهم:

* علفتها تبنياً وماء بارداً^(٣) *

وجعل ابن مالك من هذا القبيل قوله تعالى: ﴿أَسْكُنْ أَنْتَ زَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾^(٤) قال: لأن فعل أمر المخاطب لا يعمل في الظاهر؛ فهو على معنى «اسكن أنت ولتسكن زوجك»، لأن شرط المعطوف أن يكون صالحاً لأن يعمل فيه ما عمل في المعطوف عليه، وهذا متعذر هنا؛ لأنه لا يقال: «اسكن زوجك».

ومنه قوله تعالى: ﴿لَا تَضَارَّ وَالِدَةَ وَلَا مَوْلُودَ﴾^(٥) ولا يصح أن يكون «مولود» معطوفاً على «والدة» لأجل تاء المضارعة، أو للأمر؛ فالواجب في ذلك أن نقدر مرفوعاً بتقدير من جنس المذكور؛ أي ولا يضار مولوده.

وقوله تعالى: ﴿وَالطَّيْرَ﴾^(٦)، قال الفراء: التقدير: «وسخرنا له الطير» عطفاً على قوله: ﴿فَضْلاً﴾ وقيل: هو مفعول معه، ومن رفعه فقليل: على المضمرة في «آتى»،

(١) أى في قوله تعالى في الآية السابقة: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ﴾

(٢) في التفسير الكبير المسمى: «البحر المحيط» ٨: ٢٤٧ مع تصرف في العبارة

(٣) لدى الرمة وقوله:

* لما حططت الرِّحْلَ عَنْهَا واردة *

وانظر الخزانة ١: ٤٩٩.

(٤) سورة البقرة ٢٢٣

(٥) سورة البقرة ٣٥

(٦) من قوله تعالى في سورة سبأ ١٠: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَالنَّارُ لَهُ الْخُذِيدُ﴾.

وجاز ذلك لطول الكلام بقوله: ﴿معه﴾ ، وقيل : بإضمار فعل ، أى ولتؤوب معه الطير .

الخامس : أن يقتضى الكلامُ شيئين فيقتصر على أحدهما ؛ لأنه المقصود ؛ كقوله تعالى حكاية عن فرعون : ﴿فَمَنْ رَبُّكُمْ يَا مُوسَى﴾ ^(١) ، ولم يقل : « وهرون » لأن موسى المقصود المتحمل أعباء الرسالة ، كذا قاله ابن عطية .

وغاص الزمخشري فقال : أراد أن يتم الكلام فيقول : « وهرون » ، ولكنه نكل عن خطاب هرون توكيا لفصاحته وحدة جوابه ووقع خطابه ؛ إذ الفصاحة تنكّل الخصم عن الخصم للجدل ، وتنكبه عن معارضته .

السادس : أن يُذكر شيثان ، ثم يعود الضمير إلى أحدهما دون الآخر ، كقوله تعالى : ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ ^(٢) ، قال الزمخشري : تقديره : إذا رأوا تجارة انفضوا إليها ، أو لهواً انفضوا إليه ؛ فحذف أحدهما للدلالة المذكور عليه .

ويبقى عليه سؤال ؛ وهو أنه : لم أوتر ذكر التجارة ؟ وهلا أوتر اللهو ؟

وجوابه ما قاله الراغب في تفسير سورة البقرة : إن التجارة لما كانت سبب انفضاض الذين نزلت فيهم هذه الآية أعيد الضمير إليها . ولأنه قد تُشغل التجارة عن العبادة ما لا يشغله اللهو .

واختلف في مواضع : منها قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ^(٣) ، فإنه سبحانه ذكر الذهب والفضة ، وأعاد الضمير

على الفضة وحدها ؛ لأنها أقرب المذكورين ؛ ولأنّ الفضة أكثر وجوداً في أيدي الناس ؛ والحاجة إليها أمسّ ، فيكون كنزها أكثر . وقيل : أعاد الضمير على المعنى ؛ لأنّ المكنوز دنانير ودرهم وأموال .

ونظيره : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا ﴾ ^(١) ؛ لأنّ الطائفة جماعة . وقيل : من عادة العرب إذا ذكرت شيئين مشتركين في المعنى تكتفي بإعادة الضمير على أحدهما استغناء بذكره عن الآخر اتسكالا على فهم السامع ، كقول حستان :

إِنْ شَرَحَ الشَّبَابَ وَالشَّعَرَ الْأَسَدَ وَدَ مَالَمَ يَعَاصَ كَانَ جُنُونًا ^(٢)

ولم يقل « يعا صا » .

ومنها قوله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا ﴾ ^(٣) وقد جعل ابن الأثير في كتاب " الهاءات " ، ^(٤) ضمير ﴿ لَمْ تَرَوْهَا ﴾ راجعاً إلى الجنود . ونقل عن قتادة قال : هم الملائكة . والأشبه أن يأتي هنا بما سبق .

ومنها قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ ^(٥) فقيل : « أحق » خبر عنهما ، وسهل إفراد الضمير بعدم إفراد « أحق » وأنّ إرضاء الله سبحانه إرضاء لرسوله .

وقيل : « أحق » خبر عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وحذف من الأول لدلالة الثاني عليه . وقيل : العكس ، وإنما أفرد الضمير لثلاث يجمع بين اسم الله ورسوله في ضمير واحد ، كما جاء في الحديث : « قل ومن يعص الله ورسوله » . قال الزنجشیری : قد يقصدون ذكر الشيء

(٢) ديوانه ٤١٣

(١) سورة الحجرات ٩

(٣) سورة الأحزاب ٩

(٤) كتاب الهاءات لأبي بكر محمد بن قاسم الأنباري النحوي ، ذكره صاحب كشف الظنون ١٤٧١

(٥) سورة التوبة ٦٢

فيذكرون قبله ما هو سبب منه ، ثم يعطفونه عليه مضافا إلى ضميره ، وليس لهم قصد إلى الأول كقوله : سرني زيد وحسن حاله ؛ والمراد حسن حاله . وفائدة هذا الدلالة على قوة الاختصاص بذكر المعنى ، ورسول الله أحق أن يُرضوه . ويدل عليه ما تقدمه من قوله : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﴾ ^(١) ؛ ولهذا وحده الضمير ، ولم يثن .

ومنها قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ ﴾ ^(٢) .

ومنها قوله : ﴿ وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ ﴾ ^(٣) ؛ فقيل : الضمير للصلاة

لأنها أقرب المذكورين . وقيل : أعاده على المعنى ؛ وهو الاستعانة المفهومة من استعينوا . وقيل : المعنى على التثنية ؛ وحذف من الأول لدلالة الثاني عليه .

ومنها قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيثًا ﴾ ^(٤) ؛ وهو

نظير آية الجمعة كما سبق .

وفي هاتين الآيتين لطيفتان : وهما أن الكلام لما افتضى إعادة الضمير على أحدهما

أعاده في آية الجمعة على التجارة وإن كانت أبعد ، ومؤنثة أيضاً ؛ لأنها أجذب للقلوب عن طاعة الله من اللهو ؛ لأن المشتغلين بالتجارة أكثر من المشتغلين باللهو ؛ أو لأنها أكثر نفعاً

من اللهو ، أو لأنها كانت أصلاً واللهو تبعاً ، لأنه ضرب بالطبل لقدرتها ، كما جاء في صحيح

البخاري : « أقبلت غير يوم الجمعة » ، وأعاده في قوله : ﴿ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ﴾ ^(٥)

على الإنم رعاية لمرتبة القرب والتذكير ؛ فتدبر ذلك .

وأما قوله تعالى : ﴿ قَبِذْكَ فَلَيْفَ رَحُوا ﴾ ^(٦) ، أى بذلك القول .

(٢) سورة الأنفال ٢٠

(٤) سورة النساء ١١٢

(٦) سورة يونس ٥٨

(١) سورة التوبة ٦١

(٣) سورة البقرة ٤٥

(٥) سورة النساء ١١٢

السابع الحذف المقابلي : وهو أن يجتمع في الكلام متقابلان ، فيُحذف من واحد منهما مقابله ؛ لدلالة الآخر عليه ، كقوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَجْرِمُونَ ﴾ ^(١) ، الأصل : فإن افتريته فعلى إجماعي وأتم برآء منه ، وعليكم إجماعكم وأنا بريء مما تجرمون ، فنسبة قوله تعالى : « إجماعي » ، وهو الأول إلى قوله « وعليكم إجماعكم » - وهو الثالث - كنسبة قوله « وأتم برآء منه » - وهو الثاني - إلى قوله تعالى : ﴿ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَجْرِمُونَ ﴾ ^(١) ، وهو الرابع ، واكتفى من كل متناسبين بأحدهما .

ومنه قوله تعالى : ﴿ فَلْيَأْتِنَا بآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأُولُونَ ﴾ ^(٢) ، تقديره : إن أرسل فلينا بآية كما أرسل الأولون فأتونا بآية .

وقوله تعالى : ﴿ وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ إِنِ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ ^(٣) ، تقديره كما قال المفسرون : « ويعذب المنافقين إن شاء فلا يتوب عليهم ، أو يتوب عليهم فلا يعذبهم » ، وعند ذلك يكون مطلق قوله : فلا يتوب عليهم أو يتوب عليهم مقيدا بمدة الحياة الدنيا .

وقوله تعالى : ﴿ فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ﴾ ^(٤) ؛ فتقديره : لا تقربوهن حتى يَطْهُرْنَ ويَطْهُرْنَ ^(٥) ، فإذا طهرن وتطهرن فأتوهن ؛ وهو قول مركب من أربعة أجزاء ؛ نسبة الأول إلى الثاني كنسبة الثاني إلى الرابع ؛ ويحذف من أحدهما لدلالة الآخر عليه .

واعلم أن دلالة السياق قاطعة بهذه الحذوفات ؛ وبهذا التقدير يعتضد القول بالمنع من وطء الحائض إلا بعد الطهر والتطهر جميعا ؛ وهو مذهب الشافعي .

(٢) - سورة الأنبياء . ٥

(١) - سورة هود ٣٥

(٤) - سورة البقرة ٢٢٢

(٣) - سورة الأحزاب ٢٤

(٥) - يقال : طهرت المرأة ، إذا انقطعت عنها الدم ؛ فإذا اغتسلت قبل : طهرت بتشديد الطاء .
(٩ - برهان - ثالث)

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرِّجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ ^(١) .
تقديره : « أدخل يدك تدخل ، وأخرجها تخرج » ؛ إلا أنه قد عرض في هذه المادة تناسب
بالطابق ؛ فلذلك بقي القانون فيه ، الذي هو نسبة الأول إلى الثالث ، ونسبة الثانى إلى الرابع
على حالة الأكثرية ؛ فلم يتغير عن موضعه ؛ ولم يجعل بالنسبة التى بين الأول والثانى ،
وبين الثالث والرابع وهى نسبة النظير ، كقوله :

وَإِنِّ لَتَعْرِفُنِي لِذِكْرِكِ هِزَّةً كَمَا انْتَفَضَ الْعُصْفُورُ بِلَلِّهِ الْقَطَرُ ^(٢)

أى هزة بعد انتفاضة ، كما انتفض العصفور بلله القطر ، ثم اهتز . كذا قاله جماعة .
وأنكره ابن الصائغ ، وقال : هذا التقدير لا يحتاج إليه ولو يكون لكان خلفاً ؛
وإنما أحوجهم إليه أنهم رأوا أنه لا يلزم من إدخالها خروجها ؛ و« يخرج » مجزوم على الجواب ،
فاحتاج أن نقدر جواباً لازماً ، وشرطاً ملزوماً ؛ حذفاً لأنهما نظيران ما ثبت ؛ لكن وقع
في تقدير ما لا يفيد ؛ لأنه معلوم أنه إن أدخلها تدخل ، لكنه قد يُقدَّر تقديرًا بعيداً ؛
وهو : أدخلها تدخل كما هى ، وأخرجها تخرج بيضاء ؛ وهو بعد ذلك ضعيف ، فيقال له :
لا يلزم فى الشرط وجوابه أن يكون اللزوم بينهما ضرورياً بالفعل ؛ فإذا قيل : إن جأنى
زيد أكرمته ؛ فهذا اللازم بالوضع ؛ وليس بالضرورة ، والإكرام لازم للمجىء ، بل لوضع
المتكلم فالموضوع هنا أن الإدخال سبب فى خروجها بيضاء بقدرة الله تعالى ؛ ألا ترى أنه
لا يلزم من إخراجها أن تخرج بيضاء لزوماً ضرورياً إلا بضرورة صدق الوعد . فإن قال :
لم أرد هذا ؛ وإنما أردت أنها لا تخرج إلا حتى تخرج . قيل : هذا من المعلوم الذى لا معنى
للتنصيص عليه .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا ﴾ ^(٣) ،
أصل الكلام : خلطوا عملاً صالحاً بسىء ، وآخر سيئاً بصالح ؛ لأن الخلط يستدعى مخلوطاً

(٢) البيت لأبى صخر الهذلى ؛ أمالى العالى ١ : ١٤٩

(١) سورة النمل ١٢

(٣) سورة التوبة ١٠٢

ومخلوطاً به ؛ أى تارة أطاعوا وخطوا الطاعة بكبيرة، وتارة عصوا وتداركوا المعصية بالتوبة .
وقوله : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ ﴾ ^(١) الآية ،
فإن مقتضى التقسيم اللفظي : من اتبع الهدى فلا خوف ولا حزن يلحقه وهو صاحب
الجنة ، ومن كذب يلحقه الخوف والحزن وهو صاحب النار ؛ فحذف من كل ما أثبت
نظيره في الأخرى .

قيل : ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الذِّى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ
إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ﴾ ^(٢) ، قال سيبويه ^(٣) فى « باب استعمال الفعل فى اللفظ لا فى المعنى » :
لم يشبهوا بالناق ؛ وإنما شبهوا بالمنعوق به ؛ وإنما المعنى : ومثلكم ^(٤) ومثل الذين كفروا
كمثل الناقى والمنعوق به الذى لا يسمع إلا دعاء ؛ ولكنه جاء على سعة الكلام والإيجاز
لعلم المخاطب بالمعنى . انتهى .

والذى أحوجه إلى هذا التقدير ، أنه لما شبه الذين كفروا بالنبي صلى الله عليه وسلم ،
وهذا بناء على أن الناقى بمعنى الداعى ؛ وليس بمتعين ؛ لجواز ألا يراد به الداعى ؛
بل الناقى من الحيوان ؛ شبههم فى تألفهم وتأيتهم بما ينطق من الغنم بصاحبه ؛ من أنهم
يدعون ما لا يسمع ولا يبصر ولا يفهم ما يريد ، فيكون ثم حذف .

وقيل : ليس من هذا النوع إلا الاكتفاء من الأول بالثالث ؛ لنسبة بينهما ؛ وذلك
أنه اكتفى بالذى ينطق - وهو الثالث المشبه به - عن المشبه ، وهو الكناية المضاف إليها فى
قوله : ومثلك ، وهو الأول وأقرب إلى هذا التشبيه المركب والمقابلة ؛ وهو الذى غلط من
وضعه فى هذا النوع ؛ وإنما هو من نوع الاكتفاء للارتباط العطفى ؛ على ما سلف . وقد

(٢) سورة البقرة ١٧١

(١) سورة طه ١٢٣

(٣) الكتاب ١ : ١٠٨

(٤) م د و ملك ؛ وما أثبتت عن ت والكتاب .

قال الصفار : هذا الذى صار إليه سبويه - من أنه حذف من الأول المعطوف عليه ، ومن الثانى المعطوف - ضعيف لا ينبغي أن يصار إليه إلا عند الضرورة ، لأن فيه حذفاً كثيراً مع إبقاء حرف العطف ؛ وهو الواو . ألا ترى أن ما قبلها مستأنف ، والأصل مثلك ومثلهم ؛ إلا أن يدعى أن الأصل ومثلك ومثلهم ، ثم حذف « مثلك » والواو التى عطفت ما بعدها ، وبقيت الواو الأولى . ويزعم أن الكلام رُبط مع ما قبله بالواو ؛ وليس بينهما ارتباط . وفيه ما ترى !

وقال ابن الحجاج : عندى أنه لا حذف فى الآية ، والقصد تشبيه الكفار فى عبادتهم الأصنام بالذى ينطق بما لا يسمع ؛ فهو تمثيل داع بداع محقق لا حذف فيه ؛ والكفار على هذا داعون ؛ وعلى التأويل الأول مدعوون .

ونظيرها قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ ^(١) فإن فيه جملتين ؛ حذف نصف كل واحدة منهما اكتفاء بنصف الأخرى . وأصل الكلام : أفمن يمشى مكباً على وجهه أهدى من يمشى سويًّا على صراط مستقيم ، أمَّن يمشى سويًّا على صراط مستقيم أهدى من ^(٢) يمشى مكبًّا !

وإنما قلنا : إن أصله هكذا ؛ لأن أفعل التفضيل لا بد فى معناه من المفضل عليه . وهاهنا وقع السؤال عن فى نفس الأمر : هل هذا أهدى من ذلك أم ذاك أهدى من هذا ؟ فلا بد من ملاحظة أربعة أمور ، وليس فى الآية إلا نصف إحدى الجملتين ونصف الأخرى ، والذى حذف من هذه مذكور فى تلك ، والذى حذف من تلك مذكور فى هذه ، فحصل المقصود مع الإيجاز والفصاحة . ثم ترك أمر آخر لم يتعرض له ؛ وهو الجواب الصحيح لهذين الاستفهامين ، وأيتهما هو الأهدى ؟ لم يذكره فى الآية أصلاً ، اعتماداً على أن العقل يقول : الذى يمشى على صراط مستقيم أهدى من يمشى مكبًّا على وجهه .

وهذا كقوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ ﴾ ^(١) . وقوله : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ^(٢) .

فائدة

قد يحذف من الأول لدلالة الثانى عليه ، وقد يعكس ، وقد يحتمل اللفظ الأمرين .
فالأول كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتُهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ﴾ ^(٣) فى قراءة من رفع « ملائكته » ، أى إن الله صلى ، تحذف من الأول لدلالة الثانى عليه ، وليس عطفاً عليه .

والثانى كقوله : ﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ ﴾ ^(٤) أى ما يشاء .

وقوله : ﴿ أَنَّ اللَّهَ بَرِيٌّ مِنَ الْمَشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ﴾ ^(٥) ، أى برى أيضاً .

وقوله : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ﴾ ^(٦) .

وقوله : ﴿ يَنْسِنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ أُرْتَبِتُمْ فَعَدَّتْهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحْضَنْ ﴾ ^(٧) ، أى كذلك .

وجعل منه أبو الفتح قوله تعالى : ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ ﴾ ^(٨) التقدير : وأبصر بهم ؛ لكنه حذف لدلالة ما قبله عليه ؛ حيث كان بلفظ الفضلة ؛ وإن كان متممًا فى الفاعل . وهذا التوجيه إنما يتم إذا قلنا : إن الجارَ والجورَ ؛ فى « أسمع بهم وأبصر » فى محل الرفع ؛ فإن قلنا فى محل النصب فلا .

(٢) سورة الزمر ٩

(٤) سورة الرعد ٣٩

(٦) سورة إبراهيم ٤٨

(٨) سورة مريم ٣٨

(١) سورة النحل ١٧

(٣) سورة الأحزاب ٥٦ ؛ وهى قراءة . . .

(٥) سورة التوبة ٣

(٧) سورة الطلاق ٤

وقوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ ^(١) ،
والتقدير خلقهم الله ، فحذف « خلقهم » لقرينة تقدمت في السؤال .

وقوله : ﴿ سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ . كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ ^(٢) ، ولم يقل
« إنا كذلك » اختياراً وأستغناء عنه ، بقوله فيما سبق : ﴿ إنا كذلك ﴾ .

والثالث كقوله : ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ ﴾ ^(٣) ، فقد قيل : إن « أحق »
خبر عن اسم الله تعالى ، وقيل بالعكس .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ
بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا ﴾ ^(٤) ، فالفائدة في إعادة الجار والمجرور ؛ أعني « بها » . لأنه لو حذف من
الثاني لم يحصل الربط لوجوب الضمير فيما وقع مفعولاً ثانياً ، أو كالمفعول الثاني لـ « سمعتم » ،
ولو حذف من الأول لم يكن نصاً على أن الكفر يتعلق بالإثبات ؛ لجواز أن يكون متعلق
الأول غير متعلق الثاني ..

الثامن الاختزال ؛ وهو الافتعال ؛ من خزله ، قطع وسطه ، ثم نقل في الاصطلاح إلى
حذف كلمة أو أكثر . وهي إما اسم ، أو فعل ، أو حرف .

(٢) سورة الصافات ١٠٩ ، ١١٠

(٤) سورة النساء ١٤٠

(١) سورة الزمر ٣٨

(٣) سورة التوبة ٦٢

الأول الوسم

[حذف المبتدأ]

فمنه حذف المبتدأ ، كقوله تعالى : ﴿ ثَلَاثَةٌ ﴾ و ﴿ خَمْسَةٌ ﴾ ؛ و ﴿ سَبْعَةٌ ﴾ ^(١) ، أى هم ثلاثة ، وهم خمسة ، وهم سبعة .

وقوله : ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ التَّافِتَيْنِ ﴾ ^(٢) ، أى إحداها ، بدليل قوله بعده : ﴿ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ ﴾ ^(٣) .

وقوله : ﴿ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ ﴾ ^(٤) ، أى هذا بلاغ .

وقوله : ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ ^(٥) ، أى هم عباد .

وعلى هذا قال أبو عليّ : قوله تعالى : ﴿ بَشِيرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمُ النَّارُ ﴾ ^(٦) ، أى هي النار .

وقوله : ﴿ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ . النَّارُ ﴾ ^(٧) ، أى هو النار .

ويمكن أن يكون « النار » فى الآيتين مبتدأ والخبر الجملة التى بعدها ، ويمكن فى الثانية أن تكون النار بدلاً من « سوء العذاب » .

(١) من قوله تعالى فى سورة الكهف ٢٢ :

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّاِبُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾

(٣) سورة الأحقاف ٣٥

(٢) سورة آل عمران ١٣ ، وستأتى

(٤) سورة الأنبياء ٢٦

(٥) سورة الحج ٧٢ ؛ وتتمتها : ﴿ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبَشِّرِ الْمَصِيرُ ﴾

(٦) سورة المؤمن ٤٥ ، ٤٦ ، وتتمتها : ﴿ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ .

وقوله : ﴿فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾^(١) ، أى هذا ساحر .
 وقوله : ﴿إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ﴾^(٢) . ﴿وَقَالُوا أَأَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾^(٣) .
 ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾^(٤) ، أى هذا الحق من ربكم ؛ وليس هذا كما يظنه بعض
 الجهال ، أى قل القول الحق ؛ فإنه لو أريد هذا لنصب « الحق » ؛ والمراد
 إثبات أن القرآن حق ، ولهذا قال : ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ ؛ وليس المراد هنا قول حق مطلق ؛
 بل هذا المعنى مذكور في قوله : ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾^(٥) ، وقوله : ﴿أَنْتُمْ يُؤْخَذُ عَلَيْهِمْ
 مِيثَاقُ الْكِتَابِ إِلَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ﴾^(٦) .
 وقوله : ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا﴾^(٧) ؛ أى هذه سورة .
 ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾^(٨) ، أى فعله لنفسه وإساءته عليها .
 وقوله : ﴿وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَنْتَسِفْ فَنُطِئْ﴾^(٩) أى فهو يثوس .
 ﴿لَا يَغْرِبُكَ تَقَابُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾^(١٠) ، أى تقلبهم متاع ،
 أو ذاك متاع .

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطْمَةُ . نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ﴾^(١١) ، أى والحطمة نار الله .
 ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ﴾^(١٢) ، أى كل واحدة منها كالقصر ؛ فيكون من باب
 قوله : ﴿فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾^(١٣) ، أى كل واحد^(١٤) منهم ، والحوج إلى ذلك
 أنه لا يجوز أن يكون الشرر كله كقصر واحد ؛ والقصر هو البيت من آدم^(١٥) ، كان يُضْرَبُ

(٢) سورة الذاريات ٥٢
 (٤) سورة الكهف ٢٩
 (٦) سورة الأعراف ١٩٦
 (٨) سورة فصلت ٤٦
 (١٠) سورة آل عمران ١٩٦ ، ١٩٧
 (١٢) سورة المرسلات ٣٢
 (١٤-١٤) ساقط من ت .

(١) سورة المؤمن ٢٤
 (٣) سورة الفرقان ٥
 (٥) سورة الأنعام ١٥٢
 (٧) سورة النور ١
 (٩) سورة فصلت ٤٩
 (١١) سورة الهزلة ٦٠ ، ٥
 (١٣) سورة النور ٤

على المال ، ويؤيده ^(١) قوله : ﴿ جَمَالَ صَفَرٌ ﴾ ^(٢) ، أفلا تراه كيف شبهه بالجماعة ! أى كل واحدة من الشرر كالجل لجماعته ، فجماعته إذن مثل الجمالات الصفر ، وكذلك الأول ، شرره منه كالقصر . قاله أبو الفتح بن جنى .

وأما قوله : ﴿ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً ﴾ ^(٣) ، فقليل : إن « ثلاثة » خبر مبتدأ محذوف تقديره : « آلهتنا ثلاثة » .

واعترض باستلزامه ^(٤) إثبات الإلهية لانصراف النفي الداخل على المبتدأ أو الخبر إلى المعنى المستفاد من الخبر لا إلى معنى المبتدأ ، وحينئذ يقتضى نفي عدة الآلهة ، لا نفي وجودهم .

قيل : وهو مردود ؛ لأن نفي كون آلهتهم ثلاثة يصدق بآلا يكون للآلهة الثلاثة وجود بالكلية ؛ لأنه من السالبة المحصلة ^(٥) ، فعناه : ليس آلهتكم ثلاثة ، وذلك يصدق بآلا يكون لهم آلهة ، وإنما حذف إيداناً بالنهى عن مطلق العدد المفهم للمساواة بوجه ما : فما ظنك بمن صرح بالشركة ؛ كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ﴾ ^(٦) ، وقال سبحانه : ﴿ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ ﴾ ^(٧) ، فأفهم أنه لو وجد الإله يكون غيره معه خطأ لإفهامه مساواة ما ، كقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ ^(٨) ، ولزم من نفي الثلاثة لامتناع المساواة المعلومة عقلاً ، والمدلول عليها بقوله : ﴿ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ ﴾ ^(٩) ، نفي الشركة مطلقاً ؛ فإن تخصيص النفي وقع في مقابلة الفعل ، ودليلاً عليه ؛ فإنهم كانوا يقولون في الله وعيسى وأمه : ثلاثة .

(٢) سورة الرسالات ٣٣

(٤) ت : « استلزامه » ؟؟

(٦) سورة المائدة ٧٣

(٨) سورة النساء ١٧١

(١) ت : « ويؤكد » .

(٣) سورة النساء ١٧١

(٥) ت : « المحصلة » .

(٧) سورة الأنعام ١

ونحوه في الخروج على السبب: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَرْبَابًا أُضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾ ^(١).
وقال صاحب "إسفار الصباح" ^(٢)،: الوجه تقدير كون ثلاثة، أو «في الوجود»، ثم
حذف الخبر الذي هو «لنا»، أو «في الوجود» الحذف المطرد، وما دل عليه توحيد
لا إله إلا الله.

ثم حذف المبتدأ حذف الموصوف كالمعدد؛ إذا كان معلوما. كقولك: عندي ثلاثة.
أى دراهم؛ وقد علم بقرينة قوله: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ ^(٣).
وقد عورض هذا بأن نفي وجود ثلاثة لا ينفي وجود إلهين. وأجيب بأن تقديره
«آلهتنا ثلاثة» يوجب ثبوت الآلهة: وتقدير «لنا آلهة» لا يوجب ثبوت إلهين.
فعورض بأنه كما لا يؤجبه فلا ينفيه.

فأجيب بأنه إذا لم ينفيه فقد نفاه ما بعده من قوله: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾.
فعورض بأن ما بعده إن نفي ثبوت إلهين فكيف ثبوت آلهة!
فأجاب بأنه لا ينفيه، ولكن يناقضه، لأن تقدير آلهتنا ثلاثة يثبت وجود إلهين؛
لا انصراف النفي في الخبر عنه، بخلاف تقدير: «لنا آلهة ثلاثة»، فإنه لا يثبت وجود
إلهين لانصراف النفي إلى أصل الإثبات للآلهة.
وفي أجوبة هذه المقدمات نظر.

قلت: وذكر ابن جني أن الآية من حذف المضاف؛ أى ثالث ثلاثة لقوله في موضع
آخر: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾.

(٢) ذكره صاحب كشف الظنون؟

(١) سورة آل عمران ١٣٠

(٣) سورة النساء ١٧١

حذف الخبر

نحو: ﴿ أَكَلَمَهَا دَائِمٌ وَظَلَمَهَا ﴾^(١)، أى دائم.

وقوله فى سورة ص بعد ذكر من اقتص ذكره من الأنبياء، فقال: ﴿ هَذَا ذِكْرٌ ﴾^(٢) ثم لما ذكر مصيرهم إلى الجنة وما أعد لهم فيها من النعيم قال: ﴿ هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَأْبٍ. جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْيِهَادُ. هَذَا ﴾^(٣) قد أشارت الآية إلى مآل أمر الطاغين، ومنه يفهم الخبر.

وقوله: ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾^(٤) أى أهذا خير أمّن جعل صدره ضيقاً حرجاً وقسا قلبه، فحذف بدليل قوله: ﴿ قَوْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾^(٥).

وقوله تعالى: ﴿ قَالُوا لَا ضَيْرَ ﴾^(٥).

﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ ﴾^(٦).

وقوله: ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا ﴾^(٧) قال سيويو: الخبر^(٨) محذوف، أى فيما

أتلوه السارق والسارقة، وجاء ﴿ فَاقْطَعُوا ﴾ جملة أخرى. وكذا قوله: ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي ﴾^(٩) فيما نقص لكم.

وقال غيره: السارق مبتدأ، فاقطعوا خبره؛ وجاز ذلك لأن الاسم عام؛ فإنه لا يريد

(٢) سورة ص ٤٩،

(٤) سورة الزمر ٢٢

(٥) سورة الشعراء ٥٠ والآية بتمامها: ﴿ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴾

قال الزحخشري فى معناه: « لا ضير علينا فى قتلك ».

(٧) سورة المائدة ٣٨

(٩) سورة النور ٢

(١) سورة الرعد ٣٥

(٣) سورة ص ٥٥-٥٦

(٦) سورة سبأ ١٠

(٨) الكتاب ١: ٧١

به سارقاً مخصوصاً ، فصار كُأُماً الشرط ؛ تدخل الفاء في خبرها لعمومها ؛ وإنما قد سببويه ذلك لجعل الخبر أمراً ؛ وإذا ثبت الإضمار فالفاء داخلة في موضعها ، تربط بين الجملتين . ومما يدل على أنه على الإضمار إجماع القراء على الرفع ؛ مع أن الأمر الاختيار في النصب . قال : وقد قرأ ناس بالنصب ^(١) ارتكاناً للوجه القوي في العربية ؛ ولكن أبت العامة إلا الرفع . وكذا قال في قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ ﴾ ^(٢) : مثل ، هنا خبر مبتدأ محذوف ؛ أي فيما نقص عليكم مثل الجنة . وكذا قال أيضاً في قوله تعالى : ﴿ وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِيَا مِنْكُمْ فَأَذُوهَا ﴾ : إنه على الإضمار ^(٣) .

وقد ردّ بأنه أي ضرورة تدعو إليه هنا ؛ فإنه إنما صرنا إليه في السارق ونحوه لتقدير دخول الفاء في الخبر ، فاحتيج للإضمار حتى تكون الفاء على بابها في الربط ؛ وأما هذا فقد وُصِلَ بفعل هو بمنزلة : الذي يأتيك فله درهم .

وأجاب الصفار بأن الذي حمّله على هذا أن الأمر دائر مع الضرورة كيف كان ؛ لأنه إذا أضمر فقد تكلف ، وإن لم يضمّر كان الاسم مرفوعاً وبعده الأمر ، فهو قليل بالنظر إلى « اللذين يأتيناها » فكيفما عمل لم يخل من قبح .

وإن قدّر منصوباً ، وجاء القرآن بالألف على لغة من يقول « الزيدان » في جميع الأحوال وقع أيضاً في محذور آخر ؛ فلهذا قدره هذا التقدير ، لأن الإضمار مع الرفع يتكافأ .

وقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ ^(٤) ، الخبر محذوف ، أي يعذبون . ويجوز أن يكون الخبر : ﴿ أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَسْكَنٍ بَعِيدٍ ﴾ ^(٥) .

(١) عبارة الكتاب : « وقد قرأ أناس ﴿ وَالسَّارِقَ وَالسَّارِقَةَ ﴾ ، و ﴿ الرَّانِيَّةَ وَالزَّانِي ﴾

وهو في العربية على ما ذكرت لك من القوة . »

(٣) سورة النساء ١٦

(٢) سورة الرعد ٣٥

(٥) سورة فصلت ٤٤

(٤) سورة فصلت ٤١

وقوله : ﴿لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ ^(١) ؛ فأنتم مبتدأ والخبر محذوف ؛ أى حاضرون ؛ وهو لازم الحذف هنا .

وقوله تعالى : ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حَلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ ^(٢) ؛ أى حل لكم كذلك .

وأما قوله تعالى : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ ^(٣) ، أما على قراءة التنوين فلاحذف لأنه يجعله مبتدأ ؛ و«ابن الله» خبر ؛ حكاية عن مقالة اليهود ؛ وأما على قراءة من لم ينون ؛ فقليل ؛ إنه صفة والخبر محذوف ؛ أى عزير ابن الله إلها ، وقيل : بل المبتدأ محذوف ، أى إلها عزير ، وابن صفة .

ورُدَّ بوجهين :

أحدهما : أنه لا يطابق : ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ ^(٣) .

والثانى : أنه يلزم عليه أن يكون التكذيب ليس عائدا إلى النبوة ، فكذب لأن صدق الخبر وكذبه راجع إلى نسبة الخبر لا إلى الصفة . فلو قيل : زيد القائم فقيه ، فكذب ، انصرف التكذيب لإسناد فقيه ؛ لا لوصفه بالقائم .

وفيه نظر ؛ لأن الصفة ليست إنشاء ففى خبر ؛ إلا أنها غير تامة الإفادة ، فيصح تكذيبها . والأولى تقويته وأن يقال الصفة والإضافة ونحوها فى السند إليه لواحق بصورة الأفراد ؛ أى يريد أن يصوره بهيئة خاصة ؛ ويحكم عليه كذلك ؛ لكن لاسبيل إلى كذبها ؛ مع أنها تصورت ؛ فالوجه أن يقال : إن كذب الصفة بإسناد مسندها إلى

معدوم الثبوت . ونظير هذه المسألة في الفقه ما لو قال : والله لا أشرب ماء هذا الكوز : ولا ماء فيه .

وقال بعضهم : ﴿عَزِيزُ ابْنِ اللَّهِ﴾ خبر الجملة ، أى حَكى فيه لفظهم ، أى قلوا هذه العبارة القبيحة ؛ وحينئذ فلا يقدّر خبر ولا مبتدأ .

وقيل : « ابن الله » خبر وحذف التنوين من « عزيز » للعجمة والعلمية .

وقيل : حذف تنوينه لالتقاء الساكنين ؛ لأن الصفة مع الموصوف كشيء واحد ، كقراءة : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصَّمَدُ﴾^(١) ، على إرادة التنوين ؛ بل هنا أوضح ؛ لأنه في جملة واحدة .

وقيل : « ابن الله » نعت ولا محذوف ؛ وكأن الله تعالى حَكى أنهم ذكروا هذا اللفظ إنكاراً عليهم ؛ إلا أن فيه نعتاً ، لأن سيويوه قال : إن قلت وضعته العرب لتحكى به ما كان كلاماً لا قولاً . وأيضاً إنه لا يطابق قوله : ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾^(٢) ، والظاهر أنه خبر . والقولان منقولان .

والصحيح في هذه القراءة أنه ليس الغرض إلا أن اليهود قد بلغوا في رسوخ الاعتقاد في هذا الشيء إلى أن كانوا يذكرون هذا النكر ، كما تقول في قومٍ تعالوا في تعظيم صاحبهم : أراهم اعتقدوا فيه أمراً عظيماً ثابتاً ، يقولون : زيد الأمير !

مايحتمل الأمرين

قوله تعالى : ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾^(٣) يحتمل حذف الخبر ، أى أجمل^(٤) ، أو حذف لمبتدأ ، أى فأمرى صبر جميل . وهذا أولى لوجود قرينة حالية - هى قيام الصبر به - دالة على

(٢) سورة التوبة ٣٠ .

(٤) قدره صاحب الكشاف : « أمثل » .

(١) سورة الإخلاص ٢ ، ١ .

(٢) سورة يوسف ١٨ .

المحذوف ، وعدم قرينة حالية أو مقالية تدل على خصوص الخبر، وأن الكلام مسوق للإخبار بحصول الصبر له واتصافه به ، وحذف المبتدأ يحصل ذلك دون حذف الخبر ؛ لأن معناه أن الصبر الجميل ؛ أجل من ^(١) لأن المتكلم متلبس به .

وكذلك يقوله مَنْ لم يكن وصفه ؛ ولأن الصبر مصدر ، والمصادر معناه الإخبار ؛ فإذا حمل على حذف المبتدأ فقد أجرى على أصل معناه ؛ من استعماله خبراً ، وإذا حمل على حذف الخبر فقد أخرج عن أصل معناه ^(٢) .

ومثاله قوله : ﴿ طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ ﴾ ^(٣) . أى أمثل ، أو أولى لكم من هذا ، أو أمرم الذى يطلب منكم .

ومثله قوله : ﴿ سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا ﴾ ^(٤) ؛ إما أن يقدر : فيما أوحينا إليك سورة ، أو هذه سورة .

وقد يحذفان جملة ، كقوله تعالى : ﴿ وَاللَّائِي يَتُسَّنَّ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ ﴾ ^(٥) الآية .

حذف الفاعل

المشهور امتناعه إلا فى ثلاثة مواضع :

أحدها : إذا بنى الفعل للمفعول .

ثانيها : فى المصدر ، إذا لم يذكر معه الفاعل ؛ مُظهراً يكون محذوفاً ، ولا يكون مضمراً ، نحو ﴿ أَوْ إِطْعَامٌ ﴾ ^(٦) .

(١) كذا فى الأصول وموضع النقط بياض فى ت (٢) كذا وردت العبارة فى الأصلين ؛ وفيها غموض .

(٣) سورة النور ٥٣ .

(٤) سورة البور ١ .

(٥) سورة الطلاق ٤ وبقية الآية : ﴿ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ . . . ﴾

والقدير فعدتهن ثلاثة أشهر ؛ قال صاحب الكشاف : « تحذف لدلالة المذكور عليه » .

(٦) سورة البقرة البلد ١٤ .

ثالثها : إذا لاقى الفاعل سا كنّا من كلمة أخرى ، كقولك للجماعة : اضرب القوم ،
والله خاطبة : اضرب القوم .

وجوز الكسائي حذفه مطلقاً إذا وجد ما يدل عليه ؛ كقوله تعالى : ﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ
الْبَرَأَقَى ﴾ ^(١) أى بلغت الروح .

وقوله : ﴿ حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾ ^(٢) أى الشمس .

﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ ﴾ ^(٣) يعنى العذاب ، لقوله قبله : ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ ^(٤) .

﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانُ ﴾ ^(٥) تقديره فلما جاء الرسول سليمان .

والحق أنه فى المذكورات مُضْمَرٌ لا محذوف ، وقد سبق الفرق بينهما .

أما حذفه وإقامة المفعول مقامه ، مع بناء الفعل للمفعول فله أسباب :

منها العلم به ، كقوله تعالى : ﴿ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ ^(٦) . ﴿ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ
ضَعِيفًا ﴾ ^(٧) ، ونحن نعلم أن الله خالقه .

قال ابن جنى : وضابطه أن يكون الغرض إنما هو الإعلام بوقوع الفعل بالمفعول ؛
ولا غرض فى إبانة الفاعل من هو .

ومنها تعظيمه ، كيقوله : ﴿ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ ^(٨) ، إذ كان الذى
قضاه عظيم القدر .

وقوله : ﴿ وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ ﴾ ^(٩) .

(٢) - سورة ص ٣٢

(٤) - سورة الصافات ١٧٦

(٦) - سورة الأنبياء ٣٧

(٨) - سورة يوسف ٤١

(١) - سورة الفاتحة ٢٦

(٣) - سورة الصافات ١٧٧

(٥) - سورة النمل ٣٦

(٧) - سورة النساء ٢٨

(٩) - سورة هود ٤٤

وقوله : ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ ^(١) قال الزمخشري في كشفه القديم : هذا أحل على كبرياء المنزل وجلالة شأنه من القراءة الشاذة « أُنزِلَ » ^(٢) مبنياً للفاعل ، كما تقول : الملك أمر بكذا ، ورسم بكذا ؛ وخاصة إذا كان الفعل فعلاً لا يتقدر عليه إلا الله ، كقوله : ﴿وَقَضَى الْأَمْرُ﴾ ^(٣) قال : كأن طيَّ ذكر الفاعل كالواجب ؛ لأمرين : أحدهما : أنه إن تعين الفاعل وعلم أن الفعل مما لا يتولاه إلا هو وحده ، كان ذكره فضلاً ولنوعاً .

والثاني : الإيذان بأنه منه ؛ غير مشارك ولا مدافع عن الاستثثار به والتفرد بإيجاده . وأيضاً فما في ذلك من مصير أن اسمه جدير بأن يصاب ويرتفع به عن الابتذال والامتهان . وعن الحسن : لولا أني مأذون لي في ذكر اسمه لرأت به عن مسلك الطعام والشراب . ومنها مناسبة الفواصل ، نحو : ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى﴾ ^(٤) ، ولم يقل : يجزيها .

ومنها مناسبة ما تقدمه ، كقوله في سورة براءة : ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ^(٥) ؛ لأن قبلها : ﴿وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ ^(٦) على بناء الفعل للمفعول ؛ فجاء قوله : ﴿وَطُبِعَ﴾ ليناسب بالختام المطمع ، بخلاف قوله فيما بعدها : ﴿وَطُبِعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ^(٧) ، فإنه لم يقع قبلها ما يقتضي البناء ، فجاءت على الأصل .

(١) على اللفظ مسمى فاعله ؛ وهي قراءة يزيد بن

(٢) سورة هود ٤٤

(٣) سورة التوبة ٨٧

(٤) سورة التوبة ٩٣

(٥) سورة التوبة ٩٣

(١) سورة البقرة ٤

قطيب ؛ وانظر الكشف .

(٢) سورة التوبة ٩٣

(٣) سورة التوبة ٩٣

حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه

وهو كثير ، قال ابن جني : وفي القرآن منه زهاء ألف موضع . وأما أبو الحسن ، فلا يقيس عليه ؛ ثم رده بكثرة المجاز في اللغة ، وحذف المضاف مجاز . انتهى .

وشرط المبرد في كتاب " ما اتفق لفظه واختلف معناه " لجوازه وجود دليل على المحذوف من عقل أو قرينة ، نحو : ﴿ وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ ﴾ ^(١) ، أي أهلها ، قال ^(٢) : ولا يجوزُ على هذا أن نقول : جاء زيد ، وأنت تريد غلامَ زيد ؛ لأنَّ المجيء يكون له ، ولا دليل [في مثل هذا] ^(٣) على المحذوف .

وقال الزمخشري في الكشاف القديم : لا يستقيم تقدير حذف المضاف في كل موضع ؛ ولا يُقدّم عليه إلا بدليل واضح وفي غير مُلبّس ؛ كقوله : ﴿ وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ ﴾ ^(١) . وضَعَفَ بذلك قولُ من قَدَّرَ في قوله : ﴿ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ ^(٤) ، أنه على حذف مضاف .

فإن قلت : كلاً لا يجوز مجيئه ^(٥) لا يجوز خداعه ؛ حين جرّك إلى تقدير المضاف امتناع مجيئه ، فهلاً جرّك إلى مثله امتناع خداعه !

قلتُ : يجوز في اعتقاد المنافقين تصوّر خداعه ؛ فكان الموضع ملبساً فلا يقدر . انتهى .
فنه قوله تعالى : ﴿ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾ ^(٦) ، أي رحمته ويخاف عذابه .

(٢) ما اتفق لفظه واختلف معناه ٢٢

(٤) سورة النساء ١٤٢

(٦) سورة الأحزاب ٢١ .

(١) سورة يوسف ٨٢

(٣) تكملة ما اتفق لفظه واختلف معناه

(٥) من قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ ﴾

﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ ﴾^(١) أى سدّ ياجوج وماجوج .
 ﴿ وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾^(٢) ، أى شعر الرأس .
 ﴿ وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾^(٣) ، أى بقراءة صلاتك ، ولا تخافت
 بقرائتها .

﴿ وَلَكِنَّ الْغَبْرَ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ ﴾^(٤) ، أى برّ من آمن بالله .
 ﴿ فَلَمَّا أَنَاهَا نُودِيَ ﴾^(٥) أى ناحيتها ، والجهة التى هو فيها .
 ﴿ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴾^(٦) أى هل يسمعون دعاءكم ، بدليل الآية الأخرى:
 ﴿ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ ﴾^(٧) .
 ﴿ عَلَىٰ خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ ﴾^(٨) ، أى من آل فرعون .
 ﴿ إِذَا لَادَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ﴾^(٩) ، أى ضعف عذابهما .
 ﴿ وَمِثْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمِثْلِ الَّذِي يَنْعِقُ ﴾^(١٠) ، أى ومثل واعظ الذين كفروا
 كناعق الأنعام .

﴿ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾^(١١) ، أى مثل أمهاتهم
 ﴿ وَتَجْمَعُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾^(١٢) ، أى شكر رزقكم . وقيل : تجمعون
 التكذيب شكر رزقكم .

وقوله : ﴿ وَآتَيْنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ ﴾^(١٣) ، أى على السنة رسلك .
 وقوله : ﴿ وَنَحْنُ نُوَا أَمَانَاتِكُمْ ﴾^(١٤) أى ذوى أماناتكم ، كالمودع والمعيّر والموكل

- (٢) سورة مريم ٤
 (٤) سورة البقرة ١٧٧
 (٦) سورة الشعراء ٧٢
 (٨) سورة يونس ٨٣
 (١٠) سورة البقرة ١٧١
 (١٢) سورة الواقعة ٨٢
 (١٤) سورة الأفعال ٢٧

- (١) سورة الأنبياء ٩٦
 (٣) سورة الإسراء ١١٠
 (٥) سورة طه ١١
 (٧) سورة فاطر ١٤
 (٩) سورة الإسراء ٧٥
 (١١) سورة الأحزاب ٦
 (١٣) سورة آل عمران ١٩٤

والشريك، ومن يدك في ماله أمانة لا يد ضمان، ويجوز أن لا حذف فيه ؛ لأن « خنت » من باب « أعطيت » ؛ فيتعدى إلى مفعولين ، ويقتصر على أحدهما .

وقوله : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۖ ﴾^(١) ، أى أهل مدين ؛ بدليل قوله : ﴿ وَمَا كُنْتُ نَازِيًّا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ۖ ﴾^(٢) .

﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا ۖ ﴾^(٣) ، أى أهل القرية ؛ وأهل العير .

وقيل : فيه وجهان : أحدهما أن القرية يُراد بها نفس الجماعة ، والثانى أن المراد سؤال الأبنية نفسها ؛ لأن المخاطب نبيّ صاحب معجزة .

﴿ اٰلْحٰجُّ اَشْهُرٌ مَّعْلُوْمَاتٌ ۖ ﴾^(٤) ، ويجوز أن يقدر : الحج حج أشهر معلومات .

﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ ۖ ﴾^(٥) أى أمر ربك .

﴿ وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوْبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۖ ﴾^(٦) ، أى حب العجل ؛ قال الراغب :^(٧)

إنه على بابه ؛ فإنّ في ذكر العجل تنبيهاً على أنّه لفرط محبتهم صار صورة العجل في قلوبهم لا تمحى .

وقوله : ﴿ اَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۖ اِِرْمَ ۖ ﴾^(٨) ؛ فأرم اسم لموضع وهو في موضع

جر ؛ إلا أنه منع الصرف للعلمية والتأنيث ؛ أما العلمية فواضح ، وأما التأنيث فلقوله : ﴿ ذَاتِ اَلْعِمَادِ ۖ ﴾ .

وقوله : ﴿ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ۖ ﴾^(٩) أى بسؤالها ؛

لخذف المضاف ؛ ولم يكفروا بالسؤال ؛ إنما كفروا برّبهم المستؤل عنه ؛ فلما كان السؤال

سبباً للكفر فيما سألوا عنه نُسب الكفر إليه على الاتساع .

(٢) سورة القصص ٤٥

(٤) سورة البقرة ١٩٧

(٦) سورة البقرة ٩٣

(٨) سورة الفجر ٧٦

(١) سورة هود ٨٤

(٣) سورة يوسف ٨٢

(٥) سورة الفجر ٢٢

(٧) المفردات ٢٥٨ ؛ وهو أحد أقواله

(٩) سورة المائدة ١٠٢ .

وقيل : الهاء عائدة على غير ما تقدم لقوة هذا الكلام ؛ بدليل أنّ الفعل تعدّى بنفسه والأول بغيره ؛ وإنما هذه الآية كناية عما سأل قوم موسى ، وقوم عيسى من الآيات ، ثم كفروا ، فعنى السؤال الأول والثاني ^(١) الاستفهام ، ومعنى الثالث طلب الشيء .

وقوله : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمِيتَةُ ﴾ ^(٢) ، أى تناولها ، لأن الأحكام لا تتعلق بالأجرام إلا بتأويل الأفعال .

وقيل : إن الميتة يعبر بها عن تناولها فلا حذف ؛ ولو كان ثمّ حذف لم يؤنث الفعل ؛ ولأن المركب إنما يحذف إذا كان للكلام دلالة غير الدلالة الإفرادية ؛ والمفهوم من هذا التركيب التناول من غير تقدير ؛ فيكون اللفظ موضوعاً له ، والمشهور في الأصول أنه من محال الحذف .
وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴾ ^(٣) ، فهاهنا إضمار ؛ لأن قائلاً لو قال : « من عمل صالحاً جعلته في جملة الصالحين » لم يكن فيه فائدة ؛ وإنما المعنى لندخلهم في زمرة الصالحين .

وقوله : ﴿ تَجْمَلُونَهُ قَرَّاطِيسَ ﴾ ^(٤) ، أى ذا قراطيس ، أو مكتوب في قراطيس .
﴿ تُبْدُونَهَا ﴾ ^(٥) ، أى تبدون مكتوبها .

وقوله : ﴿ وَتُخْفُونَ كَثِيراً ﴾ ^(٦) ؛ ليس المعنى تخفونها إخفاء كثيراً ؛ ولكن التقدير : تخفون كثيراً من إنكار ذى القراطيس ؛ أى يكتمونه فلا يظهرونه ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي

(١) من قوله تعالى في أول الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنْزَلِ الْقُرْآنُ . . . ﴾

(٢) سورة العنكبوت ٩

(٣) سورة المائدة ٣

(٤) سورة الأنعام ٩١

الْكِتَابِ ﴿^(١)﴾ . ويدل له قوله : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ ^(٢) .

وقوله : ﴿ فَسَأَلْتُ أَوْدِيَةَ بِقَدَرِهَا ﴾ ^(٣) ؛ أى بقدر مياها .

وقوله : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا ﴾ ^(٤) ؛ أى هم بدفعها : أى عن نفسه في هذا التأويل بتزيه يوسف صلى الله عليه وسلم عما لا يليق به ؛ لأن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم معصومون من الصغائر والكبائر ، وعليه فينبغي الوقف على قوله : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ﴾ .

تنبيه

[في جواز حذف المضاف مع الالتفات إليه]

اعلم أن المضاف إذا علم جاز حذفه مع الالتفات إليه ؛ فيعامل معاملة الملفوظ به ؛ من عَوْد الضمير عليه . ومع أطراحه بصير الحكم في عَوْد الضمير للقائم مقامه . فنال استهلاك حكمه وتناسى أمره قوله تعالى : ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ ﴾ ^(٥) ؛ فإن الضمير في ﴿ يَغْشَاهُ ﴾ عائد على المضاف المحذوف بتقدير : أوكذى ظلمات .

وقوله : ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ ﴾ ^(٦) أى كمثل ذوى صيب ؛ ولهذا رجع الضمير إليه مجموعاً في قوله : ﴿ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ ﴾ ^(٧) ؛ ولولم يراع لأفرده أيضاً .

(٢) سورة المائدة ١٥

(٤) سورة يوسف ٢٤

(٦) سورة البقرة ١٩

(١) سورة البقرة ١٥٩

(٣) سورة الرعد ١٧

(٥) سورة النور ٤٠

وقوله : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ ^(١) ، ولولا ذلك لحذفت التاء ؛ لأن القوم مذكور ، ومنه قول حسان :

يَسْقُونَ مِنْ وَرَدَ الْبَرِيصِ عَلَيْهِمْ بَرْدَى يُصَقِّقُ بِالرَّحِيقِ السَّلْسِلِ ^(٢)
بالباء ، أى ماء بردى ، ولوراعى المذكور لأنى بالتاء .

قالوا : وقد جاء فى آية واحدة مراعاة التأنيث والحذوف ، وهى قوله تعالى : ﴿ وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فِجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴾ ^(٣) أنث الضمير فى ﴿ أَهْلَكْنَاهَا ﴾ ، و ﴿ فِجَاءَهَا ﴾ ، لإعادتهما على القرية المؤنثة ، وهى النابتة ، ثم قال : ﴿ أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴾ فأتى بضمير مَنْ يعقل حملا على « أهلها » المحذوف .

وفى تأويل إعادة الضمير على التأنيث وجهان : أحدهما أنه لما قام مقام المحذوف صارت المعاملة معه . والثانى أن يقدر فى الثانى حذف المضاف ؛ كما قدر فى الأول . فإذا قلت : سألت القرية وضربتها ، فعنائه : وضربت أهلها ، فحذف المضاف كما حذف من الأول إذ وجه الجواز قائم .

وقيل : هنا مضاف محذوف ، المعنى أهلكنّا أهلها . وبياتاً ، حال منهم ، أى مبيتين و ﴿ أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴾ ^(٣) جملة معطوفة عليها ، ومحلها النصب .

وأنكر السَّلَوِّينَ مراعاة المحذوف ، وأوّل ما سبق على أنه من باب الحمل على المعنى ونقله عن المحققين ؛ لأن القوم جماعة ولهذا يؤنث تأنيث الجمع ، نحو هى الرجال ؛ وجمع التكسير عندهم مؤنث وأسماء الجوع تجرى مجراها ، وعلى هذا جاء التأنيث ، لا على الحذف ، وكذا القول فى البيت .

(١) سورة الشعراء ١٠٥

(٢) ديوانه ٣٠٩ . البريص ويردى : نهران بدمشق . ويصقق : يمزج ، ولم يقل « تصفن » والرحيق : الخمر البيضاء . والسلسل : اللينة السهلة .

(٣) سورة الأعراف ٤

وفي قراءة بعضهم : ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ ^(١) ، قدّروه « عرض الآخرة » .
والأحسن أن يقدّر ثواب الآخرة ؛ لأنّ العَرْضَ لا يبقى ، بخلاف الثواب .

حذف المضاف إليه

وهو أقل استعمالاً ، كقوله : ﴿كُلُّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ ^(٢) .

وقوله : ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ ^(٣) .

وكذا كل ما قُطِعَ عن الإضافة ، ممّا وجبت إضافته معنى لا لفظاً ، كقوله تعالى :
﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ ^(٤) ، أى من قبل ذلك ومن بعده .

حذف المضاف والمضاف إليه

قد يضاف المضاف إلى مضاف ؛ فيحذف الأول والثاني ويبقى الثالث ، كقوله تعالى :
﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ ^(٥) أى بدل شكر رزقكم .

وقوله : ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ ^(٦) ، أى كدوران عين
الذى يغشى عليه من الموت .

وقيل : الرزق في الآية الأولى الحظّ والنصيب ؛ فلا حاجة إلى تقدير . وكذلك ،
إذا قدرت في الثانية « كالذى » حالاً من الهاء والميم في « أعينهم » ، لأنّ المضاف بعض
فلا تقدير .

(٢) سورة الأنبياء ٣٣ .

(٤) سورة الروم ٤ .

(٦) سورة الأحزاب ١٩ .

(١) سورة الأنفال ٦٧ .

(٣) سورة البقرة ٢٥٣ .

(٥) سورة الواقعة ٨٢ .

وقوله : ﴿ فَمَا أَصْبَرْتُمْ عَلَى النَّارِ ﴾ ^(١) ، وقدره أبو الفتح في " المحتسب " على أفعال أهل النار .

وأما قوله : ﴿ مِنْ أَلَمَاتِ الْمَوْتِ ﴾ ^(٢) فالتقدير من مداناة الموت أو مقاربتة ؛ ولا ينكر عُسره على الإنسان واسكن إذا دُفِع إلى أمرٍ هابه .

ومثله الآية الأخرى : ﴿ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرُ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ ^(٣) .

وقوله : ﴿ فَتَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ ﴾ ^(٤) ، أى من أثر حافر فرس الرسول .

وقوله : ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾ ^(٥) ، أى من أموال كفار أهل القرى .

وقوله : ﴿ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ ^(٦) ، أى من أفعال ذوى تقوى القلوب .

وقوله : ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ ... ﴾ ^(٧) الآية ، فإن التقدير كمثل ذوى صيب ،

فحذف المضاف والمضاف إليه ، أما حذف المضاف فلقرينة عطفه على : ﴿ كَمَثَلِ الَّذِي

أَسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾ ^(٨) وأما المضاف إليه فلدلالة : ﴿ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ ﴾ ^(٩) عليه

فأعاد الضمير عليه مجموعاً ، وإنما صير إلى هذا التقدير ؛ لأن التشبيه بين صفة المنافقين وصفة

ذوى الصيب ، لا بين صفة المنافقين وذوى الصيب .

حذف الجار والمجرور

كقوله : ﴿ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا ﴾ ^(١٠) ، أى بسىء ﴿ وَآخَرَ سَيِّئًا ﴾ ^(١١) أى بصالح .

(٢) سورة الأحزاب ١٩

(٤) سورة طه ٩٦

(٦) سورة الحج ٣٢

(٨) سورة البقرة ١٧

(١٠) سورة التوبة ١٠٢ .

(١) سورة البقرة ١٧٥

(٣) سورة القتال ٢٠

(٥) سورة الحنتر ٧

(٧) سورة البقرة ١٩

(٩) سورة البقرة ١٩

وكذا بعد أفعّل التفضيل ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ ^(١) ، أى من كل شئ .

﴿ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ ^(٢) أى من السرّ ، وكلام الزمخشري في المفصل يقتضى أنه مما قطع ^(٣) فيه عن متعلقه قصداً لنفي الزيادة ، نحو فلان يعطى ، ليكون كالفعل المتعدى . إذا جعل قاصراً للمبالغة ؛ فعلى هذا لا يكون من الحذف ، فإنه قال : أفعّل التفضيل له معنيان : أحدهما أن يراد أنه زائد على المضاف إليه في الجملة التي هو وهم فيها شركاء . والثانى أن يوجد مطلقاً له الزيادة فيها إطلاقاً ، ثم يضاف للتفضيل على المضاف إليه ؛ لكن بمجرد التخصيص كما يضاف مالا تفضيل فيه ؛ نحو قولك : الناقص والأشجع أعدلا بنى مروان ، كأنك قلت : عادلا . انتهى .

حذف الموصوف

يشترط فيه أمران :

أحدهما : كون الصفة خاصة بالموصوف ؛ حتى يحصل العلم بالموصوف ؛ فتي كانت الصفة عامة امتنع حذف الموصوف . نص عليه سيبويه في آخر باب ترجمة « هذا باب مجارى أواخر الكلم العربيّة » . وكذلك نص عليه أرسطاطاليس في كتابه الخطابة .
الثانى : أن يعتمد على مجرد الصفة من حيث هى ، لتعلق غرض السياق ، كقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾ ^(٤) . ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ ^(٥) ؛ فإن الاعتماد في سياق القول على مجرد الصفة لتعلق غرض القول من المدح أو الذم بها .

(٢) سورة طه ٧

(٤) سورة آل عمران ١١٥

(١) سورة العنكبوت ٤٥

(٣) الفصل س ٢٣٤

(٥) سورة البقرة ٩٥ .

كقوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾^(١)، أى حور قاصرات .

وقوله: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا﴾^(٢)، أى وجنة دانية .

وقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾^(٣)، أى العبد الشكور .

وقوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾^(٤)، أى القوم المتقين .

وقوله: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ الْأَوَاحِ وَدُسْرٍ﴾^(٥)، أى سفينة ذات ألواح .

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾^(٦)، أى الأمة القيمة .

وقوله: ﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ﴾^(٧)، أى دروعاً سابغات .

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ﴾^(٨)، أى يا أيها الرجل الساحر .

وقوله: ﴿أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(٩)، أى القوم المؤمنون .

وقوله: ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾^(١٠)، أى عملاً صالحاً .

حذف الصفة

وأكثر ما يرد للتفخيم والتعظيم في النكرات، وكأن التنكير حينئذ علم عليه، كقوله تعالى:

﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾^(١١)، أى وزناً نافعاً .

وقوله: ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِّنْ خَوْفٍ﴾^(١٢)، أى من جوع شديد

وخوف عظيم .

وقوله: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾^(١٣)، أى شئ نافع .

(٢) سورة الإنسان ١٤

(٤) سورة البقرة ٢

(٦) سورة البقرة ٥

(٨) سورة الزخرف ٤٩

(١٠) سورة القصص ٦٧

(١٢) سورة قريش ٤

(١) سورة السافات ٤٨

(٣) سورة سبأ ١٣

(٥) سورة النمر ١٣

(٧) سورة سبأ ١١

(٩) سورة النور ٣١

(١١) سورة الكهف ١٠٥

(١٣) سورة المائدة ٦٨

وقوله : ﴿ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ ^(١) ، أى سلطت عليه .

وقوله : ﴿ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ﴾ ^(٢) ، أى جامعاً لأكمل كل صفات الرسل .

وقوله : ﴿ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ ^(٣) ، أى صالحة .

وقيل : إنها قراءة ابن عباس . وفيه بحث وهو أنا لانسلم الإضمار ، بل هو عام مخصوص .

وقوله : ﴿ بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴾ ^(٤) ، أى كثير ، بدليل ما قبله .

ويجىء فى العرف ، كقوله تعالى : ﴿ الْآنَ حِثَّ بِالْحَقِّ ﴾ ^(٥) ، أى المبين .

وقوله : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ ﴾ ^(٦) ، أى الناس الذين يعادونكم .

وقوله : ﴿ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ ^(٧) ؛ أى الناجين

وقوله : ﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ ﴾ ^(٨) ؛ أى قومك المعاندون .

ومنه : ﴿ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ﴾ ^(٩) ،

أى من أولى الضرر ، ﴿ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ ﴾ ؛ أى من غير أولى الضرر .

قاله بن مالك وغيره . وبهذا التقدير يزول إشكال التكرار من الآية .

وقوله تعالى ﴿ لَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ ﴾ ^(١٠) أى لم أتل عليكم فيه شيئاً ،

فحذفت الصفة أو الحال ، قيل والعمر هنا أربعون سنة .

حذف المعطوف

قوله تعالى : ﴿ أَوْ لَمْ يَنْظُرُوا ﴾ ^(١١) ، ﴿ أَلَمْ يَسِيرُوا ﴾ ^(١٢) ، ﴿ أَتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ ﴾ ^(١٣) ،

التقدير : : أعموا ! أمكنوا ! أكفرتهم !

(٢) سورة النساء ٧٩

(٤) سورة ص ٥١

(٦) سورة آل عمران ١٧٣

(٩) سورة النساء ٩٥

(١١) سورة الأعراف ١٨٥

(١٣) سورة يونس ٥١ .

(١) سورة الذاريات ٤٢

(٣) سورة الكهف ٧٩

(٥) سورة البقرة ٧١

(٧) سورة هود ٤٦

(٨) سورة الأنعام ٦٦

(١٠) سورة يونس ١٦

(١٢) سورة يوسف ١٠٩

وقوله : ﴿ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ ﴾ ^(١) ، أى ما شهدنا مهلك أهله ومهلكه ، بدليل قوله : ﴿ لَنَبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ﴾ ^(٢) ؛ وما روى أنهم كانوا عزموا على قتله وقتل أهله ؛ وعلى هذا فقولهم : ﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ ^(٣) كذب فى الإخبار ، وأوهموا قومهم أنهم قتلوه وأهله سرا ولم يشعر بهم أحد ؛ وقالوا تلك المقالة يوهمون أنهم صادقون وهم كاذبون .
ويحتمل أن يكون من حذف المعطوف عليه ؛ أى ما شهدنا مهلكه ومهلك أهله .
وقال بعض المتأخرين : أصله ما شهدنا مهلك أهلك بالخطاب ؛ ثم عدل عنه إلى الغيبة ، فلا حذف .

وقد يحذف المعطوف مع حرف العطف ، مثل : ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ﴾ ^(٤) .
وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا ﴾ ^(٥) ؛ أى أمرنا مترفيها ، فخالفوا الأمر ، ففسقوا . وبهذا التقدير يزول الإشكال من الآية ؛ وأنه ليس الفسق مأموراً به . ويحتمل أن يكون : ﴿ أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا ﴾ صفة للقرية لا جواباً لقوله : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا ﴾ ، التقدير : وإذا أردنا أن نهلك قرية من صفتها أنا أمرنا مترفيها ففسقوا فيها ؛ ويكون إذا على هذا لم يأت لها جواب ظاهر استغناء بالسياق ، كما فى قوله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ ^(٦) .

حذف المعطوف عليه

﴿ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ أُفْتَدِيَ بِهِ ﴾ ^(٧) ، أى لو ملكه ولو افتدى به .

(٢) سورة الحديد ١٠

(٤) سورة الزمر ٢٣

(١) سورة النمل ٤٩

(٣) سورة الإسراء ١٦

(٥) سورة آل عمران ٩١

ويحوز حذفه مع حرف العطف ، كقوله : ﴿ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ ^(١) ، أى فأفطر فعدة .

وقوله : ﴿ أَنْ أَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ ﴾ ^(٢) التقدير : فضرب فانفلق ، حذف المعطوف عليه ، وهو « ضرب » ، وحرف العطف وهو الفاء المتصلة بـ « انفلق » فصار : ﴿ فانفلق ﴾ فالفاء الداخلة ، على « انفلق » هى الفاء التى كانت متصلة بـ ﴿ ضرب ﴾ وأما المتصلة بـ « انفلق » فمحذوفة .

كذا زعم ابن عصفور والأبذى قالوا : والذى دل على ذلك أن حرف العطف إنما نوى به مشاركة الأول للثانى ؛ فإذا حذف أحد اللفظين أعنى لفظ المعطوف أو المعطوف عليه - ينبغى ألا يؤتى به لينزل ما أتى به من أجله .

وقال ابن الضائع : ليس هذا من الحذف بل من إقامة المعطوف مقام المعطوف عليه ؛ لأنه سببه ، ويقام السبب كثيرا مقام مسببه ؛ وليس ما بعدها معطوفاً على الجواب ؛ بل صار هو الجواب ؛ بدليل ﴿ فانجست ﴾ هو جواب الأمر .

حذف المبدل منه

اختلفوا فيه ، وخرج عليه قوله : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ . هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ ﴾ ^(٣)

حذف الموصول

قوله : ﴿ آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ ﴾ ^(٤) ، أى والذى أنزل إليكم ؛ لأن الذى أنزل إلينا ليس هو الذى أنزل إلى من قبلنا ؛ ولذلك أعيدت « ما » بعد « ما »

(٢) سورة الشعراء ٦٣

(١) سورة البقرة ١٨٤

(٣) سورة النحل ١١٧ وقوله : ﴿ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ ﴾ بدل من الكذب .

(٤) سورة المائدة ٤٦

في قوله : ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ۖ ﴾ ^(١) . وهو نظير قوله :
﴿ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ ۖ ﴾ ^(٢)
وقوله : ﴿ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ۖ ﴾ ^(٣) .
وقوله : ﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ۖ ﴾ ^(٤) أى من له .

وشرط ابن مالك في بعض كتبه لجواب الحذف كونه معطوفا على موصول آخر ؛
ويؤيده هذه الآية . قال : ولا يحذف موصول حرفي إلا « أن » كقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ
يُرِيكُمْ الْبَرْقَ ۖ ﴾ ^(٥) .

حذف المخصوص في باب نعم

إذا علم من سياق الكلام

كقوله تعالى : ﴿ نِعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ۖ ﴾ ^(٦) التقدير : نعم العبد أيوب ، أو نعم العبد هو ؛
لأن القصة في ذكر أيوب ، فإن قدرت : نعم العبد هو ؛ لم يكن « هو » عائداً على العبد
بل على أيوب .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لِداوُدَ وَسُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ ۖ ﴾ ^(٧) فسلیمان هو المخصوص
الممدوح ، وإنما لم يكرر لأنه تقدم منصوباً .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ۖ ﴾ ^(٨) أى نحن .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ۖ ﴾ ^(٩) ، أى الجنة ، أو دارهم .

﴿ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ۖ ﴾ ^(١٠) أى عقباهم .

(٢) سورة النساء ١٣٦

(٤) سورة الصافات ٦٤

(٦) سورة ص ٣٠

(٨) سورة المرسلات ٢٣

(١٠) سورة الرعد ٢٤

(١) سورة البقرة ١٣٦

(٣) سورة الرعد ١٠

(٥) سورة الروم ٢٤

(٧) سورة ص ٣٠

(٩) سورة النحل ٣٠

﴿ وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ ^(١) أى أجرهم .

وقال : ﴿ لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَيْسَ الْعَشِيرُ ﴾ ^(٢) أى من ضرته أقرب من نفعه .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ بِسْمَايَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ ﴾ ^(٣) ، أى إيمانكم بما أنزل عليكم ، وكفركم بما وراءه .

وقد يحذف الفاعل والمخصوص كقوله تعالى : ﴿ بَشِّرَ لِلْظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾ ^(٤) ، أى بئس البديل إبليس وذريته ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : « قَبِهَا وَنِعْمَتْ » ، أى نِعِمَّتِ الرخصة .

حذف الضمير المنصوب المتصل

يقع في أربعة أبواب :

أحدها : الصلة ، كقوله تعالى : ﴿ أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴾ ^(٥) .

الثاني : الصفة ، كقوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا ﴾ ^(٦) ، أى فيه ، بدليل قوله : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ﴾ ^(٧) ولذلك يقدر في الجمل المعطوفة على الأولى ؛ لأن حكمهن حكمها ، فالتقدير : ﴿ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ ^(٨) فيه .

ثم اختلفوا ، فقال الأخفش : حذفت على التدريج ؛ أى حذف العطف فاتصل الضمير ، فحذف . وقال سيبويه : حذفاً معاً لأول وهلة .

(١) سورة آل عمران ١٣٦

(٢) سورة الحج ١٣ ، وقبلها : ﴿ يَدْعُوا لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَيْسَ ... ﴾ .

(٤) سورة الكهف ٥٠

(٣) سورة البقرة ٩٣

(٦) سورة البقرة ٤٨

(٥) سورة الفرقان ٤١ ، والتقدير : « بعثه »

وقيل : عُدِيَ الفعل إلى الضمير أولاً اتساعاً ، وهو قول الفارسي .

وجعل الواحدى من هذا قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا ﴾ ^(١) ، أى

منه . وقوله : ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَسِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ ^(٢) ، أى مالمالظالمين منه .

وفيه نظر ؛ أما الأولى فلأن ﴿ يُغْنِي ﴾ جملة قد أضيف إليها اسم الزمان ، وليست صفة .

وقد نصوا على أن عود ضمير إلى المضاف من الجملة التى أضيف إليها الظرف غير

جائز ؛ حتى قال ابن السراج : فإن قلت : أعجبنى يوم قت فيه امتعت الإضافة ؛ لأن الجملة

حينئذ صفة ، ولا يضاف موصوف إلى صفته . قال ابن مالك : وهذا مما خفي على أكثر

النحويين . وأما الثانية ؛ فكأنه يريد أن ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَسِيمٍ ﴾ صفة ليوم ، المضاف

إليها الأزمنة ؛ وذلك متعذر ؛ لأن الجملة لا تقع صفة للمعرفة ، والظاهر أن الجملة حال منه ،

ثم حذف العائد المجرور بـ « فى » ، كما يحذف من الصفة .

الثالث : الخبر ، كقوله تعالى : ﴿ وَكُلُّ وَعْدَ اللَّهِ الْحَسَنَى ﴾ ^(٣) فى قراءة ابن عامر .

الرابع : الحذف .

تنبيه

[عن ابن الشجرى فى تفاوت أنواع الحذف]

قال ابن الشجرى : أقوى هذه الأمور فى الحذف الصلة ، لطول الكلام فيها ؛

لأنه أربع كلمات ؛ نحو : جاء الذى ضربت ؛ وهو : الموصول ، والفعل ، والفاعل ، والمفعول .

ثم الصفة ؛ لأن الموصوف قائم بنفسه ، وإنما أتى بالصفة للتوضيح . ثم الخبر ؛ لانفصاله عن

الابتداء باعتبار أنه محكوم عليه .

(٢) سورة المؤمن ١٨

(١) سورة الدخان ٤١

(٣) سورة النساء ٩٥

ووجه التفاوت أن الصفة رتبة متوسطة بين الصلة والخبر ؛ لأن الموصول وصلت به كالكلمة الواحدة ، ولهذا لا يفصل بينهما ؛ والصفة دونها في ذلك ؛ ولهذا يكثر حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه ، والخبر دون ذلك ، فكان الحذف أكد في الصلة من الصفة ، لأن هناك شيئين يدلان على الحذف ؛ الصفة تستدعي موصوفاً ، والعامل يستدعيه أيضاً .

ويستحسن ابن مالك هذا الكلام ، ولم يتكلم على الحال لرجوعه إلى الصفة .

حذف المفعول

وهو ضربان :

أحدهما : أن يكون مقصوداً مع الحذف فينوي لدليل ؛ ويقدر في كل موضع ما يليق به ؛ كقوله تعالى : ﴿ فَمَالُ لِمَا يُرِيدُ ﴾ ^(١) أي يريد .
 ﴿ فَفَشَّاهَا مَا غَشَّى ﴾ ^(٢) أي غشاها إياه .
 ﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ ^(٣) .
 ﴿ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ﴾ ^(٤) .
 ﴿ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ﴾ ^(٥) .
 ﴿ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ ^(٦) .

وكل هذا على حذف ضمير المفعول ، وهو مراد ، حذف تخفيفاً لطول الكلام بالصفة ؛ ولولا إرادة المفعول - وهو الضمير - نلأت الصلة من ضمير يعود على الموصول ؛ وذلك لا يجوز ؛

(٢) سورة النعم ٥٤

(٤) سورة هود ٤٣

(٦) سورة القصص ٦٢

(١) سورة البروج ١٦

(٣) سورة الرعد ٢٦

(٥) سورة النمل ٥٩

وكان في حكم المنطوق به ؛ فالدلالة عليه من وجهين : اقتضاء الفعل له ، واقتضاء الصلة إذا كان العائد .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمَا عَمِلَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ ^(١) في قراءة حمزة والكسائي بغير هاء ، أى ماعملته ، بدليل قراءة الباقيين ، ف « ما » في موضع خفض للعطف على ﴿ ثَمَرِهِ ﴾ .

ويحوز أن تكون « ما » نافية ، والمعنى : ليا كلوا من ثمره ولم تعمله أيديهم ؛ فيكون أبلغ في الامتنان . ويقوى ذلك قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ . أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الَّذِينَ نَزَّرْنَا الْمَاءَ ﴾ ^(٢) ؛ وعلى هذا فلا تكون الماء مُراداً ، لأنها غير موصولة .

وجعل بعضهم منه قوله تعالى : ﴿ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴾ ^(٣) ، وهو فاسد ، لأن « شرب » يتعدى بنفسه .

والغرض حينئذٍ بالحذف أمور :

منها : قصد الاختصار عند قيام القرائن ؛ والقرائن إما حالية كما في قوله تعالى : ﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ﴾ ^(٤) ، لظهور أن المراد : أرني ذاتك . ويحتمل أن يكون هاب المواجهة بذلك ، ثم برآه الشوق . ويحوز أن يكون آخر لياتي به مع الأصرح ؛ لثلاث تكرار هذا المطلوب العظيم على المواجهة إجلالا .

ومنه قوله تعالى : ﴿ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ﴾ ^(٥) ؛ الظاهر أنه متعد حذف مفعوله ؛ أى تأجرني نفسك .

وجعل منه السكاكي قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ

(١) سورة يس ٣٥ ؛ وقوله : ﴿ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ ﴾

(٢) سورة المؤمنون ٣٣

(٣) سورة الواقعة ٦٣ ، ٦٤

(٤) سورة القصص ٢٧ .

(٥) سورة الأعراف ١٤٣

الرَّعَاءُ ﴿١﴾ فمن قرأ بكسر الدال من ﴿يُضْدِر﴾ فإنه حذف المفعول في خمسة مواضع، والأقرب أنه من الضرب الثاني كما سنبينه فيه إن شاء الله تعالى .

وقوله : ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ﴾ ^(٢) ، أى أنفكم .

وقوله : ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ ^(٣) ، أى فذوقوا العذاب .

وقوله : ﴿إِنِّي أَشْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ ^(٤) ، أى ناسا أو فريقا .

وقوله : ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا﴾ ^(٥) أى شيئا .

وقوله : ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ ^(٦) ، أى غير السموات .

وقوله : ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ ^(٧) ؛ على أن الدعاء بمعنى التسمية ؛ التى تتعدى إلى مفعولين ؛ أى سموه الله ، أو سموه الرحمن ؛ أيأ ما سموه ، فله الأسماء الحسنى ؛ إذ لو كان المراد بمعنى الدعاء المتعدى لواحد لزم الشرك إن كان مسمى الله غير مسمى الرحمن ؛ وعطف الشيء على نفسه إن كان عينه .

ومنها قصد الاحتقار كقوله : ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَا غَلِبَ أَنا وَرُسُلِي﴾ ^(٨) ؛ أى الكفار .

ومنها قصد التعميم ؛ ولا سيما إذا كان في حيز النفي ، كقوله تعالى : ﴿وَمَا تُفْنِي الْآيَاتُ وَالنَّذِرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ^(٩) . وكذا ﴿وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ ^(١٠) وكثيراً ما يعترى الحذف في روس الآي نحو : ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ^(١١) .

و ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ ^(١٢) .

- (٢) سورة البقرة ١٩٨
(٤) سورة إبراهيم ٣٧
(٦) سورة إبراهيم ٤٨
(٨) سورة المجادلة ٢١
(١٠) سورة الأعراف ٧٢
(١٢) سورة الأعراف ٥٨

- (١) سورة القصص ١٢٣
(٣) سورة السجد ١٤
(٥) سورة البقرة ٦١
(٧) سورة الإسراء ١١٠
(٩) سورة يونس ١٠١
(١١) سورة البقرة ١٠٢

﴿ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ ^(١) .

﴿ أَفَلَا تَبْصِرُونَ ﴾ ^(٢) .

﴿ أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ ^(٣) .

﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾ ^(٤) .

﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ^(٥) .

وكذا كل موضع كان الغرض إثبات المعنى الذى دلّ عليه الفعل لفاعل غير متعلق بغيره .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ ﴾ ^(٦) ، أى كلّ أحد، لأن الدعوة عامة والمهداية خاصة .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ ^(٧) ، فكال ووزن يتعديان إلى مفعولين . أحدهما باللام ، والتقدير : كالوا لهم ووزنوا لهم ، وحذف المفعول الثانى لقصد التعميم .

وما ذكرناه من كون « هم » منصوباً فى الموضع بعد جذف اللام هو الظاهر ، وقرره ابن الشجرى فى أماليه ، قال : وأخطأ بعض المتأولين حيث زعم أن « هم » ضمير مرفوع أكدت به الواو كالضمير فى قولك : « خرجوا هم » ، ف« هم » على هذا التأويل عائد على المطلقين .

ويدلّ على بطلان هذا القول أمران :

(٢) سورة القصص ٧٢

(٤) سورة البقرة ١٤

(٦) سورة يونس ٢٥

(١) سورة القصص ٧١

(٣) سورة البقرة ٧٧

(٥) سورة البقرة ٢٢

(٧) سورة المائدة ٣

أحدهما : عدم ثبوت الألف في « كالوهم » و « وزنوهم » ؛ ولو كان كما قال لأثبتوها في خط المصحف ؛ كما أثبتوها في قوله تعالى : ﴿ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ ﴾ ^(١) ﴿ قَالُوا لَنَجِيَّ لَهُمْ ﴾ ^(٢) ونحوه .

والثاني أن تقدم ذكر « الناس » يدل على أن الضمير راجع إليهم ؛ فالمعنى : ﴿ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴾ ^(٣) وإذا كألوا للناس أو وزنوا للناس يخسرون . وجعل الزخشرى من حذف المفعول قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ ^(٤) ؛ أى في المصر . وعند أبي علي أن الشهر ظرف ، والتقدير : فمن شهد منكم المصر في الشهر .

ومنها تقدم مثله في اللفظ ؛ كقوله تعالى : ﴿ يَتَخَوَّ اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُنَبِّئُ ﴾ ^(٥) ، أى ويثبت ما يشاء .

فلما كان المفعول الثاني بلفظ الأول في عمومه واحتياجه إلى الصلة جاز حذفه ، لدلالة ما ذكر عليه ، كقوله : ﴿ ادْفَعْ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ ﴾ ^(٦) .

وقوله : ﴿ يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ﴾ ^(٧) أى غير السموات .

وقوله : ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِلَ ﴾ ^(٨) ، أى ومن

أنفق من بعده وقاتل ؛ بدليل ما بعده .

وقوله : ﴿ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ ^(٩) أى أبصرهم ، بدليل قوله : ﴿ وَأَبْصِرْهُمْ ﴾ ^(٨) .

وسبق عن ابن ظفر السر في ذكر المفعول في الأول وحذفه في الثاني في هذه الآية الشريفة

- (٢) سورة البقرة ٢٤٦
(٤) سورة البقرة ١٨٥
(٦) سورة المؤمنون ٩٦
(٨) سورة الحديد ١٠
(٨) سورة الصافات ١٧٥

- (١) سورة البقرة ٢٤٣
(٣) سورة المطففين ٢
(٥) سورة الرعد ٣٩
(٧) سورة إبراهيم ٤٨
(٩) سورة الصافات ١٧٩

أن الأولى اقتضت نزول العذاب بهم يوم بدر ، فلما تضمنت التشقى بهم قيل : ﴿ أَبْصِرْهُمْ ﴾ .
وأما الثانى فالمراد بها يوم الفتح ؛ واقترن بها مع الظهور عليهم تأمينهم والدعاء إلى إيمانهم ؛
فلم يكن وقتاً للتشفى بل للبروز ؛ فقليل له : ﴿ أَبْصِرْ ﴾ والمعنى : فسيصرون منك عليهم .

وقوله : ﴿ فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ ﴾ ^(١) أى وعدكم ربكم ؛ لحذف لدلالة قوله
قبله : ﴿ مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا ﴾ ^(١) ، قاله الزمخشري .

وقد يقال : أطلق ذلك ليتناول كل ما وعد الله من الحساب والبعث والثواب والعقاب
وسائر أحوال القيامة ؛ لأنهم كانوا يكذبون بذلك أجمع ، ولأن الموعود كله مما ساءهم ؛
وما نعيم أهل الجنة إلا عذاب لهم ، فأطلق لذلك ليكون من الضرب الآتى .

وقوله : ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ
لِلْقَاسِيَةِ ﴾ ^(٢) .

ومنها رعاية الفاصلة، نحو : ﴿ وَالضُّحَى . وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى . مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾ ^(٣)
أى ما قلاك ، لحذف المفعول ، لأن فواصل الآى على الألف .

ويحتمل أنه للاختصار لظهور المحذوف قبله ؛ أى أفن شرح الله صدره للإسلام كمن
أفسى قلبه ؛ لحذف لدلالة : ﴿ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ ﴾ ^(٢) .

ومنها البيان بعد الإبهام ، كما فى مفعول المشيئة والإرادة ؛ فإنهم لا يكادون يذكرونه ،
كقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ﴾ ^(٤) .
﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى ﴾ ^(٥) .

(٢) سورة الزمر ٢٢

(٤) سورة البقرة ٢٠

(١) سورة الاعراف ٤٤

(٣) سورة الضحى ١-٣

(٥) سورة الأنعام ٣٥

﴿ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾^(١) .

﴿ فَإِنْ يَشَأْ اللَّهُ يُخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ ﴾^(٢) .

﴿ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ ﴾^(٣) .

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾^(٤) .

التقدير : لو شاء الله أن يفعل ذلك لفعل .

وشرط ابن النحوية^(٥) في حذفه دخول أداة الشرط عليه ؛ كما سبق من قوله : ﴿ فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يُخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ ﴾^(٦) .

و﴿ لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا ﴾^(٧) .

﴿ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأْ يُجْمِلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾^(٨) .

والحكمة في كثرة حذف مفعول المشيئة المستلزمة لمضمون الجواب لا يمكن أن تكون إلا مثيلة الجواب ؛ ولذلك كانت الإرادة كالمشيئة في جواز أطراد حذف مفعولها ؛ صرح به الزمخشري في تفسير سورة البقرة ، وابن الزمكاني في البرهان^(٩) ، والتنوخي في الأقصى^(١٠) ؛ كقوله : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾^(١١) ، وإنما حذفه لأن في الآية قبلها ما يدل على أنهم أمروا بالكذب ؛ وهو بزعمهم إطفاء نور الله ، فلو ذكر أيضاً لكان

(٢) سورة الشورى ٢٤

(٤) سورة السجدة ١٣

(١) سورة النحل ٩

(٣) سورة الأنعام ٣٩

(٥) هو محمد بن يعقوب بن إلياس الدهشقي الإمام بدر الدين المعروف بابن النحوية ؛ اختصر المصباح لبدر الدين بن مالك في المعاني ، وسماه ضوء المصباح وشرحه ؛ توفي سنة ٧١٨ هـ . بقية الرواة ١١٧

(٦) سورة الشورى ٢٤

(٧) سورة الأفعال ٣١

(٨) سورة الأنعام ٣٩

(٩) هو كمال الدين محمد بن علي بن الزمكاني ، توفي سنة ٧٢٧ هـ ؛ ذكره صاحب كشف الظنون

(١٠) هو زين الدين محمد بن محمد التنوخي ؛ صاحب كتاب أقصى القرب في صناعته الأدب ؛ ذكره

صاحب كشف الظنون

(١١) سورة الصف ٨

كالتسكير ؛ فحذف وفسر بقوله : ﴿ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَنفُسِهِمْ ﴾ ^(١) ؛ وكان في الحذف تنبيه على هذا المعنى الغريب .

وينبغي أن يتمهل في تقدير مفعول المشيئة ؛ فإنه يختلف المعنى بحسب التقدير ؛ ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾ ^(٢) ؛ فإن التقدير كما قاله عبد القاهر الجرجاني : ولو شئنا أن نؤتي كل نفس هداها لآتيناهها ، لا يصح إلا على ذلك ؛ لأنه إن لم يقدر هذا المفعول أدى والعياذ بالله إلى أمر عظيم ، وهو نفي أن يكون لله مشيئة على الإطلاق ؛ لأن من شأن « لو » أن يكون الإثبات بعدها نفيًا ، ألا ترى أنك إذا قلت : لو جئتني أعطيتك ، كان المعنى على أنه لم يكن مجيء ولا إعطاء ؛ وأما قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا ﴾ ^(٣) فقدّره النحويون : فلم نشأ فلم نرفعه .

وقال ابن الجباز : الصواب أن يكون التقدير « فلم نرفعه فلم نشأ » ، لأن نفي اللزوم يوجب نفي الملزوم ، فوجود الملزوم يوجب وجود اللزوم ؛ فيلزم من وجود المشيئة وجود الرفع ، ومن نفي الرفع نفي المشيئة ؛ وأما نفي الملزوم فلا يوجب نفي اللزوم ، ولا وجود اللزوم وجود الملزوم . انتهى .

ويؤيده قوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ ^(٤) ، فإن المقصود انتفاء وجود الآلهة لانتفاء لازمها وهو الفساد .

ويمكن توجيه كلام النحويين بأنهم جعلوا الأول شرطًا للثاني ؛ لأنهم عدوا « لو » من حروف الشرط ، وانتفاء الشرط يوجب انتفاء الشروط . وقد يكون الشرط مساويًا للمشروط ؛ بحيث يلزم من وجوده وجود المشروط ، ومن عدمه عدمه . والمقصود في الآية تعليل عدم الرفع بعدم المشيئة لا العكس .

(٢) سورة السجدة ١٣

(٤) سورة الأنبياء ٢٢

(١) سورة الصف ٨

(٣) سورة الأعراف ١٧٦

وأوضح منه قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ ^(١) ، جعل انتفاء الملزوم سبباً لانتفاء اللازم ؛ لأن « كذبوا » ملزوم عدم الإيمان والتقوى ؛ فأخذهم بذلك ملزوم عدم فتح بركات السماء والأرض عليهم . والفاء في قوله ﴿ فَأَخَذْنَاهُم ﴾ للسببية ، وجعل التكذيب سبباً لأخذهم بكفرهم ؛ ولعل ذلك يختلف باختلاف المواد ووقوع الأفراد ، مع أن القول ما قاله ابن الخباز . وأما ما جاء على خلافه فذلك من خصوص المادة ، وذلك لا يقدح في القضية الكلية ؛ ألا نرى أنا نقول : الموجبة الكلية لا تنعكس كلية مع أنها تنعكس كلية في بعض المواضع ، كقولنا : كل إنسان ناطق ، ولا يعد ذلك مبطلاً للقاعدة .

تنبيهان

التنبيه الأول

[متى يذكر مفعول المشيئة والإرادة]

يستثنى من هذه القاعدة ثلاثة أمور : أحدها ما إذا كان مفعول المشيئة عظيماً أو غريباً ؛ فإنه لا يحذف ، كقوله تعالى : ﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأُصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ . . . ﴾ ^(٢) الآية ، أراد رد قول الكفار : « اتخذ الله ولداً » بما يطابقه في اللفظ ؛ ليكون أبلغ في الرد ؛ لأنه لو حذفه فقال : « لو أراد الله لأصطفى » لم يظهر المعنى المراد ؛ لأن الاصطفاء قد لا يكون بمعنى التبتى ، ولو قال : لو أراد الله لاتخذ ولداً لم يكن فيه ما في إظهاره من تعظيم جرم قائله .

ومثله صاحب كتاب " القول الوجيز في استنباط علم البيان من الكتاب

العزیز ، بقوله تعالى : ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ ^(١) . وقوله : ﴿فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يُخْزِمَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ ^(٢) . و ﴿مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأْ يُجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ^(٣) . وفيما ذكره نظر .

قلت : يحىء الذكر فى مفعول الإرادة أيضا إذ كان كقوله تعالى : ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُوًّا﴾ ^(٤) .

الثانى : إذا احتيج لعود الضمير عليه ، فإنه يُذكر ، كقوله : ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُوًّا لَا تَتَّخِذْ نَاهُ﴾ ^(٥) ، فإنه لو حذف لم يبق للضمير ما يرجع عليه .

وقد يقال : الضمير لم يرجع عليه وإنما عاد على معمول معموله .

الثالث : أن يكون السامع منكراً لذلك ، أو كالمنكر ، فيقصد إلى إثباته عنده ، فإن لم يكن منكراً ، فالحذف .

والحاصل أن حذف مفعول « أراد » و « شاء » لا يذكر إلا لأحد هذه الثلاثة .

التنبيه الثانى

[فى إنكار أبى حيان للقاعدة السابقة]

أنكر الشيخ أبو حيان فى باب عوامل الجزم من شرح " التسهيل " هذه القاعدة وقال : غلط البيانون فى دعواهم لزوم حذف مفعول المشيئة ؛ إلا فيما إذا كان مستغرباً ؛ وفى القرآن : ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ ^(٥) . ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ ^(٦) . ولهم أن يقولوا : إن المفعول هاهنا عظيم ؛ فلهذا صرح به فلا غلط

(٢) سورة الشورى ٢٤

(٤) سورة الأنبياء ١٧

(٦) سورة المدثر ٣٧

(١) سورة الأنفال ٣١

(٣) سورة الأنعام ٣٩

(٥) سورة التكاوير ٢٨

على القوم ؛ وأما قوله تعالى : ﴿ فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ۖ ﴾ ^(١) ؛ فإذا جعلت « ما ذا » بمعنى « الذى » ؛ ففعل « أَرَادَ » متقدّم عليه ، وإن جعلت « ذا » وحدها بمعنى « الذى » فيكون مفعول « أَرَادَ » محذوفاً ؛ وهو ضمير « ذا » ولا يجوز أن يكون « مثلاً » مفعول « أَرَادَ » لأنه أحد معموليه ولكنه حال .

فصل

وقد كثر حذف مفعول أشياء غير ماسبق ؛ منها الصبر ، نحو : ﴿ فَأَصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا ۖ ﴾ ^(٢) ،
﴿ أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا ۖ ﴾ ^(٣) .

وقد يذكر ، نحو : ﴿ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ﴾ ^(٤) قال الزمخشري ^(٥)
في تفسير سورة الحجرات : قولهم : صبر عن كذا ^(٦) ، محذوف منه المفعول ؛ وهو النفس .
ومنها مفعول « رأى » ، كقوله : ﴿ أُعِذُّهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى ۖ ﴾ ^(٧) .

قال الفارسي : الوجه أن « يرى » هنا للتعمدية لمفعولين ؛ لأن رؤية الغائب لا تكون
إلا علماً ، والمعنى عليه قوله : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ ﴾ ^(٨) وذكره العلم ، قال : والمفعولان محذوفان ؛
فكانه قال : فهو يرى الغائب حاضراً ، أو حذف ؛ كما حذف في قوله : ﴿ أَيْنَ شُرَكَائِكُمُ
الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ ^(٩) ، أى تزعمونهم إياهم .

(٢) سورة الطور ١٦

(٤) سورة الكهف ٢٨

(٦) في الأسلين : « هذا » والأجود ما أثبتته عن الكشف ٤ : ٢٨٥

(٨) سورة الجن ٢٦

(١) سورة البقرة ٢٦

(٣) سورة آل عمران ٢٠٠

(٥) الكشف ٤ : ٢٨٥

(٧) سورة النجم ٣٥

(٩) سورة الأنعام ٢٢ .

وقال ابن خروف : هو من باب الحذف لدليل ، لأن المعنى دالّ على المفعولين ؛ أى فهو يعلم مايفعله ويعتقده حقاً وصواباً ، ولا فائدة في الآية مع الاختصار ، لأنه لا يعلم منه المراد . وقد ذهب إليه بعض المحققين وعدل عن الصواب .

ومنها وَعَدَ يتعدى إلى مفعولين ؛ ويجوز الاختصار على أحدهما كأعطيت ، قال تعالى : ﴿وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ ^(١) ، ف « جانب » مفعول ثان ، ولا يكون ظرفاً لاختصاصه . والتقدير واعدناكم إتيانه أو مكاناً فيه .

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ ^(٢) .

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ ^(٣) فإحدى الطائفتين في موضع نصب ؛ بأنه المفعول الثاني ؛ وأنها لكم ، بدل منه ، والتقدير : وإذ يعدكم الله ثبات إحدى الطائفتين أو منكمها .

وقال تعالى : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ ^(٤) فلم يعد الفعل فيها إلا إلى واحد ، ﴿وليسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾ تفسير للوعد ومبين له ، كقوله تعالى : ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ ^(٥) ، فالجمله الثانية تبين للوصية ، لامفعول ثان .

وأما قوله : ﴿أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدَ أَحْسَنًا﴾ ^(٦) ، ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ﴾ ^(٧) فإن هذا ونحوه يحتمل أمرين : انتصاب الوعد بالمصدر ، وبأنه المفعول الثاني على تسمية الموعود به وعدا .

وأما قوله تعالى : ﴿وَإِذْ وَاَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ ^(٨) فما تعدى فيه « وَعَدَ »

(٢) سورة المائدة ٩

(٤) سورة النور ٥٥

(٦) سورة ط ٨٦

(٨) سورة البقرة ٥١

(١) سورة طه ٨٠

(٣) سورة الأفعال ٧

(٥) سورة النساء ١١

(٧) سورة إبراهيم ٢٢

إلى اثنين ، لأن « الأربعين » لو كان ظرفاً لكان الوعد في جميعه ؛ يعنى من حيث إنه محدود ، فيلزم وقوع المظروف في كل فرد من أفراد ، وليس الوعد واقعاً في « الأربعين » بل ولا في بعضها .

ثم قدّر الواحدى وغيره محذوفاً مضافاً إلى « الأربعين » ، وجعلوه المفعول الثانى ، فقالوا : التقدير : وإذ واعدنا موسى انقضاء أربعين ، أو تمام أربعين ، ثم حذف وأقيم المضاف إليه مقامه .

قال بعضهم : ولم يظهر لى وجهُ عدولهم عن كون « أربعين » هو نفس المفعول إلى تقدير هذا المحذوف ؛ إلا أن يقال : نفس الأربعين ليلة لاتوعد ؛ لأنها واجبة الوقوع ، وإنما المعنى على تعليق الوعد بابتدائها وتتمامها ، ليقرب على الانتهاء شىء .

قلت : وقال أبو البقاء ^(١) : ليس أربعين ظرفاً ؛ إذ ليس المعنى وَعَدَهُ في أربعين . وقال غيره : لا يجوز أن يكون ظرفاً ؛ لأنه لم يقع الوعد في كل من أجزائه ، ولا في بعضه .

ومنها « اتخذ » تعدى لواحد أو لاثنتين فن الأول قوله تعالى : ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُمْ آلَاءَ لَاتَّخِذْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا ﴾ ^(٢) ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ دُونِي آلِهَةً ﴾ ^(٣) ﴿ أَمْ اتَّخَذَ إِمَّا يَخْلُقُ بِنَاتٍ ﴾ ^(٤) ﴿ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾ ^(٥) ومن الثانى : ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً ﴾ ^(٦) ﴿ لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ ^(٧) ﴿ فَاتَّخِذْتُمُوهُمْ سَخِرِيًّا ﴾ ^(٨) والثانى من المفعولين هو الأول في المعنى .

- (٢) سورة الأنبياء ١٧
(٤) سورة الزخرف ١٦
(٦) سورة المنافقون ٢
(٨) سورة المؤمنون ١١٠

- (١) املاء ما من به الرحمن ٢١
(٣) سورة الفرقان ٣
(٥) سورة الفرقان ٢٧
(٧) سورة المنتهنة ١

قال الواحدى فأما قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ ^(١) وقوله : ﴿ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ ﴾ ^(٢) ﴿ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ ^(٣) ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ ﴾ ^(٤) فالتقدير فى هذا كله : اتخذوه إلهاً ، فحذف المفعول الثانى .

والدليل على ذلك أنه لو كان على ظاهره ؛ لكان من صاغ عجلاً أو نحوه ، أو عمله بضرب من الأعمال ، استحق الغضب من الله ، لقوله : ﴿ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ ^(٥) وفيما قاله نظر ؛ لأن الواقع أن أولئك عبده ؛ فالتقدير على هذا فى المتعدى لواحد أن الذين اتخذوا العجل وعبده ؛ ولهذا جوز الشيخ أنير الدين فى هذه الآيات كلها أن تكون « اتخذ » فيها متعدية إلى واحد ، قال : ويكون ثم جملة محذوفة ؛ تدل على المعنى ؛ وتقديره : « وعبدتموه إلهاً » ورجحه على القول الآخر بأنها لو كانت متعدية فى هذه القصة لاثنتين لصرح بالثانى ولو فى موضع واحد .

الضرب الثانى :

ألا يكون المفعول مقصوداً أصلاً ؛ وينزل الفعل المتعدى منزلة القاصر ؛ وذلك عند إرادة وقوع نفس الفعل فقط ؛ وجعل المحذوف نسياً منسياً ، كما ينسى الفاعل عند بناء الفعل ، فلا يُذكر المفعول ، ولا يُقدر ؛ غير أنه لازم الثبوت عقلاً لموضوع كل فعل متعد ؛ لأن الفعل لا يدرى تعيينه .

وبهذا يعلم أنه ليس كل ما هو لازم من موضوع الكلام مقدراً فيه ، كقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا ﴾ ^(٦) .

- (٢) سورة البقرة ٥٤
(٤) سورة الأعراف ١٥٢
(٦) سورة البقرة ٢٤

- (١) سورة البقرة ٥١
(٣) سورة الأعراف ١٤٨
(٥) سورة الأعراف ١٥٢

وقوله : ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ ^(١) ، لأنه لم يرد الأكل من معين ، وإنما أراد وقوع هذين الفعلين .

وقوله : ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ^(٢) ، ويسمى المفعول حينئذ ممتا .

ولما كان التحقيق أنه لا يعدّ هذا من المحذوف ، فإنه لا حذف فيه بالكلية ؛ ولكن تبعناهم في العبارة ؛ نحو فلان يعطى ؛ قاصداً أنه يفعل الإعطاء . وتوجد هذه الحقيقة إيهاما للبالغة بخلاف ما يقصد فيه تعميم الفعل ؛ نحو : هو يعطى ويمنع ؛ فإنه أعمّ تناولاً ؛ من قولك : يعطى الدرهم ويمنعه ؛ والغالب أن هذا يستعمل في النفي ، كقوله : ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ ^(٣) ، والآخر في الإثبات ، كقوله : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ^(٤) .

ومن أمثلة هذا الضرب قوله تعالى : ﴿يُنْجِي وَيُمِيتُ﴾ ^(٥) .

وقوله : ﴿لَمْ تَمُبْدْ مَا لَا يَبْصُرُ وَلَا يَبْصُرُ﴾ ^(٦) .

وقوله : ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ﴾ ^(٧) الخ الآية ؛ حذف منها المفعول خمس مرات ؛ لأنه غير مراد ؛ وهو قوله ﴿يسقون﴾ ، وقوله ﴿تذودان﴾ وقوله : ﴿لَا تَسْنِي حَتَّى يَصْدِرَ الرَّعَاءُ﴾ ^(٨) مواشيهم ، ﴿فسقى لها﴾ غنمها .

وقوله : ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شَعِيبُ﴾ ^(٩) قيل : لو ذكر المفعول فيها نقص المعنى ؛ والمراد

- | | |
|---------------------|---------------------|
| (١) سورة البقرة ٦٠ | (٢) سورة الزمر ٩ |
| (٣) سورة البقرة ١٧ | (٤) سورة الروم ٢٤ |
| (٥) سورة البقرة ٢٥٨ | (٦) سورة مريم ٤٢ |
| (٧) سورة القصص ٢٣ | (٨) سورة الأعراف ٨٨ |

أن الله تعالى له الإحياء والإماتة ؛ وأن إلههم ليس له سمع ولا بصر ، وأن موسى عليه السلام وجد قومًا يعانون السقي ، وامرأتين تعانيان الذود ، وأخبرته أن لا نستطيع السقي ؛ فوجدا من موسى عليه السلام لهما السقي ، ووجد من أبيهما مكافأة على السقي . وهذا مما حُذِفَ لظهور المراد ؛ وأن القصد^(١) الإعلام بأنه كان من الناس في تلك الحالة سقى ، ومن المرأتين ذود ، وأنهما قالتا : لا يكون منا سقى حتى يُصدِرَ الرعاء ، وأن موسى سقى بعد ذلك ؛ فأمّا أن السقي غنمٌ أو إبل أو غيره فخرج عن المقصود ؛ لأنه لو قيل : يذودان غنمهما لجاز أن يكون الإنكار لم يتوجه من موسى على الذود من حيث هو ذود ؛ بل من حيث هو ذود غنم ؛ حتى لو كان ذود إبل لم ينكره .

واعلم أننا جعلنا هذا من الضرب الثاني موافقة للزخشرى ؛ فإنه قال : تركَ المفعول لأن الغرض هو الفعل لا المفعول ، ألا ترى أنه إنما رجعهما لأنهما كانتا على الزياد وهم على السقي ، ولم يرجعهما لأن مذكودهما غنم ومسقيهم إبل . وكذلك قولها : ﴿ لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ﴾ ، المقصود منه^(٢) السقي لا المسقي .

وجعله السكاكى من الضرب الأول ؛ أعنى مما حُذِفَ فيه للاختصار مع الإرادة . والأقرب قولُ الزخشرى ، ورجح الجزرى قول السكاكى أنه للاختصار ، فإن الغنم ليست ساقطة عن الاعتبار بالأصالة ؛ فإن فيها ضعفا عن المراحة ، والمرأتان فيهما ضعف ، فإذا انضمَّ إلى ضعف المسقى ضعفُ الساقى ، كان ذلك أدعى للرحمة والإعانة .

وكقوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى ﴾^(٣) .

وقوله : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَى ﴾^(٤) .

(٢) الكشف : « فيه »

(٤) سورة النجم ٤٨

(١٢ - برهان - ناك)

(١) ث : « المقصود » .

(٣) سورة الليل •

وقوله : ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى . وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَى﴾ ^(١) .

وإنما ذكر المفعول في قوله : ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ﴾ ^(٢) ؛ لأن المراد جنسُ الزوجين فكأنه قال : يخلق كلَّ ذكر وكل أنثى ، وكان ذكره هنا أبلغ ليدلَّ على عموم ثبوت الخلق له بالتصريح .

وليس منه قوله تعالى : ﴿وَأَصْلَحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ ^(٣) ، لوجود العوض من المفعول به لفظاً ، أو هو المفعول به ، وهو قوله : ﴿فِي ذُرِّيَّتِي﴾ ، ومعنى الدعاء به قصر الإصلاح له على الذرية ؛ إشعاراً بعنايته بهم .

وقوله : ﴿كَأَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ^(٤) ، أى عاقبة أمركم : لأن سياق القول في التهديد والوعيد .

واعلم أن الغرض حينئذٍ بالحذف في هذا الضرب أشياء :

منها : البيان بعد الإبهام كما في فعل المشيئة على ما سبق ؛ نحو : أمرته فقام ؛ أى بالقيام . وعليه قوله تعالى : ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ ^(٥) أى أمرناهم بالفسق ؛ وهو مجاز عن تمكينهم وإقذارهم .

ومنها : المبالغة بترك التقييد ؛ نحو : ﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ ^(٦) ، وقوله : ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ ^(٧) ونفى الفعل غير متعلق بأبلغ من نفيه متعلقاً به ؛ لأن المنفى في الأول نفس الفعل ؛ وفي الثانى متعلّقة .

(٢) سورة النجم ٤٥

(٤) سورة التكاثر ٤، ٣

(٦) سورة يونس ٥٦

(١) سورة النجم ٤٣ ، ٤٤

(٣) سورة الأحقاف ١٥

(٥) سورة الإسراء ١٦

(٧) سورة يس ٩

تنبيه

قد يلحظ الأمران ؛ فيجوز الاعتباران ؛ كقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ ^(١) أجاز الزمخشري ^(٢) في حذف المفعول منه الوجهين .

وكذلك في قوله في آخر سورة الحج : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ ﴾ ^(٣) .

حذف الحال

كقوله تعالى : ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ . سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ ^(٤) ، أى قائلين سلام عليكم .

قال ابن أبي الربيع : اعلم أن العرب قد تحذف الحال إذا كانت بالفعل لدلالة مصدر الفعل عليه ؛ فتقول : قتلته صبراً ، وأنتيته ركضاً ، قال تعالى : ﴿ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا ﴾ ^(٥) ، فدأباً يقدر بالفعل ؛ تقديره : « تدأبون » ، وتدأبون في موضع الحال .

قال أبو علي : لاختلاف بين سيبويه وأبي العباس في الحال المحذوف الذي المصدر منصوب به ، وإنما الخلاف بينهما في القياس ، فسيبويه يذهب إلى السماع ولا يقيس ، والأخفش والمبرد يقيسان .

(١) سورة الحجرات ١

(٢) الكشف ٤ : ٢٧٧ ، وعبارته : وفي قوله تعالى : ﴿ لَا تَقْدُمُوا ﴾ من غير ذكر مفعول وجهان أحدهما أن يحذف ليتناول كل ما يقع في النفس مما يقدم . والثاني ألا يقصد قصد مفعول ولا حذفه ؛ ويتوجه بالنفي إلى نفس التقدم ؛ كأنه قيل : لا تقدموا على التلبس بهذا الفعل ؛ ولا تجعلوه منكم بسبيل ؛ كقوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ .

(٤) سورة الزعد ٢٣ ، ٢٤

(٣) سورة الحج ٧٨

(٥) سورة يوسف ٤٧ .

حذف المنادى

قوله تعالى : ﴿ أَلَا يَأْسُجُدُوا ﴾^(١) ، على قراءة الكسائي بتخفيف « ألا » على أنها تنبيه و « يا » نداء ، والتقدير ألا يهؤلاء اسجدوا لله . ويجوز أن يكون « يا » تنبيهاً ولا منادى هناك ، وجمع بينهما تأكيذاً ؛ لأن الأمر قد يحتاج إلى استعطاف المأمور واستدعاء إقباله على الأمر .

وأما على قراءة الأكثر بالتشديد ؛ فعلى أن أن الناصبة للفعل دخلت عليها لا النافية ، والفعل المضارع بعدها منصوب ؛ وحذفت النون علامة النصب ، فالفعل هنا معرب ، وفي تلك القراءة مبنى ، فاعرفه .

فائدة

[في حذف الياء من المنادى المضاف إلى ياء المتكلم]

كثّر في القرآن حذف الياء من المنادى المضاف إلى ياء المتكلم ؛ نحو ياربّ ، يا قوم ؛ وعمل ذلك بأن النداء باب حذف ؛ ألا ترى أنه يحذف منه التنوين وبعض الاسم للترخيم ؛ وجاء فيه إثباتها ساكنة ، كقراءة من قرأ : ﴿ يَاعِبَادِي فَاتَّقُونِ ﴾^(٢) ، ومحركة بالفتح ؛ كقراءة من قرأ : ﴿ قُلْ يَاعِبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ﴾^(٣) ، ومنقلبة عن الياء في قوله تعالى : ﴿ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتِي ﴾^(٤) .

حذف الشرط

﴿ قُلْ لِعِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾^(٥) ؛ أي إن قلت لهم : أقيموا يقيموا .

(٢) سورة الزمر ١٦

(٤) سورة الزمر ٥٦

(١) سورة النمل ٢٥

(٣) سورة الزمر ٥٣

(٥) سورة إبراهيم ٣١

وجعل منه الزمخشري : ﴿ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾ ^(١) .

وجعل أبو حيان منه قوله تعالى : ﴿ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ^(٢) أى إن كنتم آمنتم بما أنزل إليكم فلم تقتلوا؟ وجواب « إن كنتم » محذوف دل عليه ما تقدم ، أى فلم فعلتم؟ وكرر الشرط وجوابه مرتين للتأكيد ، إلا أنه حذف الشرط من الأول وبقي جوابه ، وحذف الجواب من الثانى وبقي شرطه . انتهى .

وهو حسن ، إلا أنه قد كان خالف الزمخشري ؛ وأنكر قوله بحذف الشرط فى : ﴿ فَتَأْتِ عَالِيكُمْ ﴾ ^(٣) وفى : ﴿ فَانْفَجَرَتْ ﴾ ^(٤) ، وقال : إن الشرط لا يحذف فى غير الأجوبة ، والآن قد رجع إلى موافقته .

وقوله : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِئْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ^(٥) ، تقديره إن كنتم منكرين فهذا يوم البعث ؛ أى فقد تبين بطلان إنكاركم .

وقوله : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ﴾ ^(٦) ، بمعنى إن افتخرتم بقتلهم فلم تقتلهم ، فعدل عن الافتخار بقتلهم ، حذف لدلالة الفاعلية .

وقوله : ﴿ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ ﴾ ^(٧) ؛ تقديره : إن أرادوا أولياء فالله هو الولي بالحق ، لاولى سواه .

حذف جواب الشرط

قوله : ﴿ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ

(٢) سورة البقرة ٩١

(٤) سورة البقرة ٦٠

(٦) سورة الأنفال ١٧

(١) سورة الحج ٤٧

(٣) سورة البقرة ١٨٧

(٥) سورة الروم ٦٥

(٧) سورة الشورى ٩ .

عَلَىٰ مِثْلِهِ فَأَمَّنَ وَاسْتَكْبَرْتَ ثُمَّ ﴿١﴾ ؛ أى أفلستم ظالمين ؟ بدليل قوله عقبه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ ﴿١﴾ وقدره البغوى : مَنْ الحقُّ مِنَّا وَمَنْ المِبطِل ؟ ونقله عن أكثر المفسرين .

ومن حذف جواب الفعل : ﴿ اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ ﴾ ﴿٢﴾ ، تقديره : « فذهبا إليهم فكذبوهما فدمرناهم » ، والفاء العاطفة على الجواب المحذوف هي السماة عندهم بالفاء الفصيحة .

وقال صاحب المفتاح : وانظر إلى الفاء الفصيحة في قوله تعالى : ﴿ فَتَوْبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ ﴿٣﴾ كيف أفادت : « ففعلتم فتاب عليكم » !

وقوله : ﴿ أَضْرِبُوهُ بَعْضُهَا ﴾ ﴿٤﴾ ؛ تقديره فضرِبوه فحى ﴿ كَذَلِكَ يُخَيِّ اللَّهُ الْمَوْتَى ﴾ .

وقال صاحب الكشف ﴿٥﴾ في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ ﴾ ﴿٦﴾ تقديره : فعملا به وعلماه ، وعرفا حق النعمة فيه والفضيلة ﴿ وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ .

وقال السكاكى هو إخبار عما صنع بهما وعما قالاه ؛ حتى كأنه قيل : نحن فعلنا إيتاء العلم ؛ وهما فعلا الحمد ، تعريضا لاستثارة الحمد على إيتاء العلم إلى فهم السامع ، مثله « قم يدعوك » بدل « قم فإنه يدعوك » .

(٢) سورة الفرقان ٣٦

(٤) سورة البقرة ٧٣

(٦) سورة النمل ١٥

(١) سورة الأحقاف ١٠

(٣) سورة البقرة ٥٤

(٥) الكشف ٣ : ٢٧٨

حذف الأجوبة

ويكثر ذلك في جواب لو، ولولا، كقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ النَّارِ ﴾ ^(١).

وقوله : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ ^(٢).

وقوله : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ ^(٣).

وقوله : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ ﴾ ^(٤).

وقوله : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ ^(٥).

وقوله : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ ﴾ ^(٦) ، تقديره في هذه المواضع

« لرأيت عجبا » أو « أمراً عظيماً » ، « ولرأيت سوء منقلبهم » ، أو « لرأيت سوء حالهم » .

والسر في حذفه في هذه المواضع أنها لما ربطت إحدى الجملتين بالأخرى حتى صار

جملة واحدة ، أوجب ذلك لها فضلاً وطولاً ؛ فحذف بالحذف ؛ خصوصاً مع الدلالة

على ذلك .

قالوا : وحذف الجواب يقع في مواقع التفضيم والتعظيم ، ويجوز حذفه لعلم المخاطب به ؛

وإنما يحذف لقصد المبالغة ، لأن السامع مع أقصى تخيله يذهب منه الذهن كل مذهب ؛

ولو صرح بالجواب لوقف الذهن عند المصرح به فلا يكون له ذلك الوقع ، ومن ثم لا يحسن

تقدير الجواب مخصوصاً إلا بعد العلم بالسياق ؛ كما قدر بعض النحويين في قوله تعالى :

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ . . . ﴾ ^(٧) الآية ، فقال : تقديره : لكان هذا القرآن

(٢) سورة الأنعام ٣٠

(٤) سورة الأثقال ٥٠

(٦) سورة الأنعام ٩٣

(١) سورة الأنعام ٢٧

(٣) سورة سبأ ٣١

(٥) سورة السجدة ١٢

(٧) سورة الرعد ٣١

وحكاه أبو عمرو الزاهد في " الياقوتة " عن ثعلب والبرّد ؛ وهو مردود ؛ لأن الآية ما سقت لتفضيل القرآن ، بل سقت في معرض ذم الكفار ، بدليل قوله قبلها : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بَارِئًا مِنْ بَارِئِينَ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ ^(١) ، وبعدها : ﴿ أَفَلَمْ يَتَسَاءَلُوا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ ^(٢) فلو قدر الخبير « لما آمنوا به » لكان أشد .

ونقل الشيخ محي الدين النووي في كتاب " رءوس المسائل " ، كون الجواب « كان هذا القرآن » ، عن الأكثرين . وفيه ما ذكرت .

وقيل تقديره : لو قضيت أنه لا يقرأ القرآن على الجبال إلا سارت ورأوا ذلك ، لما آمنوا .

وقيل : جواب « لو » مقدم ، معناه : يكفرون بالرحمن ولو أن قرآنا سيرت به الجبال ، وهذا قول الفراء .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ﴾ ^(٣) ، محذوف ، والتقدير : لنفدت هذه الأشياء وما نفدت كلمات الله ويحتمل أن يكون « ما نفدت » هو الجواب مبالغة في نفي النفاذ ؛ لأنه إذا كان نفي النفاذ لازما على تقدير كون ما في الأرض من شجرة أقلاماً والبحر مداً لكان لزومها على تقدير عدمها أولى .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ ﴾ ^(٤) .

(٢) سورة الرعد ٣١

(٤) سورة لقمان ٢٧

(١) سورة الرعد ٣٠

(٣) سورة لقمان ٢٧

(٥) سورة النساء ١١٣ .

فإنه قد قيل : ظاهره نفي وجود الهَمِّ منهم بإضلاله ، وهو خلاف الواقع ؛ فإنهم همّوا وردوا القول .

وقيل : قوله : ﴿ لَهَمَّتْ ﴾ ليس جواب « لو » بل هو كلام تقدم على « لو » ، وجوابها مقول على طريق القسم ، وجواب « لو » محذوف تقديره ﴿ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ ﴾ ^(١) لولا فضل الله عليك لأضلوك .

وقوله : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ ^(٢) ، أى همت بمخالطته ، وجواب « لولا » محذوف ؛ أى لولا أن رأى برهان ربه لمخالطها ^(٣) .

وقيل : لولا أن رأى برهان ربه لم يهَمَّ بها ؛ والوقف على هذا ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ﴾ ، والمعنى أنه لم يهَمَّ بها ^(٤) .

ذكره أبو البقاء . والأوّل للزحشرى .

ولا يجوز تقديم جواب « لو » عليها لأنه في حكم الشرط ، وللشرط صدر الكلام . وقوله : ﴿ وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾ ^(٥) جواب الشرط محذوف ؛ يدل عليه قوله : ﴿ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ ﴾ أى إن شاء الله اهتدينا . وقد توسط الشرط هنا بين جزأى الجملة بالجزاء ؛ لأن التقديم على الشرط ، فيكون دليل الجواب متقدما على الشرط ؛ والذي حسن تقديم الشرط عليه الاهتمام بتعليق الهداية بمشيئة الله تعالى .

وقوله تعالى : ﴿ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُونُ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ ﴾ ^(٦) ، تقديره : لما استعجلوا فقالوا متى هذا الوعد .

(٢) سورة يوسف ٢٤

(١) سورة النساء ١١٣

(٣) الكشف ٢ : ٣٥٥

(٤) إملاء مامن به الرحمن لأبى البقاء العكبرى ٢٨

(٦) سورة الأنبياء ٣٩

(٥) سورة البقرة ٧٠

وقال الزجاج : تقديره « لعلوا صدق الوعد » لأنهم قالوا : متى هذا الوعد ، وجعل الله الساعة موعدهم فقال تعالى : ﴿ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَفْئَةٌ ^(١) .

وقيل : تقديره « لما أقاموا على كفرهم ولندموا أو تابوا » .

وقوله في سورة التكاثر : ﴿ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ^(٢) » تقديره لما : أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرَ .

وقيل : تقديره : لشغلكم ذلك عما أنتم فيه .

وقيل : لرجعتكم عن كفركم أو لتحققتم مصداق ما تحذرونه .

وقوله : ﴿ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَفْقَهُونَ شَيْئًا ^(٣) » أى لا يتبعونهم .

وقوله : ﴿ قَالَ إِنْ كُنْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ^(٤) » تقديره : « لآمتهم » أو « لما كفرتم » أو « لزهدت في الدنيا » أو « لتأهبت للقائنا » .

ونحوه : ﴿ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ^(٥) » أى يهتدون في الدنيا لما رأوا العذاب في الآخرة ، أو لما اتبعوهم .

وقوله : ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ^(٦) » ، قال محمد بن إسحاق : معناه لو أن لي قوة لحلت بينكم وبين المعصية .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ ^(٧) » ، أى رأيت ما يعتبر به عبرة عظيمة .

(٢) سورة التكاثر ١ ، ٥

(٤) سورة المؤمنون ١١٤

(٦) سورة هود ٨٠

(١) سورة الأنبياء ٤٠

(٣) سورة البقرة ١٧٠

(٥) سورة القصص ٦٤

(٧) سورة سبأ ٥١

وقوله عقب آية اللعان : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾ ^(١) ، قال الواحدى : قال الفراء : جواب « لو » محذوف لأنه معلوم المعنى ، وكل ما علم فإن العرب تكتفى بترك جوابه ؛ ألا ترى أن الرجل يشتم الرجل ، فيقول المشتوم : أما والله لولا أبوك . . . فيعلم أنك تريد : لשתمتك .

وقال المبرد : تأويله والله أعلم : لهلكم ، أو لم يبق لكم باقية ، أو لم يصلح أمركم ، ونحوه من الوعيد الموجه ، فحذف لأنه لا يشكّل .

وقال الزجاج : المعنى لنال الكاذب منكم أمر عظيم ؛ وهذا أجود مما قدره المبرد . وكذلك « لولا » التى بعدها فى قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ ^(٢) ، جوابها محذوف ؛ وقدره بعضهم فى الأولى : لا فتضح فاعل ذلك ؛ وفى الثانية : لعجل عذاب فاعل ذلك ؛ وسوغ الحذف طول الكلام بالمعطوف ، والطول داع للحذف .

وقوله : ﴿ وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ ﴾ ^(٣) جوابها محذوف ، أى لولا احتجاجهم بترك الإرسال إليهم لعاجلناهم بالعقوبة .

وقال مقاتل : تقديره لأصابتهم مصيبة .

وقال الزجاج : لولا ذلك لم يحتج إلى إرسال الرسول ومواترة الاحتجاج .

وقوله : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا ﴾ ^(٤) ، أى لأبدت .

(٢) سورة النور ٢٠

(٤) سورة القصص ١٠ .

(١) سورة النور ١٠

(٣) سورة القصص ٤٧

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي ﴾ ^(١) ، تقديره : لو تملكون ، [تملكون] ^(٢) فأضمر « تملك » الأولى على شريطة التفسير وأبدل من الضمير المتصل ، الذى هو « الواو » ضمير منفصل ، وهو « أنتم » لسقوط ما يتصل به من الكلام ، ف « أنتم » فاعلُ الفعل المضمر ، « و تملكون » تفسيره .

قال الزمخشري ^(٣) : هذا ما يقتضيه ^(٤) الإعراب ؛ فأما ما يقتضيه علم البيان ، فهو أن [أنتم] ^(٥) تملكون فيه دلالة على الاختصاص ، وأن الناس هم المختصون بالشح المتتابع ^(٦) ؛ وذلك لأن الفعل الأول لما سقط لأجل المفسر برز الكلام فى صورة المبتدأ والخبر .

ومن حذف الجواب قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ ^(٧) ، أى أعرضوا ، بدليل قوله بعده : ﴿ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ ^(٨) .

وقوله فى قصة إبراهيم فى الحجر : ﴿ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴾ ^(٩) ، وفى غيرها من السور : ﴿ قَالُوا سَلَامًا ﴾ ^(١٠) ، قال الكرماني : لأن هذه السورة متأخرة عن الأولى ، فاكتفى بما فى هذه ؛ ولو ثبت تعدد الوقائع لنزلت على واقعيتين .

(٢) تكملة من الكشف ٢ : ٤٣ .

(١) سورة الإسراء ١٠٠

(٣) الكشف ٢ : ٤٣ .

(٤) عبارة الزمخشري فى الكشف : « وهذا هو الوجه الذى يقتضيه علم الإعراب » .
(٥) من الكشف
(٦) فى الكشف بعده : نحو قول حاتم :

* لَوْ ذَاتُ سِوَارٍ لَطَمْتَنِي *

* وَلَوْ غَيْرُ أَخَوَالِي أَرَادُوا نَقِصَتِي *

وقول المتلمس :

(٨) سورة الحجر ٥٢

(٧) سورة يس ٤٥ ، ٤٦

(١٠) سورة الذاريات ٢٥

(٩) سورة الفرقان ٦٣

وكقوله تعالى : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ ^(١) ، قال الزخشرى ^(٢) : حذف الجواب ، وتقديره مصرح به في سورتي التكوير والانفطار ، وهو قوله ﴿ عَلِمْتَ نَفْسٌ ﴾ ^(٣) .

وقل في : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴾ ^(٤) : الجواب محذوف ، أى أنهم ملعونون ، يدل عليه قوله : ﴿ قَتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴾ ^(٥) .

وكقوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ ^(٦) ، أى « حتى إذا جاءوها وقد فتحت أبوابها » ، والواو واو حال ، وفي هذا ما حكى أنه اجتمع أبو على الفارسي مع أبي عبد الله الحسين بن خالويه في مجلس سيف الدولة ، فسئل ابن خالويه عن قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتُحْتِ أَبْوَابُهَا ﴾ ^(٦) في النار بغير واو ، وفي الجنة بالواو ! فقال ابن خالويه : هذه الواو تسمى واو الثمانية لأن العرب لا تعطف الثمانية إلا بالواو ، قال : فنظر سيف الدولة إلى أبي على ، وقال : أحق هذا ! فقال أبو على : لا أقول كما قال ؛ إنما تركت الواو في النار ، لأنها مغلقة ، وكان مجيئهم شرطاً في فتحها ، فقوله : ﴿ فَتُحْتِ ﴾ فيه معنى الشرط ، وأما قوله : ﴿ وَفُتِحَتْ ﴾ في الجنة ، فهذه واو الحال ، كأنه قال : جاءوها وهي مفتحة الأبواب ؛ أو هذه حالها .

وهذا الذى قاله أبو على هو الصواب ، ويشهد له أمران :

أحدهما : أن العادة مطردة شاهدة في إهانة المعذنين بالسجون ، من إغلاقها حتى يردوا عليها ، وإكرام المنعمين بإعداد فتح الأبواب لهم مبادرة واهتماماً .

(١) سورة الانشقاق ١

(٢) الكشاف ٤ : ٥٧٩ ، والعبارة هناك : « حذف جواب إذا ليذهب المقدر كل مذهب ، أو اكتفاء بما علم في مثله من سورتي التكوير والانفطار » .

(٣) سورة التكوير ١٤ : ﴿ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَا أَحْضَرْتَ ﴾ والانفطار ٥ : ﴿ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَا

(٤) سورة البروج ١ ، ٤

قَدَمْتَ وَأَخَّرْتَ ﴾

(٥) سورة الزمر ٧٣ .

(٦) سورة الزمر ٧٣

والثانى : النظم فى قوله : ﴿ جَنَّاتٍ عَدْنٍ مُّفْتَحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ ﴾ ^(١) .

وللنحويين فى الآية ثلاثة أقوال :

أحدها : أن الواو زائدة ، والجواب قوله « فتحت » وهؤلاء قسمان : منهم من جعل

هذه الواو مع أنها زائدة واو الثمانية ، ومنهم من لم يثبتها .

والثانى : أن الجواب محذوف عطف عليه قوله : ﴿ وفتحت ﴾ كأنه قال « حَتَّى إِذَا جَاءَهَا

[جاءوها] ^(٢) وَفُتِحَتْ » قال الزجاج وغيره : وفى هذا حذف المعطوف وإبقاء المعطوف عليه .

والثالث : أن الجواب محذوف آخر الكلام ؛ كأنه قال بعد الفراغ : استقروا ،

أو خلدوا ، أو استروا ؛ مما يقتضيه المقام ؛ وليس فيه حذف معطوف . ويحتمل أن يكون

التقدير : إذا جاءوها أُذِنَ لَهُمْ فى دخولها وفتحت أبوابها ؛ المجىء ليس سبباً مباشراً للفتح ؛

بل الإذن فى الدخول هو السبب فى ذلك .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمُ

أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنْ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ﴾ ^(٣) أى رحمهم

ثم تاب عليهم ؛ وهذا التأويل أحسن من القول بزيادة « ثم » .

وحذف المعطوف عليه وإبقاء المعطوف سائغ ، كقوله تعالى : ﴿ فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ

الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ﴾ ^(٤) ، التقدير والله أعلم : فذهبا قبلنا ، فكذبنا

فدمرناهم ؛ لأن المعنى يرشد إلى ذلك .

وكذا قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ ^(٥) ،

أى فامثلتم ، أو فعلتم فتاب عليكم .

(٢) نكلمة من الكشاف ٤ : ١١٤

(٤) سورة الفرقان ٣٦

(١) سورة ص ٥٠

(٣) سورة التوبة ١١٨

(٥) سورة البقرة ٥٤

وقوله : ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ ^(١) ، أى رُحِمَا وسُعِدا وتَلَّهُ . وابن عطية يجعل تقدير : فلما أسلما أسلما ؛ وهو مشكل .

وقوله : ﴿ وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ أَحْلَقُ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَزِيلْنَا ﴾ ^(٢) ، المعنى حتى إذا كان ذلك ندم الذين كفروا ولم ينفعهم ، إيمانهم ؛ لأنه من لآيات والأشراط .

وقد يحىء فى الكلام شرطان ؛ ويحذف جواب أحدهما اكتفاء بالآخر كقوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ ^(٣) فى الاعتراض به مجرى الظرف ؛ لأنَّ الشرط وإن كان جملة ؛ فإنه لما لم يقم بنفسه جرى مجرى الجزء الواحد ، ولو كان عنده جملة لما جاز الفصل به بين «أما» وجوابها ، لأنه لا يجوز : أما زيد فنطلق ؛ وذهب الأخفش إلى أن الفاء جواب لها . ونظيره : ﴿ وَلَوْ لَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَؤُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ ﴾ ^(٤) فقوله : ﴿ لَعَذَّبْنَا ﴾ ^(٤) جواب للولا ولو جميعا .

واختار ابن مالك قول سيبويه أن الجواب «لأما» واستغنى به عن جواب «إن» لأن الجواب لأول الشرطين المتوالين فى قوله : ﴿ إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ﴾ ^(٥) ونظائره .

فإذا كان أول الشرطين «أما» كانت أحق بذلك لوجهين :

أحدهما : أن جوابها إذا انفردت لا يحذف أصلا ؛ وجواب غيرها إذا انفرد يحذف كثيرا .

للدليل ؛ وحذف ما عهد حذفه أولى من حذف ما لم يعهد .

(٢) سورة الأنبياء ٩٧

(٤) سورة الفتح ٢٥

(١) سورة الصافات ١٠٣

(٣) سورة الواقعة ٩٠

(٥) سورة هود ٣٤

والثانى: أن «أما» قد التزم معها حذف فعل الشرط ، وقامت هي مقامه ، فلو حذف جوابها لكان ذلك إجحافاً ، وإن لم يست كذلك . انتهى .

والظاهر أنه لا حذف في الآية الكريمة ، وإنما الشرط الثانى وجوابه جواب الأول ، والمحذوف إنما هو أحد الفاعلين .

وقال الفارسي في قوله تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَا لَكَ أَلَمُكَ ... ﴾ ^(١) الآية: إنه حذف منه: أَعَزَّنَا وَلَا تَذَلَّنَا .

وقال في قوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ ^(٢) تقديره « فكيف تجدونهم مسرورين » أو « محزونين » ، فـ « كيف » في موضع نصب بهذا الفعل المضمر ، وهذا الفعل المضمر قد سدّ مسدّ جواب إذا .

حذف جواب القسم

لعلم السامع المراد منه ، كقوله تعالى : ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا . وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا . وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا . فَالْمَدَبَّرَاتِ أَمْرًا . يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴾ ^(٣) تقديره : كتبعثن ولتحاسبن ، بدليل إنكارهم للبعث في قولهم : ﴿ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴾ ^(٤) .

وقيل : القسم وقع على قوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِزَّةَ لِمَن يَخْشَى ﴾ ^(٥) . وكقوله تعالى : ﴿ لَنُؤْتِيَنَّكَ ﴾ ^(٦) وحذف لدلالة الكلام السابق عليه .

(٢) سورة النساء ٦٢

(٤) سورة النازعات ١٠

(٦) سورة ط ٧٢

(١) سورة آل عمران ٢٦

(٣) سورة النازعات ١ - ٦

(٥) سورة النازعات ٢٦

واختلف في جواب القسم في : ﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴾ ^(١) فقال الزجاج :
﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَنُحْثُ نَحْضُ أَهْلِ النَّارِ ﴾ ^(٢) ، واستبعده الكسائي .

وقال الفراء : قد تأخر كثيراً وجرت بينهما قصص مختلفة ، فلا يستقيم ذلك
في العربية .

وقيل : ﴿ كم أهلكنا ﴾ ^(٣) ومعناه : لكم أهلكنا ، وما بينهما اعتراض ، وحذفت
اللام لطول الكلام .

وقال الأخفش : ﴿ إن كلَّ إلا كذبَ الرُّسُلِ ﴾ ^(٤) والمعتز بينهما قصة واحدة .
وعن قتادة : ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ ^(٥) ، مثل : ﴿ ق . وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ .
بَلِ نَحْبُوا ﴾ ^(٦) .

وقال صاحب النظم في هذا القول : معنى « بل » تأكيد الأمر بعده ؛ فصار مثل أن
الشديدة تُثبت ما بعدها ، وإن كان لها معنى آخر في نفي خبر متقدم ؛ كأنه قال : إن الذين
كفروا في عزة وشقاق .

وقال أبو القاسم الزجاجي : إن النحويين قالوا : إن « بل » تقع في جواب القسم كما
تقع « إن » لأن المراد بها تأكيد الخبر ؛ وذلك في ﴿ ص وَالْقُرْآنِ ... ﴾ الآية . وفي ﴿ ق .
وَالْقُرْآنِ ... ﴾ الآية ؛ وهذا من طريق الاعتبار ، ويصلح أن يكون بمعنى « إن » لأنه
سائع في كلامهم ؛ أو يكون « بل » جواباً للقسم ؛ لكن لما كانت متضمنة رفع خبر وإتيان خبر
بعده كانت أوكد من سائر التوكيدات ، فحسن وضعها موضع « إن » .

(٢) سورة ص ٦٤

(٤) سورة ص ١٤

(٦) سورة ق ٢، ١

(١) سورة ص ١

(٣) سورة ص ٣

(٥) سورة ص ٢

وقيل: الجواب محذوف، أى والقرآن المجيد، ما الأمر كما يقول هؤلاء. أو الحق ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم .

وقال الفراء فى قوله تعالى : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ ^(١) جوابه محذوف ؛ أى فىومئذ يلاقى حسابه .

وعن قتادة أن جوابه: ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ ^(٢) يعنى أن الواو فيها بمعنى السقوط ، كقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمُوا وَلَهُ لِّلْجَبِينِ . وَنَادَيْنَاهُ ﴾ ^(٣) ، أى نادينه .

حذف الجملة

هى أقسام : قسم هى مسببة عن المذكور ، وقسم هى سبب له ، وقسم خارج عنهما ؛ فالأول: كقوله تعالى : ﴿ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ ﴾ ^(٤) فإن اللام الداخلة على الفعل لا بد لها من متعلق ، يكون سبباً عن مدخول اللام ، فلما لم يوجد لها متعلق فى الظاهر وجب تقديره ضرورة ، فيقدر : فعل مافعل لِيُحِقَّ الحق .

والثانى : كقوله تعالى : ﴿ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾ ^(٥) ؛ فإن الفاء ، إنما تدخل على شىء مسبب عن شىء ، ولا مسبب إلا له سبب ، فإذا وُجد المسبب ولا سبب له ظاهراً — أوجب أن يقدر ضرورة ، فيقدر : فضر به فانفجر .

والثالث : كقوله تعالى : ﴿ فَنِعَمَ الْمَاهِدُونَ ﴾ ^(٦) أى نحن هم ، أو هم نحن . وقد يكون المحذوف أكثر من جملة كقوله تعالى : ﴿ فَأَرْسِلُونِ . يُؤَسِّفُ... ﴾ ^(٧) الآية ، فإن التقدير : « فأرسلون إلى يوسف لأستعبره الرؤيا ، فأرسلوه إليه لذلك ، فجاء فقال له :

(٢) سورة الصافات ١٠٣، ١٠٤

(٤) سورة البقرة ٦٠

(٦) سورة يوسف ٤٥، ٤٦ .

(١) سورة الانشقاق ٢، ١

(٣) سورة الأفعال ٨

(٥) سورة الناريات ٤٨

يا يوسف « ، وإنما قلنا : إن هذا الكل محذوف ؛ لأن قوله : ﴿ أَرْسِلُونِ ﴾ يدل لا محالة على المرسل إليه ، فثبت أن « إلى يوسف » محذوف . ثم إنه لما طُلب الإرسال إلى يوسف عند العجز الحاصل للمعبرين عن تعبير رؤيا الملك دل ذلك على أن المقصود من طلب الإرسال إليه استعباره الرؤيا التي عجزوا عن تعبيرها ومنه قوله تعالى : ﴿ أَذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَهُ إِلَيْهِمْ . . . ﴾ ^(١) الآية ، فأعقب بقوله حكاية عنها : ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأَإِنَّ الْفِتَى إِلَى كِتَابِ كَرِيمٍ ﴾ تقديره : فأخذ الكتاب فألقاه إليهم ، فرأته بلفيس ، وقرأته ، و﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأَإِنَّ ﴾ ^(١) .

وقوله : ﴿ يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتِنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ ^(٢) ، حذف يطول ، تقديره : فلما ولد يحيى ونشأ وترعرع قلنا : ﴿ يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴾ ^(٣) .

ومنه قوله تعالى حكاية عن قوم موسى : ﴿ لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى . قَالَ يَا هَآؤُلَؤُلَا مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا . أَلَا تَتَّبِعُنَ أَفْصَيْتَ أَمْرِي ﴾ ^(٤) . وقوله : ﴿ فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ ﴾ ^(٥) إلى قوله ﴿ نَسْكُرُوا لَهُمَا عَرْشَهَا ﴾ ^(٦) .

وقوله : ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾ ^(٧) أى كمن قسا قلبه ترك على ظلمه وكفره ؛ ودل على المحذوف قوله : ﴿ فَوَيْلٌ لِلْقَآئِمَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ ^(٨) .

ومن حذف الجملة قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَآئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا ﴾ ^(٩) قيل : المعنى جاعل فى الأرض خليفة يفعل كذا وكذا ؛ وإلا فن أين علم الملائكة أنهم يفسدون ! وباقى الكلام يدل على المحذوف .

وقوله : ﴿ أَيْحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ كُلَّ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ ^(١٠) ، قال

(٢) سورة مريم ١٢
(٤) سورة النمل ٤٠ ، ٤١
(٦) سورة البقرة ٣٠

(١١) سورة النمل ٢٨ ، ٢٩
(٣) سورة طه ٩١ — ٩٣
(٥) سورة الزمر ٢٢
(٧) سورة المجرات ١٢ .

الفارسي : المعنى فكما كرهتموه فاكروهوا الغيبة : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ ، عطف على قوله : « فاكروهوا » وإن لم يذكر لدلالة الكلام عليه ؛ كقوله تعالى : ﴿ فَانفَجَرَتْ ﴾ ^(١) ، أى فضرب فانفجرت . فقوله : ﴿ كرهتموه ﴾ كلام مستأنف ، وإنما دخلت الفاء لما فى الكلام من معنى الجواب ؛ لأن قوله : ﴿ أَيْحَبُّ أَحَدِكُمْ ﴾ كأنهم قالوا فى جوابه : لا ، فقال : فكرهتموه ؛ أى فكما كرهتموه فاكروهوا الغيبة .

قال ابن السجري : وهذا التقدير بعيد ؛ لأنه قدر المحذوف موصولاً ، وهو « ما » المصدرية ، وحذف الموصول ، وإبقاء صلته ضعيف ؛ وإنما التقدير : فهذا كرهتموه ؛ والجملة المقدرة المحذوفة ابتدائية لا أمرية ، والمعنى : فهذا كرهتموه والغيبة مثله ؛ وإنما قدرها أمرية ليعطف عليها الجملة الأمرية ، فى قوله : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ .

حذف القول

قد كثر فى القرآن العظيم حتى إنه فى الإضمار بمنزلة الإظهار ، كقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ أَخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ ^(٢) ، أى يقولون : ما نعبدهم إلا للقربة .

ومنه : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى كُلًّا ﴾ ^(٣) ، أى وقلنا كلوا ، أو قائلين . وقوله : ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلًّا وَاشْرَبُوا ﴾ ^(٤) ، أى قلنا . ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا ﴾ ^(٥) ، أى وقلنا : خذوا .

(٢) سورة الزمر ٣

(٤) سورة البقرة ٦٠

(١) سورة البقرة ٦٠

(٣) سورة طه ٨٠، ٨١

(٥) سورة البقرة ٦٣

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ ^(١) ،
 أى وقلنا : اتخذوا .

وقوله : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا ﴾ ^(٢) ، أى
 يقولان : ربنا . وعليه قراءة عبد الله .

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَ كَفَرْتُمْ ﴾ ^(٣) ؛ أى فيقال لهم ، لأن « أما »
 لا بد لها فى الخبر من فاء ، فلما أضمر القول أضمر الفاء .

وقوله : ﴿ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَثْرَابٌ ﴾ ^(٤) ، أى
 يقال لهم هذا .

وقوله : ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ ^(٥) ، أى
 يقولون سلامٌ .

وقوله : ﴿ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ ﴾ ^(٦) ، أى يقولون لهم ذلك .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَنْبُدُّهُمْ ﴾ ^(٧) ، أى يقولون ما نعبدهم .

وقوله : ﴿ فَظَلَّمْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ ^(٨) . إِنَّا لَمُفْرَمُونَ . أى يقولون إِنَّا لمفرمون ،
 أى معذبون ، وتفكّهون : تندّمون .

وقوله : ﴿ وَلَوْ وَرَرْتُمْ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا
 وَسَمِعْنَا ﴾ ^(٩) أى يقولون ربنا .

(٢) سورة البقرة ١٢٧

(٤) سورة ص ٥٢ ، ٥٣

(٦) سورة الأنبياء ١٠٣

(٨) سورة الواقعة ٦٥ ، ٦٦

(١) سورة البقرة ١٢٥

(٣) سورة آل عمران ١٠٦

(٥) سورة الرعد ٢٣ ، ٢٤

(٧) سورة الزمر ٣

(٩) سورة السجدة ١٢

وقوله : ﴿ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ ﴾ ^(١) ، أى قالوا : قال الحق .

حذف الفعل

وينقسم إلى عام وخاص :

[الخصاص]

فالخاص نحو « أعنى » مضمراً ، وينتصب المفعول به فى المدح ؛ نحو ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ ﴾ ^(٢) ، وقوله : ﴿ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ ^(٣) ، أى أمدح .

واعلم أنه إذا كان المنعوت متعيناً لم يحز تقدير ناصب نعتِه بأعنى ؛ نحو الحمد لله الحميد ؛ بل المقدّر فيه ، وفى نحوه أذكر أو أمدح ، فاعرف ذلك . والذم نحو قوله تعالى : ﴿ وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴾ ^(٤) ، فى قراءة النصب ، والأخفش ينصب فى المدح بأمدح ، وفى الذم بأذم .

واعلم أن مراد المادح إبانة المدوح من غيره ، فلا بد من إبانة إعرابه عن غيره ، ليدلّ اللفظ على المعنى المقصود ، ويجوز فيه النصب بتقدير أمدح ، والرفع على معنى « هو » ؛ ولا يظهران لثلاثاً يصيرا بمنزلة الخبر .

والذى لا مدح فيه فاخترال العامل فيه واجبٌ ، كاختزاله فى « والله لأفعلن » ؛ إذ لو قيل : « أحلف بالله » لكان عِدَّةً لا قسماً .

(٢) سورة البقرة ١٧٧ .

(٤) سورة الذهب ٤

(١) سورة سبأ ٢٣

(٣) سورة النساء ١٦٢

[العام]

والعام كل منصوب دل عليه الفعل لفظاً ، أو معنى ، أو تقديرًا . ويحذف لأسباب :

أحدها : أن يكون مفسراً ، كقوله تعالى : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ ^(١) ، ﴿ وَإِبَائِي فَارْهَبُونِ ﴾ ^(٢) .

ومنه : ﴿ أَبْشِرْنَا مِنْهُ وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ ﴾ ^(٣) . ﴿ وَالسَّمَاءُ رَفَعَهَا ﴾ ^(٤) . ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ ^(٥) . ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ ﴾ ^(٦) . ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ ﴾ ^(٧) فإنه ارتفع به « اقتتل » مقدراً .

قالوا : ولا يجوز حذف الفعل مع شيء من حروف الشرط العاملة ، سوى « إن » لأنها الأصل .

وجعل ابن الزملاكانى هذا مما هو دائر بين الحذف والذكر ؛ فإن الفعل المفسر كالمتسلط على المذكور ؛ ولكن لا يتعين إلا بعد تقدم إبهام ، ولقد يزيده الإضمار إبهاماً ، إذا لم يكن المضمّر من جنس المفعول به ؛ نحو : ﴿ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ ^(٨) .

الثاني : أن يكون هناك حرف جر ؛ نحو ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ^(٩) فإنه يفيد

(٢) سورة البقرة ٤٠

(٤) سورة الرحمن ٧

(٦) سورة التوبة ٦

(٨) سورة الدھر ٣١

(١) سورة الانشقاق ١

(٣) سورة القمر ٢٤

(٥) سورة التکویر ١

(٧) سورة الحجرات ٩

(٩) سورة الفاتحة ١

أن المراد : بسم الله أقرأ أو أقوم ، أو أقعد عند القراءة ، وعند الشروع في القيام أو القعود ، أى فعل كان .

واعلم أن النحاة اتفقوا على أن « بسم الله » بعض جملة ، واختلفوا .

فقال البصريون : الجملة اسمية ؛ أى ابتدأت بسم الله .

وقال الكوفيون : الجملة فعلية ، وتابعهم الزمخشري في تقدير الجملة فعلية ؛ ولكن خالفهم في موضعين : أحدهما أنهم يُقدِّرون الفعل مقدما ، وهو يقدره مؤخراً . والثاني : أنهم يقدرونه فعل البداية ، وهو يقدره في كل موضع بحسبه ، فإذا قال الذامح : بسم الله ، كان التقدير : بسم الله أذبح ، وإذا قال القارىء : بسم الله ، فالتقدير : بسم الله أقرأ .

وما قال أجود مما قالوا ^(١) ؛ لأن مراعاة المناسبة أولى من إهمالها ، ولأن اسم الله أهم من الفعل ، فكان أولى بالتقديم ؛ وما يدل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « باسمك ربى وضعت جنبي » ، فقدم اسم الله على الفعل المتعلق ثم الجار ، وهو « وضعت » .

الثالث : أن يكون جوابا لسؤال واقع ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ ^(٢) .

وقوله : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ ^(٣) .

وقوله : ﴿ كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ ^(٤) أى بل تتبع .

(٢) سورة لقمان ٢٥

(٤) سورة البقرة ١٣٥

(١) كذا في م ، وفي ت : « مما قالوه » .

(٣) سورة النكبات ٦٣

أو جواباً لسؤال مقدر ؛ كقراءة : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ . رِجَالٌ ﴾ ^(١)
 بيناء الفعل للمفعول ؛ فإنَّ التقدير : يُسَبِّحُهُ رِجَالٌ .

وفيه فوائد : منها الإخبار بالفعل مرتين . ومنها جعل الفضلة عمدة .

ومنها : أنَّ الفاعل فُتِرَ بعد اليأس منه كضالة وجدّها بعد اليأس ، ويصحّ أن
 يكون « يُسَبِّحُ » بدل من « يُذَكِّرُ » ^(٢) على طريقة : ﴿ سَبِّحْ أَسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ ^(٣)
 و « له فيها » خبر مبتدأ هو « رجال » .

مثله قراءة من قرأ : ﴿ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ
 شُرَكَاءَهُمْ ﴾ ^(٤) ، قال أبو العباس : المعنى زَيْنَةُ شُرَكَائِهِمْ ؛ فيرفع الشركاء بفعل مضمر
 دلّ عليه « زَيْنَ » .

ومثله قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ ﴾ ^(٥) إن جعلنا قوله « لله شركاء » مفعولى
 « جعلوا » ، لأنَّ « لله » فى موضع الخبر المنسوخ ، وشركاء نصب فى موضع المبتدأ .
 وعلى هذا فيحتمل وجهين : أحدهما أن يكون مفعولاً بفعل محذوف دلّ عليه سؤال مقدر ،
 كأنه قيل : أجعلوا لله شركاء ؟ قيل جعلوا الجن ، فيفيد الكلام إنكار الشريك مطلقاً ،
 فدخل اعتقاد الشريك من غير الجن فى إنكار دخول اتحاده من الجن .

والثانى : ذكره الزمخشري أن الجن بدل من « شركاء » ، فيفيد إنكار الشريك
 مطلقاً ، كما سبق ، وإن جعل « لله » صلة كان « شركاء الجن » مفعولين ، قدم ثانيهما على
 أولها ؛ وعلى هذا فلا حذف .

فأما على الوجه الأول فقول : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنِّ ﴾ ^(٥) ، ولم يقل : « وجعلوا

(١) سورة النور ٣٦ ، ٣٧

(٢) من قوله تعالى قبلها فى الآية : ﴿ وَيُذَكِّرُ فِيهَا أَسْمَهُ يُسَبِّحُ ... ﴾

(٣) سورة الأعلى ١

(٤) سورة الأنعام ١٣٧

(٥) سورة الأنعام ١٠٠

الجنّ شركاء لله « تعظيماً لاسم الله تعالى ؛ لأنّ شأن الله أعظمُ في النفوس ؛ فإذا قدم «الله» والكلام فيه يستدعى طلب المجمول له ما هو ؟ فقيّل : شركاء وقع في غاية التشنيع ؛ لأنّ النفس منتظرة لهذا المهمّ المعلق بهذا المعظم نهاية التعظيم ؛ فإذا عُلِمَ أنه عُلِقَ به هذا المستبشع في النهاية ، كان أعظم مرقعاً من العكس ؛ لأنّه إذا قيل : وجعلوا شركاء لم يعطه تشوف النفوس ؛ لجواز أن يكون : جعلوا شركاء في أموالهم وصدقاتهم أو غير ذلك .

الثالث : أنّ الجمل غالباً لا يتعاق بالله ويُخبرُ به إلا وهو جعل مستقبّح كاذب ؛ إذ لا يستعمل جعل الله رحمة ومشينة وعلماً ؛ ونحوه ، لاسيّما بالاستقراء القرآني ؛ كـ ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ﴾ ^(١) ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ ^(٢) إلى غير ذلك .

الرابع : أن أصل الجمل وإن جاز إسناده إلى الله فيما إذا كان الأمر لا نقاً ، فإن بابه مهول ؛ لأنّ الله تعالى قد علّمنا عظيم خطره ، وآلا نقول فيه إلا بالعلم ، كقوله : ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ^(٣) ﴿وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً﴾ ^(٤) ، إلى غير ذلك ، مع ما دلّ عليه الأدب عقلاً ، وكان نفس الجمل مستنكراً إن لم يتبع بمجمول لائق ، فإذا أتبع بمجمول غير لائق منهم ثم فسر بخاص مستنكر ، صار قوله : ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجَنِّ﴾ في قوة إنكار ذلك ثلاث مرات : الأول جساتهم في أصل الجمل ، الثاني في كون المجمول شركاء ، الثالث في أنهم شركاء جنّ .

الخامس : أن في تقديم «الله» إفادة تخصيصهم إياه بالشركة على الوجه الثالث ، دون جميع ما يعبدون ، لأنّه الإله الحق .

السادس : أنه جيء بكلمة «جعلوا» لا «اعتقدوا» ولا «قالوا» لأنه أدلّ على إثبات المعتقد ؛ لأنه يستعمل في الخلق والإبداع .

(٢) سورة النحل ٦٢

(٤) سورة النجم ٢٨

(١) سورة النحل ٥٧

(٣) سورة البقرة ١٦٩

السابع : كلمة « شركاء » ولم يقل « شريكا » وفاقا لمزيد ما فتحوا من اعتقادهم .
الثامن : لم يقل « جنّا » ، وإنما قال « الجن » ، دلالة على أنهم اتخذوا الجن كلها وجعلوه من حيث هو صالح لذلك ؛ وهو أقبح من التنكير الذى وضعه للمفردات المدولة .

الرابع : أن يدلّ عليه معنى الفعل الظاهر : كقوله تعالى : ﴿ اَنْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ ﴾ ^(١) ،
أى واثقوا أمراً خيراً لكم ؛ فعند سيبويه أن « خيراً » ^(٢) انتصب بإضمار « ائت » لآته
لما نهاه علم أنه يأمره بما هو خير ؛ فكأنه قال : « وأتوا خيراً » ؛ لأن النهى عن الشيء
أمرٌ بضدّه ؛ ولأنّ النهى تكليف ، وتكليف العدم محال ؛ لأنه ليس مقدوراً ، فثبت أن
متعلق التكليف أمر وجودى ، ينافى للنهى عنه وهو الضدّ .

وحمله الكسائى على إضمار « كان » أى يكنّ الانتهاء خيراً لكم . ويمتنع إضمار
كان ، ولا تضر فى كل موضع ، ومن جهة المعنى إذ من ترك ما نهى عنه فقد سقط عنه اللوم ،
وعلم أن ترك النهى عنه خير من فعله ، فلا فائدة فى قوله « خيراً » .

وحمله الفراء على أنه صفة لمصدر محذوف ، أى انتهوا انتهاء خيراً لكم . وقال : إن
هذا الحذف لم يأت إلا فيما كان أفعّل ، نحو خير لك ، وأفعّل .

ورد مذهبه ومذهب الكسائى بقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً اَنْتَهُوا خَيْرًا
لَكُمْ ﴾ ^(٣) ، لو حُجّل على ما قال لا يكون خيراً ، لأن من انتهى عن الثلاث وكان معطلا
لا يكون خيراً له . وقول سيبويه وائت خيراً يكون أمراً بالتوحيد الذى هو خير .
فله در التحليل وسيبويه ، ما أطلعهما على المعانى !

(٢) الكتاب ١ : ١٤٣

(١) سورة النساء ١٧١

(٣) سورة النساء ١٧١

وقوله : ﴿ فَأَجْعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ﴾ ^(١) ، إن لم يحمل مفعولاً معه ، أى وادعوا شركاءكم ، وبإظهار « ادعوا » قرأ أبى ، وكذلك هو مثبت فى مصحف ابن مسعود .
 وقوله تعالى : ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴾ ^(٢) ، قال ابن الشجرى : معناه مال عليهم بضربهم ضرباً . ويجوز نصبه على الحال ؛ نحو أتته مشياً ، أى ماشياً .
 ﴿ ثُمَّ أَدْعُنْ يَأْتِيَنَّكَ سَعْيًا ﴾ ^(٣) أى ساعيات . وقوله : « باليمين » إما اليد أو القوة .
 وجوز ابن الشجرى إرادة القسم والباء للتعليل ؛ أى لليمين التى حلفها ، وهى قوله تعالى : ﴿ لَا كَيْدَنَّ أَضْمَاكُمْ ﴾ ^(٤) .

وزعم النووى فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَا تَقْسِمُوا طَاعَةً مَعْرُوفَةً ﴾ ^(٥) ، أن التقدير ليكن منكم طاعة معروفة .

الخامس : أن يدل عليه العقل كقوله تعالى : ﴿ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِمِصْرِكَ الْحَجَرِ فَأَنْفَجَرْتَ ﴾ ^(٦) ، أى فضرب فانفجرت .

وقوله : ﴿ فَدَعَا رَبُّهُ أُنًى مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرَ . فَفَتَحْنَا ﴾ ^(٧) ، قال النحاس : التقدير ففصرناه ففتحنا أبواب السماء ؛ لأن ماظهر من الكلام يدل على ما حذف .
 وقوله : ﴿ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَنْجَارٍ ﴾ ^(٨) أى يكتب بذلك كلمات الله مانفدت ، قاله أبو الفتح :

وقوله : ﴿ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ﴾ ^(٩) .

فقوله : « ثم أحياهم » معطوف على فعل محذوف تقديره فأتوا ثم أحياهم ، ولا يصح

(٢) سورة الصافات ٩٣

(٤) سورة الأنبياء ٥٧

(٦) سورة البقرة ٦٠

(٨) سورة لقمان ٢٧

(١) سورة بونس ٧١

(٣) سورة البقرة ٢٦٠

(٥) سورة النور ٥٣

(٧) سورة القمر ١١، ١٠

(٩) سورة المائدة ٢٤٣

عطف قوله : « ثم أحياهم » على قوله : « موتوا » لأنه أمر ، وفعل الأمر لا يعطف على الماضي .

وقوله : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ ﴾ ^(١) ، أى فاختلّفوا فبعث ، وحذف لدلالة قوله : ﴿ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ ^(١) ، وهى فى قراءة عبد الله كذلك ^(٢) .

وقيل : تقديره كان الناس أمة واحدة كفاراً ، فبعث الله النبيين ، فاختلّفوا .
والأول أوجه .

وقوله : ﴿ أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ ^(٣) ، فالهمزة للإنكار ، والواو للمعطف ، والمعطوف عليه محذوف تقديره : أ كذبتُم وعجبتُم أن جاءكم .

وقوله : ﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ ^(٤) ، هو معطوف على محذوف سد مسدّه حرف الإيجاب ؛ كأنه قال إيجاباً لقولهم : ﴿ إِنَّ لَنَا لَأَجْراً ﴾ ^(٥) ، نعم إن لكم أجراً وإنكم لمن المقرّبين .

وقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ ﴾ ^(٦) ، أى فأفطر فعده ، خلافاً للظاهرية حيث أوجبوا الفطر على المسافر أخذاً من الظاهر .

وقوله : ﴿ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ ﴾ ^(٧) ، أى فخلق ففدية .

وقوله : ﴿ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بَبْغَضِهَا ﴾ ^(٨) ، قال الزمخشري : التقدير فضرّبه فحى ،

(١) سورة البقرة ٢١٣

(٢) أى « كان الناس أمة واحدة فاختلّفوا فبعث الله » وانظر الكشف ٢ : ١٩٤

(٣) سورة الأعراف ٦٣

(٤) سورة الأعراف ١١٤

(٥) سورة البقرة ١٨٤

(٦) سورة البقرة ١٩٦

(٧) سورة البقرة ٢٢٣

(٨) سورة الأعراف ١١٣

خذف ذلك لدلالة قوله : ﴿ كَذَلِكَ يُخَيِّبُ اللَّهُ الْمَوْتَى ﴾ ^(١) .

وزعم ابن جنى أن التقدير في قوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ ﴾ ^(٢) أن التقدير فكيف يكون إذا جئنا .

السادس : أن يدلّ عليه ذكره في موضع آخر ، كقوله : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا ﴾ ^(٣) ، قال الواحدي : هو بإضمار « اذكر » ، ولهذا لم يأت لإذ بحواب . ومثله قوله تعالى : ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ﴾ ^(٤) ، وليس شيء قبله تراه ناصبا « صالحا » ، بل علم بذكر النبي والمرسل إليه أن فيه إضمار « أرسلنا » .

وقوله : ﴿ وَاسْلِمَآنَ الرَّيْحِ ﴾ ^(٥) أى وسخرنا .

ومثله : ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ ﴾ ^(٦) ﴿ وَذَا النُّونِ ﴾ ^(٧) .

وكذا : ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ ﴾ ^(٨) ، أى واذاكر .

قال : ويدل على « اذكر » في هذه الآيات قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ ^(٩) ، ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمْ ﴾ ^(١٠) .

وما قاله ظاهر ، إلا أن مفعول « اذكر » يكون محذوفا أيضا تقديره : « واذاكروا أخا لكم » ونحوه إذا كان كذا ، وذلك ليكون « إذ » في موضع نصب على الظرف ، ولو لم يقد ذلك المحذوف لزم وقوع « إذ » مفعولا به ؛ والأصح أنها لاتفارق الظرفية .

- (٢) سورة النساء ٤١
(٤) سورة هود ٦١
(٦) سورة الأنبياء ٧٦
(٨) سورة الأنباء ٧٨
(١٠) سورة الأعراف ٨٦

- (١) سورة البقرة ٧٣
(٣) سورة البقرة ٧٢
(٥) سورة الأنبياء ٨١
(٧) سورة الأنبياء ٨٧
(٩) سورة الأفعال ٢٦

السابع : المشاكلة ، كحذف الفاعل في « بسم الله » لأنه موطن لا ينبغي أن يتقدم فيه سوى ذكر الله ؛ فلو ذكر الفعل وهو لا يستغنى عن فاعله كان ذلك مناقضاً للمقصود ، وكان في حذفه مشاكلة اللفظ للمعنى ؛ ليسكون المبدوء به اسم الله ؛ كما تقول في الصلاة : الله أكبر ، ومعناه « من كل شيء » ، ولكن لا تقول هذا المقدّر ليكون اللفظ في اللسان مطابقاً لمقصود الجنان ؛ وهو أن يكون في القلب ذكر الله وحده . وأيضاً فلا تـ الحذف أعمّ من الذكر ؛ فإنّ أى فعل ذكرته كان المحذوف أعمّ منه ؛ لأن التسمية تشرع عند كل فعل .

الثامن : أن يكون بدلا من مصدره ؛ كقوله تعالى : ﴿ فَضْرَبَ الرَّقَابِ ﴾ ^(١) ، وقوله : ﴿ فَأَيَّامًا مِّنَّا بَعْدُ وَإِيَّامًا فِدَاءً ﴾ ^(٢) ؛ أى فيما أن تمنوا ، وإما أن تفادوا .

وقد اختلف في نصب « السلام » في قوله تعالى في سورة هود : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرِى قَالُوا سَلَامًا ﴾ ^(٣) وفي الذاريات : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ . إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا ﴾ ^(٤) ؛ وفي نصبها وجهان :

أحدهما : أن يكون منصوباً بالقول ، أى يذكرون قولاً «سلاما» فيكون من باب : قلت حقاً وصدقا .

الثانى : أن يكون منصوباً بفعل محذوف تقديره : فقالوا سلمنا سلاما ، أى سلمنا تسليماً ؛ فيكون قد حكى الجملة بعد القول ، ثم حذفها واكتفى ببعضها .

والحاصل أنه هل هو منصوب بالقول ، أو بكونه مصدراً للفعل محذوف ؟ .

ومثله قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا ﴾ ^(٥) ،

(٢) سورة القتال ٤

(٤) سورة الذاريات ٢٥، ٢٤

(١) سورة القتال ٤

(٣) سورة هود ٦٩

(٥) سورة النحل ٣٠

منصوب ، « بقالوا » كقولك فقلت حقاً ، أو منصوب بفعل مضمر أى قالوا : أنزل خيراً ، فيكون من باب حذف الجملة المحكيّة وتبقيّة بعضها .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَا أُنْزِلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أُسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ ^(١) فمرفوع ؛ لأنه لا يمكن نصبه على تقدير « قالوا أساطير الأولين » ، لأنهم لم يكونوا يروونه من عند الله حتى يقولوا ذلك ، ولا هو أيضاً من باب : قلت حقاً وصدقاً ، فلم يبق إلا رفعه .

تنبيه

قد يشتبه الحال في أمر المحذوف وعدمه لعدم تحصيل معنى الفعل ، كما قالوا في قوله تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ ^(٢) ، فإنه قد يظن أن الدعاء فيه بمعنى النداء ؛ فلا يقدر في الكلام حذف ، وليس كذلك ، وإلا لزم الاشتراك إن كانا متفاوتين ، أو عطف الشيء على نفسه ؛ وإنما الدعاء هنا بمعنى التسمية التي تتعدى لمفعولين ، أى سمّوه الله أو الرحمن .

وقد يشتبه في تعيين المحذوف لقيام قرينتين ، كقوله تعالى : ﴿ بَلَى قَادِرِينَ ﴾ ^(٣) قدره سيويوه بـ « بلى نجعلها قادرين » ، فقادرين حال وحذف الفعل للدلالة : ﴿ أَنْ لَنْ نَجْمَعَهُ ﴾ ^(٤) عليه ^(٥) .

وقدره الفراء « نحسب » للدلالة ﴿ أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ ﴾ ^(٤) أى بلى نحسبنا قادرين .

(٢) سورة الإسراء ١١٠

(٤) سورة القيامة ٣

(١) سورة النحل ٢٤

(٣) سورة القيامة ٤

(٥) الكتاب ١ : ١٧٣

وتقدير سيويه أولى ؛ لأن « بلى » ليس جواباً لـ « يحسب » إنما هو جواب لـ « أن لن يجمع »
وقدره بعضهم : بلى تقدر قادرين .

وقيل : منصوب ، لوقوعه موقع الفعل ، وهو باطل ؛ لأنه ليس من نواصب الاسم وقوعه
موقع الفعل .

تنبيه آخر

إن الحذف على ضربين : أحدهما ألا يقام شيء مقام المحذوف كما سبق ، والثاني : أن
يقام مقامه ما يدل عليه ، كقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ
إِلَيْكُمْ ﴾ ^(١) ؛ ليس الإبلاغ هو الجواب لتقدمه على قولهم ؛ والتقدير : فإن تَوَلَّوْا
فلا ملام على ، لأنى قد أبلغتكم .

وقوله : ﴿ وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ ^(٢) ، فلا تحزن واصبر .
وقوله : ﴿ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴾ ^(٣) أى يصيبهم ما أصاب الأولين .

حذف الحرف

قال أبو الفتح فى " المحتسب " : أخبرنا أبو على قال : قال أبو بكر بن السراج :
حذف الحرف ليس يقاس ، وذلك لأن الحرف نائب عن الفعل بفاعله ، ألا تراك إذا قلت :
ما قام زيد ، فقد نابت « ما » عن أنفى كما نابت « إلا » عن أستثنى ، وكما نابت الهمزة
وهل عن « أستفهم » ، وكما نابت حروف العطف عن أعطف ، ونحو ذلك . فلو ذهبت

(٢) سورة فاطر ٤

(١) سورة هود ٥٧

(٣) سورة الأفعال ٣٨

تحذف الحرف ؛ لكان ذلك اختصاراً ، واختصارُ المختصر إجحاف به ؛ إلا إذا صح التوجه إليه ، وقد جاز في بعض الأحوال حذفه لقوة الدلالة عليه . انتهى .

فنه الواو، تحذف لقصد البلاغة ؛ فإن في إثباتها ما يقتضي تغاير المتعاطفين ؛ فإذا حذفت أشعر بأن الكل كالواحد : كقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ ^(١) ؛ تقديره : ولا يألونكم خبالاً .

وقوله تعالى : ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ﴾ ^(٢) ، أى ووجوه .

وخرج عليه الفارسي قوله تعالى : ﴿ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا... ﴾ ^(٣) الآية . وقال : تقديره : « قلت لا أجد » ، فهو معطوف على قوله : « أتوك » لأن جواب « إذا » قوله : ﴿ تَوَلَّوْا ﴾ .

ومنه ابن الشجري في أماليه ؛ وعلى هذا فلا موضع له من الإعراب ، لأنه معطوف على الصلة ؛ والصلة لاموضع لها من الإعراب ، فكذلك ماعطف عليها .

وقال الزمخشري : هي حال من الكاف في « أتوك » ، و « قد » قبله مضمرة كما في قوله : ﴿ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ ﴾ ^(٤) أى إذا ما أتوك قائلاً : لا أجد تولوا ^(٥) . وعلى هذا فله موضع من الإعراب لأنه حال .

قال السهيلي في أماليه : ليس معنى الآية كما قالوا ؛ لأن رفع الحرج عن القوم ليس مشروطاً بالبكاء عند التولي ؛ وإنما شرطه عدم الجدة ، والآية نزلت في السبعة الذين سعى أبو إسحاق ؛ ولو كان جواب « إذا أتوك » في قوله : ﴿ تَوَلَّوْا وَأَعْيَيْنُهُمْ تَفِيضٌ ﴾ ^(٦) لكان من لم تفيض عيناه من الدمع هو الذي حرج وأثم ؛ وما رفع الله الحرج عنهم إلا لأن الرسول

(٢) سورة الفاشية ٨

(٤) سورة النساء ٩٠

(٦) سورة التوبة ٢٢

(١) سورة آل عمران ١١٨

(٣) سورة التوبة ٩٢

(٥) الكشاف ٢ : ٢٢٦

لم يجد ما يحملهم عليه . وإذا عطفت « قلت لا أجد » على « أتوك » كان الحرج غير مرفوع عنهم حتى يقال : ﴿ وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ ﴾ ^(١) ، فجواب « إذا » في قوله « لا أجد » ، وما بعد ذلك خبر ونبأ على هؤلاء السبعة الذين كانوا سبب نزول هذه الآية ، ففضيلة البكاء مخصوصة بهم ، ورفع الحرج بشرط عدم الجدة عام فيهم وفي غيرهم .

وقال الواحدى في قوله تعالى : ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴾ ^(٢) : آية البقرة في مصاحف الشام بغير واو ، يعنى قراءة ابن عامر ؛ لأن هذه الآية ملايسة لما قبلها من قوله : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ ﴾ ^(٣) لأن القائلين : « اتخذ الله ولداً » من جملة المتقدم ذكرهم ، فيستغنى عن ذكر الواو لالتباس الجملة بما قبلها ، كما استغنى عنها في نحو قوله : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ ^(٤) ولو كان « وهم » كان حسناً ؛ إلا أن التباس إحدى الجملتين بالأخرى وارتباطها بها أغنى عن الواو .

ومثله : ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ ﴾ ^(٥) ولم يقل : « ورابعهم » كما قال : ﴿ وَثَامِنُهُمْ ﴾ ^(٥) ولو حذف الواو منها كما حذف من التي قبلها واستغنى عن الواو بالملايسة التي بينهما كان حسناً . ويمكن أن يكون حذف الواو لاستئناف الجملة ، ولا يعطف على ما تقدم . انتهى .

وحصل من كلامه أنه عند حذف الواو يجوز أن يلاحظ معنى العطف ، ويكتفى للربط بينها وبين ما قبلها بالملايسة كما ذكر . ويجوز ألا يلاحظ ذلك ؛ فتكون الجملة مستأنفة .

قال ابن عمرون : وحذف الواو في الجمل أسهل منه في المفرد ، وقد كثر حذفها في الجمل

(٢) سورة البقرة ١١٦

(٤) سورة البقرة ٣٩

(١) سورة التوبة ٩٢

(٣) سورة البقرة ١١٤

(٥) سورة الكهف ٢٢

في الكلام المحمول بعضه على بعض ، نحو قوله تعالى : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ . قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ . قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ . قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ . قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ . قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾ ^(١) كله محمول بعضه على بعض ، والواو مرادة ، حذف لاستقلال الجمل بأنفسها بخلاف المفرد ؛ ولأنه في المفرد ربما أوقع لبساً في نحو « رأيت زيدا ورجلا عاقلا » ؛ ولو ^(٢) جاز حذف الواو احتمال أن يكون « رجلا » بدلا بخلاف الجملة .

وقريب منه قوله تعالى : ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ ﴾ ^(٣) ، أى « وقال » .

ومنه الفاء في جواب الشرط على رأى ، وخُرِّجَ عليه قوله تعالى : ﴿ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ ﴾ ^(٤) أى فالوصية .

والفاء في العطف كقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ ^(٥) تقديره « فقال أعوذ بالله » ، ذكره ابن الشجري في أماليه .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ ^(٦) حذف حرف العطف من قوله : « قال » ، ولم يقل : « فقال » كما في قصة ^(٧) نوح ؛ لأنه على تقدير سؤال سائل قال : ما قال لهم هود ؟ فقيل : قال يا قوم اعبدوا الله واتقوه .

(٢) ت : « فلو » .

(٤) سورة البقرة ١٨٠

(٦) سورة الأعراف ٦٥

(١) سورة الشعراء ٢٣-٢٨

(٣) سورة القصص ٢٩

(٥) سورة البقرة ٦٤

(٧) من قوله تعالى في الأعراف ٥٩ : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ... ﴾

ومنه حذف همزة الاستفهام ، كقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي ﴾ ^(١) ، أى أهدار ربى ؟

وقوله : ﴿ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ ^(٢) أى أفسد نفسك ^(٣) !

وقوله : ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَى ﴾ ^(٤) أى أو تلك نعمة ؟

وقوله : ﴿ إِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ ﴾ ^(٥) على قراءة ابن كثير بكسر الهمزة ، على خلاف فى ذلك جميعه .

ومنه حذف ألف ما الاستفهامية مع حرف الجر للفرق بين الاستفهامية والخبرية كقوله تعالى : ﴿ فَلَا تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ ﴾ ^(٦) ﴿ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا ﴾ ^(٧) ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ ^(٨) و ﴿ مِمَّ خُلِقَ ﴾ ^(٩) .

ومنه حذف الياء فى ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرُ ﴾ ^(١٠) للتخفيف ورعاية الفاصلة .

ومنه حذف حرف النداء ، كقوله : ﴿ هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ ﴾ ^(١١) ، أى ياهؤلاء .
وقوله : ﴿ يُوسُفُ ﴾ ^(١٢) ، أى يايوسف .

وقوله : ﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ ﴾ ^(١٣) ، أى يارب .

ويكثر فى المضاف نحو : ﴿ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ ﴾ ^(١٤) . ﴿ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً ﴾ ^(١٥) .

وكثر ذلك فى نداء الرب سبحانه ؛ وحكمة ذلك دلالته على التعظيم والتزيه ؛ لأن النداء يتشرب معنى الأمر ؛ لأنك إذا قلت : يا زيد ، فعناه أَدْعُوكَ يا زيد ، فحذفت « يا » من نداء الرب ؛ ليزول معنى الأمر ، ويتمحض التعظيم والإجلال .

(١) سورة الأنعام ٧٦ (٢) سورة النساء ٢٩

(٣) ذكره أبو حيان فى البحر ٣ : ٣٠١ ، والقرطبي ٥ : ٢٨٥

(٤) سورة الشعراء ٢٢ (٥) سورة يوسف ٩٠

(٦) سورة البقرة ٩١ (٧) سورة النازعات ٤٣

(٨) سورة النأ ١ (٩) سورة الطارق ٥

(١٠) سورة الفجر ٤ (١١) سورة آل عمران ٦٦

(١٢) سورة يوسف ٢٩ (١٣) سورة مريم ٤

(١٤) سورة يوسف ١٠١ (١٥) سورة المائدة ١١٤

وقال الصفار : يجوز حذف حرف النداء من المنادى ، إلا إذا كان المنادى نكرة مقبلا عليها ؛ إذ لا دليل عليه ؛ وإلا إذا كان اسم إشارة .

ومنه حذف « لو » في قوله تعالى : ﴿ مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾^(١) ، تقديره : لو كان معه إله لذهب كل إله بما خلق .

وقوله : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّ بِيَمِينِكَ إِذْنٌ لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾^(٢) ، معناه لو كان كذلك لارتاب المبطلون .

ومنه حذف « قد » في قوله تعالى : ﴿ أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴾^(٣) ، أى وقد اتبعك ؛ لأن الماضى لا يقع موقع الحال إلا و « قد » معه ظاهرة أو مقدره .

ومثلها : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا ﴾^(٤) أى وقد كنتم .

وقوله : ﴿ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ ﴾^(٥) قيل معناه « قد حصرت » بدلالة قراءة يعقوب . « حَصِرَةٌ صُدُورُهُمْ » . وقال الأخفش : الحال محذوفة ، و « حصرت صدورهم » صفتها ؛ أى جاءوكم يوماً حصرت ؛ دعاء عليهم بأن تُحصَرَ صدورهم عن قتالهم لقومهم طريقتهم قاتلهم الله . وردّه أبو على بقوله أى قاتلوا قومهم فلا يجوز أن يدعى عليهم بأن تحصر صدورهم عن قتالهم لقومهم ؛ لكن يقول : اللهم ألق بأسهم بينهم .

ومنه حذف « أن » في قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾^(٦) ، المعنى أن يريكم .

(٢) سورة العنكبوت ٤٨

(٤) سورة البقرة ٢٨

(٦) سورة الروم ٢٤

(١) سورة المؤمنون ٩١

(٣) سورة الشعراء ١١١

(٥) سورة النساء ٩٠

وحذف «لا» في قوله : ﴿ تَلَّهٖ تَفْتًا تَذْكَرُ ﴾ ^(١) ، أى لا تفتاً ، لأنها ملازمة للنفي ، ومعناها لا تبرح .

وقوله : ﴿ وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ ^(٢) ، أى لا تميد .

وقوله : ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِيمِي وَإِيمِكَ ﴾ ^(٣) ، أى لا تبوء .

وبهذا يزول الإشكال من الآية : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ ﴾ ^(٤) أى لا يطيقونه ، على قول .

فائدة

[في حذف الجار ثم إيصال الفعل إلى المجرور]

كثر في القرآن حذف الجار ، ثم إيصال الفعل إلى المجرور به ، كقوله تعالى : ﴿ وَأَخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ ﴾ ^(٥) ، أى من قومه .

﴿ وَرَفَعَ بَعْضُهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾ ^(٦) .

﴿ وَلَا تَعَزَّزُوا عُقْدَةَ النَّكَاحِ ﴾ ^(٧) ، أى على عقدة .

﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ ﴾ ^(٨) ، أى يخوفكم بأوليائه ، ولذلك قال : ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ ﴾ ^(٩) .

﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ ^(٩) ، أى يبعنون لها .

- (٢) سورة النحل ١٥
(٤) سورة البقرة ١٨٤
(٦) سورة البقرة ٢٥٣
(٨) سورة آل عمران ١٧٥

- (١) سورة يوسف ٨٥
(٣) سورة المائدة ٢٩
(٥) سورة الأعراف ١٥٥
(٧) سورة البقرة ٢٣٥
(٩) سورة الأعراف ٤٥

﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ﴾ ^(١) أى قدرنا له .

﴿سُنْعِيدُهَا سِيرََهَا﴾ ^(٢) أى على سيرتها .

فصل

[فيما حذف فى آية وأثبت فى أخرى]

من الأنواع ما حذف فى آية ، وأثبت فى أخرى ؛ وهو قسمان :

أحدهما : أن يكون ما حذف منه محمولا على المذكور ؛ كالمطلق فى الرقبة ^(٣) فى كفارة الظهار ، مقيدا بالمؤمنة فى كفارة القتل ^(٤) .

وكقوله : ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ ^(٥) قيدت بالتشبيه فى موضع آخر ^(٦) .

ومنه قوله تعالى فى سورة البقرة : ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ﴾ ^(٧) وقوله فى سورة النحل : ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ ^(٨) ، فإن هذه تقتضى أن الأولى على حذف مضاف .

(٢) سورة طه ٢١

(١) سورة يس ٣٩

(٣) وذلك قوله تعالى فى سورة المجادلة ٣ : ﴿وَالَّذِينَ يَظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا﴾ .

(٤) وذلك قوله تعالى فى سورة النساء ٩٢ : ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾

(٥) سورة آل عمران ١٣٣

(٦) وذلك قوله تعالى فى سورة الحديد ٢١ : ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا

كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ .

(٨) النحل ٣٣

(٧) سورة البقرة ٢١٠

والقسم الثانى : لا يكون مرادا . فمنه قوله تعالى فى سورة المؤمنين : ﴿ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهٌ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ ^(١) ، وفى الزخرف : ﴿ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ ^(٢) .

وقوله فى البقرة : ﴿ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ ^(٣) وفى سورة الأعراف : ﴿ أُولَئِكَ كَانُوا لَنَا نِعَامَ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ ^(٤) .

وحكمته أنه قد اختلف الخبران فى سورة البقرة ؛ فلذلك دخل العاطف ، بخلاف الخبرين فى الأعراف ؛ فإنهما متفقان ؛ لأن التسجيل عليهم بالغفلة وتشبيههم بالبهائم واحد ؛ فكانت الجملة الثالثة مقررة مافى الأولى فهى من العطف بمعزل .

ومنه قوله تعالى فى البقرة : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ﴾ ^(٥) وقال فى يس : ﴿ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ ﴾ ^(٦) مع العاطف ، وحكمته أن ما فى يس وما بعده جملة معطوفة على جملة أخرى ، فاحتاجت إلى العاطف . والجملة هنا ليست معطوفة ، فهى من العطف بمعزل .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ ﴾ ^(٧) فأثبت الواو فى الأعراف ، وحذفها فى الكهف ، فقال : ﴿ وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى ﴾ ^(٨) والفرق بينهما أن الذى فى الأعراف خطاب لجمع ، وأصله « تدعونهم » ، حذفت للجزم ، والتى فى الكهف خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، وهو واحد ، وعلامة الجزم فيه سقوط الواو . ومنه فى آل عمران : ﴿ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾ ^(٩) وفى فاطر :

(٢) سورة الزخرف ٧٣

(٤) سورة الأعراف ١٧٩

(٦) سورة يس ١٠

(٨) سورة الكهف ٥٧

(١) سورة المؤمنون ١٩

(٣) سورة البقرة ٥

(٥) سورة البقرة ٦

(٧) سورة الأعراف ١٩٣

(٩) سورة آل عمران ١٨٤

﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالْزُبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ ^(١) والفرق أن الأولى حذفت الباء فيها للاختصار استغناء بالتى قبلها ، والثانية خرجت عن الأصل للتوكيد ، وتقدير المعنى كما تقول : مررت بك وبأخيك وبأبيك ؛ إذا اختصرت .

ومنه قوله فى قصة ثمود : ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ ^(٢) ، وفى قصة شعيب : ﴿وَمَا أَنْتَ﴾ ^(٣) ، بالواو ، والفرق أن الأولى جرى على انقطاع الكلام عند النحويين ، واستثناف ﴿مَا أَنْتَ﴾ ، فاستغنى عن الواو لما تقرر من الابتداء ، وفى الثانية جرى فى العطف ، وأن يكون قوله ﴿وَمَا أَنْتَ﴾ معطوفا على ﴿إِنَّمَا أَنْتَ﴾ ^(٤) .

ومنه قوله تعالى فى سورة النحل : ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ ^(٥) ، وفى سورة النمل ﴿وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ﴾ ^(٦) ، بإثبات النون ؛ وحكمته أن القصة لما طالت فى سورة النحل ناسب التخفيف بحذف النون ، بخلافه فى سورة النمل ؛ فإن الواو استثنائية ، ولا تعلق لها بما قبلها .

وقوله فى البقرة : ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُفْتَرِينَ﴾ ^(٧) ، وفى آل عمران : ﴿فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُفْتَرِينَ﴾ ^(٨) ؛ وحكمته أن الخطاب فى البقرة لليهود وهم أشد جدالا .

ومنه قوله فى الأعراف : ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ ^(٩) وفى الأنعام : ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا﴾ ^(١٠) .

(٢) سورة الشعراء ١٥٤

(١) سورة فاطر ٢٥

(٣) سورة الشعراء ١٨٦

(٤) فى الآية التى قبل من سورة الشعراء ١٨٥ ، وهى : ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾

(٦) سورة النمل ٧٠

(٥) سورة النحل ١٢٧

(٨) سورة آل عمران ٦٠

(٧) سورة البقرة ١٤٧

(١٠) سورة الأنعام ١٣٠

(٩) سورة الأعراف ١٧٢

ومنه قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ ^(١) ، وفي سورة آل عمران : ﴿ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ ^(٢) . والحكمة فيه أن الجملة في آل عمران خرجت مخرج الشرط ، وهو عام ، فناسب أن يكون النفي بصيغة التثنية ؛ حتى يكون عاما ، وفي سورة البقرة جاء عن أناس معهودين ؛ وهو قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ ، فناسب أن يؤتى بالتعريف ، لأن الحق الذي كان يستباح به قتل الأنفس عندهم كان معروفا ، كقوله تعالى : ﴿ وَكُنَّا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ ﴾ ^(٣) ، فالحق هنا الذي تقتل به الأنفس معهود معروف ، بخلاف ما في سورة آل عمران .

ومنه قوله تعالى في هود حاكيا عن شعيب : ﴿ وَيَأْقُومِ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ ^(٤) ، وأمر نبينا صلى الله عليه وسلم أن يقول لقريش : ﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ ^(٥) .

ويمكن أن يقال : لما كررت مراجعته لقومه ، ناسب اختصاص قصته بالاستئناف الذي هو أبلغ في الإنذار والوعيد ؛ وأما نبينا صلى الله عليه وسلم فكانت مدة إنذاره لقومه قصيرة ، فعمد عليهم على مكافأتهم بوعيدهم بالفاء ؛ إشارة إلى قرب نزول الوعيد لهم بخلاف شعيب ، فإنه طالت مدته في قومه ، فاستأنف لهم ذكر الوعيد .

ولعل قوم شعيب سألوه السؤال المتقدم ، فأجابهم بهذا الجواب ، والفاء لا تحسن فيه ، والنبى صلى الله عليه وسلم لم يقل ذلك جوابا للسؤال ، ولا يحسن معه الحذف .

ومنه أنه تعالى قال في خطاب المؤمنين : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ

(٢) سورة آل عمران ٢١

(٤) سورة هود ٩٣

(١) سورة البقرة ٦١

(٣) سورة المائدة ٤٥

(٥) سورة النحل ٥٥

عَذَابٍ أَلِيمٍ» ^(١) ، إلى أن قال : ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ ^(٢) ، وقال في خطاب الكافرين : ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ ^(٣) ، ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ ^(٤) .

قال الزمخشري في تفسير سورة إبراهيم ^(٥) : ما علمته جاء الخطاب هكذا في القرآن إلا في خطاب الكافرين ، وكان ذلك للتفرقة بين الخطايين ، ولثلاث يسوى بين الفريقين في الميعاد .

واعترض الإمام فخر الدين بأن هذا التبويض إن حصل فلا حاجة إلى ذكر هذا الجواب ، وإن لم يحصل كان هذا الكلام فاسداً .

وقال الشيخ أثير الدين أبو حيان في تفسيره ^(٦) : ويقال : ما فائدة الفرق في الخطاب والمعنى مشترك ؟ إذ الكافر إذا آمن والمؤمن إذا تاب مشتركان في الغفران ، وما تخيلت فيه مغفرة بعض الذنوب من ^(٧) الكافر إذا هو آمن ^(٨) ، موجود في المؤمن إذا تاب .
وسياتى بسط الكلام على ذلك في آخر الكتاب .

الإيجاز

وهو قسم من الحذف ، ويسمى إيجاز القصر ؛ فإن الإيجاز عندهم قسمان : وجيز بلفظ ، ووجيز بحذف .

- | | |
|-----------------------------|---------------------|
| (٢) سورة الصف ١٢ | (١) سورة الصف ١٠ |
| (٤) سورة الأحقاف ٣١ | (٣) سورة إبراهيم ١٠ |
| (٦) البحر المحيط ٦ : ٤٠٩ | (٥) الكشاف ٢ : ٤٢٣ |
| (٨) البحر : « الذي هو آمن » | (٧) البحر : « في » |

فالوجيز باللفظ أن يكون اللفظ بالنسبة إلى المعنى أقل من القدر ^(١) المهود عادة ؛
وسبب حسنه أنه يدل على التمكن فى الفصاحة ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم : « أوتيت
جوامع الكلم » .

واللفظ لا يخلو إما أن يكون مساويا لمعناه وهو المقدر ؛ أو أقل منه وهو المقصور .
أما المقدر فكتوبه تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ... ﴾ ^(١) الآية .
وقوله : ﴿ قَتَلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ ^(٢) ، وهو كثير .
وأما المقصور ؛ فإما أن يكون نقصان لفظه عن معناه لاختمال لفظه لمعان كثيرة ، أولا .

الأول كاللفظ المشترك الذى له مجازان ، أو حقيقة ومجاز إذا أريد معانيه ؛ كما فى قوله
تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ﴾ ^(٣) ؛ فإن الصلاة من الله مغايرة للصلاة
من الملائكة ، والحق أنه من القدر المشترك وهو الاعتناء والتعظيم .
وكذلك قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ ... ﴾ ^(٤) الآية ؛
فإن السجود فى الكل يجمعه معنى واحد ؛ وهو الاقياد .

والثانى كتوبه : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ ^(٥) .
وقوله : ﴿ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ ^(٦) .

(٢) سورة عبس ١٧
(٤) سورة الحج ١٨
(٦) سورة الأنعام ٨٢

(١) سورة النحل ٩٠
(٣) سورة الأحزاب ٥٦
(٥) سورة الأعراف ١٩٩

وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ ^(١) ، إذ معناه كبير ، ولفظه يسير .

وقد نظّر لقول العرب : « القتل أنقى للقتل » ؛ وهو بنين ثم فاء ، ويروى بناء ثم قاف ، ويروى « أوقى » والمعنى أنه إذا أقيم وتحقق حكمه خاف من يريده قتل أحد أن يقتص منه ، وقد حكاه الخوفاً في تفسيره عن علي بن أبي طالب ، وقال : قول علي في غاية البلاغة ؛ وقد أجمع الناس على بلاغته وفصاحته ؛ وأبلغ منه قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ ^(٢) وقد تكلموا في وجه الأبلغية ، انتهى .

وقد أشار صاحب " المثل السائر " إلى إنكار ذلك ، وقال : لانسبة بين كلام الخالق عز وجل وكلام المخلوق ؛ وإنما العلماء يقدحون أذهانهم فيما يظهر لهم من ذلك ؛ وهو كما قال ، وكيف يقابل المعجز بغيره مفاضلة ، وهو منه في مرتبة العجز عن إدراكه :

وَمَاذَا يَقُولُ الْقَائِلُونَ إِذَا بَدَأَ جَمَالُ خُطَابٍ فَاتَ فَهَمُّ الْخَلَائِقِ

وجلة ماذكروا في ذلك وجوه :

أحدها أن قوله ﴿ الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ أوجز ؛ فإن حروفه عشرة ، وحروف « القتل أنقى للقتل » أربعة عشر حرفاً ، والتاء وألف الوصل ساقطان لفظاً ، وكذا التنوين لتمام الكلام المقضى للوقف .

الثاني : أن قولهم فيه كلفة بتكرير القتل ، ولاتكرير في الآية .

الثالث : أن لفظ « القصاص » ، فيه حروف متلازمة ؛ لما فيه من الخروج من القاف إلى الصاد ، إذ القاف من حروف الاستعلاء ، والصاد من حروف الاستعلاء والإطباق ؛

(١) سورة البقرة ١٧٩

(٢) انظر الجزء الثاني ص ١٢٥ من كتاب المثل السائر .

بمخلاف الخروج من القاف إلى التاء ، التي هي حرف منخفض ، فهو غير ملائم ، وكذا الخروج من الصاد إلى الحاء أحسن من الخروج من اللام إلى المهمزة ، لبعد مادون طرف اللسان وأقصى الحلق .

الرابع : في النطق بالصاد والحاء والتاء حسن الصوت ، ولا كذلك تكرير القاف والفاء .

الخامس : تكرير ذلك في ^(١) كلمتين متماثلتين بعد فصل طويل ، وهو ثقل في الحروف أو الكلمات .

السادس : الإثبات أول والنفي ثان عنه ؛ والإثبات أشرف .

السابع : أن القصاص المبني على المساواة أوزن في المعادلة من مطلق القتل ، ولذلك يلزم التخصيص ، بخلاف الآية .

الثامن : الطباع أقبل للفظ « الحياة » من كلمة « القتل » ، لما فيه من الاختصار ، وعدم تكرار الكلمة ، وعدم تنافر الحروف ، وعدم تكرار الحرفين ؛ وقبول الطبع للفظ « الحياة » وصحة الإطلاق .

التاسع : أن نفي القتل لا يستلزم الحياة ، والآية ناصّة على ثبوتها التي هي الغرض المطلوب منه .

العاشر : أن قولهم لا يكاد يفهم إلا بعد فهم أن القصاص هو الحياة ، وقوله : ﴿ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ مفهوم لأوّل وهلة .

الحادى عشر : أن قولهم خطأ ؛ فإن القتل كلّّه ليس نافياً للقتل ؛ فإنّ القتل العدواني لا ينفي القتل ، وكذا القتل في الردّة والزنا لا ينفيه ؛ وإنما ينفيه قتل خاص

(١) ت : « من » ، وما أثبتته من م .

وهو قتل القصاص ؛ فالذى فى الآفة تنصيص على المقصود ، والذى فى المثل لا يمكن حمله على ظاهره .

الثانى عشر : فى دلالة على ربط المقادير بالأسباب ، وإن كانت الأسباب أيضاً بالمقادير ، وكلام العرب يتضمنه ؛ إلا أن فيه زيادة وهى الدلالة على ربط الأجل فى الحياة بالسبب ، لا من مجرد نقي القتل .

الثالث عشر : فى تنكير « حياة » نوع تعظيم ؛ يدل على أن فى القصاص حياة متطاولة ، كقوله : ﴿ وَلَيَجِدُنَهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ ﴾ ^(١) ولا كذلك المثل ؛ فإن اللام فيه للجنس ؛ ولهذا فسروا الحياة فيها بالبقاء .

الرابع عشر : فيه بناء أفعل التفضيل من متعد ؛ والآفة سالمة منه .

الخامس عشر : أن « أفعل » فى الغالب تقتضى الاشتراك ؛ فىكون ترك القصاص نافياً للقتل ؛ ولكن القصاص أكثر نفياً ، وليس الأمر كذلك ، والآفة سالمة من هذا .

السادس عشر : أن اللفظ المنطوق به إذا توات حركاته تمكن اللسان من النطق به ، وظهرت فصاحته ، بخلافه إذا تعقب كل حركة سكون ، والحركات تنقطع بالسكنات . نظيره : إذا تحركت الدابة أدنى حركة ، فخنست ، ثم تحركت فخنست ، لا يتبين انطلاقها ، ولا تتمكن من حركتها على ما نختاره ؛ وهى كالمقيدة ، وقولهم : « القتل أنفى للقتل » ، حركاته متعاقبة بالسكون بخلاف الآفة .

السابع عشر : الآفة اشتملت على فن بديع ؛ وهو جعل أحد الضدين الذى هو الفناء والموت محلاً ومكاناً لضده الذى هو الحياة ، واستقرار الحياة فى الموت مبالغة عظيمة ذكره فى الكشف .

الثامن عشر : أن في الآية طباقاً ؛ لأن القصاص مُشعر بضدّ الحياة ، بخلاف المثل .

التاسع عشر : القصاص في الأعضاء والنفوس ، وقد جُعِل في الكلّ حياة ؛ فيكون جمعاً بين حياة النفس والأطراف ، وإن فُرِض قصاص بما لا حياة فيه كالسنن ؛ فإن مصلحة الحياة تنقص بذهابه ، ويصير كنوع آخر ؛ وهذه اللطيفة لا يتضمنها المثل .

العشرون : أنها أكثر ^(١) فائدة لتضمنه القصاص في الأعضاء ، وأنه نبة على حياة النفس من وجهين : من وجه به القصاص صريحاً ، ومن وجه القصاص في الطرف ؛ لأن أحد أحوالها أن يسرى إلى النفس فيزيلها ، ولا كذلك المثل .

وقد قيل غير ذلك .

وأما زيادة ﴿ لَكُمْ ﴾ ففيها لطيفة ؛ وهي بيان العناية بالمؤمنين على الخصوص ، وأنهم المراد حياتهم لا غيرهم ، لتخصيصهم بالمعنى مع وجوده فيمن سواهم .
والحاصل أن هذا من البيان الموجز الذي لا يقترن به شيء .

ومن بديع الإيجاز قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصَّمَدُ . . . ﴾ ^(٢) الآية ، فإنها نهاية التبريزه .

وقوله : ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ ^(٣) ، وهذا بيان عجيب يوجب التحذير من الاعتزاز بالإمهار .

وقوله : ﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ^(٤) .

وقوله : ﴿ إِنَّ الْمَتِّينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾ ^(٥) ، وهذا من أحسن الوعد والوعيد .

(٢) سورة الإخلاص ١ ، ٢

(٤) سورة الدخان ٤٠

(١) ب : « أكره »

(٣) سورة الدخان ٢٦

(٥) سورة الدخان ٥١

وقوله : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ ^(١) ، فهذه ثلاث كلمات اشتملت على جميع ما في الرسالة .

وقوله : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ ^(٢) ، فهذه جمعت مكارم الأخلاق كلها ؛ لأن في ﴿ خُذِ الْعَفْوَ ﴾ صلة القاطعين ، والصفح عن الظالمين ، وفي الأمر بالمعروف تقوى الله وصلة الأرحام ، وصرف اللسان عن الكذب ، وفي الإعراض عن الجاهلين الصبر والحلم ، وتنزيه النفس عن ممارسة السفية .

وقوله : ﴿ مُدْهَامَتَانِ ﴾ ^(٣) ، معناه مسودتان من شدة الخضرة .

وقوله : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ ^(٤) .

وقوله : ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴾ ^(٥) ، فدلّ بأمرين على جميع ما أخرجه من الأرض قوتا ومتاعا للأنعام ، من العشب ، والشجر ، والحب ، والتمر ، والعصف ، والخطب ، واللباس ، والنار ، والملح ؛ لأن النار من العيدان ، والملح من الماء .

وقوله : ﴿ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ﴾ ^(٦) ، فدلّ على نفسه ولطفه ووحدايته وقدرته ، وهدى للحجة على من ضلّ عنه ؛ لأنه لو كان ظهور الثمرة بالماء والتربة ، لوجب في القياس ألا تختلف الطعوم والروائح ، ولا يقع التفاضل في الجنس الواحد إذا نبت في مغرس واحد ؛ واسكنه صنع اللطيف الخبير .

وقوله : ﴿ لَا يَصْدَعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ ﴾ ^(٧) ، كيف نفى بهذين جميع عيوب الخمر ، وجمع بقوله : ﴿ لَا يُنْزِفُونَ ﴾ ^(٧) عدم العقل وذهاب المال ونفاد الشراب .

(٢) سورة الأعراف ١٩٩

(٤) سورة البقرة ٢٨٦

(٦) سورة الرعد ٤

(١) سورة الحجر ٩٤

(٣) سورة الرحمن ٦٤

(٥) سورة النازعات ٣١

(٧) سورة الواقعة ١٩

وقوله : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الْأُصْمَ وَلَوْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ .
وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظَرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْأَعْمَى وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴾ ^(١) فدلّ على
فضل السمع والبصر ، حيث جعل مع الصّم فقدان العقل ، ولم يجعل مع العمى إلا فقدان
البصر وحده .

وقوله : ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ
وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودَى وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ ^(٢) كيف أمر ونهى ، وأخبر
ونادى ، ونعت وسمّى ، وأهلك وأبقى ، وأسعد وأشقى ، وقصّ من الأنباء ما لو شرح
ما اندرج في هذه الجملة من بديع اللفظ والبلاغة والإيجاز والبيان لجفت الأقلام
وانحسرت الأيدي .

وقوله تعالى عن النملة : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّملُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ ﴾ ^(٣) فجمع في هذه
اللفظة أحد عشر جنساً من الكلام ، نادت ، وكنت ، ونهت وسمت ، وأمرت ، وقضت
وحذرت ، وخصت ، وعمت ، وأشارت ، وغدّرت ؛ فالنداء « يا » ، والسكناية « أي » ،
والتنبيه « ها » ، والتسمية النمل ، والأمر ، « ادخلوا » ، والقصص « مساكنكم » ،
والتحذير « لا يحطمنكم » ، والتخصيص سليمان ؛ والتعميم جنوده ، والإشارة « وهم » ،
والقدر لا يشعرون . فأدت خمس حقوق : حق الله ، وحق رسوله ، وحقها ، وحق رعيّتها
وحق جنود سليمان . فحقّ الله أنها استزعت على النمل فقامت بحقهم ، وحق سليمان أنها
نهيته على النمل ، وحقها إسقاطها حق الله عن الجنود في نصيحهم ^(٤) ، وحق الجنود
بنصيحها لهم ليدخلوا مساكنهم ، وحق الجنود إعلامها إياهم وجميع الخلق أنّ من

(٢) سورة هود ٤٤
(٤) ت : « نصيحهم » .

(١) سورة يوس ٤٢ ، ٤٣
(٣) سورة النمل ١٨

استرعاه رعية فوجب^(١) عليه حفظها والذب عنها ؛ وهو داخل في الخبر المشهور : « كَلَّمَكُمْ رَاعٍ وَكَلَّمَكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ » .

ويقال : إن سليمان عليه السلام لم يضحك في عمره إلا مرة واحدة ، وأخرى حين أشرف على وادي النمل فرآها على كبر الثعالب ، لها خراطيم وأنياب ، فقال رئيسهم : ادخلوا مساكنكم ، فخرج كبير^(٢) النمل في عظم الجواميس ، فلما نظر إليه سليمان هاله ، فأراه الخاتم ، فخضع له ، ثم قال : أهذه كلها نمل ؟ فقال : إن النمل لكبير ، إنها ثلاثة أصناف : صِنْفٌ في الجبال ، وصِنْفٌ في القرى ، وصِنْفٌ في المدن . فقال سليمان عليه السلام : اعرضها عليّ ، فقال له : قف . فبقى سليمان عليه السلام تسعين يوما واقفا ، يمرّ عليه النمل ؛ فقال : هل انقطعت عساكركم ، فقال ملك النمل : لو وقفت إلى يوم القيامة ما انقطعت . فذكر الجنيد أن سليمان عليه السلام قال لعظيم النمل : لِمَ قلت للنمل : ادخلوا مساكنكم ؟ أَخِفْتَ عليهم من ظلمنا ؟ قال : لا ، ولكن خفت أن يفتنوا بما رأوا من ملكك ، فيشغلهم ذلك عن طاعة الله .

وقوله : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾^(٣) ، وهذا أشد ما يكون من الحجاج .
وقوله : ﴿ وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾^(٤) ، وهذا أعظم ما يكون من التحسير .

وقوله : ﴿ إِلَّا خِلَاةٌ يَوْمَئِذٍ لِبَعْضِهِمْ عَذَابٌ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾^(٥) ، وهذا أشد ما يكون من التنفير عن الخلعة إلا على التقوى .

(٢) م : « كثير » .

(٤) سورة الزخرف ٣٩

(١) ت : « فوجب »

(٣) سورة يس ٧٨ ، ٧٩

(٥) سورة الزخرف ٦٧

وقوله : ﴿ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ ﴾ ^(١) ، وهذا أشد ما يكون من التحذير من التريط .

وقوله : ﴿ أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ بَاتِيَ آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ ^(٢) ، وهذا أشد ما يكون من التبعيد .

وقوله : ﴿ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ﴾ ^(٣) ؛ فهذا أعظم ما يكون من التخير ^(٤) .

وقوله : ﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ . لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ ^(٥) ، وهذا أبلغ ما يكون من التذكير .

وقوله : ﴿ كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ . أَتُؤَاصُوا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ ^(٦) ، وهذا أشد ما يكون في التفرغ على التماذى في الباطل .

وقوله : ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ . يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَيمٍ آتٍ ﴾ ^(٧) ، وهذا أشد ما يكون من التفرغ .

﴿ وَمَا أَلْهَى الْأُنثَى إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ ^(٨) ، وهذا غاية الترهيب .

وقوله : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ ^(٩) ، وهذه غاية الترغيب .

(٢) سورة فصلت ٤٠

(١) سورة الزمر ٥٦

(٤) في حاشية إحدى النسخ : « المروف عند

(٣) سورة فصلت ٤٠

الأصولين أن الأمر فيه للتهديد لا للإباحة والتخير — كذا من الأصل » . وفي ت : « التحسير » .

(٦) سورة القاريات ٥٢ : ٥٣

(٥) سورة في ٢١ ، ٢٢

(٨) سورة آل عمران ١٨٥

(٧) سورة الرحمن ٤٣ ، ٤٤

(٩) سورة فصلت ٣١

وقوله : ﴿ مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ إِلَهٍ إِذْ أَنْزَلَ ذَهَبًا كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ ^(١) .

وقوله : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهَا إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ ^(٢) ، وهذا أبلغ ما يكون من الحجاج ؛ وهو الأصل الذى عليه أثبتت دلالة التامع فى علم الكلام .

وقوله : ﴿ فِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ ^(٣) ، وهذا أبلغ ما يكون من الوصف بكل ما تميل إليه النفس من الشهوات ، وتلذذ الأعين من المرئيات ، ليعلم أن هذا اللفظ القليل جداً ، حوى معانى كثيرة لا تنحصر عدداً .

وقوله : ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ ^(٤) ، وهذا أشد ما يكون من الخوف .

وقوله : ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْكَرُّ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ ^(٥) .

وقوله : ﴿ إِنَّمَا بَنِيكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾ ^(٦) .

وقوله : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ ^(٧) .

وقوله : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ ^(٨) .

وقوله : ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمٍّ وَلَا لَشَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ ^(٩) .

وقوله : ﴿ فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ﴾ ^(١٠) ، معناه قابليهم بما يفعلونه معك ، وعاملهم مثل

معاملتهم لك سواء ، مع ما يدل عليه « سواء » من الأمر بالعدل .

وقوله : ﴿ وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ ﴾ ^(١١) ، فإنه أشار به إلى انقطاع مدة الماء النازل

- | | |
|----------------------|----------------------|
| (١) سورة المؤمنون ٩١ | (٢) سورة الأنبياء ٢٢ |
| (٣) سورة الزخرف ٧١ | (٤) سورة النافقون ٤ |
| (٥) سورة قاص ٤٣ | (٦) سورة يونس ٢٣ |
| (٧) سورة سبأ ٥١ | (٨) سورة البقرة ٢ |
| (٩) سورة غافر ١٨ | (١٠) سورة الأهل ٥٨ |
| (١١) سورة هود ٤٤ | |

من السماء والنابع من الأرض . وقوله : ﴿ وَقُضِيَ الْأَمْرُ ﴾ أى هلك مَنْ قُضِيَ هلاكه ، ونجا من قدرت نجاته ، وإنما عدل عن لفظه إلى لفظ التمثيل ؛ لأمرين : اختصار اللفظ ، وكون الهلاك والنجاة كانا بأمر مطاع ، إذ الأمر يستدعى آمرا ومطاعا ، وقضاؤه يدل على قدرته .

* * *

ومن أقسام الإيجاز الاختصار على السبب الظاهر للشيء ؛ اكتفاء بذلك عن جميع الأسباب ، كما يقال : فلان لا يخاف الشجمان ، والمراد لا يخاف أحداً .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ﴾ ^(١) ، ولا شك أن من فسخت النكاح أيضاً تتربص ، لأن السبب الغالب للفراق الطلاق .

وقوله : ﴿ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ ﴾ ^(٢) ، ولم يذكر النوم وغيره ؛ لأن السبب الضروري الناقض خروج الخارج : فإن النوم الناقض ليس بضروري ، فذكر السبب الظاهر ، وعلم منه الحكم في الباقي .

ومنه قوله : ﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ ^(٣) ، أى وهو مالم يقع في وهم الضمير من الهواجس ، ولم يخطر على القلوب من مخيلات الوسوس .

ومنه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ﴾ ^(٤) ، ونظائره . وكذلك زيد وعمرو قائم ، على القول بأن « قائم » خبر عن أحدهما ، واستغنى به عن خبر الآخر .

ومنها الاختصار على المبتدأ وإقامة الشيء مقام الخبر نحو : أقام الزيدان ، فإن « قائم » مبتدأ لا خبر له .

ومنها باب « علمت أنك قائم » ، إذا جعلنا الجملة سادة مسدّ المفعولين ؛ فإن الجملة

(٢) سورة النساء ٤٣
(٤) سورة الأحزاب ٥٦

(١) سورة البقرة ٢٢٨
(٣) سورة طه ٧

مَجْلَّة لاسم واحد سدّ مسدّ اسمين مفعولين من غير حذف .

ومنه باب النائب عن الفاعل ، في « ضَرِبَ زيد » ، و « زيد » دلّ على الفاعل بإعطائه حكمه ، وعلى المفعول بوضعه .

ومنها جميع أدوات الاستفهام والشرط ؛ فإنّ « كم مالك » ؟ يغنى عن عشرين أو ثلاثين ، و « من يقيم أكرمهم ^(١) » يغنى عن زيد وعمرو ، قاله ابن الأثير في " الجامع " .

ومنه الألفاظ اللازمة للعموم ، مثل أحد وديّار ، قاله ابن الأثير أيضاً .

ومنه لفظ الجمع ؛ فإنّ « الزيدين » يغنى عن زيد وزيد وزيد ، وكذا التثنية أصلها رجل ورجل ، فحذفوا العطف والمطوف ، وأقاموا حرف الجمع والتثنية مقامهما اختصاراً ؛ وصحّ ذلك لاتفاق الذاتين في التسمية بلفظ واحد ، فإن اختلف لفظ الاسمين رجعوا إلى التكرار بالعطف ؛ نحو مررت بزيد وبكر .

ومنه باب الضمائر على ماسيأتى بيانه ؛ في قاعدة الضمير .

ومنه لفظ « فعل » فإنه يحىء كثيراً كناية عن أفعال متعددة ؛ قال تعالى : ﴿ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ ^(٢) ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ ﴾ ^(٣) .
﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا ﴾ ^(٤) ، أى فإن لم تأتوا بسورة من مثله ، ولن تأتوا بسورة من مثله .

(٢) سورة المائدة ٧٩

(٤) سورة البقرة ٢٤ -

(١) ساقطة من ت

(٣) سورة النساء ٦٦

القول في التقديم والتأخير

هو أحد أساليب البلاغة ؛ فإنهم أتوا به دلالة على تمكنهم في الفصاحة ، وملكهم في الكلام وانقياده لهم . وله في القلوب أحسنُ موقع ، وأعذب مذاق .
وقد اختلف في عده من المجاز ؛ فمنهم من عده منه ؛ لأنه تقديم مارتبته التأخير ، كالمفعول ، وتأخير مارتبته التقديم ، كالفاعل ، نُقِلَ كلُّ واحد منهما عن رتبته وحقه .
والصحيح أنه ليس منه ؛ فإنّ المجاز نقل ماوضع له إلى ما لم يوضع .
ويقع الكلام فيه في فصول :

الفصل الأول [في أسباب التقديم والتأخير]

الأول : في أسبابه ، وهي كثيرة :
أحدها : أن يكون أصله التقديم ، ولا مقتضى للعدول عنه ، كتقديم الفاعل على المفعول ، والمبتدأ على الخبر ، وصاحب الحال عليها ؛ نحو جاء زيد راكباً .

والثاني : أن يكون في التأخير إخلالٌ ببيان المعنى ، كقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ ﴾ ^(١) ، فإنه لو أخر قوله : ﴿ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ ، فلا يفهم أنه منهم .
وجعل السكاكي ^(٢) من الأسباب كون التأخير ما نعاً ، مثل الإخلال بالمقصود ،

كقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلَأَمِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِلقاءِ الْآخِرَةِ وَأَتَرَفْنَاهُمْ فِي
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ ^(١) ، بتقديم الحال أعني ﴿ مِنْ قَوْمِهِ ﴾ على الوصف ، أعني ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ،
ولو تأخر ^(٢) لتوهم أنه من صفة الدنيا ؛ لأنها هاهنا اسم تفضيل ؛ من الدنو ، وليست اسماً ،
والدنو يتعدى بـ « مِنْ » ، وحينئذ يشبه الأمر في القائلين أنهم أهم : من قومه أم لا ؟ قدّم
لاشتمال التأخير على الإخلال ببيان المعنى المقصود ؛ وهو كون القائلين من قومه . وحين
أمن هذا الإخلال بالتأخير قال تعالى في موضع آخر من هذه السورة : ﴿ فَقَالَ الْمَلَأَمِنْ
الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾ ^(٣) ، بتأخير المجرور عن
صفة المرفوع .

الثالث : أن يكون في التأخير إخلال بالتناسب ، فيقدّم ^(٤) لمشكلة الكلام ،
ورعاية الفاصلة ، كقوله : ﴿ وَأَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُمْ إِنْ كُنْتُمْ إِياهُ تَعْبُدُونَ ﴾ ^(٥) ،
بتقديم « إياه » على « تعبدون » لمشكلة رموس الآي ، وكقوله : ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ
خِيفَةً مُوسَى ﴾ ^(٦) ، فإنه لو أخر ﴿ فِي نَفْسِهِ ﴾ عن ﴿ مُوسَى ﴾ ؛ فأتتناسب الفواصل ؛
لأن قبله : ﴿ يُخَيِّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴾ ^(٧) ، وبعده : ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ
الْأَعْلَى ﴾ ^(٨) .

وكقوله : ﴿ وَنَفْسِي وَجُوهَهُمُ النَّارُ ﴾ ^(٩) ؛ فإن تأخير الفاعل عن المفعول
لتناسبته لما بعده .

وكقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ ^(١٠) ، وهو أشكل بما قبله ، لأن قبله :
﴿ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴾ ^(١١) .

(٢) ت : « إذ » .

(٤) م : « قدّم » .

(٦) سورة طه ٦٦ ، ٦٨ .

(٨) سورة إبراهيم ٤٩ .

(١) سورة المؤمنون ٣٣

(٣) سورة المؤمنون ٢٤

(٥) سورة فصلت ٢٧

(٧) سورة إبراهيم ٥٠ ، ٥١

وجعل منه السكاكي ^(١) : ﴿ آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴾ ^(٢) ، بتقديم ﴿ هَارُونَ ﴾ مع أن ﴿ موسى ﴾ أحقُّ بالتقديم .

الرابع : لعظمه والاهتمام به ؛ وذلك أن من عادة العرب الفصحاء ، إذا أخبرت عن خبرٍ ما - وأناطت به حكما - وقد يشركه غيره في ذلك الحكم ، أو فيها أخبر به عنه وقد عطف أحدُها على الآخر بالواو المقتضية عدم الترتيب - فإنهم مع ذلك إنما يريدون بالأهم والأولى . قال سيبويه : كأنهم يقدمون الذي شأنه أهمُّ لهم ، وهم يبيانه أغنى ، وإن كانا جميعاً يهتمانهم ويعنيانهم . انتهى .

قال تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ ^(٣) ، فبدأ بالصلاة لأنها أهم .

وقال سبحانه : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ ^(٤) .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّا نَعْبُدُ وَإِنَّا نَسْتَعِينُ ﴾ ^(٥) ؛ فقدم العبادة للاهتمام بها .

ومنه تقدير المحذوف في بسم الله مؤخرا .

وأوردوا : ﴿ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ ^(٦) ؛ وأجيب بوجهين :

أحدهما : أن تقديم الفعل هناك أهم ، لأنها أولُ سورة نزلت .

والثاني : أن ﴿ باسمِ رَبِّكَ ﴾ متعلق بـ ﴿ اقرأ ﴾ ^(٧) ، الثاني ، ومعنى الأول : أوجد

القراءة ، والقصد التعميم .

الخامس : أن يكون الخاطر ملتفتا إليه والهمة معقودة به ؛ وذلك كقوله تعالى :

(٢) سورة طه ٧٠

(٤) سورة النباين ١٢

(٦) سورة الملق ٣٤١ .

(١) انظر مفتاح العلوم ١٢٩

(٣) سورة البقرة ٤٣

(٥) سورة فاتحة الكتاب ٥

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ ﴾ ^(١) ، بتقديم الجرور على المفعول الأول ؛ لأن الإنكار متوجه إلى الجعل لله ، لا إلى مطلق الجعل .

السادس : أن يكون التقديم لإرادة التبيكيت والتعجيب من حال المذكور ؛ كتقديم المفعول الثانى على الأول فى قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجَنِّ ﴾ ^(١) ، والأصل « الجن شركاء » ؛ وقدم ، لأن المقصود التوبيخ ، وتقديم الشركاء أبلغ فى حصوله .
ومنه قوله تعالى فى سورة يس : ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الدِّينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى ﴾ ^(٢) ، وسند كره .

السابع : الاختصاص ؛ وذلك بتقديم المفعول ، والخبر ، والظرف ، والجار والجرور ، ونحوها على الفعل ؛ كقوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَعْبُدُكَ ﴾ ^(٣) ، أى نخضعك بالعبادة فلا نعبد غيرك .
وقوله : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ ^(٤) ، أى إن كنتم تخصونه بالعبادة .
والخبر كقوله : ﴿ قَالَ أَرَأَيْبَ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي ﴾ ^(٥) وقوله : ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَا نَعْتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ ﴾ ^(٦) .

وأما تقديم الظرف ؛ ففيه تفصيل ، فإن كان فى الإثبات دل على الاختصاص ، كقوله تعالى : ﴿ إِنْ إِلَيْنَا إِيَابَتُهُمْ . ثُمَّ إِنْ عَلَيْنَا حِسَابُهُمْ ﴾ ^(٧) ، وكذلك : ﴿ لَهُ أُلْكُكُ وَلَهُ أَلْحَدُ ﴾ ^(٨) ، فإن ذلك يفيد اختصاص ذلك بالله تعالى . وقوله : ﴿ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴾ ^(٩)

- (٢) سورة يس ٢٠
(٤) سورة النحل ١١٤
(٦) سورة المشر ٢
(٨) سورة التناين ١

- (١) سورة الأنعام ١٠٠
(٣) سورة فاتحة الكتاب ٥
(٥) سورة مريم ٤٦
(٧) سورة الناشية ٢٥ ، ٢٦
(٩) سورة آل عمران ١٥٨

أى لا إلى غيره ، وقوله : ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ ^(١) ، أخرت صلة الشهادة في الأول وقدمت في الثاني ؛ لأن الغرض في الأول إثبات شهادتهم على الأمم ، وفي اختصاصهم بكون الرسول شهيداً عليهم .
 وقوله : ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً﴾ ^(٢) ، أى لجميع الناس من العجم والعرب ، على أن التعريف للاستغراق .

وإن كان في النفي فإن تقديمه يفيد تفضيل المنفى عنه ، كما في قوله تعالى : ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾ ^(٣) ، أى ليس في خر الجنة ما في خمر غيرها من الغؤل .
 وأما تأخيرها فإنها تفيد النفي فقط ، كما في قوله : ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ ^(٤) فكذلك إذا قلنا لا عيب في الدار ؛ كان معناه : نفي العيب في الدار ، وإذا قلنا لا في الدار عيب ، كان معناه : أنها تفضل على غيرها بعدم العيب .

تنبيه

ما ذكرناه من أن تقديم الممول يفيد الاختصاص ، فهمه الشيخ أبو حيان في كلام الزمخشري وغيره ، والذي عليه محققو البيانين أن ذلك غالب لا لازم ، بدليل قوله تعالى : ﴿كَلَّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ ^(٥) ، وقوله : ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ ^(٦) ، إن جعلنا ما بعد الظرف مبتدأ .

وقد ردّ صاحب " الفلك " ^(٧) الدائر " القاعدة بالآية الأولى ، وكذلك ابن الحاجب والشيخ أبو حيان ، وخالفوا البيانين في ذلك ، وأنت إذا علمت أنهم

(٢) سورة النساء ٧٩

(٤) سورة البقرة ٢

(٦) سورة إبراهيم ١٠

(١) سورة البقرة ١٤٣

(٣) سورة الصافات ٤٧

(٥) سورة الأنعام ٨٤

(٧) هو عز الدين بن أبي الحديد ، صاحب كتاب الملك الدائر على المثل السائر ؛ نقد فيه كتاب ابن الأثير

وطبع في الهند سنة ١٣٠٩ هـ

ذكروا في ذلك قيد الغلبة سهّل الأمر . نعم له شرطان :
أحدهما ألا يكون المعمول مقدما بالوضع ؛ فإن ذلك لا يسمى تقدما حقيقة ، كأسماء
الاستفهام ، وكل مبتدأ عند من يحمله معمولا لخبره .

والثاني : ألا يكون التقديم لمصلحة التركيب ، مثل : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودَ فَهَدَيْنَاهُمْ ﴾ ^(١)
على قراءة النصب .

وقد اجتمع الاختصاص وعدمه في آية واحدة ؛ وهي قوله : ﴿ أَغْيَرَ اللَّهُ تَدْعُونَ إِنْ
كُنْتُمْ صَادِقِينَ . بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ ﴾ ^(٢) ، التقديم في الأول قطعا ليس للاختصاص ،
بخلاف الثاني .

الفصل الثاني

في أنواعه

وهي إما أن يُقدّم والمعنى عليه ، أو يُقدّم وهو في المعنى مؤخر ، أو بالعكس .

النوع الأول

ما قدم والمعنى عليه

ومقتضياته كثيرة ، قد يستر الله منها خسا وعشرين ؛ والله درّ ابن عبدون في قوله :
سَقَاكَ الْحَيَا مِنْ مَعَانٍ سِفَاحٍ فكم لي بها من مَعَانٍ فِصَاحٍ

أحدها

السبق

وهو أقسام : منها السبق بالزمان والإيجاد ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ ﴾ ^(١) قال ابن عطية : المراد بالذين اتبعوه في زمن الفترة .

وقوله : ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ﴾ ^(٢) ؛ فإنّ مذهب أهل السنة تفضيل البشر ، وإنّما قدّم الملك لسبقه في الوجود .

وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ ﴾ ^(٣) ؛ فإن الأزواج أسبق بالزمان ؛ لأن البنات أفضل منهن ، لكونهن بضعة منه صلى الله عليه وسلم .

وقوله : ﴿ هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا ذُرِّيَّتًا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ ^(٤) .

واعلم أنّه ينضم إليه مع ذلك التشریف ، كقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ ﴾ ^(٥) .

وقوله : ﴿ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ﴾ ^(٦) .

﴿ صُحُفٍ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾ ^(٧) .

وأما قوله : ﴿ أَمْ لَمْ يُلَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى . وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ ^(٨) فإنما

قدّم ذكر موسى لوجهين : أحدهما أنّه في سياق الاحتجاج عليهم بالتّرك وكانت صحف موسى منشورة أكثر انتشاراً من صحف إبراهيم ، وثانيهما مراعاة رموس الآي .

(٢) سورة الحج ٧٥

(٤) سورة الفرقان ٧٤

(٦) سورة الأحزاب ٧

(٨) سورة النجم ٣٦ ، ٣٧

(١) سورة آل عمران ٦٨

(٣) سورة الأحزاب ٥٩

(٥) سورة آل عمران ٣٣

(٧) سورة الأعلى ١٩

وقد ينضم إليه التحقير ، كما في قوله : ﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ ^(١) ؛
تقدم اليهود لأنهم كانوا أسبق من النصارى ، ولأنهم كانوا أقرب إلى المؤمنين بالمجاورة .
وقد لا يلحظ هذا كقوله تعالى : ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مِثَالِهِمْ ﴾ ^(٢)
وقوله : ﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى . وَثَمُودَ فَمَا أَبَقَ ﴾ ^(٣) .

ومن التقديم بالإيجاد تقديم السَّنة على النوم في قوله : ﴿ لَا تَأْخُذْهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ ^(٤)
لأن العادة في البشر أن تأخذ العبد السَّنة قبل النوم ، فجاءت العبارة على حسب
هذه العادة .

ذكره السهيلي وذكر معه وجهها آخر ؛ وهو أنها وردت في معرض التمدح والثناء
وافْتِقَادُ السَّنة أبلغ في التنزيه فبدى بالأفضل ؛ لأنه إذا استحالت عليه السنة فأحرى أن
يستحيل عليه النوم .

ومنه تقديم الظلمة على النور في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ ^(٥) فَإِنَّ
الظلمات سابقة على النور في الإحساس ، وكذلك الظلمة المعنوية سابقة على النور المعنوي ؛
قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ
السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ﴾ ^(٦) ، فانتفاء العلم ظلمة ، وهو متقدم بالزمان على
نور الإدراكات .

ومنه تقديم الليل على النهار : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ﴾ ^(٧) ﴿ سِيرُوا فِيهَا
لَيَالِيَّ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴾ ^(٨) . ﴿ بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ ^(٩) . ﴿ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ

(٢) سورة التكبوت ٣٨

(٤) سورة البقرة ٢٥٥

(٦) سورة النحل ٧٨

(٨) سورة سبأ ١٨

(١) سورة الفاتحة ٧

(٣) سورة النجم ٥٠ ، ٥١

(٥) سورة الأنعام ١

(٧) سورة الإسراء ١٢

(٩) سورة سبأ ٣٣

تُصْبِحُونَ^(١) ، ولذلك اختارت العرب التاريخ بالليالي دون الأيام ؛ وإن كانت الليالي مؤنثة والأيام مذكرة ، وقاعدتهم تغليب المذكر إلا في التاريخ .

فإن قلت : فما تصنع بقوله تعالى : ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ﴾^(٢) .

قلت : استشكل الشيخ أبو محمد بن عبد السلام في قواعده^(٣) بالإجماع على سبق الليلة على اليوم . وأجاب بأن المعنى : تدرك القمر في سلطانه ، وهو الليل ، أى لا تجيء الشمس في [أثناء]^(٤) الليل ، فقوله بعده : ﴿ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾^(٥) ، أى لا يأتى في بعض سلطان الشمس وهو النهار . وبين الجملتين مقابلة .

فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾^(٥) ، مُشْكِلٌ عَلَى هَذَا ؛ لِأَنَّ الْإِبْلَاجَ إِدْخَالَ الشَّيْءِ فِي الشَّيْءِ ، وَهَذَا الْبَحْثُ يَنْفَاهُ .

قلت : المشهور في معنى الآية أن الله يزيد في زمن الشتاء مقداراً من النهار ، ومن النهار في الصيف مقداراً من الليل ؛ وتقدير الكلام : يولج بعض مقدار الليل في النهار ، وبعض مقدار النهار في الليل . وعلى غير المشهور ، يجعل الليل في المكان الذى كان فيه النهار ويجعل النهار في المكان الذى كان فيه الليل ، والتقدير : يولج الليل في مكان النهار ويولج النهار في مكان الليل .

ومنه تقديم المكان على الزمان في قوله : ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ

(١) سورة الروم ١٧

(٢) سورة يس ٤٠

(٣) القواعد الكبرى ، في فروع الشافعية للشيخ عز الدين بن عبد السلام ؛ ذكره صاحب كشف الظنون ، وقال : ليس لأحد مثله . وكثير منه مأخوذ من شعب الإيمان للحليمي ، وله القواعد الصغرى أيضاً .

(٤) تكملة من م

(٥) سورة الحديد ٦

(٦) م : « في » .

وَالنُّورَ^(١) ، أى الليل والنهار ، وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ . وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾^(٢) .

وهذه مسألة مهمة قلّ من تعرّض لها ، أعنى سبق المكان على الزمان ، وقد صرّح بها الإمام أبو جعفر الطبرى فى أول تاريخه ، واحتج^(٣) على ذلك بحديث ابن عباس : إن الله خلق التربة يوم السبت ، وخلق الشمس والقمر ؛ وكان ذلك كلّه ولا ليل ولا نهار ؛ إذا كانا إنما هما أسماء لساعات معلومة من قطع الشمس والقمر [درج الفلك]^(٤) وإذا كان ذلك صحيحاً وأنه لا شمس ولا قمر ، كان معلوماً أنه لا ليل ولا نهار . قال : وحديث أبى هريرة - يعنى فى صحيح مسلم - صريح فيه ؛ فإن فيه : « وخلق [الله]^(٥) النور يوم الأربعاء » ، قال : ويعنى به^(٥) الشمس إن شاء الله .

والحاصل أن تأخر خلق الأيام عن بعض الأشياء المذكورة فى الخبر لازم .

فإن قلت : الحديث كالمصرّح بخلافه ؛ فإنه قال : خلق الله التربة يوم السبت ، حين خلق البرية وهى أول المخلوقات المذكورة ، فلا يمكن أن يكون خلق الأيام كلّها متأخر عن ذلك .

قلت : قد نبّه الطبرى على جواب ذلك بما حاصله : أن الله تعالى سمّى أسماء الأيام قبل خلق التربة ، وخلق الأيام كلّها ، ثم قدر كل يوم مقداراً ، فخلق التربة فى مقدار يوم السبت قبل خلقه يوم السبت ، وكذا الباقي .

وهذا وإن كان خلاف الظاهر لكن أوجه ما قاله الطبرى ؛ من أنه يتعين تأخير خلق الأيام لما ذكرناه من الدليل المستفاد من الخبرين .

والحاصل أن الزمان قسمان : تحقيقى وتقديرى ؛ والمذكور فى الحديث التقديرى .

(٢) سورة الأنبياء ٣٢ ، ٣٣

(٤) من تاريخ الطبرى

(١) سورة الأنعام ١

(٣) تاريخ الطبرى ١ : ١٣

(٥) الطبرى : « يعنى بالنور » .

ومنه قوله تعالى : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴾ ^(١) . ﴿ مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا ﴾ ^(٢) ؛ ولذلك لما استغنى عن أحدها ذكر المشرق فقط ، فقال : ﴿ وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ﴾ ^(٣) . ﴿ إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا ﴾ ^(٤) .

ومنه قوله تعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ ﴾ ^(٥) ، وقوله : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾ ^(٦) . ﴿ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ﴾ ^(٧) .
ويمكن فيه وجوه آخر :

منها أن فيه قهرا للخلق ، والمقام يقتضيه .

ومنها أن حياة الإنسان كلاحياة ، ومآله إلى الموت ، ولا حياة إلا بعد الموت .

ومنها أن الموت تقدم في الوجود ، إذ الإنسان قبل نفخ الروح فيه كان ميتا لعدم الروح . وهذا إن أريد بالموت عدم الوجود ؛ بدليل : ﴿ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ﴾ ، وإن أريد به بعد الوجود ، فالناس يتنازعون في الموت : هل هو أمر وجودي كالحياة أولا ؟

وقيل بالوقف ، فقالت الفلاسفة : الموت عدم الحياة عما من شأنه أن يكون حيا .

والجمهور على أنه أمر وجودي يضاد الحياة ، محتجين بقوله : ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ ﴾ ، والحديث في الإتيان بالموت على صورة كبش وذبحه .

وأجيب عن الآية بأن الخلق بمعنى التقدير ، ولا يجب في المقدّر أن يكون وجوديا ، وعن الثاني بأن ذلك على طريق التمثيل ؛ لبيان انقطاع الموت وثبوت الخلود .

فإن قلنا : عدمي ، فالتقابل بينه وبين الحياة تقابل العدم والمملكة ، وعلى الصحيح تقابل التضاد . وعلى القول بأنه وجودي يجب أن يقال : تقديم الموت الذي هو عدم الوجود ؛

(٢) سورة الأعراف ١٣٧

(٤) سورة الملك ٢

(٦) سورة البقرة ٢٨

(١) سورة الرحمن ١٧

(٣) سورة الصافات ٥ ، ٦

(٥) سورة النجم ٤٤

لكونه سابقاً أو معدوم الحياة ، الذى هو مفارقة الروح البدنى يجوز أن يكون لكونه الغاية التى يساق إليها الإنسان فى دار الدنيا ؛ فهى العلة الغائبة بعدم تحقيقها ، لتحقيقه^(١) فخص العلة العامة كما وقع تأكيده فى قوله : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾^(٢) ، أو ترهيداً فى الدار الآتية ، وترغيباً فيما بعد الموت .

فإن قيل : فما وجه تقدّم « الحياة » فى قوله : ﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ ﴾^(٣) وقوله : ﴿ وَنَحْيَايَ وَتَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾^(٤) ؟

قلنا : إن كان الخطاب لآدم وحواء ، فلأن حياتهما فى الدنيا سبقت الموت ، وإن كان للخلق فالخطاب لمن هو حى يعقبه الموت ، فما التقديم بالترتيب ، وكذا الآية بعده .
فإن قيل : فما وجه تقديم الموت على الحياة فى الحكاية عن منكرى البعث : ﴿ إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾^(٥) ؟

قلت : لأجل مناسبة رموس الآى .

فإن قلت : فما وجه تقدم التوفى على الرفع فى قوله : ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾^(٦)

مع أن الرفع سابق ؟

قيل : فيه جوابان :

أحدهما : المراد بالتوفى النوم ، كقوله تعالى : ﴿ يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ ﴾^(٧) .

وثانيهما : أن التاء فى « مُتَوَفِّيكَ » زائدة ، أى موفيك عملاك .

ومنها سبق إنزال ، كقوله : ﴿ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ ﴾^(٨) . وقوله : ﴿ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴾^(٩) .

(١) الكلام غير واضح فى الأصلين .

(٣) سورة الأعراف ٢٥

(٢) سورة المؤمنون ١٥

(٥) سورة المؤمنون ٣٧

(٤) سورة الأنعام ١٦٢

(٧) سورة الأنعام ٦٠

(٦) سورة آل عمران ٥٥

(٩) سورة الأعراف ١٥٧ .

(٨) سورة آل عمران ٤٣

وأما قوله: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ﴾^(١)، فإنما قدم القرآن مُنبهًا له على فضيلة المنزل إليهم .

ومنها سبق وجوب ، كقوله تعالى: ﴿ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾^(٢) ، وقوله: ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾^(٣) .

فإن قيل : فقد قال : ﴿اسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ .

قيل : يحتمل أنه كان في شريعتهم السجود قبل الركوع ، ويحتمل أن يراد بالركوع ركوع الركعة الثانية .

وقيل : المراد بـ « اركعي » اشكري .

وقيل : أراد بـ « اسجدي » صلى وحدك ، وبـ « اركعي » صلى في جماعة ، ولذلك قال :

﴿ مع الراكعين ﴾ .

ومنها سبق تنزيهه ، كقوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ﴾ ، فبدأ بالرسول قبل المؤمنين ، ثم قال : ﴿كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ﴾ ، فبدأ بالإيمان بالله ؛ لأنه قد يحصل بدليل العقل ، والعقل سابق في الوجود على الشرع ، ثم قال : « وملائكته » مراعاة لإيمان الرسول ، فإنه يتعلق بالملك الذي هو جبريل أولًا ، ثم بالكتاب الذي نزل به جبريل ، ثم بمعرفة نفسه أنه رسول . وإنما عرف نبوة نفسه بعد معرفته بجبريل عليه السلام وإيمانه ، فترتب الذكر المنزل عليه بحسب ذلك ، فظهرت الحكمة والإعجاز ، فقال : ﴿كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ ؛ لأن الملك هو النازل بالكتاب ، وإن كان الكتاب أقدم من الملك ، ولكن رؤية النبي صلى الله عليه وسلم للملك كانت قبل سماعه الكتاب . وأما إيماننا نحن بالعقل . آمنا بالله ، أى

بوجوده ، ولكن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم عرفنا اسمه ووجوب النظر المؤدى إلى معرفته ، فأما بالرسول ثم بالكتاب المنزل عليه ، وبالملك النازل به ، فلو ترتب اللفظ على حسب إيماننا لبدا بالرسول قبل الكتاب ؛ ولكن إنما ترتب على حسب إيمان الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، الذى هو إمام المؤمنين . ذكره السهيلي في أماليه .

وقال غيره : فى هذا الترتيب سرٌ لطيف ، وذلك لأن النور والكمال والرحمة والخير كله مضاف إلى الله تعالى ، والوسائط فى ذلك الملائكة ، والمقابل لتلك الرحمة هم الأنبياء والرسل ، فلا بدّ أولاً من أصل ، وثانياً من وسائط ، وثالثاً من حصول تلك الرحمة ، ورابعاً من وصولها إلى المقابل لها ؛ والأصل المتقاضى للخيرات والرحمة هو الله ، ومن أعظم رحمة رَحِمَ بها عباده إنزالُ كتبه إليهم ، والموصل لها هم الملائكة ، والمقابل لها المنزل عليهم هم الأنبياء ؛ فجاء الترتيب على ذلك بحسب الوقائع .

الثانى

بالذات

كقوله تعالى : ﴿ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۚ ﴾ ^(١) . ونحوه ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَاسِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ ﴾ ^(٢) ، وقوله : ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ ^(٣) وكذلك جميع الأعداد كل مرتبة هى متقدمة على ما فوقها بالذات .

وأما قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أُعْطِكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ ﴾ ^(٤) فوجه تقديم المثنى أن المعنى حُثُّهم على القيام بالنصيحة لله ، وترك الهوى ، مجتمعين متساويين أو منفردين متفكرين . ولا شك أن الأهم حالة الاجتماع فبدأ بها .

(٢) سورة المجادلة ٧

(٤) سورة سبأ ٤٦

(١) سورة النساء ٣

(٣) سورة الكهف ٢٢

الثالث

بالعلة والسببية

كتقديم « العزيز » على « الحكيم » ، لأنه عزّ فحكم ، وتقديم « العليم » على « الحكيم » ، لأن الإتيان ناشئ عن العلم ، وكذا أكثر ما في القرآن من تقديم وصف العلم على الحكمة : ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾^(١) .

ويجوز أن يكون قدم وُصِف العلم هنا ليتصل بما يناسبه ، وهو ﴿ لَا عِلْمَ لَنَا ﴾ ، وفي غيره من نظائره ، لأنه صفات ذات فيكون من القسم قبله .

ومنه قوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾^(٢) ، قدمت العبادة لأنها سبب حصول الإعانة .

وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾^(٣) ؛ فإن التوبة سبب الطهارة .

وكذا : ﴿ وَيَلْزَمُ كُلُّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾^(٤) لأن الإفك سبب الإثم .

وكذا : ﴿ وَمَا يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴾^(٥) .

وقوله : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا . لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْآسَى كَثِيرًا ﴾^(٦) قدم إحياء الأرض ؛ لأنه سبب إحياء الأنعام والأناس ، وقدم إحياء الأنعام ؛ لأنه مما يحيا به الناس ، بأكل لحومها وشرب ألبانها .

(٢) سورة الفاتحة ٥

(٤) سورة الجاثية ٧

(٦) سورة الفرقان ٤٨ ، ٤٩

(١) سورة البقرة ٣٢

(٣) سورة البقرة ٢٢٢

(٥) سورة المطففين ١٢

وكذا كل علة مع معلولها ، كقوله : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ ^(١) ، قيل : قدّم الأموال من باب تقديم السبب ؛ فإنه إنما شرع النكاح عند قدرته على مؤوته ، فهو سبب التزويج ، والتزويج سبب للتناسل ؛ ولأنّ المال سبب للتنعيم بالولد ، وفقده سبب لشقائه .

وكذا تقديم البنات على البنين في قوله تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ﴾ ^(٢) ، وآخر ذكر الذهب والفضة عن النساء والبنين لأنهما أقوى في الشهوة الجبليّة من المال ، فإن الطبع يحث على بذل المال ، فيحصل النكاح ، والنساء أقعد من الأولاد في الشهوة الجبليّة ، والبنون أقعد من الأموال ، والذهب أقعد من الفضة ، والفضة أقعد من الأنعام ؛ إذ هي وسيلة إلى تحصيل النعم ، فلما صُدّرت الآية بذكر الحب ، وكان المحبوب مختلف المراتب ، اقتضت حكمة الترتيب أن يقدّم ما هو الأهم فالأهم ، في رتبة المحبوبات .

وقال الزمخشري في قوله تعالى : ﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ ﴾ ^(٣) ، قدّم ^(٤) الشكر على الإيمان ؛ لأنّ العاقل ينظر [إلى] ^(٥) ما عليه من النعمة العظيمة في خلقه وتعريضه للمنافع ، فيشكر شكرا مبهما ؛ فإذا انتهى به النظر إلى معرفة المنعم آمن به ، ثم شكر شكرا متصلا ^(٦) فكان الشكر متقدما على الإيمان ؛ وكأنه أصل التكليف ومداره . انتهى .

وجعله غيره من عطف الخاص على العام ؛ لأن الإيمان من الشكر ، وخصّ بالذكر لشرفه .

(٢) سورة آل عمران ١٤

(٤) الكشاف ١ : ٤٥١

(٦) الكشاف : « منفصلا » .

(١) سورة الأنفال ٢٨

(٣) سورة النساء ١٤٧

(٥) من الكشاف

الرابع بالمرتبة

كتقديم « سميع » على « عليم » فإنه يقتضى التخويف والتهديد ، فبدأ بالسميع لتعلقه بالأصوات ، وإنَّ مَنْ سَمِعَ حَسَّكَ فَقَدْ يَكُونُ أَقْرَبَ إِلَيْكَ فِي الْعَادَةِ مِمَّنْ يَعْلَمُ ، وإنَّ كَانَ عِلْمُ اللَّهِ تَعْلَقُ بِمَا ظَهَرَ وَمَا بَطَنَ .

وكقوله : ﴿ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ^(١) ، فإن المغفرة سلامة ، والرحمة غنيمة ، والسلامة مطلوبة قبل الغنيمة ؛ وإنما تأخرت في آية سبأ في قوله ، ﴿ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴾ ^(٢) ؛ لأنها منتظمة في سلك تعداد أصناف الخلق من المكلفين وغيرهم ، وهو قوله : ﴿ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴾ ^(٣) ، فالرحمة شملتهم جميعا ، والمغفرة تخصّ بعضا ، والعموم قبل الخصوص بالرتبة .

وقوله تعالى : ﴿ هَمَّازٍ مَشَاءٍ بِنَمِيمٍ ﴾ ^(٤) فإن الهمّاز هو المغتاب ؛ وذلك لا يفتقر إلى شيء بخلاف النميّة .

وقوله : ﴿ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ ﴾ ^(٥) فإنّ الغالب أنّ الذين يأتون رجالا من مكان قريب ، والذين يأتون على الضامر من البعيد . ويحتمل أن يكون من التقديم بالشرف ؛ لأنّ الأجر في المشي مضاعف .

وأما قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فِرْجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ﴾ ^(٥) مع أنّ الركب متمكن من الصلاة أكثر من الماشي ، فغيره له في باب الرخصة .

(١) سورة البقرة ١٧٣ وآيات كثيرة .

(٢) سورة القلم ١١

(٣) سورة سبأ ٢

(٤) سورة البقرة ٢٣٩

(٥) سورة الحج ٢٧

ومنه قوله تعالى : ﴿ أَنْ طَهَّرْنَا بَيْتَكَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعَ السُّجُودَ ﴾ ^(١) ،
 فقدّم الطائفين لقربهم من البيت ؛ ثم ثنى بالقائمين وهم العاكفون ؛ لأنهم يخصصون موضعاً
 بالعكوف والطواف بخلافه فكان أعمّ منه ، والأعم قبل الأخصّ ، ثم ثلث بالركوع ،
 لأنّ الركوع لا يلزم أن يكون في البيت ^(٢) ولا عنده .
 ثم في هذه الآية ثلاثة أسئلة :

الأول : كيف جمع الطائفين والقائمين جمع سلامة ، والركع جمع تكسير ؟ والجواب أنّ
 جمع السلامة أقرب إلى لفظ الفعل ، فطائفون بمنزلة يطوفون ، ففي لفظه إشعار بصلة التطهير ،
 وهو حدوث الطواف وتجدّده ، ولو قال : بالطواف لم يفد ذلك ، لأنّ لفظ المصدر يخفى
 ذلك ؛ وكذا القول في القائمين ، وأمّا الراكعون فلمّا سبق أنّه لا يلزم كونه في البيت
 ولا عنده ؛ فهذا لم يجمع جمع سلامة ؛ إذ لا يحتاج فيه إلى بيان الفعل الباعث على التطهير ،
 كما احتيج فيما قبله .

الثاني : كيف وصف الركع بالسجود ، ولم يعطف بالواو ؟

والجواب ، لأنّ الركع هم السجود ، والشئ لا يعطف على نفسه ؛ لأنّ السجود
 يكون عبارة عن المصدر ، وهو هنا عبارة عن الجمع ، فلو عطف بالواو لأوهم إرادة
 المصدر دون اسم الفاعل ؛ لأنّ الراكع إن لم يسجد فليس براكع شرعاً ، ولو عطف
 بالواو لأوهم أنه مستقلّ ، كالذي قبله .

الثالث : هلا قيل : السجّد كما قيل الركع ، وكما جاء في آية أخرى : ﴿ تَرَاهُمْ رُكَّعًا
 سُجَّدًا ﴾ ^(٣) ، والركوع قبل السجود ! والجواب أنّ السجود يُطلق على وضع الجبهة
 بالأرض وعلى الخشوع ، فلو قال : السجّد ، لم يتناول إلا المعنى الظاهر ، ومنه : ﴿ تَرَاهُمْ

(٢) ت : « بالبيت » .

(١) سورة البقرة ١٢٥

(٣) سورة الفتح ٢٩

رُكْمًا سُجَّدًا ﴿١﴾ ، وهو من رؤية العين ، ورؤية العين لا تتعلق إلا بالظاهر ، فقصد بذلك الرمز إلى السجود المعنوي والصوري ؛ بخلاف الركوع ، فإنه ظاهر في أعمال الظاهر التي يشترط فيها البيت كما في الطواف والقيام المتقدم ، دون أعمال القلب ، فجعل السجود وصفاً للركوع وتتميمه له ؛ لأن الخشوع روح الصلاة وسرّها الذي شرعت له .

الخامس

بالداعية

كتقدم الأمر بغضّ الأبصار على حفظ الفرج في قوله تعالى : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَنْفُضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ﴾ ^(١) ، لأن البصر داعية إلى الفرج ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « العينان تزنيان والفرج يصدق ذلك أو يكذبه » .

السادس

التعظيم

كقوله : ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴾ ^(٢) .
وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ﴾ ^(٣) .
﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ ﴾ ^(٤) .
﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ^(٥) .

(٢) سورة النساء ٦٩
(٤) سورة آل عمران ١٨

(١) سورة النور ٣٠
(٣) سورة الأحزاب ٥٦
(٥) سورة المائدة ٥٥

السابع

الشرف وهو أنواع

منها شرف الرسالة، كقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ﴾ ^(١) ،
فإن الرسول أفضل من النبي ؛ خلافا لابن عبد السلام .

وقوله : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ ﴾ ^(٢) . ﴿ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴾ ^(٣) .
ومنها شرف الذكورة :

كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ﴾ ^(٤) .

وقوله : ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى ﴾ ^(٥) .

وقوله : ﴿ رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾ ^(٦) .

وأما تقديم الإناث في قوله تعالى : ﴿ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاءً ﴾ ^(٧) ، فلجبرهن ، إذ هن
موضع الانكسار، ولهذا جبر الذكور بالتعريف، للإشارة إلى ما فاتهم من فضيلة التقديم .
ويُحْتَمَلُ أَنْ تَقْدِيمُ الْإِنَاثِ، لَأَنَّ الْمَقْصُودَ بَيَانُ أَنَّ الْخَلْقَ كُلَّهُ بِمَشِئَةِ اللَّهِ تَعَالَى، لَا عَلَى وَفْقِ
غرض العباد .

ومنها شرف الحرية ، كقوله تعالى : ﴿ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ ﴾ ^(٨) ، ومن الغريب
حكاية بعضهم قولين في أن الحرّ أشرف من العبد أم لا ، حكاه القرطبي ، في تفسير سورة
النساء فليُنظر فيه .

(٢) سورة الأعراف ١٥٧

(٤) سورة الأحزاب ٣٥

(٦) سورة النساء ١

(٨) سورة البقرة ١٧٨

(١) سورة الحج ٥٢

(٣) سورة مريم ٥٤

(٥) سورة النجم ٢١

(٧) سورة الشورى ٤٩

ومنها شرف العقل ، كقوله تعالى : ﴿ يَسْبَحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَاتٍ ﴾ ^(١) .

وقوله : ﴿ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنعَامِكُمْ ﴾ ^(٢) .

وأما تقديم الأنعام عليهم في قوله : ﴿ تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ ﴾ ^(٣) ، فمن باب تقديم السَّبَب ، وقد سبق .

ومنها شرف الإيمان ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلَتْ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا ﴾ ^(٤) ، وكذلك تقديم المسلمين على الكافرين في كل موضع ، والطائع على العاصي ، وأصحاب اليمين عن أصحاب الشمال .

ومنها شرف العلم ، كقوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ^(٥) .

ومنها شرف الحياة ، كقوله تعالى : ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ ^(٦) .

وقوله : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ﴾ ^(٧) . وأما تقديم الموت في قوله تعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ ﴾ ^(٨) ، فمن تقدّم السبق بالوجود ، وقد سبق . ومنها شرف المعلوم ؛ نحو : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ ^(٩) ، فإن علم الغيبات أشرف من المشاهدات .

ومنه : ﴿ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ ﴾ ^(١٠) . ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ ^(١١) ،

(٢) سورة النازعات ٣٣

(٤) سورة الأعراف ٨٧

(٦) سورة الروم ١٩

(٨) سورة الملك ٢

(١٠) سورة الأنعام ٦

(١) سورة النور ٤١

(٣) سورة السجدة ٢٧

(٥) سورة الزمر ٩

(٧) سورة فاطر ٢٢

(٩) سورة المؤمنون ٩٢

(١١) سورة التباين ٤

وأما قوله : ﴿ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ ^(١) ، أى من السرّ ، فعن ابن عباس وغيره : السرّ : ما أمررت في نفسك ، وأخفى منه ما لم تحدث به نفسك ، مما يكون في عَدَةِ علم الله فيهما سواء ، ولا شك أن الآتى أبلغ ، وفيه وجهان :

أحدهما : أنه أفل تفضيل يستدعى مفضلاً عليه ، علم حتى يتحقق في نفسه ، فيكون حينئذ تقديم السرّ من النوع الأول .

وثانيهما : مراعاة رموس الآى .

ومنها شرف الإدراك ، كتقديم السَّمْع على البصر ، والسميع على البصير ؛ لأنّ السمع أشرفُ على أرجح القولين عند جماعة ، وقدم القلب عليهما في قوله تعالى : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ﴾ ^(٢) ، لأن الحواسّ خدّمة القلب ، وموصّلة إليه ؛ وهو المقصود ؛ وأما قوله : ﴿ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ ﴾ ^(٣) ، فأخر الآية فيا ، لأن العناية هناك بآم المتصاممين عن اللاح ، الذين كانوا يوازن القطن في آذانهم حتى لا يسمعوا ، ولهذا صدرت السورة بذكرهم في قوله : ﴿ وَيَلْ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ . يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾ ^(٤) .

ومنها شرف المجازاة ، كقوله : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ ﴾ ^(٥) .

ومنها شرف العموم ؛ فإنّ العامّ أشرف من الخاص ، كتقديم العفوّ على الغفور ؛ أى عفوّ عمّا لم يؤخذنا به مما نستحقّه بذنوبنا ، غفور لما واخذنا به في الدنيا ، قبلنا ورجعنا إليه ؛ فتقدم العفوّ على الغفور ، لأنه أعمّ ، وأخّرت المغفرة لأنها أخصّ .

(٢) سورة البقرة ٧

(٤) سورة الجاثية ٨٠، ٧

(١) سورة طه ٧

(٣) سورة الجاثية ٢٣

(٥) سورة الأنعام ١٦٠

ومنها شرف الإباحة للإذن بها ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ ﴾ ^(١) ، وإنما تقديم الحرام في قوله : ﴿ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا ﴾ ^(٢) فللزيادة في التشنيع عليهم ، أو لأجل السياق ؛ لأن قبله : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا ﴾ ^(٣) . ثم ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ ﴾ ^(٤) .

ومنها الشرف بالفضيلة ، كقوله تعالى : ﴿ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ﴾ ^(٥) .

وقوله : ﴿ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ ﴾ ^(٦) .

وقوله : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ... ﴾ ^(٧) الآية .

وقوله : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ ﴾ ^(٨) .

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ ^(٩) .

وقوله : ﴿ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ ^(١٠) في الأعراف والشعراء ، فإن موسى استأثر

باصطفائه تعالى له بتكليمه ، وكونه من أولى العزم .

فإن قلت : فقد جاء هارون وموسى في سورة طه بتقديم هارون ؟

قلنا : لتناسب رهوس الآي .

ومنه تقديم جبريل على ميكائيل في قوله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ

وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ ﴾ ^(١١) لأن جبريل صاحب الوحي والعلم ، وميكائيل

(٢) سورة يونس ٥٩

(٤) سورة البقرة ١٧٣

(٦) سورة الأحزاب ٧

(٨) سورة الأنبياء ٤٨

(١٠) سورة الأعراف ١٢٢ ، والشعراء ٤٨

(١) سورة النحل ١١٦

(٣) سورة النحل ١١٤

(٥) سورة النساء ٢٣

(٧) سورة الفتح ٦٩

(٩) سورة يونس ٧٥

(١١) سورة البقرة ٩٨

صاحب الأرزاق ، والخيرات النفسانية أفضل من الخيرات الجسمانية .

ومنه تقديم المهاجرين في قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ﴾ ^(١) .

وقوله : ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ﴾ ^(٢) ، ويدل على فضيلة الهجرة قوله صلى الله عليه وسلم : « لولا الهجرة لكنت امرأاً من الأنصار » ، وبآية احتج الصديق على تفضيلهم وتعيين الإمامة فيهم .

ومنه قوله : ﴿ صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ ^(٣) ، فإن الصلاة أفضل من السلام .

وقوله : ﴿ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ ﴾ ^(٤) ، قدم القريب لأن الصدقة عليه أفضل من الأجنبي .

ومنه تقديم الوجه في قوله تعالى : ﴿ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ ﴾ ^(٥) .

وتقديم اليمين على الشمال في نحو : ﴿ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ ﴾ ^(٦) ، ﴿ عَنْ الْيَمِينِ وَعَنْ الشِّمَالِ ﴾ ^(٧) .

ومنه تقديم الأنفس على الأموال في قوله تعالى : ﴿ إِنْ اللَّهُ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ﴾ ^(٨) . وأما تقديم الأموال في سورة الأنفال في قوله : ﴿ وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ^(٩) ، فوجه التقديم أن الجهاد يستدعى تقديم إنفاق الأموال ، فهو من باب السبق بالسببية .

ومنه : ﴿ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ ﴾ ^(١٠) ، فإن الحلق أفضل من التقصير .

(٢) سورة التوبة ١٠٠

(٤) سورة البقرة ١٧٧

(٦) سورة سبأ ١٥

(٨) سورة التوبة ١١١

(١٠) سورة الفتح ٢٧

(١) سورة التوبة ١١٧

(٣) سورة الأحزاب ٥٦

(٥) سورة المائدة ٦

(٧) سورة المارج ٣٧

(٩) سورة الأنفال ٧٢

ومنه تقديمُ السَّمَوَاتِ على الأرض كقوله: ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾^(١)، وهو كثير ، وكذلك كثيرا ما يقع « السموات » بلفظ الجمع ، و « الأرض » لم تقع إلا مفردة .

وأما تأخيرها عنها في قوله: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾^(٢) ؛ فلا نه لما ذكر المخاطبين ، وهو قوله: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾^(٣) ، وهو خطاب لأهل الأرض ، وعملهم يكون في الأرض ؛ وهذا بخلاف الآية التي في سبأ ؛ فإنها منتظمة في سياق علم الغيب .

وكذلك قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾^(٤) .
وأما تأخيرها عنها في قوله: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾^(٥) ؛ فلا ن الآية في سياق الوعد والوعيد ؛ وإنما هو لأهل الأرض .
وكذا قوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾^(٦) .

ومنه تقديم الإنسان على الجن في قوله: ﴿قُلْ لِّنَّ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ...﴾^(٧) الآية .
وقوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾^(٨) .
وقوله: ﴿لَمْ يَطْمِئِنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾^(٩) .
وقوله: ﴿وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾^(١٠) .

(٢) سورة يونس ٦١

(٤) سورة الزمر ٦٧

(٦) سورة الإسراء ٨٨

(٨) سورة الرحمن ٥٦

(١) سورة الفسكوت ٤٤

(٣) سورة آل عمران ٥

(٥) سورة إبراهيم ١٨

(٧) سورة الرحمن ٣٩

(٩) سورة الجن ٥

وقوله : ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ . وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ ﴾ ^(١) .

وأما تقديم الجن في مواضع آخر ، كقوله : ﴿ يَمْشِرُ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ ﴾ ^(٢) ؛ فلا نهم أقدم في الخلق ، فيكون من النوع ^(٣) الأول - أعنى التقديم بالزمان - ولهذا لما أخرج في آية الحجر صرح بالقبلية بذكر خلق الإنسان ، ثم قال : ﴿ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ ^(٤) .

ويجوز أن يكون في الأمثلة السالفة من باب تقديم الأعجب ؛ لأن خلقها أغرب ، كقوله تعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ ﴾ ^(٥) .

أو لأنهم أقوى أجساماً ، وأعظم أقداماً ؛ ولهذا قدموا في : ﴿ يَمْشِرُ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنْ أَسْتَطَقْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ^(٦) ، وفي : ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ ﴾ ^(٧) .

ومنه تقديم السجدة على الراكعين في قوله : ﴿ وَلَسْجُودِي وَأَزْكِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ ^(٨) وسبق فيه شيء آخر .

ومنه تقديم الخليل على البغال ، والبغال على الخير في قوله تعالى : ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا ﴾ ^(٩) .

ومنه تقديم الذهب على الفضة في قوله : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ ﴾ ^(١٠) .

(٢) سورة الأنعام ١٣٠

(١) سورة الرحمن ١٤ ، ١٥

(٣) سبق الكلام عليه في ص ٢٣٩ من هذا الجزء (٤) سورة الحجر ٢٧

(٦) سورة الرحمن ٣٣

(٥) سورة النور ٤٥

(٨) سورة آل عمران ٤٣

(٧) سورة النمل ١٧

(١٠) سورة التوبة ٣٤

(٩) في سورة النحل ٨

فإن قلت : فهل يجوز أن يكون من تقديم المذكر على المؤنث ؟

قلت : هيئات ، الذهب أيضاً مؤنث ، ولهذا يصغر على ذهبية كـ « قَدَم » .

ومنه تقديم الصوف في قوله : ﴿ وَمِنْ أَضْوَاهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا ﴾^(١) ؛ ولهذا

احتج به بعض الصوفية على اختيار لبس الصوف على غيره من الملابس ؛ وأنه شعار الملائكة

في قوله : ﴿ مُسَوِّمِينَ ﴾^(٢) قيل : سيّاهم يومئذ الصوف . وعن عليّ : الصوف الأبيض ؛

رواه أبو نعيم في مدح الصوف ، وقال : إنه شعار الأنبياء . وقال ابن مسعود : كانت الأنبياء

قبلكم يلبسون الصوف ؛ وفي الصحيح في موسى عليه السلام : « عليه غبابة » .

ومنه تقديم الشمس على القمر في قوله تعالى : ﴿ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾^(٣) ، وقوله :

﴿ وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴾^(٤) ، ولهذا قال تعالى : ﴿ جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً

وَالْقَمَرَ نُورًا ﴾^(٥) ؛ والحكماء يقولون : إن نور القمر مستمدّ من نور الشمس ، قال الشاعر :

بِأَمْفَرَدَا بِالْحُسْنِ وَالشَّكْلِ مَنْ دَلَّ عَيْنَيْكَ عَلَى قَتْلِي

الْبَدْرُ مِنْ شَمْسِ الضُّحَى نُورُهُ وَالشَّمْسُ مِنْ نُورِكَ تَسْتَمْلِي

وأما قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا . وَجَعَلَ الْقَمَرَ

فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ﴾^(٦) فيحتمل وجهين : مناسبة رموس الآي أو أن انتفاع

أهل السموات به أكثر ، قال ابن الأنباري : يقال : إن القمر وجهه يضيء لأهل الشمس ،

(١) سورة النحل ٨٠

(٢) سورة آل عمران ١٢٥ من قوله تعالى : ﴿ يُمَدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنْ

الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ .

(٣) سورة الحج ١٨ من قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ

فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ . . . ﴾ . (٤) سورة الفرقان ٦١

(٥) سورة يونس ٥

(٦) سورة نوح ١٥ ، ١٦

وظهره إلى الأرض ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فِيمَنْ ﴾ لما كان أكثر نوره يضيء إلى أهل السماء .

الثامن

الغلبة والكثرة

كقوله تعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُاذِنُ اللَّهُ ﴾ ^(١) ، قدم الظالم لكثرتة ، ثم المقتصد ، ثم السابق .

وقوله : ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ ^(٢) .

﴿ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ﴾ ^(٣) .

﴿ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ ﴾ ^(٤) .

وجعل منه الزمخشرى : ﴿ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ ﴾ ^(٥) يعنى بدليل قوله :

﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ ^(٦) وحديث بعث النار .

وأما قوله : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ ^(٧) ، قدم ذكر العذاب

لكون الكلام مع اليهود الذين كفروا بعبسى وراموا قتله .

وجعل من هذا النوع قوله تعالى : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ ﴾ ^(٨) ؛ لأن السرقة

في الذكور أكثر .

وقدم في الزنى المرأة في قوله : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي ﴾ ^(٩) لأن الزنى فيهن أكثر . وأما قوله :

(٢) سورة هود ١٠٥

(٤) سورة النور ٢٦

(٦) سورة يوسف ١٠٣ ؛ وانظر الكشاف : ٤٣٧

(٨) سورة المائدة ٢٨

(١) سورة فاطر ٣٢

(٣) سورة آل عمران ١٥٢

(٥) سورة التفاضل ٢

(٧) سورة آل عمران ٥٦

(٩) سورة النور ٢ .

﴿الرَّائِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾^(١) ،
 فقال الزمخشري : سبقت الآية التي قبلها لعقوبتهما على ما جئنا ؛ والمرأة هي المادة التي نشأت منها
 الخيانة^(٢) ؛ لأنها لو لم تُطمع الرجل ، [ولم تومض له]^(٣) وتمكّنه لم يطمع ولم يتمكن ،
 فلما كانت أصلاً وأولاً في ذلك بدأ بذكرها ، وأما الثانية فسوقة لذكر النكاح ، والرجل
 أصل ، [فيه]^(٤) لأنه هو الراغب والمخاطب ، ومنه يبدأ الطلب^(٥) .

ومنه قوله تعالى : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ﴾^(٦) ، قال
 الزمخشري : قدم غضّ البصر ؛ لأن النظر يريد الزنى ، ورائد الفجور ، والبلى به أشدّ
 وأكثر ، ولا يكاد يُقدّر على الاحتباس منه^(٧) .

ومنه تقديم الرحمة على العذاب حيث وقع في القرآن ، ولهذا ورد : « إن رحمتي
 غلبت غضبي » .

وأما تقديم التعذيب على المغفرة في آية المائدة^(٨) فللسياق .

ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ ﴾^(٩) ، قال
 ابن الحاجب في أماليه : إنَّما قدم الأزواج لأن المقصود الإخبار أن فيهم أعداء ، ووقوع
 ذلك في الأزواج أقدم منه في الأولاد ؛ فكان أقعد في المعنى المراد فقُدّم ، ولذلك قدمت
 الأموال في قوله : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾^(١٠) ، لأن الأموال لا تكاد
 تفارقها الفتنة : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ ﴾^(١١) . ﴿ أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا
 فِيهَا ﴾^(١٢) ، وليست الأولاد في استلزام الفتنة مثلها ، وكان تقدّمها أولى .

(٢) الكشاف : « الجناية »

(٤) الكشاف ٣ : ١٦٨

(٦) الكشاف ٣ : ١٨١

(٨) سورة التافين ١٤

(١٠) سورة العلق ٦ ، ٧

(١) سورة النور ٣

(٣) من الكشاف

(٥) سورة النور ٣٠

(٧) وهو قوله تعالى في الآية ١١٨ : ﴿ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ

أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

(٩) سورة التافين ١٥

(١١) سورة الإسراء ١٦

التاسع

سبق ما يقتضى تقديمه

وهو دلالة السياق ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تَرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ ^(١) ؛ لما كان إسراحها وهى رخاص ، وإراحها وهى بطن ، قدم الإراحة لأن الجمال بها حينئذ أخفر .

وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَاهَا وَأُبْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ ^(٢) ، لأن السياق فى ذكر مريم فى قوله : ﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ ^(٣) ، ولعلك قدم الابن فى غير هذا المكان ، قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً ﴾ ^(٤) .

وقوله : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ ^(٥) ؛ فإنه قدّم الحكم مع أن العلم لا بدّ من سبقه للحكم ؛ ولكن لما كان السياق فى الحكم قدّمه ، قال تعالى : ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴾ ^(٦) ويحتمل أن المراد بالحكم الحكمة ، وبها فسر الزمخشري قوله تعالى فى سورة يوسف : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ ^(٧) ؛ وأما تقديم الحكيم على العليم فى سورة الأنعام ^(٨) ؛ فلا أنه مقام تشريع الأحكام ، وأما فى أول سورة يوسف فقدّم العليم على الحكيم ^(٩) ، لقوله فى آخرها : ﴿ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ .

(٢) سورة الأنبياء ٩١

(١) سورة النحل ٦

(٤) سورة الأنبياء ٧٩

(٣) سورة المؤمنون ٥٠

(٦) سورة يوسف ٢٢

(٥) سورة الأنبياء ٧٨

(٧) وهو قوله تعالى فى آية ٨٣ : ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ .

(٨) وهو قوله تعالى فى آية ٦ : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

ومنه تقديم المحو على الإثبات في قوله : ﴿ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ ﴾ ^(١) ، فإن قبله : ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ ^(٢) . ويمكن أن يقال : ما يقع عليه المحو أقل مما يقع عليه غيره ، ولا سيما على قراءة تشديد « يُثَبِّتُ » ؛ فإنها ناصئة على الكثرة ، والمراد به الاستمرار لا الاستئناف .

وقوله : ﴿ وَيَمْحُو اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ﴾ ^(٣) .
ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا ﴾ ^(٤) ، قدم « رسلا » هنا على « مِنْ قَبْلِكَ » وفي غير هذه ^(٥) بالعكس ؛ لأن السياق هنا في الرسل .
ومنه قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ ﴾ ^(٦) ، قدم القبض لأن قبله ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا فَيَضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ ^(٧) ، وكان هذا بسطا ، فلا يناسب تلاوة البسط ، فقدم القبض لهذا ، وللترغيب في الإنفاق ؛ لأن الممتع منه سببه خوف القلة ، فبين أن هذا لا ينجيه ، فإن القبض مقدر ولا بد .

العاشر

مراعاة اشتقاق اللفظ

كقوله : ﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾ ^(١) .
﴿ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ ^(٢) .
﴿ يُنَبِّئُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ ^(٣) .

(١) سورة الرعد ٣٨

(٢) سورة الرعد ٣٩

(٣) سورة الشورى ٢٤

(٤) وهو قوله تعالى في سورة الروم ٤٧ : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ ﴾ .

(٥) سورة الدثر ٣٧

(٦) سورة البقرة ٢٤٥

(٧) سورة القيامة ١٣

(٨) سورة الانقطار ٥

﴿ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ . إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ ^(١)
 ﴿ ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ . وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴾ ^(٢) .

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴾ ^(٣) .

وأما قوله : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ ^(٤) ، فقدّم
 نفى التأخير ؛ لأنه الأصل في الكلام ، وإنما ذكر التقدم مع عدم إمكان التقدم ، نفياً
 لأطراف الكلام كله .

وكقوله : ﴿ إِنَّهُ هُوَ يَبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴾ ^(٥) .

وقوله : ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ ^(٦) .

﴿ اللَّهُ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ﴾ ^(٧) .

﴿ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ ﴾ ^(٨) .

وقوله : ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ ﴾ ^(٩) .

﴿ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ ^(١٠) .

فإن قلت قد جاء : ﴿ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴾ ^(١١) . ﴿ أُمٌ لِلْإِنْسَانِ

مَا تَمَنَّى . فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ ﴾ ^(١٢) .

قلت : لمناسبة رموس الآي .

(٢) سورة الواقعة ٣٩ ، ٤٠

(٤) سورة النحل ٦١

(٦) سورة الأعراف ٢٩

(٨) سورة القصص ٧٠

(١٠) سورة البقرة ٢٢٠

(١٣) سورة النجم ٢٤ ، ٢٥

(١) سورة الواقعة ٤٩ ، ٤٠

(٣) سورة الحجر ٢٤

(٥) سورة البروج ١٣

(٧) سورة الروم ٤

(٩) سورة الحديد ٣

(١١) سورة التازعات ٣٥

ومثله : ﴿ هَذَا يَوْمُ الْفَضْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴾ ^(١) ، ولأن الخطاب لهم ، فقدّموا .

الحادى عشر

للحث عليه خيفة من التهاون به

كتقديم تنفيذ الوصية على وفاء الدين ، فى قوله : ﴿ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِيُ بِهَا أَوْ دِينَ ﴾ ^(٢) ، فإن وفاء الدين سابق على الوصية ، لكن قدّم الوصية ، لأنهم كانوا يتساهلون بتأخيرها ، بخلاف الدين .

ونظيره : ﴿ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاءًا ﴾ ^(٣) ، قدم الإناء حثًا على الإحسان إليهم .

وقال السهلبى فى " التناجى " ^(٤) : إنما قدمت الوصية لوجهين :

أحدهما : أنها قرينة إلى الله تعالى ، بخلاف الدين الذى تعوّد الرسل منه ، فبدى بها للفضل .

والثانى : أن الوصية للميت ، والدين لغيره ، ونفسك قبل نفس غيرك ، تقول : هذا لى وهذا لغيرى ، ولا تقول فى فصيح الكلام هذا لغيرى وهذا لى .

الثانى عشر

لتحقق ما بعده واستغنائه هو عنه فى تصوّره

كقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ ^(٥) .

(١) سورة المرسلات ٣٨

(٢) سورة النساء ١١

(٣) سورة الشورى ٤٩

(٤) نتائج الفكر فى علل النحو ؛ ذكر فيه أن الإعراب

مرقاة إلى علوم الكتاب ، ورتبه على ترتيب أبواب الجمل . قاله صاحب كشف الظنون .

(٥) سورة مريم ٩٦

وقوله : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ ^(١) .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا ﴾ ^(٢) .

الثالث عشر

الاهتمام عند المخاطب

كقوله : ﴿ فَخَيِّتُوا بِأَحْسَنِ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴾ ^(٣) .

ونظيره قوله عليه السلام : « وأن تقرأ السلام على من عرفته ومن لم تعرفه » .

وقوله : ﴿ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ ﴾ ^(٤) لفضل الصدقة على القريب .

وكقوله : ﴿ وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٌ ﴾ ^(٥) .

وقوله : ﴿ وَدِيَّةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ ﴾ ^(٥) ، فقدم الكفارة على الدية ، وعكس في قتل

المعاهد حيث قال : ﴿ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ﴾ ^(٥) .

قال الماوردي في " الحاوي " ^(٦) : ووجهه أن المسلم يرى تقديم حق الله على نفسه

والكافر يرى تقديم نفسه على حق الله ، قال : وقال ابن أبي هريرة ^(٧) : إنما خالف بينهما

ولم يجعلهما على نسق واحد ؛ لئلا يلحق بهما ما بينهما من قتل المؤمن في دار الحرب ، في

قوله : ﴿ فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ ^(٥) ، فضم إليه

الدية إلحاقاً بأحد الطرفين ، فأزال هذا الاحتمال باختلاف اللفظين .

(٢) سورة الأعراف ١٥٣

(٤) سورة الأنفال ٤١

(١) سورة فصلت ٣٣

(٣) سورة النساء ٨٦

(٥) سورة النساء ٩٢

(٦) الحاوي الكبير في الفروع للقاضي أبي الحسن علي بن محمد الماوردي البصري الشافعي المتوفى سنة

٤٥٠ هـ ، ذكره صاحب كشف الظنون . وقال : « وهو كتاب عظيم في عشرة مجلدات . ويقال : إنه

ثلاثون مجلداً لم يؤلف في المذهب مثله » .

(٧) هو أبو علي الحسن بن الحسين الشافعي ، عرف بابن أبي هريرة ، شرح مختصر المزني ؛ ومات

سنة ٣٤٥ هـ . طبقات الشافعية ٢ : ٢٠٦ .

وقال الفقيه نجم الدين بن الرقعة^(١) : يحتمل أن يقال : إنه لما كان الكفر يَهْدِرُ الدماء وهو موجود ، كان الغاية ببذل الدم عند العصمة لأجل الميثاق أتم ، لأنه يُفْمَضُ حُكْمُهُ ، فلذلك قدمت الدية فيه ، وأُخِرَتِ الكفارة ، لأن حكمها قد سبق . ولما كانت عصمة المسلم ثابتة ، وقياس الأصول أنه لا تجب الكفارة في قتل الخطأ ، لأنه لا إثم فيه ، خصوصاً على المسلمين لرفع القلم عن الخطأ ، كانت العناية بذكر الكفارة فيه أتم ؛ لأنها التي تعمض ، فقدّمت .

ومن هذا النوع قوله تعالى : ﴿ فَاتَّبِعْ سَبِيلًا . حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ ﴾^(٢) قيل : لماذا بدأ بالمغرب قبل المشرق ، وكان مسكن ذى القرنين من ناحية المشرق ؟ قيل : لقصد الاهتمام ، إما لتمرّد أهل وكثرة طغيانهم في ذلك الوقت ، أو غير ذلك مما لم ينته إلينا علمه . ومن هذا أن تأخر المقصود بالمدح والذم أوّلَى مِنْ تقدّمه ؛ كقوله : نعم الرجل زيد ، أحسن من قولك : زيد نعم الرجل ، لأنهم يقدّمون الأهم ، وهم في هذا بذكر المدح والذم أتم . فأما تقديمه في قوله تعالى : ﴿ نَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾^(٣) فإن المدح هنا بـ « نعم العبد » هو سليمان عليه السلام ، وقد تقدم ذكره . وكذلك أيوب في الآية الأخرى والخصوص بالمدح في الآيتين ضمير سليمان وأيوب ، وتقديره : نعم العبد هو إنه أواب .

الرابع عشر

للتنبية على أنه مطلق لا مقيد

كقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ ﴾^(٤) ، على القول بأن « الله » في موضع المفعول الثانى لـ « جعل » ، و« شركاء » مفعول أول ، ويكون « الجن » في كلام ثان مقدر ،

(١) هو أحمد بن محمد بن علي ، المعروف بابن الرقعة إمام الشافعية في عصره . وانظر ترجمته في طبقات

(٢) سورة الكهف ٨٥ ، ٨٦

الشافعية ٥ : ١٧٧ - ١٧٨

(٤) سورة الأنعام ١٠٠

(٣) سورة ص ٣٠ ، ٤٤

كأنه قيل : فن جعلوا شركاء ؟ قيل : الجن ؛ وهذا يقتضى وقوع الإنكار على جعلهم « الله شركاء » على الإطلاق ، فيدخل مشرّكة غير الجن ، ولو أُخّرَ ققيل : وجعلوا الجن شركاء لله ، كان الجن مفعولاً أولاً ، وشركاء ثانياً ، فتكون الشرّكة مقيدة غير مطلقة ؛ لأنه جرى على الجن ، فيكون الإنكار توجه لجل المشاركة للجن خاصة ، وليس كذلك ، وفيه زيادة سبقت .

الخامس عشر

للتنبية على أن السبب مرتب

كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُنْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فُتُكُوىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ﴾ ^(١) قدّم الجباه ثم الجنوب ؛ لأن مانع الصدقة في الدنيا كان يصرف وجهه أولاً عن السائل ، ثم ينوء بجانبه ، ثم يتولى بظهره .

السادس عشر

التنقل

وهو أنواع : إما من الأقرب إلى الأبعد ، كقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ﴾ ^(٢) قدم ذكر المخاطبين على من قبلهم ، وقدم الأرض على السماء . وكذلك قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ ^(٣) ، لقصد الترقى .

(٢) سورة البقرة ٢١ ، ٢٢

(١) سورة التوبة ٣٥

(٣) سورة آل عمران •

- وقوله : ﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ ^(١) .
 وإما بالعكس كقوله في أول الجاثية : ﴿ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ . وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ ﴾ ^(٢) .
 وإما من الأعلى ، كقوله : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ ^(٣) .
 وقوله : ﴿ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ ﴾ ^(٤) .
 وإما من الأدنى ، كقوله : ﴿ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً ﴾ ^(٥) .
 وقوله : ﴿ مَالٍ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً ﴾ ^(٦) .
 وقوله : ﴿ لَا تَأْخُذْهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ ^(٧) .

فإن قلت : لم لا اكتفى بنبي الأدنى ، ليعلم منه نبيُّ الأعلى بطريق الأولى؟ قلت : يعلم جوابه مما سبق من التقديم بالزمان .

- وكقوله : ﴿ وَلَا يَرْتَابِ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ ... ﴾ ^(٨) الآية ،
 وبهذا يتبين فساد استدلال المعتزلة على تفضيل الملك على البشر بقوله : ﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ ﴾ ^(٩) فإنهم زعموا أن سياقها يقتضى الترقى من الأدنى إلى الأعلى ، إذ لا يحسن أن يقال : لا يستنكف فلان عن خدمتك ، ولا مَنْ دونه بل ولا من فوقه .

وجوابه أن هؤلاء لما عبدوا المسيح ، واعتقدوا فيه الولدانية لما فيه من القدرة على الخوارق

(٢) سورة الجاثية ٣ ، ٤

(٤) سورة هود ٤٩

(٦) سورة الكهف ٤٩

(٨) سورة المدثر ٣١

(١) سورة المؤمنون ٨٦

(٣) سورة آل عمران ١٨

(٥) سورة النوبة ١٢١

(٧) سورة البقرة ٢٥٥

(٩) سورة النساء ١٧٢

والمعجزات ، من إحياء الموتى ، وإبراء الأكمه والأبرص وغيره ؛ ولكونه خُلِقَ من غير تراب . والتزهيدُ في الدنيا وغالب هذه الأمور هي للملائكة أتمّ ، وهم فيها أقوى ، فإن كانت هذه الصفات أوجبت عبادته ، فهو مع هذه الصفات لا يستنكف عن عبادة الله ، بل ولا مَنْ هو أكبر منه في هذه الصفات ، للترقى من الأدنى إلى الأعلى في المقصود ، ولم يلزم منه الشرف المطلق والفضيلة على المسيح .

السابع عشر

الترقى

كقوله : ﴿ أَلْهَمُّ أَرْجُلُ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْتَطِشُونَ بِهَا . . . ﴾ ^(١) الآية ؛ فإنه سبحانه بدأ منها بالأدنى لغرض الترقى ؛ لأن منفعة الرابع أهم من منفعة الثالث ، فهو أشرف منه ، ومنفعة الثالث أهم من منفعة الثاني ، ومنفعة الثاني أهم من منفعة الأول ، فهو أشرف منه .

وقد قرّن السمع بالعقل ولم يقرن به البصر في قوله : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْأَعْمَى وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴾ ^(٢) ، وما قرّن بالأشرف كان أشرف ؛ وحكى ذلك عن علي بن عيسى الربعي .

قال الشيخ أبو الفتح القشيري :

فإن قيل : قد كان الأولى أن يقدم الوصف الأعلى ، ثم مادونه ، حتى ينتهي إلى أضعفها ؛ لأنه إذا بدا بسلب الوصف الأعلى ، ثم بسلب مادونه ، كان ذلك أبلغ في الذم ؛

لأنه لا يلزم من سلب الأعلى سلب ما دونه ، كما تقول : ليس زيد بسلطان ، ولا وزير ، ولا أمير ، ولا والٍ . والغرض من الآية المبالغة في الذم .

قلت : ما ذكرته طريقة حسنة في علم المعاني ، والمقصود من الآية طريقة أخرى ، وهي أنه تعالى أثبت أن الأصنام التي تعبد الكفار أمثال الكفار ، في أنها مقهورة مربوبة ، ثم حطها عن درجة المثلية بنفى هذه الصفات الثابتة للكفار عنها . وقد علمت أن المائلة بين الذوات المتنائية إنما تكون باعتبار الصفات الجامعة بينها ؛ إذ هي أسباب في ثبوت المائلة بينها ، وتقوى المائلة بقوة أسبابها ، وتضعف بضعفها ، فإذا سلب وصف ثابت لإحدى الذاتين عن الأخرى اتقى وجه من المائلة بينهما ، ثم إذا سلب وصف من الأول اتقى وجه من المائلة أقوى من الأول ، ثم لا يزال يسلب أسباب المائلة ، أقواها فأقواها ؛ حتى تنتفى المائلة كلها بهذا التدريج . وهذه الطريقة ألطف من سلب أسباب المائلة ؛ أقواها ثم أضعفها فأضعفها .

الثامن عشر

مراعاة الأفراد

فإن المفرد سابق على الجمع ، كقوله تعالى : ﴿ أَلْمَالُ وَالْبَنُونَ ﴾ ^(١) . وقوله : ﴿ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ ﴾ ^(٢) ؛ ولهذا لما عبّر عن المال بالجمع أخر عن البنين في قوله : ﴿ زَيْنَ النَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ﴾ ^(٣) .

(٢) سورة المؤمنون ٥٥

(١) سورة السكف ٤٦

(٣) سورة آل عمران ١٤

ومنه تقديم الوصف بالمفرد على الوصف بالجملة ، في قوله : ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكُفُّ إِيْمَانَهُ ﴾ ^(١) ، وقوله : ﴿ وَهَذَا ذِكْرُ مُبَارَكٍ أَنْزَلْنَاهُ ﴾ ^(٢) .

التاسع عشر

التحذير منه والتنفير عنه

كقوله تعالى : ﴿ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً ﴾ ^(٣) ، قرن الزنى بالشرك وقدمه .

وقوله : ﴿ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ ﴾ ^(٤) ، قدمهن في الذِّكْر ؛ لأنَّ الحنة بهن أعظم من الحنة بالأولاد ، وفي صحيح مسلم ^(٥) : « مَا تَرَكَتُ بَعْدِي [فِي النَّاسِ] ^(٦) فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ » . ومن الحكمة العظيمة أنه بدأ بذكر النساء في الدنيا ، وختم بـ « الْحَرْثِ » وهما طَرَفَانِ متشابهان ، وفيهما الشهوة والمعاش الدنيوي ، ولما ذكر بعد ذلك ما أعدّه للمتقين آخر ذكر الأزواج كما يجب في الترتيب الأخروي ، وختم بالرضوان . وكَم في القرآن من مثل هذا العجب إذا حضر له الذهن ، وفرغ له الفهم !
ومنه تقديم نفي الولد على نفي الوالد ، في قوله : ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ ^(٧) ؛ فإنه لما وقع في الأول منازعة الكفرة وتقولهم اقتضت الرتبة بالطبع تقديمه في الذكر ، اعتناء به ، قبل التنزيه عن الوالد الذي لم يَنَازِع فيه أحد من الأمم .

العشرون

التخويف منه

كقوله تعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ ^(٨) ، ونظائرُه السابقة في الثامن .

- (٢) سورة الأنبياء ٥٠
- (٤) سورة آل عمران ١٤
- (٦) تسكئة من صحيح مسلم
- (٨) سورة هود ١٠٥ .

- (١) سورة غافر ٢٨
- (٣) سورة النور ٣
- (٥) صحيح مسلم ٤ : ٢٩٨
- (٧) سورة الإخلاص ٣

الحادى والعشرون

المتعجب من شأنه

كقوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ﴾ ^(١) .

قال الزمخشري : قدم ^(٢) الجبال على الطير ؛ لأن تسخيرها له وتسبيحها أعجب وأدلّ على القدرة ، وأدخل فى الإعجاز ؛ لأنها جماد ، والطير حيوان ناطق .

قال ابن النحاس ^(٣) : وليس مراد الزمخشري بـ « ناطق » ما يراد به فى حدّ الإنسان .

الثانى والعشرون

كونه أدلّ على القدرة

كقوله تعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ ﴾ ^(٤) .

الثالث والعشرون

قصد الترتيب

كما فى آية الوضوء ، فإن إدخال المسح بين الغسلين ، وقطع النظر عن النظير مع مراعاة ذلك فى لسانهم ، دليل على قصد الترتيب .

(٢) الكشف ٣ : ١٠١

(١) سورة الأنبياء ٧٩

(٣) لعله محمد بن إبراهيم بهاء الدين بن النحاس الحلي شيخ الديار المصرية ، المتوفى سنة ٦٩٨ .
(٤) سورة النور ٤٥

(١٨ - برهان - ثالث)

وكذلك البداءة في الصفا بالسعى . ومثله الكفارة المرتبة في الظهار والقتل .

وهنا قاعدة ذكرها أصحابنا ، وهي أن الكفارة المرتبة بدأ الله فيها بالأغلظ ، والخيرة بدأ فيها بالأخف ، كما في كفارة اليمين ، ولهذا حلوا آية المحاربة في قوله : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا... ﴾ ^(١) ، الآية على الترتيب لا التخيير ؛ لأنه بدأ فيها بالأغلظ طرداً للقاعدة ، خلافاً للمالك حيث جعلها على التخيير .

الرابع والعشرون

خفة اللفظ

كما في قولهم : ربيعة ومضر؛ مع أن مضر أشرف لكون النبي صلى الله عليه وسلم منهم ، لأنهم لو قدموا مضر لتوالى حركات كثيرة ، وذلك يثقل ، فإذا قدموا ربيعة ووقفوا على مضر ، بسكون الراء ، نقص الثقل لقلة الحركات المتوالية .

وقد يكون تقديم الإنس على الجن من ذلك ؛ فالإنس أخف لمكان النون والسين المهموسة .

الخامس والعشرون

رعاية الفواصل

كتأخير الغفور في قوله : ﴿ لَعَفُوْهُ غَفُوْرٌ ﴾ ^(٢) ، وقوله : ﴿ وَكَانَ رَسُوْلًا نَّبِيًّا ﴾ ^(٣) ،

(٢) سورة الحج ٦٠

(١) سورة المائدة ٣٣

(٣) سورة مريم ٥٤ .

وإن كانت القاعدة في علم البيان تأخير ما هو الأبلغ، فإنه يقال : عالم نحرير ، وشجاع باسل ، وسبق له نظائر .

وكقوله : ﴿ خذُوهُ فَغُلُّوهُ . ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴾^(١) ، ولو قال : صَلُّوهُ الْجَحِيمَ لأفاد المعنى ؛ ولكن يفوت الجمع .

وقيل : فائدته الاختصاص .

وقوله : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾^(٢) ، فقدم « إياه » على « تعبدون » لمشكلة رموس الآي .

تنبيه

قد يكون في كل واحد مما ذكرنا من الأمثلة سببان فأكثر للتقديم ، فإما أن يُعتقد إرادة الكل ، أو يرجح بعضها لكونه أهم في ذلك المحل . وإن كانت الأخرى أهم في محل آخر . وإذا تعارضت الأسباب رُوعى أقواها ، فإن تساوت كان التكلم بالخيار في تقديم أى الأمرين شاء .

النوع الثاني

مما قدم والنية به التأخير

فنه ما يدل على ذلك الإعراب ، كتقديم المفعول على الفاعل في نحو قوله : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾^(٣) ، و﴿ لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَائُهَا ﴾^(٤) ، و﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ

(٢) سورة النحل ١١٤

(٤) سورة الحج ٣٧

(١) سورة الحاقة ٣٠ ، ٣١

(٣) سورة فاطر ٢٨

إِبْرَاهِيمَ رَبَّهُ ﴿١﴾ .

ونحوه مما يجب في الصناعة النحوية كذلك ، ولكن ذلك لقصد الحصر .
كتقديم المفعول ، كقوله : ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ ﴾ (٢) . ﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْبُدُ ﴾ (٣) .

وكتقديم الخبر على المبتدأ في قوله : ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانَعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ ﴾ (٤)
ولو قال « وظنوا أن حصونهم مانعتهم » لما أشعر بزيادة وثوقهم بمنعها إياهم .

وكذا : ﴿ أَرَأَيْبُ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي ﴾ (٥) ، ولو قال : « أنت راغب عنها » ؟ ما أفادت
زيادة الإنكار على إبراهيم .

وكذلك : ﴿ وَأَقْتَرَبَ الْوَعْدُ أَلْحَقٌ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ (٦) ،
ولم يقل : « فإذا أبصار الذين كفروا شاخصة » ، وكان يستغنى عن الضمير ، لأن هذا لا يُفيد
اختصاص الذين كفروا بالشخص .

ومنه ما يدل على المعنى ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ﴾ (٧) ، قال
البغوي : هذا أول القصة ، وإن كانت مؤخرة في التلاوة .

وقال الواحدي : كان الاختلاف في القاتل قبل ذبح البقرة ، وإنما أخر في الكلام
لأنه سبحانه لما قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ . . . ﴾ (٨) الآية علم المحاطبون أن البقرة لا تذبح
إلا للدلالة على قاتل خفيت عينه عليهم ، فلما استقر علم هذا في نفوسهم أتبع بقوله :
﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ﴾ على جهة التوكيد ، لأنه عرّفهم الاختلاف
في القاتل بعد أن دلّهم على ذبح البقرة . وقيل : إنه من المؤخر الذي يراد به التقدم ،

(٢) سورة الزمر ٦٤

(٤) سورة الحشر ٢

(٦) سورة الأنبياء ٩٧

(٨) سورة البقرة ٦٧

(١) سورة البقرة ١٢٤

(٣) سورة الزمر ١٤

(٥) سورة مريم ٤٦

(٧) سورة البقرة ٧٢

وتأويله : وإذ قتلتم نفساً فادّارأتم فيها فسألتهم موسى فقال لكم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً 》 .

وأما الزمخشري ففي كلامه ما يدل على أن إيرادها إنما كان يتأتى على الوجه الواقع في القرآن ، لمعنى حسن لطيف استخرجه وأبداه .

ومنه قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ 》 ^(١) ، وأصل الكلام : « هوأه إلهه » كما تقول : اتخذ الضم معبوداً ، لكن قدّم المفعول الثانى على الأول للعناية ، كما تقول : علمت منطلقاً زيداً ، لفضل عنايتك بانطلاقه .

ومنه قوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ ... 》 ^(٢) الآية ، أى أنزله قَيِّماً ولم يجعل له عِوَجاً . قاله جماعة منهم الواحدى .

ورده فخر الدين فى تفسيره بأن قوله : ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً . قَيِّماً 》 ^(٣) ، معناه أنه كامل فى ذاته ، وأن « قَيِّماً » ، معناه أنه مكتمل لغيره ، وكونه كاملاً فى ذاته ، سابق على كونه مكتملاً لغيره ؛ لأن معنى كونه « قَيِّماً » أنه قائم بمصالح الغير . قال : فثبت بالبرهان العقلى أن الترتيب الصحيح ما ذكر فى الآية ، وما ذكر من التقديم والتأخير فاسد يمتنع العقل من الذهاب إليه . انتهى .

وهذا فهم عجيب من الإمام ، لأن القائل بالتقديم والتأخير لا يقول بأن كونه غير ذى عِوَج متأخر عن كونه « قَيِّماً » فى المعنى ، وإنما الكلام فى ترتيب اللفظ لأجل الإعراب . وقد يكون أحد المعنيين ثابتاً قبل الآخر ويدكر بعده .

وأيضاً فإن هذا البحث إنما هو على تفسير القيم بالمستقيم ، فأما إذا فُسِّر بالقيام على غيره فلا نسلم أن القائل يقول بالتقديم والتأخير .
وهاهنا أمران :

أحدهما : أن الأظهر جعل هذه الجملة - أعنى قوله : ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا . قِيَمًا ﴾ - من جملة صلة «الذى» وتامها ، وعلى ^(١) هذا لا موضع لها من الإعراب لوجهين ^(٢) : أحدهما أنها في حيز الصلة ؛ لأنها معطوفة عليها . والثانى أنها اعتراض بين الحال وعاملها . ويجوز فى الجملة المذكورة أن يكون موضعها النصب ؛ على أنها حال من « الكتاب » ، والعامل فيها « أنزل » .

قاله جماعة ، وفيه نظر .

وأما قوله : « قِيَمًا » فيجوز فى نصبه وجوه :

أحدها - وهو قول الأكثر - أنه منصوب على الحال من « الكتاب » والعامل فيه « أنزل » ، وفى الكلام تقديم وتأخير ، وتقديره : « الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب قِيَمًا ، ولم يجعل له عوجًا » ، فتكون الجملة على هذا اعتراضاً .

والثانى أن يكون منصوباً بفعل مقدر ، وتقديره : « ولكن جعله قِيَمًا » ، فيكون مفعولاً للفعل المقدر .

والثالث أن يكون حالاً من الضمير فى قوله : ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴾ ، وتكون حالاً مؤكدة .

واختار صاحبُ الكشف أن يكون ^(٣) « قِيَمًا » مفعولاً لفعل مقدر كما ذكرناه ؛ لأن الجملة التى قبلها عنده معطوفة على الصلة ، و « قِيَمًا » من تمام الصلة ، وإذا كان حالاً يكون فيه فصلٌ بين بعض الصلة وتامها ، فكان الأحسن جعله معمولاً لمقدر .

وقال جماعة منهم ابن المنير فى تفسير البحر بعد نقله كلام الزخشري : وعجيب من كونه لم يجعل الفاصل المذكور حالاً أيضاً ، ولا فصل ، بل هما حالان متواليان من شئ واحد ، والتقدير : أنزل الكتاب غير معوج .

(٢) ت : « بوجهين » .

(١) م : « وهذه » .

(٣) انظر الكشف ٢ : ٤٨٥ .

وهذا القول - وهو جعل الجملة حالا - قد ذكره جماعة قبل ابن المنير . والظاهر أن الزمخشري لم يرتضِ هذا القول ، لأنَّ جَعَلَ الجملة حالا لا يفيد ما يفيد العطف ، من نفي العَوَج عن الكتاب مطلقا ، غير مقيد بالإزالة وهو المقصود . فالفائدة التي هي أتمّ إنما تكون على تقدير استقلال الجملة . كيف والقول بالتقديم والتأخير منقول عن ابن عباس رضى الله عنهما ! نقله الطبري وغيره .

وقال الواحدى : هو قول جميع أهل اللغة والتفسير . والزمخشري ربما لاحظ هذا المعنى ، ولم يمنع جواز غير ما قال ، لكنَّ ما قال هو الأحسن .

وقال غير ابن المنير فى الاعتراض على الزمخشري : إن الجملة وإن كانت مستقلةً فهى فى حيز الصلة للعطف ، فلم يقع فصل ، ويؤيد ما ذكره صاحب الكشف أن بعض القراء يسكت عند قوله : « عَوَجًا » ويفصل بينه وبين « قِيَمًا » بسكتة لطيفة ، وهى رواية حفص عن عاصم ، وذلك يَحْتَمِلُ أن يكون لما ذكرنا من تقدير الفصل وانقطاع الكلام عما قبله .

قال ابن المنير : وتَحْتَمِلُ السكتة وجبا آخر ، وهو أن يكون ذلك لرفع توهم أن يكون « قِيَمًا » نعتا للعوج ؛ لأن النكرة تستدعى النعت غالبا ، وقد كثر فى كلامهم إيلاء النكرة الجامدة نعتها ، كقوله : « صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا » ، و « قُرْآنًا عَرَبِيًّا » ، فإذا وَلِيَ النكرة الجامدة اسم مشتق نكرة ظهر فيه معنى الوصف ، فر بما خيف اللبس فى جعل « قِيَمًا » نعتا لـ « عَوَج » ، فوقع اللبس بهذه السكتة .

وهذا أيضا فيه نظر ، لأن ذلك إنما يتوهم فيما يصلح أن يكون وصفا ، ولا يصلح « قِيَمًا » أن يكون وصفا لـ « عَوَج » فإنَّ الشئ لا يوصف بضده ؛ لأن العوج لا يكون قِيَمًا ، والأولى ما ذكرناه أولا .

الثانى : نقل الإمام عن بعضهم أن « قَيِّمًا » بدل من قوله : « عَوَجًا » ، وهو مُشْكِلٌ ، لأنه لا يظهر له وجه .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا ﴾ ^(۱) ، قيل : التقدير : لقد همت به لولا أن رأى برهان ربه وهَمَّ بها . وهذا أحسن ؛ لكن فى تأويله قلق ، ولا يحتاج إلى هذا التأويل إلا على قول من قال : إن الصغائر يجوز وقوعها منهم .

وقوله : ﴿ فَضَحِكْتُ ، فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ ﴾ ^(۲) قيل : أصله : فبشرناها بإسحاق فضحكت . وقيل : ضحكت أى حاضت بعد الكبر عند البشرى ، فعادت إلى عادات النساء من الحيض والحمل والولادة .

وقوله : ﴿ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ ^(۳) ، قدم على ما بعده ، وهو مؤخر عنه فى المعنى ؛ لأن ذلك يحصل للتوافق .

وقوله : ﴿ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ﴾ ^(۴) أى أحوى غثاء ، أى أخضر ، يميل إلى السواد ، والموجب لتأخير ﴿ أَحْوَى ﴾ رعاية الفواصل .

وقوله : ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا ﴾ ^(۵) ، قال ابن برهان النحوى : أصله : ومن يبتغى دينا غير الإسلام .

وقوله : ﴿ وَغَرَّابِيْبٌ سُودٌ ﴾ ^(۶) ، قال أبو عبيد : الغريب الشديد السواد ، ففى الكلام تقديم وتأخير . وقال صاحب ^(۷) ” العجائب والغرائب “ : قال ابن عيسى :

(۲) سورة هود ۷۱

(۴) سورة الأعلى ۵

(۶) سورة فاطر ۲۷

(۱) سورة يوسف ۲۴

(۳) سورة الكهف ۷۹

(۵) سورة آل عمران ۸۵

(۷) هو محمود بن حمزة الكرماني المعروف بتاج القراء ؛ قال صاحب كشف الظنون : « أورد بعض الوجوه فى الآية ، وذكر كل عجيب وغريب » .

الغريب الذى لونه لون الغراب ، فصار كأنه غراب . قال : والغراب يكون أسود وغير أسود ، وعلى هذا فلا تقديم ولا تأخير فيه .

وقوله : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ ﴾ ^(١) على قول من يقول : إن الذكر هنا القرآن .

وقوله : ﴿ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ﴾ ^(٢) .

وقوله : ﴿ أَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ ^(٣) .

وقوله : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا ﴾ ^(٤) أى فعقروها ثم كذبوه فى عقرها وفى إجابتهم .

وقوله : ﴿ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ﴾ ^(٥) ، تقديره : ثم قضى أجلا وعندَهُ أجل مسمى ، أى وقت مؤقت .

وقوله : ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ ﴾ ^(٦) أى الأوثان من الرجس .

﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ ^(٧) أى يرهبون ربهم .

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِقُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ ^(٨) ، أى الذين هم حافظون لقروجهم .

﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ﴾ ^(٩) أى يخلف رسله وعده .

﴿ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾ ^(١٠) ، أى بل الإنسان بصيرٌ على نفسه فى

شهود جوارحه عليه .

﴿ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ ^(١١) ، أى خُلِقَ العجل من الإنسان .

﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى ﴾ ^(١٢) ، أى ولولا

(٢) سورة النور ٢٧

(٤) سورة الشمس ١٤

(٦) سورة الحج ٣٠

(٨) سورة المؤمنون ٥

(١٠) سورة القيامة ١٤

(١٢) سورة طه ١٢٩

(١) سورة الأنبياء ١٠٥

(٣) سورة القمر ١

(٥) سورة الأنعام ٢

(٧) سورة الأعراف ١٥٤

(٩) سورة إبراهيم ٤٧

(١١) سورة الأنبياء ٢٧

كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان العذاب لازماً لهم .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ﴾ ^(١) ، أى كيف مده ربك .

﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ ^(٢) أى لشديد الحب الخير .

﴿ وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ ﴾ ^(٣) أى زين للمشركين

شركاؤهم قتل أولادهم ؛ لأن الشياطين كانوا يحسنون لهم قتل بناتهم خشية العار .

وقوله : ﴿ لَعَلَّهُمُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ﴾ ^(٤) .

وقوله : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ ^(٥) ، أى فلا تعجبك

أموالهم ولا أولادهم فى الحياة الدنيا ، إنما يريد الله ليُعَذِّبَهُمْ بها فى الآخرة .

وقوله : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ ﴾ ^(٦) ،

تقديره : مثل الذين كفروا بربههم كرماد اشتدت به الريح .

وقوله : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ ^(٧) ، أى فانا عدو آلهتهم وأصنامهم ،

وكل معبود يعبدونه من دون الله .

وقوله : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ وَأُخِذُوا ﴾ ^(٨) ، أى فرغوا وأخذوا ،

فلا قوت ، لأن القوت يكون بعد الأخذ .

وقوله : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْعَاشِيَةِ ﴾ ، يعنى القيامة . ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴾ ^(٩) ؛

(٢) سورة العاديات ٨

(٤) سورة النساء ٨٣

(٦) سورة إبراهيم ١٨

(٨) سورة سبأ ٥١

(١) سورة الفرقان ٤٥

(٣) سورة الأنعام ١٣٧

(٥) سورة التوبة ٥٥

(٧) سورة الشعراء ٧٧

(٩) سورة الفاشية ١ ، ٢

وذلك يوم القيامة . ثم قال : ﴿ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴾ ^(١) ، والنصب والعمل يكونان في الدنيا ، فكأنه على التقديم والتأخير ، معناه : وجوه عاملة ناصبة ويوم القيامة خاشعة ، والدليل عليه قوله : ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴾ ^(٢) .

وقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴾ ^(٣) ، تقديره : لَمَقْتُ اللَّهِ إِيَّاكُمْ فِي الدُّنْيَا حِينَ دُعِيتُمْ إِلَى الْإِيمَانِ فَكَفَرْتُمْ ، ومقته إِيَّاكُمْ الْيَوْمَ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ دُعِيتُمْ إِلَى النَّارِ .

وقوله : ﴿ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ﴾ ^(٤) ، لأن الفجر ليس له سواد ، والتقدير : حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الفجر من الخيط الأسود من الليل ؛ أى حتى يتبين لكم بياض الصبح من بقية سواد الليل .

وقوله : ﴿ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فُضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ ﴾ ^(٥) .

وقوله : ﴿ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ ﴾ منظوم بقوله : ﴿ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ ﴾ ^(٦) . لأنه موضع الشامة .

وقوله : ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ ^(٧) ، أى اثنين إلهين ، لأن اتخاذ اثنين يقع على ما يجوز وما لا يجوز ، و « إلهين » لا يقع إلا على ما لا يجوز ، ف « إلهين » أخص ، فكان جعله صفة أولى .

(٢) سورة الفاشية ٨

(٤) سورة البقرة ١٨٧

(١) سورة الفاشية ٣

(٣) سورة غافر ١٠

(٥) سورة النساء ٧٣

(٦) من قوله تعالى في سورة النساء ٧٢ : ﴿ وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾

(٧) سورة البقرة ٢١٧

النوع الثالث

ما قدّم في آية وآخر في أخرى

فمن ذلك قوله في فاتحة الفاتحة : ﴿ اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ ﴾ وفي خاتمة الجاثية ﴿ فَلِلّٰهِ اَلْحَمْدُ ﴾ ^(١) ، فتقديم « الحمد » في الأول جاء على الأصل ، والثاني على تقدير الجواب ، فكأنه قيل عند وقوع الأمر : لمن الحمد ؟ ومن أهله ؟ فجاء الجواب على ذلك ، نظيره : ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ﴾ ، ثم قال : ﴿ لِلّٰهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ ^(٢) .

وقوله في سورة يس : ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى ﴾ ^(٣) ، قدّم الجور على المرفوع ، لاشتغال ما قبله من سوء معاملة أصحاب القرية الرسل ، وإصرارهم على تكذيبهم ، فكان مظنة التتابع على مجرى العبارة ، تلك القرية ، ويبقى مخيلاً في فكره : أكانت كلها كذلك ، أم كان فيها ^(٤) على خلاف ذلك ، بخلاف ما في سورة القصص ^(٥) .

ومنها قوله في سورة النمل : ﴿ لَقَدْ وَعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ ﴾ ^(٦) ، وفي سورة المؤمنين : ﴿ لَقَدْ وَعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَٰذَا مِنْ قَبْلُ ﴾ ^(٧) ، فإن ما قبل الأولى ﴿ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا ﴾ ^(٨) ، وما قبل الثانية : ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا ﴾ ^(٩) ، فالجهة المنظور فيها هناك كون أنفسهم وآبائهم تراباً ، والجهة المنظور فيها هنا كونهم تراباً وعظاماً ، ولا شبهة أن الأولى أدخل عندهم في تبعيد البعث .

- | | |
|---|---|
| (١) سورة الجاثية ٣٦ | (٢) سورة غافر ١٦ |
| (٣) سورة يس ٢٠ | (٤) موضع النقط ثلاث كلمات غامضة غير واضحة |
| (٥) سورة القصص ٢٠ ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى . . . ﴾ | (٦) سورة النمل ٦٨ |
| (٨) سورة النمل ٦٧ | (٧) سورة المؤمنين ٨٣ |
| | (٩) سورة المؤمنون ٨٢ |

ومنها قوله في سورة المؤمنين : ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ^(١) ، قدّم
المجرور على الوصف ؛ لأنه لو أخبر عنه - وأنت تعلم أن تمام الوصف بتمام ما يدخل عليه
الموصوف ، وتماهه : ﴿ وَأَثَرُفَنَاهُمْ فِي الْخَلِيَةِ الدُّنْيَا ﴾ ^(٢) - لاحتمل أن يكون من نعيم
الدنيا . واشتبه الأمر في القائلين : أهم من قومه ، أم لا ؟ بخلاف قوله في موضع آخر منها :
﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ﴾ ^(٣) ؛ فإنه جاء على الأصل .

ومنها قوله في سورة طه : ﴿ آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴾ ^(٤) ، تنميا على الفاصلة ،
بخلاف قوله في سورة الشعراء : ﴿ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ ^(٥) .

ومنها قوله : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ ^(٦) ،
وقال في سورة الإسراء : ﴿ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ ^(٧) ، قدم المخاطبين في الأولى
دون الثانية ، لأن الخطاب في الأولى في الفقراء ، بدليل قوله : ﴿ مِنْ إِمْلَاقٍ ﴾ ، فكان
رزقهم عندهم أهم من رزق أولادهم ، فقدم الوعد برزقهم على الوعد برزق أولادهم ، والخطاب
في الثانية للأغنياء ؛ بدليل ﴿ خَشِيَةَ إِمْلَاقٍ ﴾ ، فإن الخشية إنما تكون مما لم يقع ، فكان
رزق أولادهم هو المطلوب ، دون رزقهم ، لأنه حاصل ، فكان أهم ، فقدم الوعد برزق
أولادهم على الوعد برزقهم .

ومنها ذكر الله في أواخر سورة الملائكة : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ ﴾ ^(٨) فقدم ذكر السموات ؛ لأن معلوماتها أكثر ، فكان تقديمها أدل على
صفة العالمية ، ثم قال : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا
خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ﴾ ^(٩) فبدأ بذكر الأرض ، لأنه في

(٢) سورة المؤمنين ٢٤

(٤) سورة الشعراء ٤٨

(٦) سورة الإسراء ٣١

(٨) سورة فاطر ٤٠

(١) سورة المؤمنون ٣٣

(٣) سورة طه ٧٠

(٥) سورة الأنعام ١٥١

(٧) سورة فاطر ٣٨

سياق تعجيز الشركاء عن الخلق والمشاركة ، وأمر الأرض في ذلك أيسر من السماء بكثير ؛ فبدأ بالأرض مبالغة في بيان عجزهم ؛ لأن من عجز عن أيسر الأمور كان عن أعظمهما أعجز ، ثم قال سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا ۖ ﴾ ^(١) ، قدّم السماوات تنبيها على عظم قدرته سبحانه ؛ لأن خلقها أكبر من خلق الأرض ، كما صرح به في سورة المؤمن ^(٢) ؛ ومن قدر على إمساك الأعظم كان على إمساك الأصغر أقدر .

فإن قلت : فهلا اكتفى من ذكر الأرض بهذا التنبيه البين ، الذي لا يشك فيه أحد !

قلت : أراد ذكرها مطابقة ؛ لأنه على كل حال أظهر وأبين ؛ فانظر أيها العاقل حكمة القرآن ، وما أودعه من البيان والتبيان ، محمد عاقبة النظر ، وتنتظر خير مُنتظر !

ومن أنواعه أن يقدم اللفظ في الآية ويتأخر فيها ؛ لقصد أن يقع البداء والختم به ، للاعتناء بشأنه ، وذلك كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ، فَأَمَّا الَّذِينَ أُسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ ۖ ﴾ ^(٣) .

وقوله : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا ۖ ﴾ ^(٤) إلى قوله : ﴿ قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ ۖ ﴾ ^(٥) .

وكذلك قوله : ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ۖ ﴾ ^(٥) فإنه لولا ما أسلفناه ، لقليل : ما تكتُمون وما تبْدُونَ ؛ لأن الوصف بعلمه

(٢) وهو قوله تعالى في الآية ٥٧ ﴿ لَخَلِيقُ

(١) سورة فاطر ٤١

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ ﴾

(٤) سورة الجمعة ١١

(٣) سورة آل عمران ١٠٦

(٥) سورة البقرة ٣٣

أمدح ، كما قيل : ﴿ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ ﴾ ^(١) ، و ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ ^(٢)
 وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ^(٣) .

فإن قلت : فقد قال تعالى : ﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ ^(٤) .

قلت : لأجل تناسب رموس الآي .

ومنها أن يقع التقديم في موضع والتأخير في آخر ، واللفظ واحد ، والقصة واحدة ،
 للتفنن في الفصاحة ، وإخراج الكلام على عدة أساليب ، كما في قوله تعالى :
 ﴿ وَأَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةً ﴾ ^(٥) ، وقوله : ﴿ وَقُولُوا حِطَّةً وَأَدْخُلُوا الْبَابَ
 سُجَّدًا ﴾ ^(٦) .

وقوله : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ ﴾ ^(٧) ، وقوله : ﴿ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ
 وَقَلْبِهِ ﴾ ^(٨) ، قال الزمخشري في كشافة القديم : علم بذلك أن كلا الطريقتين داخل تحت
 الحسن ؛ وذلك لأن العطف في المختلفين ، كالثنية في المتفقين ، فلا عليك أن تقدم
 أيهما شئت ، فإنه حسن مؤدّى إلى الغرض . وقد قال سيبويه : ولم يجعل للرجل منزلة بتقديمك
 إياه ، بكونه أولى بها من الجأني ؛ كأنك قلت : مررت بهما ، يعني في قولك : مررت
 برجل وجاءني ، إلا أن الأحسن تقديم الأفضل ، فالقلب رئيس الأعضاء ، والمضغة لها
 الشأن ، ثم السمع طريق إدراك وحى الله ، وكلامه الذي قامت به السماوات والأرض ، وسائر
 العلوم التي هي الحياة كلها .

قلت : وقد سبق توجيه كل موضع بما ورد فيه من الحكمة .

- (٢) سورة الرعد ٩
 (٤) سورة طه ٧
 (٦) سورة الأعراف ١٦١
 (٨) سورة الجاثية ٢٣

- (١) سورة الأنعام ٣
 (٣) سورة النحل ١٩
 (٥) سورة البقرة ٥٨
 (٧) سورة البقرة ٧

القلب *

وفي كونه من أساليب البلاغة خلاف ، فأنكره جماعة ، منهم حازم في كتاب "منهاج البلغاء" وقال : إنه مما يجب أن ينزه كتاب الله عنه ؛ لأن العرب إن صدر ذلك منهم فيقصد العبث أو التهكم أو المحاكاة أو حال اضطراب ، والله منزّه عن ذلك . وقبله جماعة مطلقا ، بشرط عدم اللبس كما قاله ^(١) المبرد في كتاب " ما اتفق لفظه واختلف معناه " .

وفصل آخرون بين أن يتضمن اعتبارا لطيفا ، فبلغ وإلا فلا ؛ ولهذا قال ابن الضائع : يجوز القلب على التأويل ، ثم قد يقرب التأويل فيصح في فصيح الكلام ، وقد يبعد فيختص بالشعر . وهو أنواع :

أحدها

قلب الإسناد

وهو أن يشمل الإسناد إلى شيء والمراد غيره ، كقوله تعالى : ﴿ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءَ بِالْعُصْبَةِ ﴾ ^(٢) ، إن لم تجعل الباء للتعدي ؛ لأن ظاهره أن المفاتيح تنوء بالعصبة ، ومعناه أن العصبة تنوء بالمفاتيح لثقلها ، فأسند « لتنوء » إلى « المفاتيح » ، والمراد إسناده إلى العصبة

* هو الأسلوب الرابع من الأساليب ، التي أوردتها المؤلف ؛ والأول أسلوب التوكيد في الجزء الثاني ص ٣٨٤ وما بعدها ، والثاني في هذا الجزء ص ١٠٢ وما بعدها . والثالث أسلوب التقديم والتأخير في هذا الجزء ص ٢٢٣ وما بعدها .

(١) ص ٣٨ ، وعبارته : « ويقولون : أدخلت القلنسوة في رأسي ، وأدخلت الحف في رجلي ؛ وإنما يكون هذا فيما لا يكون فيه لبس ولا إشكال » . (٢) سورة القصص ٧٦

لأن الباء للحال والعُصبَةُ مستصحية الفاتح ، لا تستصحبها الفاتح . وفائدته المبالغة ، بجعل الفاتح كأنها مستتبعة للعُصبَةِ القوية بثقلها .

وقيل : لا قَلْبَ فيه ، والمراد - والله أعلم - أَنَّ الفاتح تنوء بالعُصبَةِ ، أى تميلها من ثقلها . وقد ذكر هذا القراء وغيره .

وقال ابن عصفور : والصحيح ما ذهب إليه الفارسي أنها بالنقل ولا قلب ، والفعل غير متمعدٍ ، فصار متمعداً بالباء ، لأن « ناء » غير متمعدٍ ، يقال : ناء النجم ، أى نهض ، ويقال : ناء ، أى مال للسقوط . فإذا نقلت الفعل بالباء قلت : نوت به ، أى أنهضته وأملتة للسقوط ، فقوله : ﴿ لَتَنُوءَ بِالْعُصْبَةِ ﴾ أى تميلها الفاتح للسقوط لثقلها .

قال : وإنما كان مذهب الفارسي أصح ، لأن نقل الفعل غير المتمعدى بالباء مقيس ، والقلب غير مقيس ، فحمل الآية على ما هو مقيس أولى .

ومنه قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَجَلٍ ﴾ ^(١) ، أى خَلَقَ العجل من الإنسان . قاله ثعلب وابن السكيت .

قال الزجاج : ويدل على ذلك : ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴾ ^(٢) .

قال ابن جني : والأحسن أن يكون تقديره : خَلَقَ الإنسان من العجلة ، لكثرة فعله إياه ، واعتماده له ، وهو أقوى في المعنى من القلب ؛ لأنه أمر قد اطرَد واتسع ، فحمله على القلب يبعد في الصنعة ، ويضعف المعنى .

ولما خفي هذا على بعضهم قال : إنَّ العجل هاهنا الطين ، قال : ولعمري إنه في اللغة كما ذكر ، غير أنه ليس المراد هنا إلا نفس العجل ، ألا ترى إلى قوله عقبه : ﴿ سَأَرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ ^(٣) ، ونظيره قوله : ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴾ ^(٤) ، ﴿ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ

(٢) سورة الإسراء ١١

(٤) سورة الإسراء ١١

(١٩) - برهان - ثالث

(١) سورة الأنبياء ٣٧

(٣) سورة الأنبياء ٣٧

ضَعِيفًا^(١) ، لأن العجلة ضرب من الضعف ، لما تؤذن به الضرورة والحاجة .
 وقيل في قوله : ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ﴾^(٢) : أى إنه من المقلوب ، وأنه
 ﴿ وجاءت سكرة الحق بالموت ﴾ ، وهكذا في قراءة أبى بكر^(٣) .
 ومثله : ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾^(٤) ، قال الفراء : أى لكل أمر كتبته الله
 أجل مؤجل .

وقيل في قوله : ﴿ وَإِنْ يُرِيدْكَ مِنْ خَيْرٍ ﴾^(٥) : هو من المقلوب ، أى يريد بك الخير ،
 ويقال : أراده بالخير وأراد به الخير .

وجعل ابن الضائع منه : ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ ﴾^(٦) ، قال : فآدم صلوات الله
 على نبينا وعليه هو المتلقى للكلمات حقيقة ، ويقرب أن ينسب التلقى للكلمات ؛ لأن
 مَنْ تَلَقَّى شَيْئًا ، أو طلب أن يتلقاه فلقبه كان الآخر أيضا قد طلب ذلك ؛ لأنه قد لقبه . قال :
 ولقرب هذا المعنى قرئ بالقلب^(٧) .

وجعل الفارسي منه قوله تعالى : ﴿ فَعَمَّيْتُ عَلَيْكُمْ ﴾^(٨) ، أى فعميت عليها .
 وقوله : ﴿ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ ﴾^(٩) .
 وقوله : ﴿ وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾^(١٠) ، ﴿ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ ﴾^(١١) ،
 أى بلغت الكبر .

وقوله : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴾^(١٢) ، وقوله : ﴿ فَأَنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي

(٢) سورة ق ١٩

(١) سورة النساء ٢٨

(٣) وهى أيضا قراءة ابن مسعود ؛ على إضانة السكرة إلى الحق . وانظر الكشاف ٤ : ٣٠٦

(٥) سورة يونس ١٠٧

(٤) سورة الرعد ٣٨

(٧) أى ينصب آدم ورفع الكلمات ؛ وهى

(٦) سورة البقرة ٣٧

(٨) سورة هود ٢٨ . قال الزخشرى :

قراءة ابن كثير . وانظر تفسير القرطبي ١ : ٣٢٦

ومعنى «عَمَّيْتُ» خفيت . وقرئ : ﴿ فَعَمَّيْتُ ﴾ ، بمعنى أخفيت ، وفي قراءة أبى ﴿ فَعَمَّاهَا عَلَيْكُمْ ﴾

(١٠) سورة مريم ٨

(٩) سورة يونس ٢٤

(١٢) سورة الجاثية ٢٣

(١١) سورة آل عمران ٤٠

إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ ؛ فَإِنَّ الْأَصْنَامَ لَا تَعَادِي ، وَإِنَّمَا الْمَعْنَى : فَإِنِّي عَدُوٌّ لَهُمْ ، مُشْتَقٌّ مِنْ عَدَوْتُ الشَّيْءِ ، إِذَا جَاوَزْتَهُ وَخَلَقْتَهُ ، وَهَذَا لَا يَكُونُ إِلَّا فِيمَنْ لَهُ إِرَادَةٌ ، وَأَمَّا « عَادِيَّتُهُ » ففَاعِلَةٌ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْ اثْنَيْنِ .

وجعل منه بعضهم : ﴿ وَإِنَّهُ لِيُحِبُّ الْخَيْرَ لَشَدِيدٌ ﴾ ^(٢) ، أَيْ إِنْ حَبَّ الْخَيْرَ لَشَدِيدٌ . وقيل : ليس منه ، لَأَنَّ الْمَقْصُودَ مِنْهُ أَنَّهُ لِحُبِّ الْمَالِ لَبِخِيلٍ ، وَالشَّدَّةُ : الْبُخْلُ ، أَيْ مِنْ أَجْلِ حَبِّهِ لِلْمَالِ يَبْخُلُ .

وجعل الزمخشريّ منه قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ ﴾ ^(٣) ، كقولهِ : عُرِضَتِ النَّاقَةُ عَلَى الْحَوْضِ ، لَأَنَّ الْمَعْرُوضَ لَيْسَ لَهُ اخْتِيَارٌ ، وَإِنَّمَا الْاِخْتِيَارُ لِلْمَعْرُوضِ عَلَيْهِ ؛ فَإِنَّهُ قَدْ يَفْعَلُ وَيُرِيدُ ؛ وَعَلَى هَذَا فَلَا قَلْبَ فِي الْآيَةِ ؛ لَأَنَّ الْكُفَّارَ مَقْهُورُونَ فَكَأَنَّهُمْ لَا اخْتِيَارَ لَهُمْ ، وَالنَّارُ مُتَصَرِّفَةٌ فِيهِمْ ، وَهُوَ كَالْمَتَاعِ الَّذِي يَقْرُبُ مِنْهُ مَنْ يَعْزُضُ عَلَيْهِ ، كَمَا قَالُوا : عُرِضَتِ الْجَارِيَةُ عَلَى الْبَيْعِ .

وقوله : ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلِ ﴾ ^(٤) ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ التَّحْرِيمَ لَا يَقَعُ إِلَّا عَلَى الْمَكْتَلَفِ ، فَالْمَعْنَى : وَحَرَّمْنَا عَلَى الْمَرِاضِعِ أَنْ تَرْضِعَهُ . وَوَجْهٌ تَحْرِيمُ إِرْضَاعِهِ عَلَيْهِنَّ أَلَّا يَقْبَلَ إِرْضَاعَهُنَّ حَتَّى يَرُدَّ إِلَى أُمِّهِ .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ ﴾ ^(٥) ، قِيلَ : الْأَصْلُ وَمَا تَخْدَعُهُمْ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ ، لَأَنَّ الْأَنْفُسَ هِيَ الْخَادِعَةُ ، وَالْمَسْئُولَةُ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ ﴾ ^(٦) .

وَرُدَّ بِأَنَّ الْفَاعِلَ فِي مِثْلِ هَذَا هُوَ الْمَفْعُولُ فِي الْمَعْنَى ، وَأَنَّ التَّنَايُرَ فِي اللَّفْظِ قَطْعٌ ، فَعَمِلَ هَذَا بِصَحْحِ إِسْنَادِ الْفِعْلِ إِلَى كُلِّ مِنْهُمَا ؛ وَلَا حَاجَةَ إِلَى الْقَلْبِ .

(٢) سورة المائدات ٨

(١) سور الشعراء ٧٧

(٤) سورة القصص ٢٨

(٣) سورة الأحقاف ٢٠ ، وانظر الكشاف ٤ : ٢٤٢

(٦) سورة يوسف ١٨

(٥) سورة البقرة ٩ ، وهي قراءة نافع وإبنة كثير وأبي عمرو

الثانى

قلب المعطوف

إما بأن يجعل المعطوف عليه معطوفا والمعطوف معطوفا عليه ، كقوله تعالى : ﴿ فَأَنقِصْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾^(١) ، حقيقة : فانظر ماذا يرجعون ثم تولى عنهم ، لأن نظره ما يرجعون من القول غير متأت مع توليه عنهم . وما يفسر به التولى من أنه يتوارى فى الكوة التى ألقى منها الكتاب مجاز ، والحقيقة راجحة عليه .

وقوله : ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴾^(٢) ، أى تدلى فدنا ؛ لأنه بالتدلى نال الدنو والقرب إلى المنزلة الرفيعة وإلى المكانة ، لا إلى المكان .

وقيل : لاقاب ، والمعنى : ثم أراد الدنو فتدلى ، وفى صحيح البخارى^(٣) : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ ﴾^(٤) ، المعنى فإذا استعدت فاقرأ .

وقوله : ﴿ وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسًا ﴾^(٥) ، وقال صاحب الإيضاح : لا قلب فيه ؛ لعدم تضمنه اعتبارا لطيفا .

وردّ بتضمنه المبالغة فى شدة سورة البأس ؛ معنى هلكت بمجرد توجه الناس إليها ، ثم جاءها .

الثالث

العكس

العكس ؛ وهو أمر لفظى ، كقوله : ﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾^(٦) .

(٢) سورة النجم ٨

(٤) سورة النحل ٩٨

(٦) سورة الأنعام ٥٢

(١) سورة النمل ٢٨

(٣) كتاب التفسير ، سورة النحل ٣ : ١٤٨

(٥) سورة الأعراف ٤

وقوله : ﴿ هُنَّ لِيَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَاسٌ لَهُنَّ ﴾ ^(١) .
 ﴿ لَاهُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ ^(٢) .
 ﴿ يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ ﴾ ^(٣) .

الرابع

المستوى

وهو أن الكلمة أو الكلمات تقرأ من أولها إلى آخرها ، ومن آخرها إلى أولها ،
 لا يختلف لفظها ولا معناها ، كقوله : ﴿ رَبِّكَ فَكَبِّرْ ﴾ ^(٤) .
 ﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ ﴾ ^(٥) .

الخامس

مقلوب البعض

وهو أن تكون الكلمة الثانية مركبة من حروف الكلمة الأولى ، مع بقاء بعض
 حروف الكلمة الأولى ، كقوله تعالى : ﴿ فَرَقْتُ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ ^(٦) ، فد « بَنِي »
 مركب من حروف « بين » ، وهو مفروق ، إلا أن الباقي بعضها في الكلمتين ،
 وهو أولها .

(٢) سورة الممتحنة ١٠

(٤) سورة المدثر ٣

(٦) سورة طه ٩٤

(١) سورة البقرة ١٨٧

(٣) سورة الحج ٦١

(٥) سورة الأنبياء ٣٣

المدرج

هذا النوع سميته بهذه التسمية ، بنظير المدرج من الحديث ^(١) ، وحقيقته في أسلوب القرآن أن تجيء الكلمة إلى جنب أخرى كأنها في الظاهر معها ، وهي في الحقيقة غير متعلقة بها ، كقوله تعالى ذاكرا عن بلقيس : ﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ ^(٢) هو من قول الله لا من قول المرأة . ومنه قوله تعالى : ﴿ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوِدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ ^(٣) . انتهى قول المرأة ^(٤) ، ثم قال يوسف عليه السلام : ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ ^(٥) ، معناه ليعلم الملك أني لم أخنه .

ومنه : ﴿ يَا وَيْلَتَنَا مَنِ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾ ^(٦) ، تم الكلام ، فقالت الملائكة : ﴿ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ ^(٧) .

وقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ ^(٨) فهذه صفة لأتقياء المؤمنين ، ثم قال : ﴿ يَمْدُونَهُمْ فِي الْعَنَى ﴾ ^(٩) ، فهذا يرجع إلى كفار مكة تمدهم إخوانهم من الشياطين في العنى .

(١) المدرج من الحديث كما في كتب المصطلح : أن تزداد لفظة في متن الحديث من كلام الراوى ، فيجسبها من يسمعا مرفوعة في الحديث فيروها كذلك . وانظر الباعث الخبيث ٨٠

(٢) سورة يوسف ٥١

(٣) سورة النمل ٣٤

(٤) كذا في الأصول ؛ والحقيقة أن قول المرأة ينتهى عند قوله تعالى حكاية عنها : ﴿ وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي ﴾

إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿ آية ٥٣

(٦) سورة يس ٥٢

(٥) سورة يوسف ٥٢ ؛ وهو من قول المرأة

(٨) سورة الأعراف ٢٠٢

(٧) سورة الأعراف ٢٠١

وقوله : ﴿ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ ﴾ ^(١) ثم أخبر عن فرعون متصلاً :
﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ ^(٢) .

وقوله : ﴿ هَذَا فَوْجٌ مُقْتَضٍ مَعَكُمْ لَأَمْرٍ حَبِيبٍ إِلَيْهِمْ صَالُوا النَّارِ ﴾ ^(٣) ، فالظاهر
أن الكلام كله من كلام الزبانية ، والأمر ليس كذلك .

وقوله : ﴿ إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبِ سَلِيمٍ ﴾ ^(٤) من كلامه تعالى ، وقال : ﴿ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ
بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ ^(٥) .



(٢) سورة ص ٥٩
(٤) سورة الشعراء ٨٩

(١) سورة الشعراء ٣٥
(٣) سورة الصافات ٨٤

الِشْرَاقِ

كقوله تعالى : ﴿ لَا تَأْخُذْهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ ^(١) ، ﴿ لَا يُفَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً ﴾ ^(٢) .

فإن قيل : فقد ورد : ﴿ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ ^(٣) ، والغالب أن يقدم فيه القليل على الكثير ؛ مع أن الظلم منع للحق من أصله ، والهضم مَنَعٌ له مَنْ وَجِهَ كالتطفيف ؛ فكان يناسبه ^(٤) تقديم الهضم .

قلت : لأجل فواصل الآي ؛ فإنه تقدم قبله : ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ ^(٥) ، فعَدَلَ عنه في الثاني ، كيلا يكون أبطأ ، وقد سيقَت أمثلة الترقى في أسباب التقديم .

(٢) سورة الكهف ٤٩

(١) م : « قِيَاسُهُ » .

(١) سورة البقرة ٢٥٥

(٣) سورة طه ١١٢

(٥) سورة طه ١١١

الاقْتِصَاصُ

ذكره أبو الحسين بن فارس ^(١) ، وهو أن يكون كلام في سورة مقتصاً من كلام في سورة أخرى ، أو في السورة نفسها ، ومثله بقوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ^(٢) ، والآخرة دار ثواب لا عمل فيها ، فهذا مقتص من قوله : ﴿ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ﴾ ^(٣) .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُخْضَرِينَ ﴾ ^(٤) ، مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُخَضَّرُونَ ﴾ ^(٥) .
وقوله : ﴿ ثُمَّ لَنُخْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًا ﴾ ^(٦) .

فأما قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ ^(٧) ، فيقال : إنها مقتصة من أربع آيات :
لأنَّ الأَشْهَادَ أربعة :

الملائكة عليهم السلام في قوله : ﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ ^(٨) .
والأنبياء عليهم السلام لقوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ ^(٩) .

وأمة محمد صلى الله عليه وسلم لقوله : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ ^(١٠) .

(٢) سورة الفسكوت ٢٧

(٤) سورة الصافات ٥٧

(٦) سورة مريم ٦٨

(٨) سورة ق ٢١

(١٠) سورة البقرة ١٤٣

(١) الصاحي ٢٠١

(٣) سورة طه ٧٥

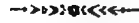
(٥) سورة الروم ١٦

(٧) سورة غافر ٥١

(٩) سورة النساء ٢١

والأعضاء لقوله : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١) .

ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴾ (٢) ، وقرئت مخففة ومثقلة (٣) ، فمن شدد فهو من « نَدَّ » إذا نفر ؛ وهو مقتص من قوله : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ .. ﴾ (٤) الآية (٥) ، ومن خفف فهو تفاعل من النداء، مقتص من قوله تعالى : ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ ﴾ (٦) .



-
- | | |
|---|---------------------------------|
| (١) سورة النور ٢٤ | (٢) سورة غافر ٣٢ |
| (٣) الصاحي : « مشددة » | (٤) سورة عبس ٣٤ |
| (٥) الصاحي : إلى آخر القصة . | (٦) سورة الأعراف ٤٤ ، وبعدها في |
| الصاحي : ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ ﴾ ، ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ ﴾ ، | |
| وما أشبه هذا من الآي التي فيها ذكر النداء . | |

الأيغاز

واللفز الطريق المنحرف ، سُمِّي به لانحرافه عن نَمَط ظاهر الكلام ؛ ويسمَّى أيضا أحجية ؛ لأنَّ الحجي هو العقل ؛ وهذا النوع يقوِّى العقل عند التمرن والارتعاض ، بحلِّه والفكر فيه .

وذكر بعضهم أنه وقع في القرآن العظيم ، وجعل منه ما جاء في أوائل السُّور من الحروف المفردة والمركبة التي جهل معناها ، وحارت العقول في منتهاها .

ومنه قوله تعالى في قصة إبراهيم لما سئل عن كسر الأصنام ، وقيل له : أنت فعلته ؛ فقال : ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا ﴾ ^(١) ، قابلهم بهذه المعارضة ليقم عليهم الحجة ، ويوضح لهم الحجة .

وكذلك قول نمرود : ﴿ أَنَا أَخِي وَأُمِّي ﴾ ^(٢) ، أتى بثنين فقتل أحدهما ، وأرسل الآخر ، فإن هذا مغالطة .

الاستِطْرَاد

وهو التعريض بعيب إنسان بذكر عيب غيره، كقوله تعالى : ﴿ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ ﴾ ^(١).
وكقوله : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ ^(٢).
وقوله : ﴿ أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ ﴾ ^(٣).

الترديد

وهو أن يعلّق المتكلم لفظة من الكلام ثم يردّها بعينها ، ويعلّقها بمعنى آخر كقوله :
﴿ حَتَّىٰ نُؤْتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ ... ﴾ ^(١) ، الآية ؛ فإن الأول مضاف إليه ، والثاني مبتدأ .

وقوله : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ ^(٢) .

وقوله : ﴿ لَمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَىٰ التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ ﴾ ^(٣) .

وقد يحذف أحدها ويضمر ، أو لا يلاحظ ^(٤) ؛ على الخلاف في قوله تعالى : ﴿ لَا رَبَّ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ ^(٥) .

(٢) سورة الروم ٦، ٧

(٤) ت « لا يلاحظ »

(١) سورة الأنعام ١٢٤

(٣) سورة التوبة ١٠٨

(٥) سورة البقرة ٢

التغليب

وحقيقته إعطاء الشيء حكم غيره . وقيل ترجيح أحد المغلوبين على الآخر ، أو إطلاق لفظه عليهما ؛ إجراء للمختلفين مجرى المتفقين .
وهو أنواع :

الأول

تغليب المذكر

كقوله تعالى : ﴿ وَجَمَعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾ ^(١) غلب المذكر ؛ لأن الواو جامعة ؛ لأن لفظ الفعل مقتض ^(٢) ، ولو أردت العطف امتنع .
وقوله : ﴿ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴾ ^(٣) .

وقوله : ﴿ إِلَّا أَمْرًا أَنَّهُ كَانَتْ مِنَ الْقَابِرِينَ ﴾ ^(٤) ، والأصل « من القانتات والعابرات » فعدت الأنثى من المذكر بحكم التغليب .

هكذا قالوا ؛ وهو عجيب ؛ فإن العرب تقول : نحن من بنى فلان ؛ لا تريد إلا مواليتهم ، والتصويب لطريقهم ؛ وفي الحديث الصحيح في الأشعرين : « هم منى وأنا منهم » فقوله سبحانه : ﴿ مِنْ أَلْقَانِتِينَ ﴾ ولم يقل : « من القانتات » ؛ إيذانا بأن وضمها في العبادة جدا واجتهادا ، وعلمنا وتبصرا ورفعة من الله لدرجاتها في أوصاف الرجال القانتين وطريقهم . ونظيره ، ولكن بالعكس قول عُمَيْة بن أَبِي معيط لأمية بن خلف لما أجمع القعود

(٢) ت « يقتضى » .

(٤) سورة الأعراف ٨٣

(١) سورة القيامة ٩

(٣) سورة التحريم ١٢

عن وقعة بدر ؛ لأنه كان شيخا فجاء بمجمرة ، فقال : يا أبا علي استجمر ، فإنما أنت من النساء ؛ فقال : قبحك الله وقبح ما جئت به ! ثم تجهز .

ونازع بعضهم في ذلك من وجه آخر ، فقال : يحتمل ألا يكون « من » للتمييز بل لابتداء الغاية ، أي كانت ناشئة من القوم القاتنين ، لأنها من أعقاب ، هارون أخى موسى عليه السلام .

الثاني

تغليب التكلم على الخطاب والمخاطب على الغائب

فيقال : أنا وزيد فعلنا ، وأنت وزيد تفعلان . ومنه قوله تعالى : ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ ^(١) ، بناء الخطاب ، غلب جانب « أتم » على جانب « قوم » ، والقياس أن يجيء بالياء ؛ لأنه وصف القوم ، وقوم اسم غيبة ؛ ولكن حسن آخر الخطاب ، وصفا لـ « قوم » لوقوعه خبرا عن ضمير المخاطبين . قاله ابن السجري .

ولو قيل : إنه حال لـ ﴿ فَتِلْكَ بَيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ ﴾ ^(٢) ، لأن في الضمير الخطاب معنى الإشارة للازمته لها ، أو لمعناها لكان متجها وإن لم تساعد الصناعة ، لكن يقصد أن المراد وصفهم بجهل مستمر ، لا بخصوص بحال الخطاب ، ولم يقل « جاهلون » ؛ أي إذا بانهم يتجددون عند كل مصيبة لطلب آيات جهلهم .

وقال أبو البركات بن الأنباري : ولو قيل : إنما قال : ﴿ تَجْهَلُونَ ﴾ بالناء - لأن « قوم » هو « أتم » في المعنى فذلك ، قال : « تَجْهَلُونَ » حملا على المعنى - لكان حسنا ، ونظيره قوله :

* أَنَا الَّذِي سَمَّنِي أُمِّي حَيْدَرَةً ^(٣) *

(١) سورة النمل ٥٥

(٢) سورة النمل ٥٢

(٣) من رجز علي بن أبي طالب ؛ أنشده حين برز للقتال يوم خيبر وبقيته .

لَيْثُ غَابِ كَرِيهُ الْمَنْظَرَةِ أَوْفِيهِمُ بِالصَّاعِ كَيْلَ السَّنْدَرَةِ

وانظر الرياض النضرة ٢ : ١٨٦

بالياء حملا على « أنا » لأن « الذى » هو « أنا » فى المعنى .

ومنه قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ ﴾ ^(١) ، غلب فيه جانب « أنت » على جانب « مَنْ » فأسند إليه الفعل ، وكان تقديره : فاستقيموا ، فغلب الخطاب على الغيبة ؛ لأن حرف العطف فصل بين المسند إليهم الفعل ، فصار كما ترى . قال صاحب الكشف : تقديره ^(٢) : فاستقم كما أمرت وليستقم كذلك من تاب معك .

وما قلنا أقل تقديرا من هذا فاختر أيهما شئت .

وقوله تعالى : ﴿ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ ﴾ ^(٣) ، فأعاد الضمير بلفظ الخطاب ، وإن كان « من تبعك » يقتضى الغيبة ، تغليبا للمخاطب وجعل الغائب تبعا له ، كما كان تبعا له فى المعصية والعقوبة ، فحسن أن يجعل تبعا له فى اللفظ ؛ وهو من محاسن ارتباط اللفظ بالمعنى .

وكقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ ^(٤) ، فإن الخطاب فى ﴿ لعلمكم ﴾ متعلق بقوله : ﴿ خلقكم ﴾ لا بقوله ﴿ اعبدوا ﴾ حتى يختص بالناس المخاطبين ، إذ لا معنى لقوله : « اعبدوا لعلمكم تتقون » . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ ^(٥) ، فيمين قرأ بالتاء . ويجوز أن يكون المراد بـ « ما تعملون » اخلق كلمهم ، والمخاطب النبى صلى الله عليه وسلم وكل سامع أبدا ، فيكون تغليبا ، ولا يجوز أن يعتبر خطاب من سواء بدونه من غير اعتبار التغليب ، لامتنان أن يخاطب فى كلام واحد اثنان أو أكثر من غير عطف أو تثنية أو جمع .

ومنه قوله تعالى ^(٦) : . . .

(٢) الكشف ٢ : ٣٢٨ ؛ مع تغيير

(٣) سورة الإسراء ٦٣

(٥) سورة هود ١٢٣

(١) سورة هود ١١٢

فى العبارة .

(٤) سورة البقرة ٢١

(٦) كذا فى الأصول .

الثالث

تغليب العاقل على غيره

بأن يتقدم لفظ يعم مَنْ يعقل وَمَنْ لا يعقل، فيطلق اللفظ المختص بالعاقل على الجميع، كما تقول: «خلق الله الناس والأنعام ورزقهم»، فإن لفظ «هم» مختص بالعقلاء. ومنه قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ﴾^(١)، لما تقدم لفظ الدابة، والمراد بها عموم مَنْ يعقل وَمَنْ لا يعقل غلب من يعقل، فقال: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ يَمُشِي﴾^(١).

فإن قيل: هذا صحيح في «فَمِنْهُمْ» لأنه لمن يعقل؛ وهو راجع إلى الجميع، فلم قال: «مَنْ» وهو لا يقع على العام، بل خاص بالعاقل؟

قلت: «مَنْ» هنا بعض «هُمْ»، وهو ضمير من يعقل.

فإن قلت: فكيف يقع على بعضه لفظ ما لا يعقل؟

قلت: من هنا قال أبو عثمان: إنه تغليب من غير عموم لفظ متقدم، فهو بمنزلة من يقول: رأيت ثلاثة: زيدا وعمراً وحماراً.

وقال ابن الضائع: هم لا تقع إلا على مَنْ يعقل، فلما أعاد الضمير على كل دابة غلب مَنْ يعقل، فقال: «هم»، و«مَنْ» بعض هذا الضمير؛ وهو للعاقل، فلزم أن يقول «من» فلما قال: بوقوع التغليب في الضمير، صار ما يقع عليه حكمه حكم العاقلين؛ فتم ذلك بأن أوقع «مَنْ».

وقوله تعالى حاكياً عن السماء والأرض ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾^(٢)، إنما جمعها جمع

(١) سورة النور ٤٥

(٢) سورة فصلت ١١

السلامة ، ولم يقل « طائعين » ولا « طائعات » ، لأنه أراد اثني بن فيكم من الخلائق طائعين ، فخرجت الحال على لفظ الجمع ، وغلب من يعقل من الذكور .

وقال بعض النحويين : لما أخبر عنهما أنهما يقولان كما يقول الآدميون أشبهتا الذكور من بني آدم . وإنما قال : « طائعين » ولم يقل : « مطيعين » لأنه من طعنا أى انقذنا ، وليس من أطعنا ؛ يقال : طاعت الناقة تطوع طوعا ؛ إذا انقادت .

وقوله تعالى : ﴿ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَهُ قَانِتُونَ ﴾ ^(١) ، قيل : أوقع « ما » لأنها تقع على أنواع من يعقل ؛ لأنه إذا اجتمع من يعقل وما لا يعقل فغلب ما لا يعقل ؛ كان الأمر بالعكس . ويناقضه : ﴿ كُلُّ لَهُ قَانِتُونَ ﴾ ^(٢) .

وقال الزمخشري : جاء ^(٣) بـ « ما » تحقيراً لثانهم وتصغيراً ، قال : « له قانتون » تعظيم .

ورد عليه ابن الصانع بصفة وقوعها على الله عز وجل ، قال : وهذا غاية الخطأ ؛

وقوله في دعاء الأصنام : ﴿ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴾ ^(٤) .

وقوله : ﴿ وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا ﴾ ^(٥) .

وأما قوله : ﴿ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ ^(٦) ، وقوله : ﴿ فِي فَلَكَ يَسْبَحُونَ ﴾ ^(٧) ،

﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴾ ^(٨) .

﴿ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ ^(٩) .

﴿ لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُّوهَا ﴾ ^(١٠) . ﴿ يَا أَيُّهَا النَّملُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ ﴾ ^(١١) .

(١) الكشف : ١ . . .

(٢) سورة فصلت ٢١

(٣) سورة يس ٤٠

(٤) سورة يوسف ٤

(٥) سورة النمل ١٨

(١) سورة البقرة ١١٦

(٢) سورة الشعراء ٧٢

(٣) سورة الشعراء ٤

(٤) سورة الأنبياء ٦٥

(٥) سورة الأنبياء ٩٩

لما أخبر عنها بأخبار الآدميين جرى ضميرها على حد من يعقل ، وكذا البواقي .

فإن قيل : فقد غلب غير العاقل على العاقل في قوله : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ ﴾ ^(١) فإنه لو غلب العاقل على غير العاقل لآتى بـ « من » .

فالجواب أن هذا الموضع غلب فيه من يعقل ، وعبر عن ذلك بـ « ما » ، لأنها واقعة على أجناس من يعقل خاصة ، كهذه الآية .

قوله : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ﴾ ^(٢) ، ولم يقل « ومن فيهن » قيل : لأن كلمة « ما » تتناول الأجناس كلها تناولا عاما بأصل الوضع ، و « من » لا تتناول غير العقلاء بأصل الوضع ، فكان استعمال « ما » هنا أولى .

وقد يجتمع في لفظ واحد تغليب المخاطب على الغائب ، والعلاء على غيرهم ، كقوله : ﴿ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ ﴾ ^(٣) ، أى خلق لكم أيها الناس من جنسكم ذكورا وإناثا ، وخلق الأنعام أيضا من أنفسها ذكورا وإناثا ، يذروكم ، أى ينبئكم ويكثركم أيها الناس والأنعام ، في هذا التذيير والجعل ، فهو خطاب للجميع ؛ للناس المخاطبين وللأنعام المذكورة بلفظ الغيبة ، ففيه تغليب المخاطب على الغائب ، وإلا لما صح ذكر الجميع - أعنى الناس والأنعام - بطريق الخطاب ؛ لأن الأنعام غيب ، و [فيه] تغليب العقلاء على غيرهم ؛ وإلا لما صح خطاب الجمع بلفظ « كم » المختص بالعلاء ، ففي لفظ « كم » تغليبان ، ولولا التغليب لكان القياس أن يقال : يذروكم وإياها . هكذا قرره السكاكي والزحشرى .

ونوزعا فيه ؛ بأن جعل الخطاب شاملا للأنعام تكلف لا حاجة إليه ؛ لأن الغرض إظهار القدرة وبيان الألفاظ في حق الناس ؛ فالخطاب مختص بهم ، والمعنى : يكثركم

أيها الناس في التدبير حيث مكّنكم من التوالّد والتناسل ، وهياً لكم من مصالحكم ما تحتاجون إليه في ترتيب المعاش وتدبير التوالّد ، وجعلها أزواجاً تبقى ببقائكم ، وعلى هذا يكون التقدير : وجعل لكم من الأنعام أزواجاً . وهذا أنسب بنظم الكلام مما قرروه ، وهو جعل الأنعام أنفسها أزواجاً .

وقوله : ﴿ يَذَرُوكُمْ فِيهِ ﴾ ^(١) أى في هذا التدبير ؛ كأنه محلّ لذلك ، ولم يقل « به » كما قال : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ ^(٢) ؛ لأنه مسوق لإظهار الاقتدار مع الوحدانية ، فأسقط السببية ، وأثبت « في » الظرفية ، وهذا وجه من إعجاز قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ ؛ لأن الحياة من شأنها الاستناد إليه سبحانه لا إلى غيره ، فاختيرت « في » على « الباء » ؛ لأنه مسوق لبيان الترغيب والمعنى مفهوم ، والقصاص مسوق للتجويز وحسن الشريعة ، ﴿ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ ^(٣) .

الرابع

تغليب المتصف بالشئ على مالم يتصف به

كقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ ^(٤) ، قيل : غلب غير المرتابين على المرتابين ، واعترض بقوله تعالى : ﴿ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ، وهذا خطاب للكفار فقط قطعاً ، فهم المخاطبون أولاً بذلك ؛ ثم « إن كنتم صادقين » لا يميز فيها التغليب ، ثم هي شاهدة بأن المتكلم معهم يخصّ

(٢) سورة البقرة ١٧٩

(٤) سورة البقرة ٢٣

(١) سورة الثورى ١١

(٣) سورة البقرة ٢٣٧

الجاحدين بقوله : ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ^(١) ، وإذا لم يكن الخطاب إلا فيهم ، فتغليب حال من لم يدخل في الخطاب ، لا عهد به في مخاطبات العرب .

الخامس

تغليب الأكثر على الأقل

بأن ينسب إلى الجميع وصف يختص بالأكثر ، كقوله تعالى : ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُولُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ ^(٢) ، أدخل شعيب عليه السلام في قوله : ﴿ لَتَعُولُنَّ ﴾ بحكم التغليب ؛ إذ لم يكن في ملتهم أصلاً حتى يعود إليها . ومثله قوله : ﴿ إِن عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ ﴾ ^(٣) ، واعترض بأن « عاد » بمعنى « صار » لغة معروفة ، وأنشدوا :

فإن تكن الأيام أحسن مرةً إلى فقد عادت لهنَّ ذُنُوبُ

ولا حجة فيه ؛ لجواز أن يكون ضمير « الأيام » فاعل « عادت » ؛ وإنما الشاهد في قول أمية :

تلك المكارم لا قعبانٍ من لبنٍ شيئاً بماء فعاد بعدُ أبوالاً

ويحتمل جواباً ثالثاً ؛ وهو أن يكون قولهم لشعيب ذلك ، من تعنتهم وبهتانهم وأدعائهم أن شعيباً كان على ملتهم ، لا كما قال فرعون لموسى . وقوله : ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا ﴾ ^(٤) كناية عن أتباعه لمجرد فائدتهم ، وأنه صلى الله عليه وسلم إن قال ذلك عن نفسه وأتباعه فقد استثنى ، والمعلق بالمشيئة لا يلزم إمكانه شرعاً تقديراً ، والاعتراف بالقدرة والرجوع لعلمه سبحانه ، وأن عليم العبد عصمة نفسه أدباً مع ربه لا شكاً .

(٢) سورة الأعراف ٨٨

(٤) سورة الأعراف ٨٩

(١) سورة البقرة ٢٣

(٣) سورة الأعراف ٨٩

ويحوز أن يراد بالعود في ملتهم مجرد المساكنة والاختلاط ، بدليل قوله : ﴿ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ﴾ ^(١) . ونظيره : ﴿ وَمُطَهَّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ^(٢) ، ويكون ذلك إشارة إلى الهجرة عنهم ، وترك الإجابة لهم ، لاجوابا لهم . وفيه بعد .

السادس

تغليب الجنس الكثير الأفراد على فرد من غير هذا الجنس

مغموز فيما بينهم ، بأن يطلق اسم الجنس على الجميع

كقوله : ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ . إِلَّا إِبْلِيسَ ﴾ ^(٣) ، وأنه عدّ منهم ؛ مع أنه كان من الجن ، تغليبا لكونه جنيا واحدا فيما بينهم . ولأن حمل الاستثناء على الاتصال هو الأصل . ويدلّ على كونه من غير الملائكة مارواه مسلم في صحيحه : « خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ وَالْجِنُّ مِنَ النَّارِ » ^(٤) .

وقيل : إنه كان ملكا فسبب الملكية ، وأجيب عن كونه من الجن بأنه اسم لنوع من الملائكة .

قال الزمخشري : كان مختلطا بهم ، فينثذ عتمته الدعوة بالخلطة لا بالجنس ؛ فيكون من تغليب الأكثر .

هذا إن جعلنا الاستثناء متصلا ؛ ولم يجعل « إلا » بمعنى « لكن » .

وقال ابن جني في « القد » : قال أبو الحسن في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ

(١) سورة الأعراف ٨٩

(٢) سورة آل عمران ٥٥ .

(٣) سورة ص ٧٣ ، ٧٤

(٤) لفظ الحديث في صحيح مسلم ٤ : ٢٢٩٤ : « خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وَصَفَ لَكُمْ » ، بسنده عن عائشة .

أَبْنِ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيْ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴿١﴾ ، وَإِنَّمَا اتَّخَذَ الْهَلَا عِيسَى دُونِ أُمِّهِ ؛ فَهُوَ مِنْ بَابِ :

* لَنَا قَرَاهَا وَالنَّجُومِ الطَّوَالِعِ ﴿٢﴾ *

السابع

تغليب الموجود على ما لم يوجد

كقوله : ﴿ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ﴾ ﴿٣﴾ قَالَ الزَّمْخَشَرِيُّ : فَإِنْ ﴿٤﴾ الْمُرَادُ : الْمُنْزَلُ كُلُّهُ ؛ وَإِنَّمَا عَبَّرَ عَنْهُ بِلَفْظِ الْمَضْيِ وَإِنْ كَانَ بَعْضُهُ مُتَرَقِّبًا ، تَغْلِيْبًا لِلْمَوْجُودِ عَلَى مَا لَمْ يَوْجَدْ .

الثامن

تغليب الإسلام

كقوله تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ ﴾ ﴿٥﴾ قَالَ الزَّمْخَشَرِيُّ ﴿٦﴾ : لِأَنَّ الدَّرَجَاتِ لِلْعَالِوِ وَالِدَرَكَاتِ لِلْسَفْلِ ، فَاسْتَعْمَلَ الدَّرَجَاتِ فِي الْقَسْمَيْنِ تَغْلِيْبًا .

التاسع

تغليب ما وقع بوجه مخصوص على ما وقع بغير هذا الوجه

كقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيكُمْ ﴾ ﴿٧﴾ ، ذَكَرَ الْأَيْدِي لِأَنَّ أَكْثَرَ الْأَعْمَالِ

(١) سورة المائدة ١١٦

(٢) صدره :

* أَخَذْنَا بِأَفَاقِ السَّمَاءِ عَلَيْكُمْ *

(٣) سورة البقرة ٤

(٤) سورة الأحقاف ١٩

ومع للفرزادق ، ديوانه ٢ : ٥١٩

(٥) الكشف ١ : ٣٣

(٦) الكشف ٤ : ٢٤١ ؛ وعبارته هناك :

« وَلِكُلِّ ﴾ مِنَ الْجَنَّةِ الْمَذْكُورِينَ ﴿ دَرَجَاتٍ ﴾ مِمَّا عَمِلُوا ؛ أَيُّ مَنَازِلَ وَمَرَاتِبَ مِنْ جَزَاءِ مَا

عَمِلُوا مِنَ الْخَيْرِ وَالْشَّرِّ ؛ وَمَنْ أَجَلَ مَا عَمِلُوا مِنْهُمَا . فَإِنْ قُتِلَ : كَيْفَ قَبْلَ ﴿ دَرَجَاتٍ ﴾ ، وَقَدْ جَاءَ :

الجنة درجات ، والنار دركات ؟ قلت : يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ التَّغْلِيْبِ ، لِاسْتِمَالِ كُلِّ عَلَى الْفَرِيقَيْنِ .

(٧) سورة آل عمران ١٨٢ .

زاول بها ، فحصل الجمع بالواقع بالأيدى ، تغليبا أشار إليه الزمخشري في آخر آل عمران^(١) .
ويشاكله ما أنشده الغزنوي في « الحمريات » لصفية بنت عبد المطلب :

فلا والعَادِيَاتِ غَدَاةَ جَمْعٍ بِأَيْدِيهَا إِذَا سَطَعَ الْغُبَارُ^(٢)

العاشر

تغليب الأشهر

كقوله تعالى : ﴿ يَالَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ ﴾^(٣) أراد المشرق والمغرب ؛
فغلب المشرق ؛ لأنه أشهر الجهتين ، قاله ابن السجري وسيأتي فيه وجه آخر .

فائدتان

إحداها :

جميع باب التغليب من الجاز ؛ لأن اللفظ لم يستعمل فيما وضع له ، ألا ترى أن القاتنين
موضوع للذكور الموصوفين بهذا الوصف ، فإطلاقه على الذكور والإناث على غير ماوضع له ،
وقس على هذا جميع الأمثلة السابقة .

الثانية :

الغالب من التغليب أن يراعى الأشرف كما سبق ؛ ولهذا قالوا في تثنية الأب والأم :
أبوان ، وفي تثنية المشرق والمغرب : المشرقان ، لأن الشرق دال على الوجود ، والغرب
دال على العدم ؛ والوجود لا محالة أشرف ، وكذلك القمران ، قال :

* لنا قراها والنجوم الطوالع *

أراد الشمس والقمر ، فغلب القمر لشرف التذكير . وأما قولهم سنة العمرين ؛ يريدون

(٢) تفسير البحر لأبي حيان ٨ : ٥٠٣

(١) في الكشف ١ : ٣٤٤

(٣) سورة الزخرف ٣٨ .

أبا بكر وعمر ، قال ابن سيده في " المحكم " : إنما فعلوا ذلك إشاراً للخفة ، أي
غلب الأخفة على الأثقل ، لأن لفظ « عمر » مفرد ولفظ أبي بكر مركب .

وذكر أبو عبيد في " غريب الحديث " ، أن ذلك للشهرة وطول المدة .
وذكر غيرها أن المراد به عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز ، وعلى هذا
فلا تغليب .

وردة بأنهم نطقوا بالعمرين قبل أن يعرفوا عمر بن عبد العزيز ، فقالوا يوم الجمل
لعلي بن أبي طالب : سِنَّةُ العمرين .



الانفائت

وفيه مباحث :

الأول : فى مبقفه

وهو نقل الكلام من أسلوب إلى أسلوب آخر نظريةً واستدراراً للسامع ، وتجديداً لنشاطه ، وصيانة لخاطره من الملل والضجر ، بدوام الأسلوب الواحد على سمعه ، كما قيل :

لَا يُضِلِّحُ النَّفْسَ إِنْ كَانَتْ مُصَرِّفَةً إِلَّا التَّنْقُلُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ
قال حازم فى " منهاج البلاء " : وهم يسأمون الاستمرار على ضمير متكلم أو ضمير مخاطب ، فينتقلون من الخطاب إلى الغيبة . وكذلك أيضاً يتلاعب المتكلم بضميره ، فتارة يجعله تاء على جهة الإخبار عن نفسه ، وتارة يجعله كافاً فيجعل نفسه مخاطباً وتارة يجعله هاء ، فيقيم نفسه مقام الغائب . فذلك كان الكلام المتوالى فيه ضمير المتكلم والمخاطب لا يستطاب ؛ وإنما يحسن الانتقال من بعضها إلى بعض ، وهو نقل معنوى لا لفظى ؛ وشرطه أن يكون الضمير فى المتنقل إليه عائداً فى نفس الأمر إلى المتنّت عنه : ليخرج ^(١) نحو أكرم زيداً ، وأحسن إليه ؛ فضمير « أنت » الذى هو « أكرم » غير الضمير فى « إليه » .

واعلم أن للتكلم وانقلاب والغيبة مقامات ، والمشهور أن الانفئات هو الانتقال من أحدها إلى الآخر بعد التعبير بالأول .

وقال السكاكي : إما ذلك ، وإما التعبير بأحدهما فيما حقه التعبير بغيره .

البحث الثاني : في أقسام

وهي كثيرة :

الأول

الالتفات من التكلم إلى الخطاب

ووجهه حث السامع وبعثه على الاستماع حيث أقبل المتكلم عليه ، وأنه أعطاه فضل عناية وتخصيص بالمواجهة ، كقوله تعالى : ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ^(١) ، الأصل : « وإليه أرجع » فالتفت من التكلم إلى الخطاب ، وفائدته أنه أخرج الكلام في معرض مناصحته لنفسه ، وهو يريد نُصَحَ قومه ، تلطفا وإعلاما أنه يريد لهم ما يريد لنفسه ، ثم التفت إليهم لكونه في مقام تخويفهم ودعوتهم إلى الله .

وأيضاً فإن قومه لما أنكروا عليه عبادته الله ، أخرج الكلام معهم بحسب حالهم ، فاحتج عليهم بأنه يقبح منه أنه لا يعبد فاطره ومبدعه ؛ ثم حذرهم بقوله : ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ^(١) .

لذا جعلوه من الالتفات ، وفيه نظر لأنه ؛ إما يكون منه إذا كان القصد الإخبار عن نفسه في كلتا الجملتين ، وهاهنا ليس كذلك ، لجواز أن يكون أراد بقوله : ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ^(١) مخاطبين ؛ ولم يرد نفسه ، ويؤيده ضمير الجمع ، ولو أراد نفسه لقال : « نرجع » .

وأيضاً فشرط الالتفات أن يكون في جملتين ، و « فطرني » و « وإليه ترجعون » كلام واحد .

وأجيب بأنه لو كان المراد بقوله : ﴿ تَرْجِعُونَ ﴾ ظاهره لما صح الاستفهام الإنكارى ؛ لأن رجوع العبد إلى مولاه ليس بمعنى أن يعبد غير ذلك الراجع . فالمعنى : كيف أعبد من إليه رجوعي ؛ وإنما ترك « وإليه أرجع » إلى ﴿ وَإِلَيْهِ تَرْجِعُونَ ﴾ لأنه داخل فيهم . ومع ذلك أفاد فائدة حسنة ؛ وهى أنه تنبيههم أنهم مثله في وجوب عبادة من إليه الرجوع ؛ فعلى هذا ، الواو للحال ، وعلى الأول واو العطف .

ومنه قوله : ﴿ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾ ^(١) عدل عن قوله : « رَحْمَةً مِنَّا » إلى قوله : ﴿ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾ ؛ لما فيه من الإشعار بأن ربوبيته تقتضى رحمته ؛ وأنه رحيم بعبد ، كقوله : ﴿ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ ﴾ ^(٢) .

وقوله : ﴿ أَدْعُوا رَبَّكُمْ ﴾ ^(٣) ، ﴿ وَأَعْبُدُوا رَبَّكُمْ ﴾ ^(٤) ، وهو كثير .

وقوله : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ﴾ ^(٥) ولم يقل : « لغفر لك » تعليقاً لهذه المغفرة التامة باسمه المتضمن لسائر أسمائه الحسنى ، ولهذا علق به النصر ، فقال : ﴿ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ ^(٦) .

الثانى

من التكلم إلى الغيبة

ووجهه أن يفهم السامع أن هذا نمط المتكلم وقصده من السامع ؛ حضر أو غاب ،

(٢) سورة سبا ١٥

(٤) سورة الحج ٧٧

(٦) سورة الفتح ٣

(١) سورة الكهف ٨٢

(٣) سورة الأعراف ٥٥

(٥) سورة الفتح ٢٤١

وأنه في كلامه ليس يَمُنْ يَتَلَوْنَ وَيَتَوَجَّهْ ، فيكون في المضمَر ونحوه ذا لَوْنَيْنِ ، وأراد بالانتقال إلى الغيبة الإبقاء على المخاطب ؛ من قرعه في الوجه بسهام الهجر ، فالغيبة أَرْوَحُ له ، وأبقى على ماء وجهه أن يفوت ، كقوله : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ . فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ ^(١) ، حيثُ لم يقل « لنا » تحريضاً على فعل الصلاة لحق الربوبية .

وقوله : ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ . أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ . رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ ^(٢) .

وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ... ﴾ ^(٣) إلى قوله : ﴿ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ ^(٤) ، ولم يقل : « بي » .

وله فائدتان : إحداهما دفع التهمة عن نفسه بالعصية لها ، والثاني تنبيههم على استحقاقه الاتباع بما أتصف به من الصفات المذكورة ، من النبوة والأمية ، التي هي أكبر دليل على صدقه ، وأنه لا يستحق الاتباع لذاته ، بل لهذه الخصائص .

الثالث

من الخطاب إلى التكلم

كقوله : ﴿ فَأَقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا ﴾ ^(٥) ؛ وهذا إنما يتمشى على قول من لم يشترط أن يكون المراد بالالتفات واحداً ؛ فأما من اشترطه فلا يحسن أن يمثل به ، ويمكن أن يمثل بقوله تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴾ ^(٥) على أنه سبحانه نَزَلَ نَفْسَهُ منزلة المخاطب .

(٢) سورة الدخان ٤-٦

(٤) سورة طه ٧٢ ، ٧٣

(١) سورة الكوثر ١ ، ٢

(٣) سورة الأعراف ١٥٨

(٥) سورة يونس ٢١

الرابع

من الخطاب إلى الغيبة

كقوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ ﴾ ^(١) ، فقد التفت عن ﴿ كُنْتُمْ ﴾ إلى ﴿ جَرَيْنَ بِهِمْ ﴾ ، وفائدة العدول عن خطابهم إلى حكاية حالهم لغيرهم . لتعجبه من فعلهم وكفرهم ، إذ لو استمر على خطابهم لفاتت تلك الفائدة .

وقيل : لأن الخطاب أولاً كان مع الناس : مؤمنهم وكافرهم ؛ بدليل قوله : ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ ^(١) ، فلو قال : « وجرين بكم » لزم الدم للجميع . فالتفت عن الأول للإشارة إلى الاختصاص بهؤلاء الذين شأنهم ما ذكره عنهم في آخر الآية ، فعدل عن الخطاب العام إلى الدم الخاص ببعضهم . وهم الموصوفون بما أخبر به عنهم .

وقيل : لأنهم وقت الركوب حصروا ، لأنهم خافوا الهلاك وتقلب الرياح ، فناداهم نداء الحاضرين . ثم إن الرياح لما جرت بما تشهى النفوس ، وأمنت الهلاك لم يبق حضورهم كما كان على ما هي عادة الإنسان ؛ أنه إذا أمن غاب ، فلما غابوا عند جريه بريح طيبة فكفرهم الله بصيغة الغيبة ؛ فقال : ﴿ وَجَرَيْنَ بِهِمْ ﴾ .

وقوله : ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُخْبَرُونَ ﴾ ^(٢) ثم قال : ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ ﴾ ^(٣) فانتقل عن الخطاب إلى الغيبة ، ولو ربط بما قبله لقال : « يطاف عليكم » ، لأنه مخاطب لا مخبر ، ثم التفت فقال : ﴿ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ ^(٤) فكرر الالتفات .

وقوله : ﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْمِفُونَ ﴾ ^(٥)

(٢) سورة الزخرف ٧٠

(٤) سورة الروم ٣٩

(١) سورة يونس ٢٢

(٣) سورة الزخرف ٧١

وقوله : ﴿ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾ ^(١)

وقوله : ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ . وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ ﴾ ^(٢) ،

والأصل « فقطعتم » عطفًا على ما قبله ، لكن عدل من الخطاب إلى الغيبة ، فقيل :

إنه سبحانه نعى عليهم ما أفسدوه من أمر دينهم إلى قوم آخرين ، ووجههم عليه قائلا :

الأترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء في دين الله !

وجعل منه ابن السجري : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾ ^(٣) ، وقد سبق أنه على

حذف المفعول ، فلا التفات .

الخامس

من الغيبة إلى التكلم

كقوله : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَمْرُئِ بِعَيْنِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ

الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ ^(٤) .

﴿ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا ﴾ ^(٥) .

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا . لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴾ ^(٦) .

وقوله : ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ ﴾ ^(٧) وفائدته أنه لما كان

(٢) سورة الأنبياء ٩٢ ، ٩٣

(٤) سورة الإسراء ١

(٦) سورة مريم ٨٨ ، ٨٩

(١) سورة الحجرات ٧

(٣) سورة الضحى ٣

(٥) سورة فصلت ١٢

(٧) سورة فاطر ٩

سَوَّقُ السحاب إلى البلد إحياءً للأرض بعد موتها بالمطر ، دالاً على القدرة الباهرة ، والآية العظيمة التي لا يقدر عليها غيره ، عدل عن لفظ الغيبة إلى التكلم ؛ لأنه أدخل في الاختصاص ، وأدل عليه وأختم .

وفيه معنى آخر ؛ وهو أن الأقوال المذكورة في هذه الآية ، منها ما أخبر به سبحانه بسببه ؛ وهو سَوَّقُ السحاب ، فإنه يسوق الرياح ، فتسوقه الملائكة بأمره ، وإحياء الأرض به بواسطة إنزاله ، وسائر الأسباب التي يقتضيها حكمه وعلمه . وعادته سبحانه في كل هذه الأفعال أن يخبر بها بنون التعظيم ، الدالة على أن له جنداً وخلقاً قد سخرهم في ذلك ، كقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ ^(١) ، أي إذا قرأه رسولنا جبريل . وقوله : ﴿ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴾ ^(٢) .

وأما إرسال السحاب فهو سحاب يأذن في إرسالها ، ولم يذكر له سبباً ، بخلاف سوق السحاب ، وإنزال المطر فإنه قد ذكر أسبابه : ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ﴾ ^(٣) . ﴿ أَمِنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾ ^(٤) .

وجعل الزمخشري منه قوله : في سورة طه : ﴿ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى ﴾ ^(٥) . وزعم الجرجاني أن في هذه الآية التفاتاً ، وجعل قوله : ﴿ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ ^(٥) آخر كلام موسى ، ثم ابتداء الله تعالى فأخبر عن نفسه بأوصافه لمعالجتها .

وأشار الزمخشري ^(٦) إلى أن فائدة الالتفات إلى التكلم في هذه المواضع التنبيه على

(٢) سورة طه ١٠٢

(٤) سورة الحل ٦٠

(١) الكشاف ٣ : ٥٣

(١) سورة الأيماة ١٨

(٣) سورة فاطر ٢٧

(٥) سورة طه ٥٣

التخصيص بالقدرة ، وأنه لا يدخل تحت قدرة واحد ، وهو معنى قول غيره : إن الإشارة إلى حكاية الحال واستحضار تلك الصورة البديعة الدالة على القدرة . وكذا يفعلون لـ « كل فعل فيه نوع تمييز وخصوصية بحال تُستغرب ، أو تهتم المحاطب ؛ وإِنما قال : ﴿ فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾ ^(١) ، لإفادة بقاء المطر زماناً بعد زمان .

ومثله : ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الْأَدْنَىٰ بِمِصَابِيحٍ ﴾ ^(٢) عدل عن الغيبة في « قضاهن » و « سواهن » إلى التكلم في قوله : ﴿ وَزَيَّنَّا ﴾ ^(٣) ، فقليل للاهتمام بذلك ، والإخبار عن نفسه ، بأنه جعل الكواكب زينة السماء الدنيا ، وحفظاً ؛ تكذيباً لمن أنكر ذلك .

وقيل : لما كانت الأفعال المذكورة في هذه الآية نوعين :

أحدهما وجه الإخبار عنه بوقوعه في الأيام المذكورة ، وهو خلق الأرض في يومين ، وجعل الرواسي من فوقها وإلقاء البركة فيها ، وتقدير الأقوات في تمام أربعة أيام ؛ ثم الإخبار بأنه استوى إلى السماء ، وأنه أتمها وأكملها سبعا في يومين ؛ فأتى في هذا النوع بضمير الغائب ، عطفاً على أول الكلام في قوله : ﴿ قُلْ أَتِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ . وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ ... ﴾ ^(٣) إلى قوله : ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ... ﴾ ^(٤) الآية .

والثاني قصد به الإخبار مطلقاً ، من غير قصد مدة خلقه ، وهو تزيين سماء الدنيا بمصابيح ، وجعلها حفظاً ؛ فإنه لم يقصد بيان مدّة ذلك ؛ بخلاف ما قبله ؛ فإن نوع الأول يتضمن إيجاداً لهذه المخلوقات العظيمة في هذه المدة السيرة ، وذلك من أعظم آثار قدرته . وأما تزيين

(٢) سورة فصلت ١٢

(٤) سورة فصلت ١٢

(١) سورة الحج ٦٣

(٣) سورة فصلت ١٠، ٩

السماء الدنيا بالمصاييح فليس المقصود به الإخبار عن مدة خلق النجوم ، فالتفت من الغيبة إلى التكلم ، فقال : ﴿ زَيْنًا ﴾ .

فائدة

[في تكرار الالتفات في موضع واحد]

وقد تكرر الالتفات في قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ ^(١) في أربعة مواضع ؛ فانتقل عن الغيبة في قوله : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ ﴾ ، إلى التكلم في قوله : ﴿ بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ ، ثم عن التكلم إلى الغيبة في قوله : ﴿ لِنُرِيَهُ ﴾ ، بالياء على قراءة الحسن ، ثم عن الغيبة إلى التكلم في قوله : ﴿ آيَاتِنَا ﴾ ؛ ثم عن التكلم إلى الغيبة في قوله : ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ .

وكذلك في الفاتحة ، فإن من أولها إلى قوله : ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ ^(٢) أسلوب غيبة ، ثم التفت بقوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ^(٣) إلى أسلوب خطاب في قوله : ﴿ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ ^(٢) ، ثم التفت إلى الغيبة بقوله : ﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ ^(٢) ، ولم يقل « الذين غضبت » كما قال : ﴿ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ ^(٢) .

السادس

من الغيبة إلى الخطاب

كقوله : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا . لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴾ ^(٣) ، ولم يقل :

(٢) سورة الفاتحة ٤ ، ٥ ، ٧

(١) سورة الإسراء ١

(٣) سورة مريم ٨٨ ، ٨٩

« لقد جاءوا » للدلالة على أن من قال مثل قولهم ينبغي أن يكون موثقاً عليه ، منكراً عليه قوله ، كأنه يخاطب به قوما حاضرين .

وقوله : ﴿ وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْخُسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ ﴾ ^(١) ، ثم قال : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ ^(٢) .

وقوله : ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا . إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً ﴾ ^(٣) .

وقوله : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ أَسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَ كَفَرْتُمْ ﴾ ^(٤) .

وقوله : ﴿ فَتَكُونُ بِهِمْ جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كُنْتُمْ ﴾ ^(٥) .

وقوله : ﴿ أَلَمْ تَر إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظَّلَّ ﴾ ^(٦) ، ثم قال : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴾ ^(٧) .

وقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنْذَرْتَهُمْ ... ﴾ ^(٨) الآية .

وقوله : ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى ﴾ ^(٩) .

وقوله : ﴿ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ^(١٠) .

وقوله : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نَكُنْ لَكُمْ ﴾ ^(١١) .

وقوله حكاية عن الخليل : ﴿ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ

(١) سورة مريم ٧١

(٢) سورة آل عمران ١٠٦

(٣) سورة الفرقان ٤٥

(٤) سورة البقرة ٥٧

(٥) سورة الأنعام ٦

(١) سورة مريم ٣٩

(٢) سورة الدهر ٢١، ٢٢

(٣) سورة التوبة ٣٥

(٤) سورة البقرة ٦

(٥) سورة الأحزاب ٥٠

تَعْلَمُونَ . إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ^(١) ، إلى قوله : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ ﴾ ^(٢) .

وقوله : ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ . وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ . وَابْرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ ^(٣) .

وقوله : ﴿ وَأَنْتُمْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا ﴾ ^(٤) إلى قوله : ﴿ فَامْشَلْهُ كَمَشَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكْهُ يَلْهَثْ ﴾ ^(٥) .

وقوله : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ . . . ﴾ ^(٦) الآية .

وجعل بعضهم منه قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا ﴾ ^(٧) ، وهو عجيب لأن « الذين » موصول لفظه للغيبة ، ولا بد له من عائد وهو الضمير في « آمنوا » ، فكيف يعود ضمير مخاطب على غائب ! فهذا مما لا يعقل .

وقوله : ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ . إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ ^(٨) ؛ فقد التفت عن الغيبة وهو ﴿ مَالِكِ ﴾ إلى الخطاب وهو : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ ^(٨) .

ولك أن تقول : إن كان التقدير : قولوا الحمد لله ، ففيه التفتان - ، أعنى في الكلام المأمور به :

أحدها : في لفظ الجلالة ، فإن الله تعالى حاضر ، فأصله الحمد لك .

والثاني : ﴿ إِيَّاكَ ﴾ لجيشه على خلاف الأسلوب السابق وإن لم يقدر : « قولوا » كان في « الحمد لله » التفتان عن التكلم إلى الغيبة ؛ فإن الله سبحانه حمده نفسه ، ولا يكون في ﴿ إِيَّاكَ ﴾

(٢) سورة العنكبوت ٢٤

(٤) سورة الأعراف ١٧٥

(٦) سورة المائدة ٣٨ ، ٣٩

(٨) سورة الفاتحة ٥ ، ٤

(١) سورة العنكبوت ١٦ ، ١٧

(٣) سورة إبراهيم ١٩ - ٢١

(٥) سورة الأعراف ١٧٦

(٧) سورة المائدة ٦

نعبد ﴿ التفات ؛ لأن « قولوا » مقدرة معها قطعاً ؛ فإِذَا أن يكون في الآية التفات ، أولاً التفات بالكلية .

السابع

بناء الفعل للمفعول بعد خطاب فاعله أو تكلمه

فيكون التفاتاً عنه ، كقوله تعالى : ﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ ^(١) بعد ﴿ أُنْعَمْتَ ﴾ ^(٢) ؛ فإن المعنى « غير الذين غضبت عليهم » ذكره التنوخي في " الأقصى القريب " ، والخفاجي ، وابن الأثير وغيرهم .

واعلم أنه على رأى السكاكى تجب الأقسام الستة في القسم الأخير ، وهو الانتقال التقديرى .

وزعم صاحب " ضوء المصباح " أنه لم يستعمل منها إلا وضع الخطاب والغيبة موضع التكلم ، ووضع التكلم موضع الخطاب ، ومثل الثالث بقوله : ﴿ وَمَالِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ ^(٣) ، مكان « ومالك لا تعبدون الذى فطركم » .

وجعل بعضهم من الالتفات قوله تعالى : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ بِمَهْدِهِمْ ﴾ ^(٤) ثم قال : ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ ﴾ ^(٥) ، وقوله : ﴿ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ ^(٦) .

البحث الثالث فى أسبابه

اعلم أن للالتفات ^(٥) فوائد عامة وخاصة ؛ فمن العامة التفات والانتقال من أسلوب إلى آخر

(٢) سورة يس ٢٢

(٤) سورة النساء ١٦٢

(١) سورة الفاتحة ٧

(٣) سورة البقرة ١٧٧

(٥) ت : « اليقين » تحريف

لما في ذلك من تنشيط السامع ، واستجلاب صفاته ، واتساع مجارى الكلام ، وتسهيل الوزن والقافية .

وقال البيانون : إن الكلام إذا جاء على أسلوب واحد وطال حسن تغيير الطريقة . ونازعهم القاضى شمس الدين بن الجوزى وقال : الظاهر أن مجرد هذا لا يكفي فى المناسبة ، فإننا رأينا كلاماً أطول من هذا ، والأسلوب محفوظ ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ... ﴾ ^(١) إلى أن ذكر عشرة أصناف ، وختم بـ ﴿ الَّذِى كَرِهَ اللَّهُ كَثِيراً وَالَّذِينَ كَرِهَ ﴾ ، ولم يغير الأسلوب ؛ وإنما المناسبة أن الإنسان كثير القلب ، وقلبه بين إصبعين من أصابع الرحمن ، يقلبه كيف يشاء ، فإنه يكون غائباً فيحضر بكلمة واحدة ، وآخر يكون حاضراً فيغيب ، فالله تعالى لما قال : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ^(٢) تنبّه السامع وحضر قلبه ، فقال : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ^(٣) . وأما ^(٤) الخاصة فتختلف باختلاف مجاله ومواقع الكلام فيه على ما يقصده المتكلم .

فنها قصد تعظيم شأن المخاطب ، كما فى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ، فإن العبد إذا افتتح حمد مولاه بقوله : « الْحَمْدُ لِلَّهِ » الدال على اختصاصه بالحمد وجد من نفسه التحرك للإقبال عليه سبحانه ؛ فإذا انتقل إلى قوله : ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ الدال على ربوبيته لجميعهم قوى تحركه ، فإذا قال : ﴿ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ الدال على أنه منعم بأنواع النعم ؛ جليلها وحقيرها تزايد التحرك عنده ، فإذا وصل لـ ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ وهو خاتمة الصفات الدالة على أنه مالك الأمر يوم الجزاء ، فيتأهب قرب به ، وتيقن الإقبال عليه بتخصيصه بغاية الخضوع والاستعانة فى المهمات .

(٢) سورة الفاتحة ٢

(٤-٤) ت « والخاصة تختلف » ؛

(١) سورة الأحزاب ٣٥

(٣) سورة الفاتحة ٥

وقيل : إنما اختير للحمد لفظ الغيبة ، وللعبادة الخطاب ، للإشارة إلى أن الحمد دون العبادة في الرتبة ؛ فإنَّك تحمّد نظيرك ولا تعبدّه ، إذ الإنسان يحمّد من لا يعبدّه ، ولا يعبد من لا يحمّده ، فاما كان كذلك استعمل لفظ الحمد لتوسطه مع الغيبة في الخبر فقال : « الحمد لله » ولم يقل « الحمد لك » ، ولفظ العبادة مع الخطاب فقال : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ لينسب إلى العظيم حال مخاطبة والمواجهة ، على ما هو أعلى رتبة ؛ وذلك على طريق التأدب . وعلى نحو من ذلك جاء آخر السورة فقال : ﴿ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ مصرّحاً بذكر المنعم ، وإسناد الإنعام إليه لفظاً ولم يقل « صراط المنعم عليهم » ؛ فاما صار إلى ذكر الغضب روى عنه لفظ الغضب في النسبة إليه لفظاً ، وجاء باللفظ متحرّفاً عن ذكر الغاضب ؛ فلم يقل « غير الذين غضبت عليهم » ، تفادياً عن نسبة الغضب في اللفظ حال المواجهة .

ومن هذا قوله : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً ﴾ ^(١) ؛ فإنَّ التأدب في الغيبة دون الخطاب .

وقيل : لأنه لما ذكر الحقيق بالحمد ، وأجرى عليه الصفات العظيمة من كونه ربا للعالمين ورحمنا ورحميا ، ومالكاً ليوم الدين ، تعلق العلم بمعلومٍ عظيم الشأن حقيق بأن يكون معبوداً دون غيره ، مستعاناً به ، فخطب بذلك لتميّزه بالصفات المذكورة ، تعظيماً لشأنه كلّهُ ؛ حتى كأنه قيل : إياك ، يا مَنْ هذه صفاته نخصّ بالعبادة والاستعانة لا غيرك . قيل : ومن لطائف التنبيه على أنّ مبتدأ الخلق الغيبة منهم عنه سبحانه ، وقصورهم عن محاضرتة ومخاطبته ، وقيام حجاب العظمة عليهم ، فإذا عرفوه بما هو له ، وتوسلوا للقرب بالثناء عليه ، وأقروا بالحمد له وتعبدوا له بما يليق بهم ، تأهّلوا لمخاطباته ومناجاته فقالوا : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ .

وفيه أنهم يُبدون بين يدي كلِّ دعاء له سبحانه ومناجاة له صفات عظمتها لمخاطبته على الأدب والتعظيم ، لا عن الغفلة والإغفال ، ولا عن اللعب والاستخفاف ، كمن يدعو بلا نية أو على تلعب وغفلة ، وهم كثير .

ومنه أن مناجاته لا تصعد إلا إذا تطهر من أداس الجهالة به ، كما لا تسجد الأعضاء إلا بعد التطهير من حدث الأجسام ؛ ولذلك قدمت الاستعاذة على القرآن .

قال الزمخشري : وكافى قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ ﴾ ^(١) . ولم يقل « واستغفرت لهم » [وعدل عنه إلى طريق الالتفات] ^(٢) لأن في هذا الالتفات بيان تعظيم استغفاره ، وأن شفاعته من اسمه الرسول بمكان ^(٣) .

ومنها : التنبيه على ماحق الكلام أن يكون واردا عليه ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَالِيَ لَا أُعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ^(٤) ، أصل الكلام « وما لكم لا تعبدون الذي فطركم » ولكنه أبرز الكلام في معرض المناصحة لنفسه ، وهو يريد مناصحتهم ؛ ليتلطف بهم ، ويريهم أنه لا يريد لهم إلا ما يريد لنفسه ، ثم لما انقضى غرضه من ذلك ، قال : ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ^(٥) ليدل على ما كان من أصل الكلام ، ومقتضيا له ، ثم ساقه هذا المساق إلى أن قال : ﴿ آمَنَّا بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴾ ^(٥) .

ومنها : أن يكون الغرض به التتميم لمعنى مقصود للتكلم ؛ فيأتي به محافظة على تميم

(٢) تكملة من الكشف

(٤) سورة يس ٢٢

(١) سورة النساء ٦٤

(٣) الكشف ٢ : ٤٠٨

(٥) سورة يس ٢٥

ما قصد إليه من المعنى المطلوب له ، كقوله : ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ . أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ . رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ ^(١) ، أصل الكلام « إنا مرسلين رحمة منا » ، ولكنه وضع الظاهر موضع المضمَر ، للإِنداز بأنَّ الربوبية تقتضى الرحمة للمربوبين ، للقدرة عليهم ، أو لتخصيص النبىِّ صلى الله عليه وسلم بالذكر ، أو الإشارة إلى أنَّ الكتاب إنما هو إليه دون غيره ، ثم التفت بإعادة الضمير إلى الربِّ الموضوع موضع المضمَر ، للمعنى المقصود من تميم المعنى .

ومنها : قصد المبالغة ، كقوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينَ بَحْرِهِمْ ﴾ ^(٢) كأنه يذكر لغيرهم حالهم ، ليتعجب منها ويستدعى منه الإنكار والتقييح لها ؛ إشارة منه على سبيل المبالغة إلى أنَّ ما يعتمدونه بعد الإِنجاء من البغى فى الأرض بغير الحقِّ ، مما ينكر ويقبح .

ومنها : قصد الدلالة على الاختصاص ، كقوله : ﴿ وَاللَّهُ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ فَتَثِيرُ سَحَابًا فُسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ﴾ ^(٣) فإنه لما كان سَوِّقُ السحاب إلى البلد الميت وإحياء الأرض بعد موتها بالمطر دالًّا على القدرة الباهرة التى لا يقدر عليها غيره ، عدلَ عن لفظ الغيبة إلى التكلم ؛ لأنه أدخل فى الاختصاص وأدلَّ عليه : « سقنا » و « أحيينا » .

ومنها: قصد الاهتمام، لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ . فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾^(١)، فعدل عن الغيبة في « قضاهن » « وأوحى » إلى التكلم في « وزينا السماء الدنيا » للاهتمام بالإخبار عن نفسه ، فإنه تعالى جعل الكواكب في سماء الدنيا للزينة والحفظ ؛ وذلك لأن طائفة اعتقدت في النجوم أنها ليست في سماء الدنيا ، وأنها ليست حفظاً ولا رجوماً ، فعدل إلى التكلم والإخبار عن ذلك ، لكونه مهمّاً من مهمات الاعتقاد ، ولتكذيب الفرقة المعتقدة بطلانه .

ومنها: قصد التوبيخ ، كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا . لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾^(٢) ، عدل عن الغيبة إلى الخطاب ، للدلالة على أن قائل مثل قولهم ، ينبغي أن يكون موبّخاً ومنكراً عليه ؛ ولما أراد توبيخهم على هذا أخبر عنه بالحضور ، فقال: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ﴾^(٣) ، لأن توبيخ الحاضر أبلغ في الإهانة له .

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ . وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾^(٤) ؛ قال: ﴿تَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ دون « تقطعتم أمركم بينكم » ، كأنه يعنى عليهم ما أفسدوه من أمر دينهم إلى قوم آخرين وتقبّح عندهم ما فعلوه ، ويوبخهم عليه قائلا: ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء في دين الله ، فجعلوا أمر دينهم به قطعاً ، تمثيلاً لأخلاقهم في الدين .

فائدة

اختلف في قوله تعالى : ﴿ إِنْ أَلَّهَ لَا يُخْلِفُ أَلْمِيعَادَ ﴾ ^(١) بعد ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ ^(٢).

ف قيل : إن الكلام تمّ عند قوله : ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ ، وهذا الذي بعده من مقول الله تصديقاً لهم .

وقيل : بل هو من بقية كلامهم الأول على طريقة الالتفات من الخطاب إلى الغيبة ، كقوله : ﴿ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ ﴾ ^(٣).

فإن قلت : قد قال في آخر السورة : ﴿ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ أَلْمِيعَادَ ﴾ ^(٤) ، فلم عدل عن الخطاب هنا ؟ قلت : إنما جاء الالتفات في صدر السورة ، لأن المقام يقتضيه ، فإن الإلهية تقتضى الخير والشر لتتصف المظلومين من الظالمين ، فكان العدول إلى ذكر الاسم الأعظم أولى . وأما قوله تعالى في آخر السورة : ﴿ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ أَلْمِيعَادَ ﴾ ^(٥) ؛ فذلك المقام مقام الطلب للعبد من ربه أن يُنعم عليه بفضله ، وأن يتجاوز عن سيئاته ، فلم يكن فيه ما يقتضى العدول عن الأصل المستمر .

البحث الرابع في شرط

تقدم أن شرط الالتفات أن يكون الضمير في المنتقل إليه عائداً في نفس الأمر إلى المنتقل عنه ؛ وشرطه أيضاً أن يكون في جملتين ، أى كلامين مستقلين ، حتى يمتنع بين الشرط وجوابه .

(٢) سورة يونس ٢٢

(١) سورة آل عمران ٩

(٣) سورة آل عمران ١٩٤

وفي هذا الشرط نظر ، فقد وقع في القرآن مواضع ، الالتفات فيها وقع في كلام واحد ؛ وإن لم يكن بين جزأى الجملة ، كقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَكُونُونَ لَكَ مِنَ الْخَالِقِينَ ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ﴾ (٢) .

وقوله : ﴿ وَأَمْرًا مُّؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ ﴾ (٣) ، بعد قوله : ﴿ إِنَّا أَهْلَلْنَا لَكَ ﴾ (٣) ، التقدير : إن وهبت امرأة نفسها للنبي ﴿ إِنَّا أَهْلَلْنَا لَكَ ﴾ (٣) ، وجللتا الشرط والجزاء كلام واحد .

وقوله : ﴿ وَيَوْمَ يَخْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ ﴾ (٤) .

وقوله : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا . لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ (٥) ؛ وفيه التفتان : أحدهما بين « أرسلنا » والجلالة ، والثاني بين الكاف في « أرسلنا » و« رسوله » وكل منهما في كلام واحد .

وقوله : ﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّغْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ ﴾ (٦) .

وقوله : ﴿ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴾ (٧) ، وجوز الزمخشري فيه أن يكون ضمير « جزاؤكم » يعود على « التابعين » على طريق الالتفات (٨) .

وقوله : ﴿ وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ﴾ (٩) ، على قراءة الياء .

- (٢) سورة القصص ٥٩
(٤) سورة الفرقان ١٧
(٦) سورة آل عمران ١٥١
(٨) الكشاف ٢ : ٥٢٨

- (١) سورة النكبات ٢٣
(٣) سورة الأحزاب ٥٠
(٥) سورة الفتح ٩٨
(٧) سورة الإسراء ٦٣

(٩) سورة البقرة ٢٨١ ؛ وانظر الكشاف ١ : ٢٤٧ .

وقوله : ﴿ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ﴾ ^(١) ، قال التنوخي في " الأقصى القريب " : الواو للحال .

وقوله : ﴿ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ^(٢) .

البحث الخامس

أنه يقرب من الالتفات نقل الكلام إلى غيره

وإنما يُفعل ذلك إذا ابتلي العاقل بخضم جاهل متعصب، فيجب أن يقطع الكلام معه في تلك المسألة ؛ لأنه كلما كان خوضه معه أكثر، كان بعده عن القبول أشد ، فالوجه حينئذ أن يُقطع الكلام معه في تلك المسألة ، وأن يؤخذ في كلام آخر أجنبي ويطنب فيه ، بحيث ينسى الأول ، فإذا اشتغل خاطره به أدرج له في أثناء الكلام الأجنبي مقدمة تناسب ذلك المطلب الأول ، ليتمكن من انقياده .

وهذا ذكره الإمام أبو الفضل في كتاب " درة التنزيل " ، ^(٣) ، وجعل منه قوله تعالى : ﴿ أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ﴾ ^(٤) ، قال : إن قوله « وأذكر » ليس متصلاً بما قبله ، بل نقلاً لهم عما هم عليه ، والمقدمة المدرجة قوله : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ﴾ ^(٥) إلى قوله : ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ ^(٥) .

وهذا الذي قاله يُخرج الآية عن الاتصال ، مع أن في الاتصال وجوهاً مذكورة في موضعها .

(٢) سورة يس ٢

(١) سورة المائدة ١٢

(٣) هو درة التنزيل وغرة التأويل للإمام غير الدين الرازي ،

(٥) سورة ص ٢٧-٢٩

(٤) سورة ص ١٧

والحق به الأستاذ وأبو جعفر بن الزبير^(١) قوله تعالى : ﴿ قَدْ وَاتَقَرُّ أَنْ الْمَجِيدِ . بَلْ عَجِبُوا . . . ﴾^(٢) الآية ؛ فهذا إنكار منهم للبعث واستبعاد ، نحو الوارد في سورة « ص » ؛ فأعقب ذلك بما يشبه الالتفات بقوله : ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا . . . ﴾^(٣) إلى قوله : ﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾^(٤) ، فبعد العدول عن مجاوبتهم ، في قولهم : ﴿ ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾^(٥) ، وذكر اختلافهم المسبب عن تكذيبهم ، في قوله : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيحٍ ﴾^(٦) ، صرف تعالى الكلام إلى نيته والمؤمنين ، فقال : ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا . . . ﴾^(٧) إلى قوله : ﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا ﴾^(٨) ، وذلك حكمة تدرك مشاهدة ، لا يمكنهم التوقف في شيء منه ولا حفظ عنهم إنكاره ، فعند تكرار هذا ، قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾^(٩) .

ومما يقرب من الالتفات أيضا الانتقال من خطاب الواحد والاثنين والجمع إلى خطاب آخر ؛ وهو ستة أقسام ، كما سبق تقسيم الالتفات :

أحدها : الانتقال من خطاب الواحد لخطاب الاثنين ، كقوله تعالى : ﴿ أَجِئْنَا لِنَتْلُوَنَّكُمْ عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءُنَا وَتَكُونُ لَكُمْ أَعْيُنٌ عَلَى آلِهَتِنَا فِي الْأَرْضِ ﴾^(١٠) .
 الثاني : منه خطاب الواحد إلى خطاب الجمع : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ ﴾^(١١) .

(١) هو أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الفراءى الأندلسي ، التوفي سنة ٧٠٨ ، له كتاب : ملاك التأويل الفاطمي لدوى الإلهام والتعطيل في توجيه التشابه اللفظي من آي التنزيل ومنه نسخة بدار الكتب المصرية برقم ٥٧٧ جميع ، وقد لحص في كتاب درة التنزيل للفخر الرازي وزاد عليه أشياء (الدرر السكينة ١ : ٢٨٤)

(٢) سورة ق ١	(٣) سورة ق ٦
(٤) سورة ق ١١	(٥) سورة ق ٣
(٦) سورة ق ٥	(٧) سورة ق ٦
(٨) سورة ق ١١	(٩) سورة يونس ٧٨
(١٠) سورة الصافات ١	

الثالث : من الاثنين إلى الواحد ، كقوله : ﴿ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى ﴾ ^(١) ،
﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴾ ^(٢) .

الرابع : من الاثنين إلى الجمع ، كقوله : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ
لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بَيْوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ^(٣) ،
وفيه انتقال آخر من الجمع إلى الواحد ، فإنه ثنى ثم جمع ، ثم وحّد ، توسعا في الكلام . وحكمة
التثنية أن موسى وهرون هما اللذان يقرران قواعد النبوة ، ويحكمان في الشريعة ، فخصهما
بذلك ، ثم خاطب الجميع باتخاذ البيوت قبلة للعبادة ؛ لأن الجميع مأمورون بها ،
ثم قال لموسى وحده : ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ^(٤) ، لأنه الرسول الحقيقي الذي إليه
البشارة والإنذار .

الخامس : من الجمع إلى الواحد ، كقوله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ^(٥)
وقد سبق حكمته . ومن نظائره قول بعضهم في قوله تعالى : ﴿ قُلْنَا أَهْبِطُوا
مِنْهَا جَمِيعًا ﴾ ^(٦) ، ثم قال : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى ﴾ ^(٧) ، ولم يقل « منا » مع أنه
للجمع أو للواحد المعظم نفسه ، وحكمته المناسبة للواقع ، فالهدى لا يكون إلا من الله ،
فناسب الخاص للخاص .

السادس : من الجمع إلى التثنية ، كقوله : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ
تَنْفُذُوا . . . ﴾ ^(٨) إلى قوله : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ^(٩) .

السابع : ^(١٠) ذكر بعضهم من الالتفات تعقيب الكلام بجملة مستقلة ملاقية له في
المعنى على طريق المثل إلى الدعاء ، فالأول كقوله : ﴿ وَزَهَقَ الْأَبَاطِلُ إِنَّ الْأَبَاطِلَ كَانَ
زَهُوقًا ﴾ ^(١١) ، والثاني كقوله : ﴿ ثُمَّ أَنْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ ﴾ ^(١٢) .

(٢) سورة يونس ٨٧

(٤) سورة البقرة ٣٨

(٦) هذا القسم وما بعده ؛ هو زيادة على

(٧) سورة الإسراء ٨١

(١) سورة طه ١١٧، ١١٩

(٣) سورة يونس ٨٧

(٥) سورة الرحمن ٣٣، ٣٤

ما ذكره قبلا من تقسيمه إلى ستة أقسام

(٨) سورة التوبة ١٢٧

الثامن : من الماضى إلى الأمر ، كقوله : ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ ﴾ ^(١) وقوله : ﴿ وَأَحِلَّتْ لَكُمْ الْآنْعَامُ إِلَّا مَا بَيْنَىٰ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾ ^(٢) .

التاسع : من المستقبل إلى الأمر ، تعظيما لحال من أجرى عليه المستقبل . وبالضد من ذلك فى حق من أجرى عليه الأمر ، كقوله تعالى : ﴿ يَاهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ... ﴾ ^(٣) إلى قوله : ﴿ بَرِئٌ مِمَّا تَشْرِكُونَ ﴾ ^(٤) ، فإنه إنما قال : ﴿ أَشْهَدُ اللَّهَ ﴾ ، و ﴿ وَأَشْهَدُوا ﴾ ولم يقل : « وأشهدكم » ليكون موازنا له ؛ ولا شك أن معنى إشهد الله على البراءة صحيح فى معنى يثبت التوحيد ؛ بخلاف إشهدهم ؛ فما هو إلا تهاون بدينهم ، ودلالة على قلة المبالاة به ، فلذلك عدل عن لفظ الأول لاختلاف ما بينهما ، وجىء به على لفظ الأمر ، كما تقول للرجل منكرا : اشهد على أنى أحببك .

العاشر : من الماضى إلى المستقبل ، نحو : ﴿ وَاللَّهُ أَنْذَىٰ أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ ﴾ ^(٥) ، ﴿ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ ﴾ ^(٥) ، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ^(٦) .

والحكمة فى هذه أن الكفر لما كن من شأنه إذا حصل أن يستمر حكمه عبر عنه بالماضى ، ليفيد ذلك مع كونه نافيا أنه قد مضى عليه زمان ؛ ولا كذلك الصدّة عن سبيل الله ، فإن حكمه إنما ثبت حال حصوله مع أن فى الفعل المستقبل إشعارا بالتكثير ،

(١) سورة الأعراف ٢٩

(٢) سورة الحج ٣٠

(٣) سورة هود ٥٣ ، ٥٤ ؛ والآياتان بهماهما : ﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ . إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّى أُشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّى بَرِئٌ مِمَّا تَشْرِكُونَ ﴾ .

(٥) سورة الحج ٣١

(٤) سورة فاطر ٩

(٦) سورة الحج ٢٥

فيشعر قوله: « ويصدون » ، أنه في كل وقت يصدد ذلك ، ولو قال : « وصدوا » لأشعر بانقطاع صدّهم .

الحادى عشر : عكسه ، كقوله : ﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي السُّورِ فَتَرْجَمَ مِنَ فِي السَّمَوَاتِ ﴾ ^(١) ، ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ ﴾ ^(٢) .

قالوا : والقائدة في الفعل الماضى إذا أخير به عن المستقبل الذى لم يوجد أنه أبلغ وأعظم موقعا ، لتنزيله منزلة الواقع . والقائدة في المستقبل إذا أخير به عن الماضى لتبين هيئة الفعل باستحضار صورته ، ليكون السامع كأنه شاهد ، وإنما عبر في الأمر بالتوبيخ بالماضى بعد قوله : ﴿ ينفخ ﴾ للإشعار بتحقيق الوقوع وثبوته ، وأنه كائن لا محالة ، كقوله : ﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ ^(٣) ، والمعنى : « يبرزون » ، وإنما قال : ﴿ وحشرناهم ﴾ بعد ﴿ نُسَيِّرُ ﴾ ﴿ وترى ﴾ ، وهما مستقبلا ، لذلك .

(٢) سورة الكهف ٤٧

(١) سورة النمل ٨٧

(٣) سورة إبراهيم ٢١

النَّضْمِينَ

وهو إعطاء الشيء معنى الشيء ، وتارة يكون في الأسماء ، وفي الأفعال ، وفي الحروف ، فأما في الأسماء فهو أن تضمَّن اسماً معنى اسم ؛ لإفادة معنى الاسمين جميعاً ، كقوله تعالى : ﴿ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَلاَّ أَقُولَ عَلَىٰ اللَّهِ إِلَّا الْخُفَىٰ ﴾ ^(١) ، ضمَّن « حقيق » معنى « حريص » ليفيد أنه محقق بقول الحق وحريص عليه .

وأما الأفعال فأن تضمَّن فعلاً معنى فعل آخر ، ويكون فيه معنى الفعلين جميعاً ؛ وذلك بأن يكون الفعل يتعدى بحرف ، فيأتي متعدياً بحرف آخر ليس من عادته التعدى به ، فيحتاج إما إلى تأويله أو تأويل الفعل ، ليصح تعديه به .

واختلفوا أيهما أولى ؟ فذهب أهل اللغة وجماعة من النحويين إلى أن التوسع في الحرف وأنه واقع موقع غيره من الحروف أولى .

وذهب المحققون إلى أن التوسع في الفعل وتعديته بما لا يتعدى لتضمينه معنى ما يتعدى بذلك الحرف أولى ؛ لأن التوسع في الأفعال أكثر .

مثاله قوله تعالى : ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ ﴾ ^(٢) ، فضمَّن « يشرب » معنى « يروى » ، لأنه لا يتعدى بالباء ، فلذلك دخلت الباء ، وإلا فـ « يشرب » يتعدى بنفسه ، فأريد باللفظ الشرب والرى معا ، فجمع بين الحقيقة والجاز في لفظ واحد .

وقيل : التجوز في الحرف ؛ وهو الباء ؛ فإنها بمعنى « من » .

وقيل : لا مجاز أصلاً ، بل العين هاهنا إشارة إلى المكان الذي ينبع منه الماء ؛

لا إلى الماء نفسه ، نحو نزلت بعين ، فصار كقوله : مكانا يشرب به .

وعلى هذا : ﴿ فَلَا تَحْسَبْنَهُمْ بِمَقَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ ^(١) ، قاله الراغب .

وهذا بخلاف الجواز ؛ فإن فيه العدول عن سماء بالكلمة ، ويراد به غيره ، كقوله : ﴿ جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ ﴾ ^(٢) ، فإنه استعمل « أراد » في معنى مقاربة السقوط ؛ لأنه من لوازم الإرادة ، وإن من أراد شيئاً فقد قارب فعله ، ولم يُرَدَّ باللفظ هذا المعنى الحقيقي الذي هو الإرادة البتة . والتضمين أيضاً مجاز ؛ لأن اللفظ لم يوضع للحقيقة والمجاز معاً ، والجمع بينهما مجاز خاص يسمونه بالتضمين ، تفرقة بينه وبين المجاز المطلق .

ومن التضمين قوله تعالى : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَّامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ ﴾ ^(٣) ؛ لأنه لا يقال : رفثت إلى المرأة ؛ لكن لما كان بمعنى الإفشاء ساع ذلك .

وهكذا قوله : ﴿ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى ﴾ ^(٤) ؛ وإنما يقال : هل لك في كذا ؟ لكن المعنى أَدْعُوكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى .

وقوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾ ^(٥) ، فجاء بـ « عن » ، لأنه ضمن التوبة معنى العفو والصفح .

وقوله : ﴿ وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ ﴾ ^(٦) ، وإنما يقال : خلوت به ، لكن ضمن « خَلَوْا » معنى « ذهبوا » « وانصرفوا » ، وهو معادل لقوله : ﴿ لَقُوا ﴾ ؛ وهذا أولى من قول من قال : إن « إلى » هنا بمعنى الباء ، أو بمعنى « مع » .

وقال مكي : إنما لم تأت الباء ؛ لأنه يقال : خلوت به إذا سخرت منه ، فأتى بـ « إلى » لدفع هذا الوهم .

(٢) سورة الكهف ٧٧

(٤) سورة النازعات ١٨

(٦) سورة البقرة ١٤

(١) سورة آل عمران ١٨٨

(٣) سورة البقرة ١٨٧

(٥) سورة الشورى ٢٥

وقوله : ﴿لَا قُعْدَنَ لَهُمْ صِرَاطُكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(١) ، قيل : الصراط منصوب على المفعول به ، أى لألزمَنَ لك صراطك ، أو لأملكَنَّهُ لهم ، و «أقعد» وإن كان غير متعدّ ضمن معنى فعل متعدّ .

وقوله : ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾^(٢) ، ضمن «تعدّ» معنى «تنصرف» ، فعدي بـ «عن» . قال ابن السجري : ومن زعم أنه كان حق الكلام ؛ «لا تعدّ عينيك عنهم» بالنصب ؛ لأن «تعد» متعدّ بنفسه فباطل ، لأن عدوت وجاوزت بمعنى واحد . وأنت لا تقول : جاوز فلان عينه عن فلان ، ولو كانت التلاوة بنصب العين لكان اللفظ يتضمّنهما محمولاً أيضاً على : لا تنصرف عينك عنهم ، وإذا كان كذلك ، فالذى وردت به التلاوة من رفع العين يثول إلى معنى النصب فيها ؛ إذ كان «لا تعدّ عيناك» بمنزلة «لا تنصرف» ، ومعناه لا تنصرف عينك عنهم ، فالفعل مسند إلى العين ، وهو فى الحقيقة موجه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، كما قال : ﴿وَلَا تُفْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ﴾^(٣) ، أسند الإعجاب إلى الأموال ، والمعنى لا تفجب بأموالهم .

وقوله : ﴿أَوْ لَتَعُوْدُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾^(٤) ، ضمن معنى «لتدخلن» أو «لتصيرن» ؛ وأما قول شعيب : ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُوْدُ فِيهَا﴾^(٥) فليس اعترافاً بأنه كان فيهم ، بل مؤوّل على ماسبق . وتأويل آخر وهو أن يكون من نسبة فعل البعض إلى الجماعة ، أو قاله على طريق المشاكلة لكلامهم ، وهذا أحسن .

وقوله : ﴿أَلَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا﴾^(٦) ، ضمن «لا تشرك» معنى «لا تعدل» والعدل : التسوية ، أى لا تسوى به شيئاً .

(٢) سورة الكهف ٢٨

(٤) سورة إبراهيم ١٣

(٦) سورة الحج ٢٦

(١) سورة الأعراف ١٦

(٣) سورة التوبة ٨٥

(٥) سورة الأعراف ٨٩

وقوله: ﴿وَأَخْبِتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ ^(١) ضَمَّنَ معنى «أناؤا» فعَدَى بحرفه .

وقوله: ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدَىٰ بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ ^(٢) ضَمَّنَ ﴿لَتُبْدَىٰ بِهِ﴾ معنى «تخبر به» أو «لتعلم» ليفيد الإظهار معنى الإخبار؛ لأن الخبر قد يقع سرّاً غير ظاهر .

وقوله: ﴿عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ ^(٣)، جوز الزمخشري نصب ﴿مَقَامًا﴾، على الظرف على تضمين ﴿يبعثك﴾ معنى «يقيمك» .

وقوله: ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ ^(٤)، قال الفارسي: ومن قرأ «فَأَجْمِعُوا» بالقطع أراد فأجمعوا أمركم وشركاءكم، كقوله:

* مُتَقَلِّدًا سَيْفًا وَرُحْمًا *

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ ^(٥)، قال ابن سيده: عَدَاهُ بِهِ «من» لأنه في معنى كشف الفزع .

وقوله: ﴿أَذَلَّةٍ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَىٰ الْكَافِرِينَ﴾ ^(٦)، فإنه يقال: ذَلَّ لَهُ، لا عليه، ولكنه هنا ضَمَّنَ معنى التعطف والتحنن .

وقوله: ﴿لِلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ ^(٧) ضَمَّنَ ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ معنى «يُتَمَتَّعُونَ» من وطنهن بالآلية .

وقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ إِلَىٰ آلَمٍ إِلَّا أَعْلَىٰ﴾ ^(٨)، أى لا يُصْغَوْنَ .

﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾ ^(٩)، أى أنزل .

﴿فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾ ^(١٠)، أى أحلَّ له .

- (٢) سورة القصص ١٠
(٤) سورة يونس ٧١
(٦) سورة المائدة ٥٤
(٨) سورة الصافات ٨
(١٠) سورة الأحزاب ٣٨

- (١) سورة هود ٢٣
(٣) سورة الإسراء ٧٩
(٥) سورة سبأ ٢٣
(٧) سورة البقرة ٢٢٦
(٩) سورة القصص ٨٥

﴿ وَمُطَهَّرٌكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ^(١) أى ممّيزك .
 ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ ^(٢) أى لا يَرْضَى .
 ﴿ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ ﴾ ^(٣) ، أى أنيبوا إليه وارجعوا .
 ﴿ هَلَكَ عَنِ سُلْطَانِيَّةٍ ﴾ ^(٤) ، أى زال .
 ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ﴾ ^(٥) ، فإنه يقال : خالفت زيدا ، من غير احتياج لتعديده بالجار ؛ وإنما جاء محمولا على « ينحرفون » أو « يزيغون » .
 ومثله تعديّة « رحيم » بالباء ، فى نحو : ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ ^(٦) حملا على « رءوف » ، فى نحو : ﴿ رَوْفٌ رَحِيمٌ ﴾ ^(٧) ، ألا ترى أنك تقول : رأفت به ، ولا تقول : رحمت به ؛ ولكن لما وافقه فى المعنى تنزل منزلته فى التعديّة .
 وقوله : ﴿ إِنِّي لِمَا أُنْزِلَتِ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ ^(٨) ، ضمن معنى « سائل » .
 ﴿ الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ ﴾ ^(٩) ، قال الزنجشرى : ضمن معنى « تحاملوا » ، فعدها بـ « على » ، والأصل فيه « من » .

تنبيهان

الأول : الأكثر أن يُراعى فى التعديّة ما ضمن منه ، وهو المحذوف لا المذكور ، كقوله تعالى : ﴿ أَلَزَفْتُ إِلَى نِسَائِكُمْ ﴾ ^(١٠) ، أى الإفضاء .
 وقوله : ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ ﴾ ^(١١) ، أى يروى بها ، وغيره مما سبق .

- (٢) سورة يونس ٨١
 (٤) سورة الحاقة ٢٩
 (٦) سورة الأحزاب ٤٣
 (٨) سورة القصص ٢٤
 (١٠) سورة البقرة ١٨٧

- (١) سورة آل عمران ٥٥
 (٣) سورة فصلت ٦
 (٥) سورة النور ٦٣
 (٧) سورة التوبة ١٢٨
 (٩) سورة المطففين ٢
 (١١) سورة الدھر ٦

ولم أجد مراعاة الملفوظ به إلا في موضعين : أحدهما قوله تعالى : ﴿ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴾ ^(١) ، على قول ابن الضائع أنه ضمن « يقال » معنى « ينادى » وإبراهيم « نائب » عن الفاعل ؛ وأورد على نفسه : كيف عدّى باللام والنداء لا يتعدى به ؟ وأجاب بأنه روعى الملفوظ به ؛ وهو القول ؛ لأنه يقال : قلت له .

الثاني : قوله : ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ ﴾ ^(٢) ؛ فإنه قد يقال : كيف يتعلق التكليف بالمرضع ؟ فأجيب بأنه ضمن « حرّم » المعنى اللغوى ، وهو المنع . فاعترض كيف عدّى بـ « على » والمنع لا يتعدى به ؛ فأجيب بأنه روعى صورة اللفظ .

الثاني : أن التضمن يُطلق على غير ما سبق ؛ قال القاضى أبو بكر فى كتاب " إيجاز القرآن " ^(٣) : هو حصول معنى فيه من غير ذكره له باسم [أوصفة] ^(٤) هى عبارة عنه ، ثم قسمه إلى قسمين : أحدهما ما يفهم من البنية ، كقولك : معلوم ؛ فإنه يوجب أنه لا بد من عالم . والثانى من معنى العبارة [من حيث لا يصح إلا به] ^(٥) كالصفة ، فضارب يدل على مضروب . قال : والتضمن كله إيجاز ، قال : وذكر أن ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ من باب التضمن ؛ لأنه تضمن تعليم الاستفتاح فى الأمور باسمه على جهة التعظيم لله تعالى ، أو التبرك باسمه .

وذكر ابن الأثير فى كتاب " المعانى المبتدعة " : أن التضمن واقع فى القرآن خلافا لما أجمع عليه أهل البيان ؛ وجعل منه قوله تعالى فى الصفات : ﴿ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنْ الْأَوَّلِينَ . لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ ^(٥) .

ويطلق التضمن أيضاً على إدراج كلام الغير فى أثناء الكلام لتأكيد المعنى ،

(٢) سورة القصص ١٢

(٤) تكملة من إيجاز القرآن

(١) سورة الأنبياء ٦٠

(٣) إيجاز القرآن ص ٤١٢ - ٤١٣

(٥) سورة الصفات ١٦٩

أو لترتيب النظم ؛ ويسمى الإبداع كما بداع الله تعالى في حكايات أقوال المخلوقين ، كقوله تعالى حكاية عن قول الملائكة : ﴿ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ ^(١) .

ومثل ما حكاه عن المنافقين : ﴿ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ ^(٢) .

وقوله : ﴿ قَالُوا أَنْتُمْ مِنْ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ﴾ ^(٣) .

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ ﴾ ^(٤) .

﴿ وَقَالَتِ النَّصَارَى ﴾ ^(٥) ، ومثله في القرآن كثير .

وكذلك ما أودع في القرآن من اللغات الأعجمية .

ويقرب من التضمين في إيقاع فعل موقع آخر إيقاع الظن موقع اليقين في الأمور المحققة ،

كقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ ﴾ ^(٥) .

﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ ﴾ ^(٦) .

﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا ﴾ ^(٧) .

﴿ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ ﴾ ^(٨) .

﴿ وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَّخِصٍ ﴾ ^(٩) .

وشرط ابن عطية في ذلك ألا يكون متعلقه حسياً ، كما تقول العرب في رجل يرى

حاضراً : أظن هذا إنساناً ، وإنما يستعمل ذلك فيما لم يخرج إلى الحس بعد ،

كآليات السابقة .

(٢) سورة البقرة ١١

(٤) سورة البقرة ١١٣

(٦) سورة البقرة ٢٤٩

(٨) سورة ص ٢٤

(١) سورة البقرة ٣٠

(٣) سورة البقرة ١٣

(٥) سورة البقرة ٤٦

(٧) سورة الكهف ٥٣

(٩) سورة فصلت ٤٨

قال الراغب في "الذريعة" : الظن إصابة المطلوب بضرب من الأمانة متردد بين يقين وشك ، فيقرب تارة من طرف اليقين ، وتارة من طرف الشك ، فصار أهل اللغة يفسرونه بهما ؛ فتى رُئي إلى طرف اليقين أقرب استعمل معه « أن » المثقلة والخفيفة فيهما ، كقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ ﴾ ^(١) ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ ﴾ ^(٢) . ومتى رُئي إلى الشك أقرب استعمل معه « أن » التي للعدومين من الفعل ، نحو ظننت أن يخرج . قال : وإنما استعمل الظن بمعنى العلم في قوله : ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ ﴾ ^(٣) لأمرين :

أحدهما : للتنبيه على أن علم أكثر الناس في الدنيا بالنسبة إلى علمهم في الآخرة ، كالظن في جنب العلم .

والثاني : أن العلم الحقيقي في الدنيا لا يكاد يحصل إلا للنبیین والصدیقین المعنیین بقوله : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ﴾ ^(٤) ، والظن متى كان عن أمانة قوية فإنه يمدح به ، ومتى كان عن تخمين لم يمدح ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ ^(٥) . وجوز أبو الفتح في قوله : ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ ^(٦) أن يكون المراد بها اليقين ، وأن تكون على بابها ، وهو أقوى في المعنى ، أى فقد يمنع من هذا التوهم ، فكيف عند تحقيق الأمر ، فهذا أبلغ كقوله : « يكفيك من شرّ سماعه » أى لو توهم البعث والنشور وما هناك من عظم الأمر وشدته لاجتنب المعاصى ، فكيف عند تحقق الأمر ! وهذا أبلغ .

وقيل : آيتا البقرة بمعنى الاعتقاد ، والباقي بمعنى اليقين ، والفرق بينهما أن الاعتقاد يقبل التشكيك بخلاف اليقين ، وإن اشتركا جميعاً في وجوب الجزم بهما .

(٢) سورة الأعراف ١٧١

(٤) سورة الحجرات ١٥

(٦) سورة المطففين ٤ ، ٥

(١) سورة البقرة ٢٤٩

(٣) سورة البقرة ٤٦

(٥) سورة الحجرات ١٢

وكذلك قوله : ﴿ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَّةٍ ﴾ ^(١) .
وقد جاء عكسه وهو التجوز عن الظن بالعلم ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا ﴾ ^(٢) ، ولم يكن ذلك علماً جازماً بل اعتقاداً ظنياً .
وقوله : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ ^(٣) ، وكان يحكم بالظن وبالظاهر .
وقوله : ﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ ﴾ ^(٤) وإنما يحصل بالإمتحان في الحكم ، ووجه
التجوز أن بين الظن والعلم قدراً مشتركاً وهو الرجحان ، فتجوز بأحدهما عن الآخر .



(٢) سورة يوسف ٨١

(٤) سورة المتحنة ١٠

(١) سورة الحاقة ٢٠

(٣) سورة الإسراء ٣٦

وضع الخبر موضع الطلب

في الأمر والنهي

كقوله تعالى : ﴿ وَالْوَلَدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ ﴾ ^(١) .

﴿ وَالْمُطَلَّاتُ يَتَرَبَّصْنَ ﴾ ^(٢) .

﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ ^(٣) .

﴿ الْيَوْمَ يَفِرُّ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ ^(٤) .

وقوله : ﴿ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ ... ﴾ ^(٥) الآية ؛ ولهذا جعلها العلماء

من أمثلة الواجب :

﴿ فَلَا رَفْتَ وَلَا فُسُوقَ ﴾ ^(٦) على قراءة نافع ، أى لا ترفثوا ولا تفسقوا .

﴿ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ﴾ ^(٧) قالوا : هو خير ، وتأويله نهى ، أى لا تنفقوا

إلا ابتغاء وجه الله ، كقوله : ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ ^(٨) وكقوله : ﴿ لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ

بِوَلَدِهَا ﴾ ^(٩) ، على قراءة الرفع . وقيل : إنه نهى مجزوم - أعنى قوله : ﴿ لَا يَمَسُّهُ ﴾ - ولكن

ضُمَّتْ إِتْبَاعاً لِلضَّمِيرِ ، كقوله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّا لَمْ نَرِدْهُ عَلَيْكَ إِلَّا أَنَا حَرَمٌ » .

وقوله : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ ^(١٠) ، ضَمَّنْ

« لا تعبدون » معنى « لا تعبدا » بدليل قوله بعده : ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ ^(١١) ، وبه يزول

الإشكال في عطف الإنشاء على الخبر ؛ لكن إن كان « حسنا » معمولاً لأحسنوا ، فعطفُ

(٢) سورة البقرة ٢٢٨

(٤) سورة يوسف ٩٢

(٦) سورة البقرة ١٩٧

(٨) سورة الواقعة ٧٩

(١٠) سورة البقرة ٨٣

(١) سورة البقرة ٢٢٣

(٣) سورة الرعد ٢٤

(٥) سورة المائدة ٨٩

(٧) سورة البقرة ٢٧٢

(٩) سورة البقرة ٢٣٣

« قولوا » عليه أولى لاتفاقهما لفظا ومعنى ، وإن كان التقدير و « يحسنون » فهو الذى قبله ، والمطف على القريب أولى . وقيل : ﴿ لَا تَعْبُدُونَ ﴾ أبلغ من صريح النهى لما فيه من إيهاام أن النهى يسارع إلى الانتهاء ، فهو مخبر عنه .

وكذا قوله : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ ﴾ ^(١) فى موضع « لانسفكوا » .

وقوله فى سورة الصف : ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ^(٢) عطفًا على قوله : ﴿ تَوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ ^(٣) ، ولهذا جزم الجواب .

وقوله : ﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَاكِهُونَ ﴾ ^(٤) إلى قوله : ﴿ وَأَمْتَارُوا الْيَوْمَ ﴾ ^(٥) ؛ فإن المقام يشتمل على تضمين ﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ ﴾ معنى الطلب ، بدليل ما قبله : ﴿ فَالْيَوْمَ لَا تَنْظُمُ نَفْسٌ شَيْئًا ﴾ ^(٥) ، فإنه كلام وقت الحشر لوروده معطوفا بالفاء ، على قوله : ﴿ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ ^(٦) وعام لجميع الخلق لعموم قوله : ﴿ لَا تَنْظُمُ نَفْسٌ شَيْئًا ﴾ ^(٥) ، وإن الخطاب الوارد بعده على سبيل الالتفات ، وهو قوله : ﴿ وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ^(٥) ، خطاب عام لأهل الحشر ، فيكون قوله : ﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَاكِهُونَ ﴾ ^(٧) إلى قوله : ﴿ أَيُّهَا الْمَجْرُمُونَ ﴾ ^(٨) مقيدا بهذا الخطاب لكونه تفصيلا لما أجمله : ﴿ وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ^(٥) ، وإن التقدير أن أصحاب الجنة منكم يا أهل الحشر ، ثم جاء فى التفسير أن قوله هذا : ﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَاكِهُونَ ﴾ ^(٧) يقال لهم حين يساق بهم إلى الجنة ، بتنزيل ما هو للتكوين منزلة الكائن ، أى إن أصحاب الجنة منكم يا أهل الحشر ، يؤول حالهم

(٢) سورة الصف ١٣
(٤) سورة يس ٥٩
(٦) سورة يس ٥٣ ، ١٠

(١) سورة البقرة ٨٤
(٣) سورة يس ٥٥
(٥) سورة يس ٥٤
(٧) سورة يس ٥٥

إلى أسعد حال ، والتقدير حينئذ « فامتازوا عنكم إلى الجنة » ، هكذا قرره السكاكي في " المفتاح " .

قيل : وفيه نظر ؛ لأنها إذا كانت طلبية ومعناها أمر المؤمنين بالذهاب إلى الجنة ، فليكن الخطاب معهم لا مع أهل المحشر .

ولهذا قال بعضهم : إن تضمين أصحاب أهل الجنة للطلب ليس المراد منه أن الجملة نفسها طلبية ، بل معناه أن يقدر جملة إنشائية بعدها ، بخلاف قوله : ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ (١) .

ومنه قوله تعالى : ﴿ تَوَمِّنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَنُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ (٢) ، فإنه يقال : كيف جاء الجزم في جواب الخبر ؟ وجوابه أنه لما كان في معنى الأمر جاز ذلك ، إذ المعنى : آمنوا واجاهدوا .

وقال ابن جني : لا يكون « يغفر » جوابا لـ « هل أدلكم » وإن كان أبو العباس قد قاله ، لأن المغفرة تحصل بالإيمان لا بالدلالة . انتهى . وقد يقال الدلالة : سبب السبب . إذا علمت هذا ؛ فإنما يحى الأمر بلفظ الخبر الحاصل تحقيقا لثبوتة ؛ وأنه مما ينبغي أن يكون واقعا ولا بد ، وهذا هو المشهور .

وفيه طريقة أخرى نقلت عن القاضي أبي بكر وغيره ؛ وهي أن هذا خبر حقيقة غير مصروف عن جهة الخبرية ؛ ولكنه خبر عن حكم الله وشرعه ليس خبرا عن الواقع ؛ حتى يلزم ما ذكره من الإشكال ؛ وهو احتمال عدم وقوع مخبره ؛ فإن هذا إنما يلزم الخبر عن الواقع ؛ أما الخبر عن الحكم فلا ؛ لأنه لا يقع خلافه أصلا .

وضع الطلبي موضع الخبر

كقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا ﴾ ^(١) .

وقوله : ﴿ قُلْ أَنتُمْ قَوَّاتٌ أَوْ كَرِهَاءُ ﴾ ^(٢) .

وقوله : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَشَاقِبَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ ^(٣) .

وقوله : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . يَأْمُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . وَأَلْقِ عَصَاكَ ﴾ ^(٤) .
 وقوله : ﴿ وَأَلْقِ ﴾ مخطوف على قوله : ﴿ أَنْ بُورِكَ ﴾ فـ « ألق » وإن كان إنشاء لفظا ، لكنه خبر معنى . والمعنى : فلما جاءها قيل بورك مَنْ في النار . وقيل : ألق .

والموجب لهذا قول النحاة إن « أن » هذه مفسرة لاتأني إلا بعد فعل في معنى القول ، وإذا قيل : كتبت إليه أن أرجع ، وناداني أن قم ، كله بمنزلة : قلت له ، وقال لي قم . كذا قاله صاحب المفتاح .

وما ذكره من أن « بورك » خبرية لفظا ومعنى ممنوع ؛ لجواز أن يكون دعاء وهو إنشاء ؛ وقد ذكر هذا التقدير الفارسي وأبو البقاء ، فتكون الجملتان متفتحتين في معنى الإنشاء ؛ فتكون مثل ﴿ لا تعبدون إلا الله ﴾ .

وقوله : ﴿ يَا لَيْتَنَّا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ ﴾ ^(٥) إلى قوله : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ ^(٥) ؛

فإنه يقال : كيف ورد التمني على التكذيب وهو إنشاء ؟

(٢) سورة التوبة ٥٣

(٤) سورة النمل ٨-١٠

(١) سورة مريم ٧٥

(٣) سورة البقرة ١٢٥

(٥) سورة الأنعام ٢٧، ٢٨

وأجاب الزمخشري أنه ضمن معنى العِدَّة، وأجاب غيره بأنه محمول على المعنى من الشرط والخبر؛ كأنه قيل: إن رددنا لم نكذب وآمنا. والشرط خبر، فصَحَّ ورود التكذيب ^(١) عليه.

وقوله: ﴿ أَتَبِعُوا سَبِيلَنَا وَلَنَحْمِلَ خَطَايَاكُمْ ﴾ ^(٢)، أى ونحن حاملون، بدليل قوله: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ ^(٣) والكذب إنما يرد على الخبر.
وقوله: ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ ﴾ ^(٤)؛ تقديره: ما أسمعهم وأبصرهم! لأن الله تعالى لم يتعجب منهم، ولكنه دلَّ المكلفين على أن هؤلاء قد نزلوا منزلة من يُتعجب منه.
ومما يدل على كونه ليس أمراً حقيقياً ظهورُ الفاعل الذى هو الجار والمجرور فى الأول، وفعل الأمر لا يبرز فاعله أبداً.

وجه التجوز فى هذا الأسلوب أن الأمر شأنه أن يكون ما فيه داعية للأمر؛ وليس الخبر كذلك، فإذا عبر عن الخبر بلفظ الأمر أشعر ذلك بالداعية، فيكون ثبوته وصدقه أقرب. هذا بالنسبة لكلام العرب لا لكلام الله؛ إذ يستحيل فى حقه سبحانه الداعية للفعل.

بقى الكلام فى أيهما أبلغ؟ هذا القسم أو الذى قبله؟
قال الكواشى فى قوله تعالى: ﴿ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا ﴾ ^(٥)، الأمر بمعنى الخبر؛ لتضمنه اللزوم؛ نحو إن زرتنا فلنكرمك، يريدون تأكيد إيجاب الإكرام عليهم.
وقال الزمخشري فى قوله تعالى: ﴿ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ ^(٦)، ورود الخبر، والمراد الأمر أو النهى، أبلغ من صريح الأمر والنهى؛ كأنه سورع فيه إلى الامتثال والخبر عنه.

(٢) سورة العنكبوت ١٢

(٤) سورة مريم ٤٠

(٦) سورة البقرة ٨٣

(١) حاشية م: « التكذيب على التثنية ».

(٣) سورة الأنعام ٢٨

(٥) سورة مريم ٧٥

وقال النووي في شرح "مسلم" في باب تحريم الجمع بين المرأة وعمتها وخالتها: وقوله صلى الله عليه وسلم: « لا يخطبُ الرجلُ على خِطبة أخيه، وَلَا يَسُومُ على سوم أخيه»، هكذا هو في جميع النسخ، « ولا يسوم » بالواو « ولا يخطب » بالرفع، وكلاهما لفظه لفظ الخبر؛ والمراد به النهي وهو أبلغ في النهي، لأن خبر الشارع لا يتصور وقوع خلافه، والنهي قد يقع مخالفته، فكان المعنى: عاملوا هذا النهي معاملة خبر الحتم، ثم قال صلى الله عليه وسلم: « ولا تسأل المرأة طلاق أختها » يجوز في « تسأل » الرفع والكسر^(١)، والأول على الخبر الذي يراد به النهي، وهو المناسب لقوله قبله: « لا يخطبُ وَلَا يَسُومُ »، والثاني على النهي الحقيقي. انتهى.

(١) حاشية م: « أى لالتقاء الساكنين وهو مجزوم يسكون مقدر ».

وضع النداء موضع التعجب

كقوله تعالى : ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾ ^(١) ، قال الفراء : معناه : فيالها من حسرة ! والحسرة في اللغة أشد الندم ؛ لأن القلب يبق حسيرا .

وحكى أبو الحسين بن خالويه في كتاب "الابتداء" عن البصريين أن هذه من أصعب مسألة في القرآن ، لأن الحسرة لا تنادى ، وإنما تنادى الأشخاص ؛ لأن فائدته التنبيه ، ولكن المعنى على التعجب ، كقوله : يا عجباً لم فعلت ! ﴿يَا حَسْرَتَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ﴾ ^(٢) ، وهو أبلغ من قولك : العجب . قيل : فكأن التقدير يا عجباً احضر ، يا حسرة احضري ! وقرأ الحسن : ﴿يَا حَسْرَةَ الْعِبَادِ﴾ .

ومنها من قال : الأصل « يا حسرتاه » ثم أسقطوا الهاء تخفيفاً ، ولهذا قرأ عاصم ﴿يَا أَسْفَاهُ عَلَىٰ يَوْسُفَ﴾ ^(٣) .

وقال ابن جني في كتاب "الفسر" : معناه أنه لو كانت الحسرة مما يصح نداؤه لكان هذا وقتها .

وأما قوله تعالى : ﴿يَا بُشْرَىٰ﴾ ^(٤) ، فقالوا : معنى النداء فيما لا يعقل تنبيه المخاطب وتوكيد القصة ؛ فإذا قلت : يا عجباً ! فكأنك قلت : اعجبوا ، فكأنه قال : يا قوم أبشروا .

قال أبو الفتح في "الخطاريات" : وقد توضع الجملة من الابتداء والخبر موضع

(٢) سورة الزمر ٥٦

(٤) سورة يوسف ١٩

(٢٣ - برهان - ثالث)

(١) سورة يس ٣٠

(٣) سورة يوسف ٨٤

المفعول به ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ ﴾ ^(١) بعد قوله : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ
الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا ﴾ ^(٢) ، المعنى : ولتنتفعوا بها ، عطفاً على قوله : ﴿ لَتَرْكَبُوا مِنْهَا ﴾ .
وعلى هذا قال : ﴿ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ ﴾ ^(٣) . وكذلك قوله : ﴿ وَمِنْهَا
تَأْكُلُونَ ﴾ ^(٤) ، أى ولتأكلوا منها . ولذلك أتى : ﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ ^(٥) ،
فعطف الجملة من الفعل ومرفوعه على المفعول له .

ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ ﴾ ^(٦) ، أى ولأنى
ربكم فاتقون ، فوضع الجملة من المبتدأ والخبر موضع المفعول له .
وبهذا يبطل تعلق مَنْ تعلق على نبوته فى قوله تعالى : ﴿ وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ
إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحُجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ﴾ ^(٧) ، وقوله :
إن هذا ليس من مواضع الابتداء لجواز تقدير : وأذان بأن الله برىء ، وبأن
رسوله كذلك .



(٢) - سورة غافر ٧٩
(٤) - سورة التوبة ٣ .

(١) - سورة غافر ٨٠
(٣) - سورة المؤمنين ٥٢

وضع جمع القلة موضع الكثرة

لأن المجموع يقع بعضها موقع بعض ، لاشتراكها في مطلق الجمعية ، كقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ فِي الْعُرُقَاتِ آمِنُونَ ﴾ ^(١) ، فإن المجموع بالألف والتاء للقلة ، وغرف الجنة لا تخصي .

وقوله : ﴿ هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ ^(٢) ، ورُتِبُ الناس في علم الله أكثر من العشرة لاحالة .

وقوله : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ ﴾ ^(٣) .

وقوله : ﴿ وَأَسْتَفْتِيهَا أَنْفُسُهُمْ ﴾ ^(٤) ، وهو كثير .

وقيل : سبب ذلك في الآية الأولى دخول الألف واللام الجنسية ؛ فيكون ذلك تكثيراً لها ، وكان دخولها على جمع القلة أولى من دخولها على جمع الكثرة ، إشارةً إلى قلة من يكون فيها ، ألا ترى أنه لا يكون فيها إلا المؤمنون !

وقد نصّ سبحانه على قلتهم بالإضافة إلى غيرهم في قوله تعالى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ ﴾ ^(٥) ، فيكون التكثير الداخل في قوله : ﴿ وَهُمْ فِي الْعُرُقَاتِ ﴾ ^(٦) ، لا من جهة وضع جمع القلة موضع جمع الكثرة ؛ ولكن من جهة ما اقتضته الألف واللام للجنس .

واعلم أن جموع التكسير الأربعة وجمعي التصحيح - أعني جمع التأنيث وجمع التذكير - كل ذلك للقلة ؛ أما جموع التكسير فبالوضع ، وأما جمعا التصحيح ؛ فلائهما

(٢) - سورة آل عمران ١٦٣

(٤) - سورة النمل ١٤

(٦) - سورة سبأ ٣٧

(١) - سورة سبأ ٣٧

(٣) - سورة الزمر ٤٢

(٥) - سورة من ٢٤

أقرب إلى التثنية ؛ وهى أقل العدد ، فوجب أن يكون الجمع المشابه لها بمنزلتها فى القلة ، وما عداها من الجوع فبرد تارة للقلة وتارة للكثرة بحسب القرائن ، قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ ^(١) . ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ ^(٢) . ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ ^(٣) . ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ ^(٤) . ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ ﴾ ^(٥) . ﴿ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾ ^(٦) . ﴿ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ ^(٧) . ﴿ وَكَنتُمْ أَمَوَاتًا ﴾ ^(٨) . ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ ^(٩) . ﴿ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ^(١٠) . ﴿ يَسْمِعِيهِمْ وَأُبْصَرِهِمْ ﴾ ^(١١) . ﴿ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ ^(١٢) . ﴿ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ ^(١٣) . ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ ^(١٤) . ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُمُوتَ بَلْ أَحْيَاءُ ﴾ ^(١٥) . ﴿ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى ﴾ . ﴿ وَاتَّقُوا يَأْأُولَى الْأَلْبَابِ ﴾ ^(١٦) . ﴿ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ ﴾ ^(١٧) . ﴿ أَنْ يَنْكِحَ أَزْوَاجَهُنَّ ﴾ ^(١٨) . ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ ﴾ ^(١٩) . فإن قلت : ليس هذا منه ، بل هى للقلة ، لأنها خمس .

قلت : لو كان كذلك لما صح : ﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ ^(٢٠) .

- (٢) سورة البقرة ٢
(٤) سورة البقرة ١١
(٦) سورة البقرة ١٤
(٨) سورة البقرة ٢٨
(١٠) سورة البقرة ٢٠
(١٢) سورة الطلاق ١
(١٤) سورة البقرة ٨٥
(١٦) سورة البقرة ١٩٧
(١٨) سورة البقرة ٢٣٢
(٢٠) سورة البقرة ٢٣٦

- (١) سورة الفاتحة ٧
(٣) سورة البقرة ٥
(٥) سورة البقرة ١٢
(٧) سورة البقرة ١٦
(٩) سورة البقرة ٣١
(١١) سورة البقرة ٤٤
(١٣) سورة التوبة ٧٠
(١٥) سورة البقرة ١٥٤
(١٧) سورة المائدة ٨٩
(١٩) سورة البقرة ٢٣٨

﴿ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ ﴾ ^(١) ؛ فالمراد منها واحد ، والجواب عن أحدهما الجواب عن الآخر .

وقوله تعالى : ﴿ مِنْ كُلِّ الشَّجَرَاتِ ﴾ ^(٢) . ﴿ إِنْ تُبَدُّوا أَلْصَدَقَاتِ ﴾ ^(٣) ،
﴿ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ ﴾ ^(٤) الآية : ﴿ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ ^(٥) الآية
ولا تحصى كثرة

ومن شواهد مجيء جمع القلة مرادا به الكثرة قول حسان رضى الله عنه :
لَنَا الْجَفَنَاتُ الْغُرَّى يَلْمَعْنَ فِي الضُّحَى وَأَسْيَافُنَا يَقْطُرْنَ مِنْ بَجْدَةٍ دَمًا ^(٦)
وحكى أن النابغة قال له : قد قلت جفناك وأسيافك ^(٧) .

وطعن الفارسي في هذه الحكاية لوجود وضع جمع القلة موضع الكثرة فيما له جمع
كثرة ، وفيما لا جمع له كثرة في كلامهم . وصححها بعضهم قال : يعنى أنه كان ينبغي لحسان
تجنب اللفظ الذى أصله أن يكون فى القلة ، وإن كان جائزا فى اللسان وضعه لقرينة إذا كان
الموضع موضع مدح ، أو أنه وإن كانت القلة توضع لمعنى الكثرة ، لكن ليس فى كل مقام .
ومن المشكل قوله تعالى : ﴿ فَيَضَاعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ ^(٨) فإن « أضعافا »
جمع قلة فكيف جاء بعده كثرة ؟

والجواب أن جمع القلة يستعمل مرادا به الكثرة ، وهذا منه .

تنبيهان

الأول : إنما يسأل عن حكمة ذلك حيث كان له جمع كثرة ، فإن لم يكن فلا ،

- | | |
|--|----------------------|
| (١) سورة البقرة ٢٣٦ | (٢) سورة البقرة ٢٦٦ |
| (٣) سورة البقرة ٢٧١ | (٤) سورة آل عمران ١٧ |
| (٥) سورة الأحزاب ٣٥ | (٦) ديوانه |
| (٧) فى الموشح ٦٠ : « أنت شاعر ، ولكنك أقللت أجبناك وأسيافك ، وفجرت بمن ولدت ،
ولم تفخر بمن ولدك » . | (٨) سورة البقرة ٢٤٥ |

كقوله: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾^(١)؛ فإنَّ «أياما» أفعال مع أنها ثلاثون، لكن ليس لليوم جمع غيره؛ ومن ثم أفرد السَّمْعَ وجمع الأبصار في قوله: ﴿وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ﴾^(٢) لأنَّ «فعلا» سا كن العين صحيحها لا يجمع على «أفعال» غالبا؛ وليس له جمع تكسير؛ فلما كان كذلك اكتفى بدلالة الجنس على الجمع.

وجعل بعضهم من هذا «أنفسكم» على كثرتها في القرآن؛ وليس كذلك، فقد جاء ﴿وَإِذَا الْنُفُوسُ زُوِّجَتْ﴾، وحكمته هنا ظاهرة، لأنَّ المراد استيعاب جميع الخلق في المحشر.

ونظيره: ﴿مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾^(٣) لإمكان «الثمار» وليس رأس آية.

ومنه: ﴿آيَاتُ مُحْكَمَاتٍ﴾^(٤) لإمكان «آي» ، ولا يقال إنه لطلب المشاكلة فقد قال تعالى بعده ﴿وَأُخْرَى مُتَشَابِهَاتٍ﴾^(٥)، فدل على عدم المشاكلة لإمكان «أخريات». وكذلك قوله: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾^(٦)، وليس رأس آية، ولا فيه مشاكلة، لإمكان «الأنهر».

وقد جاء أنفس للقلة، كقوله: ﴿وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾^(٧)، وقيل: المراد نفسان من باب: ﴿فَقَدْ صَفَتْ قُلُوبُكُمْ﴾^(٨).

الثاني: إنما يتم في المنكر أما المعرف فيستغنى بالعموم عن ذلك، وبهذا يخدش في كثير مما سبق جعله من هذا النوع. وقد قال الزمخشري في قوله تعالى: ﴿مِنْ الثَّمَرَاتِ﴾^(٩): إنه جمع قلة، وضع موضع جمع الكثرة^(١٠)، وردَّ عليه بأنَّ «أل» في «الثمار» للعموم فيصير كالثمار، ولا حاجة إلى ارتكاب وضع جمع قلة موضع جمع كثرة، وكذلك بيت حسان السابق فإنَّ الجفنت معرّفة بـ «أل» «وأسيافنا» مضاف، ليعم.

- (٢) سورة البقرة ٧
(٤) سورة آل عمران ٧
(٦) سورة آل عمران ٦١
(٨) سورة البقرة ٢٢

- (١) سورة البقرة ١٨٤
(٣) سورة البقرة ٢٢
(٥) سورة البقرة ٢٥
(٧) سورة التحريم ٤
(٩) الكشاف ١ : ٧١

تذكير الموثق

يكثر في تأويله بذكر ، كقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ ^(١) ، على تأويلها بالوعظ .

وقوله : ﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا ﴾ ^(٢) ، على تأويل البلدة بالمكان ، وإلا لقال : « مينة » .

وقوله : ﴿ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي ﴾ ^(٣) ، أى الشخص أو الطالع .

وقوله : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ ^(٤) ، أى بيان ودليل وبرهان .

وقوله : ﴿ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا ﴾ ^(٥) .

وإنما يترك التأنيث كما يترك في صفات المذكر ، لا كما في قولهم ؛ امرأة معطار ؛ لأن السماء بمعنى المطر ، مذكر ، قال :

إذا نَزَلَ السَّمَاءُ بِأَرْضٍ قَوْمٍ رَعَيْنَاهُ وَإِنْ كَانُوا غَضَابًا ^(٦)
ويجمع على أسمية وسمى ، قال العجاج :

* تَلَفُّهُ الْأَرْوَاحَ وَالسَّمَى * ^(٧)

وقوله : ﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ ﴾ ^(٨) ، إلى قوله : ﴿ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ ﴾ ^(٩) ، ذكر الضمير ؛ لأنه ذهب بالقسمه إلى المقسوم .

- | | |
|--|---------------------------------------|
| (١) سورة القرة ٢٧٥ | (٢) سورة ق ١١ |
| (٣) سورة الأنعام ٧٨ | (٤) سورة الأعراف ٨٥ |
| (٥) سورة الأنعام ٦ | (٦) لماوية بن مالك بن جعفر ؛ الفضليات |
| ص ٣٥٩ ؛ والبيت من شواهد التلخيص ؛ ونسبه بعض شراحه إلى جرير ، وليس له . | (٧) (٨) سورة النساء ٨ |
| (٧) اللسان ١٩ : ١٢٣ ، ونسبه إلى رؤية . | |

وقوله : ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ ^(١) ، ذهب بالأنعام إلى معنى النعم ، أو حمله على معنى الجمع .

وقوله : ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ^(٢) ، ولم يقل «قريبة» قال الجوهري : ذُكِرَتْ ^(٣) على معنى الإحسان . وذكر الفراء أن العرب تفرق بين النسب ، والقرب من المكان ، فيقولون : هذه قريبتى من النسب ، وقريبي من المكان ، فعلموا ذلك فرقا بين قرب النسب والمكان .

قال الزجاج : وهذا غلط ؛ لأن كل ما قرب من مكان ونسب ، فهو جار على ما يقتضيه من التذكير والتأنيث ؛ يُريد أنك إذا أردت القرب من المكان ، قلت : زيد قريب من عمرو ، وهند قريبة من العباس ، فكذا في النسب .

وقال أبو عبيدة ^(٤) : ذكر «قريب» لتذكير المكان ، أى مكاناً قريباً . وردّه ابن السجري بأنه لو صح لنصب «قريب» على الظرف .
وقال الأخفش : المراد بالرحمة هنا المطر ؛ لأنه قد تقدم ما يقتضيه ، فحُمِلَ للذكر عليه .

وقال الزجاج : لأن الرحمة والغفران بمعنى واحد ؛ وقيل : لأنها والرحم سواء .
ومنه : ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ ^(٥) ، فحملوا الخبر على المعنى ، ويؤيده قوله تعالى : ﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾ ^(٦) .

وقيل : الرحمة مصدر ، والمصادر كما لا تجمع لا تؤنث .

وقيل : «قريب» على وزن «فعليل» و «فعليل» يستوى فيها المذكر والمؤنث حقيقةً كان أو غير حقيقى . ونظيره قوله تعالى : ﴿وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ ^(٧) .

(٢) سورة الأعراف ٥٦

(١) سورة النحل ٦٦

(٣) الصحاح ١ : ١٩٨ ؛ بتصرف في العبارة .

(٥) سورة الكهف ٨١

(٤) انظر مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢١٦ : ١

(٧) سورة يس ٧٨

(٦) سورة الكهف ٩٨

وقيل : من حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه ، مع الالتفات إلى المحذوف ، فكأنه قال : وإن مكان رحمة الله قريب ، ثم حذف المكان وأعطى الرحمة إعرابه وتذكيره .

وقيل : من حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه ، أى أن رحمة الله شيء قريب أولطيف ، أو برّ أو إحسان .

وقيل : من باب إكساب المضاف حكم المضاف إليه ؛ إذا كان صالحاً للحذف والاستغناء عنه بالثانى ، والمشهور فى هذا تأنيث المذكر لإضافته إلى مؤنث ، كقوله :

مَشِينٌ كَمَا اهْتَزَّتْ رِيحًا تَسْفَهَتْ أَعَالِيهَا مَرُّ الرِّيحِ النَّوَاسِمِ^(١)

فقال : « تسفَهت » والفاعل مذكر ؛ لأنه اكتسب تأنيثاً من الرياح ، إذ الاستغناء عنه جائز ، وإذا كانت الإضافة على هذا تعطى المضاف تأنيثاً لم يكن له ، فلأن تعطيه تذكيراً لم يكن له - كفى الآية الكريمة - أحقّ وأولى ؛ لأنّ التذكير أولى والرجوع إليه أسهل من الخروج عنه .

وقيل : من الاستغناء بأحد المذكورين لكون الآخر تبعاً له ، ومعنى من معانيه . ومنه فى أحد الوجوه قوله تعالى : ﴿ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾^(٢) ، فاستغنى عن خبر الأعناق بخبر أصحابها ؛ والأصل هنا إن رحمة الله قريب ، وهو قريب من الحسنين ، فاستغنى بخبر المحذوف عن خبر الموجود ، وسوغ ذلك ظهور المعنى .

ونظير هذه الآية الشريفة قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُذْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾^(٣) ، قال البغوى : لم يقل « قريبة » لأنّ تأنيثها غير حقيقى ، ومجازها الوقت .

(٢) سورة الشعراء ٤ .

(١) اللسان ١٧ : ٣٩٣ ، بدون نسبة .

(٣) سورة الشورى ١٧ .

وقال الكسائي : إتيانها قريب .

وقيل في قوله تعالى : ﴿ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ ^(١) ﴾ ، ولم يقل : « صرصرة » كما قال :
﴿ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ^(١) ﴾ ؛ لأن الصرصر وصف مخصوص بالريح لا يوصف به
غيرها ، فأشبهه باب « حائض » ونحوه ؛ بخلاف « عاتية » فإن غير الريح من الأسماء
المؤنثة لا يوصف به .

وأما قوله تعالى : ﴿ أَسْمَاءٌ مُنْفَطِرٌ بِهِ ^(٢) ﴾ ، ففي تذكير « منفطر » خمسة أقوال :
أحدها : للفراء ، أن السماء تذكر وتؤنث ، فجاء « منفطر » على التذكير .

والثاني : لأبي على أنه من باب اسم الجنس الذي بينه وبين واحده التاء ، مفردة سماء ؛
واسم الجنس يذكر ويؤنث ، نحو : ﴿ أَشْجَارٌ تُحَلِّ مُنْقَعِرٍ ^(٣) ﴾ .
والثالث : للكسائي ، أنه ذكر حملا على معنى السقف .

والرابع : لأبي على أيضاً على معنى النسب ؛ أى ذات انفطار ؛ كقولهم : امرأة مرضع ،
أى ذات رضاع .

والخامس : للزمخشري ، أنه صفة لخبر محذوف مذكر ، أى شيء منفطر .
وسأل أبو عثمان المازني بحضرة المتوكل قوماً من النحويين ؛ منهم ابن السكيت
وأبو بكر بن قادم عن قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ^(٤) ﴾ : كيف جاء بغير هاء ،
ونحن نقول : امرأة كريمة : إذا كانت هى الفاعل وليست بمنزلة « القتل » التى هى بمعنى
« المفعول » ؟ فأجاب ابن قادم وخلط ، فقال له المتوكل : أخطأت ، قل يا - بكر - المازني ،
قال : « بغى » ليس لـ « فعيل » وإنما هو « فعول » والأصل فيه « بغوى » ، فلما التقت
واو وياء ، وسبقت إحداها بالسكون أدغمت الواو فى الياء ، ف قيل : « بغى » كما تقول : امرأة

(٢) سورة الزمل ١٨

(٤) سورة مريم ٢٨

(١) سورة الحاقة ٦

(٣) سورة القمر ٢٠

صبور ، بغير هاء ؛ لأنها بمعنى صابرة ؛ فهذا حكم « فعول » إذا عدل عن فاعله ، فإن عدل عن منعه له جاء بالهاء ، كما قال :

* منها اثنتان وأربعون حُلوبة^(١) *

بمعنى « محلوبة » حكاه التوحيدى فى " البصائر " .

وقال البغوى فى قوله تعالى : ﴿ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾^(٢) ، ولم يقل « رميمة » ، لأنه معدول عن فاعلة ، وكما كان معدولا عن جهته ووزنه كان مصروفاً عن فاعلة ، كقوله : ﴿ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾^(٣) ، أسقط الهاء ؛ لأنها مصروفة عن « باغية » .

وقال الشريف المرتضى^(٤) فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَزَالُ الْوَنُ يُخْتَلِفِينَ . إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾^(٥) إن الضمير فى ذلك يعود للرحمة ، وإنما لم يقل و « لتلك »^(٦) ؛ لأن تأنيث الرحمة غير حقيقى ، كقوله تعالى : ﴿ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي ﴾^(٧) ولم يقل « هذه » ؛ على أن قوله : ﴿ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ﴾^(٨) ، كما يدل على الرحمة يدل على « أن يرحم » ويجوز رجوع الكتابة إلى قوله إلا أن يرحم ، والتذكير فى موضعه .

قال : ويجوز أن يكون قوله : ﴿ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ كناية عن اجتماعهم على الإيمان ، وكونهم فيه أمة واحدة ، ولا محالة أنه لهذا خلقهم .

ويطابق هذه الآية قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾^(٩) ، قال : فأما قوله : ﴿ وَلَا يَزَالُ الْوَنُ يُخْتَلِفِينَ ﴾ فعنائه الاختلاف فى الدين والذهاب عن الحق فيه

(١) لعنرة من المعلقة ؛ ويجزه :

* سُوداً كخافية الغرابِ الأسحَمِ *

(٢) سورة مريم ٢٨

(٣) سورة يس ٧٨

(٤) أمالى المرتضى ١ : ٧٠ ؛ مع تصرف واختصار .

(٥) فى الأصول : « وتلك » ، وصوابه من الأمالى

(٦) سورة هود ١١٨ ، ١١٩

(٧) سورة النازيات ٦٦

(٨) سورة الكهف ٩٨

بالهوى والشبهات . وذكر أبو مسلم^(١) بن بحر فيه معنى غريباً ، قال : معناه أن خلف هؤلاء الكفار يخلف سلفهم في الكفر ، لأنه سواء قولك : خلف بعضهم بعضاً ، وقولك^(٢) اختلفوا كما سواء قولك : قتل بعضهم بعضاً ، وقولهم : اقتتلوا . ومنه قولهم : لا أفعله ما اختلف العصران ، [والجديدان]^(٣) ، أى جاء كل واحد منهم بعد الآخر .

واختلف في قوله : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ ﴾^(٤) ، فقال الكسائي ، أى من بطون ما ذكرنا .

وقال القراء : ذكر لأنه ذهب إلى المعنى ؛ يعنى معنى النعم ، وقيل : الأنعام تذكر وتؤنث .

وقال أبو عبيدة : أراد البعض ، أى من بطون أيها كان ذا لبن^(٥) .
وأنكر أبو حاتم تذكير الأنعام ، لكنه أراد معنى النعم .



(١) هو أبو مسلم محمد بن بحر الأصهباني ؛ أحد المفسرين على مذهب المعتزلة ؛ توفي سنة ٢٧٠ .

(٢) من الأمل

(٣) قوله ، وصوابه من الأمل

(٤) سورة النحل ٦٦

(٥) انظر مجاز القرآن لأبي عبيدة ١ : ٣٦٢

تأنيث المذكر

كقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا ﴾ ^(١) ؛ فأنث «الفردوس» ، وهو مذكر ، حملا على معنى الجنة .

وقوله : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ ^(٢) ؛ فأنث «عشر» حيث جرّدت من الهاء مع إضافته إلى الأمثال ، وواحدتها مذكر ، وفيه أوجه :

أحدها : أنّ إضافة الأمثال إلى مؤنث ؛ وهو ضمير الحسنات ، والمضاف يكتسب أحكام المضاف إليه ، فتكون كقوله : ﴿ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ ﴾ ^(٣) .

والثاني : هو من باب مراعاة المعنى ؛ لأنّ الأمثال في المعنى مؤنثة ؛ لأن مثل الحسنة حسنة لا محالة ، فلما أريد تأكيد الإحسان إلى المطيع ، وأنه لا يضيع شيء من عمله ؛ كان الحسنة المنتظرة واقعة ، جعل التأنيث في أمثالها منبهة على ذلك الوضع ، وإشارة إليه ، كما جعلت الهاء في قولهم : راوية وعالمة ، تنبيها على المعنى المؤنث المراد في أنفسهم ، وهو الغاية والنهاية ؛ ولذلك أنت المثل هنا توكيدا لتصوير الحسنة في نفس المطيع ؛ ليكون ذلك أدعى له إلى الطاعة ، حتى كأنه قال : « فله عشر حسنات أمثالها » حذف وأقيمت صفته مقامه ، وروعى ذلك المحذوف الذي هو المضاف إليه ، كما يراعى المضاف في نحو قوله : ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ ﴾ ^(٤) ، أى « أو كذى ظلمات » ، وراعه في قوله : ﴿ يَفْشَاهُ مَوْجٌ ﴾ ، وهذا الوجه هو الذى عوّل عليه الزمخشري ، ولم يذكر سواه .

وأما ابن جني فذكر في « المحتسب » الوجه الأول ، وقال : فإن قلت : فهلا حملته

(٢) سورة الأنعام ١٦

(٤) سورة النور ٤٠

(١) سورة المؤمن ١١

(٣) سورة يوسف ١٠

على حذف الموصوف ، فكأنه قال : « فله عشر حسنات وأمثالها » ؟ قيل : حذف الموصوف وإقامة الموصوف مقامه ليس بمستحسن في القياس ؛ وأكثر ما أتى في الشعر ، ولذلك حمل ﴿ دانية ﴾ من قوله : ﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا ﴾ ^(١) ؛ على أنه وصف جنة أو « وجته دانية » عطف على « جنة » من قولهم : ﴿ وَجَزَأُكُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً ﴾ ^(٢) ؛ لما قدر حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه ، حتى عطف على قوله : ﴿ مُتَكَبِّرِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ﴾ ^(٣) فكانت حالا معطوفة على حال .

وفي " كشف المشكلات " ، ^(٤) للأصبهاني . حذف الموصوف هو اختيار سيويوه ، وإن كان لا يرى حُسْنَ « ثلاثة مسلمين » ، بحذف الموصوف .

وقوله تعالى حكاية عن لقمان : ﴿ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَنَا تَكَ مِثْقَالِ حَبَّةٍ ﴾ ^(٥) فأنث الفعل المسند لـ « مثقال » وهو مذكر ، لكن لما أضيف إلى « حبة » اكتسب منه التأنيث ، فساغ تأنيث فعله .

وذكر أبو البقاء في قوله تعالى . ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ ^(٦) أن التأنيث في « ذائقة » باعتبار معنى « كل » لأن معناها التأنيث ، قال : لأن كل نفس نفوس ، ولو ذكر على لفظ « كل » جاز ^(٧) - يعني أنه لو قيل : كل نفس ذائق ، جاز .

وهو مردود ؛ لأنه يجب اعتبار ما يضاف إليه « كل » إذا كانت نكرة ، ولا يجوز أن يعتبر كل .

(٢) سورة الدهر ١٢

(٤) ذكره صاحب كشف الظنون ١٤٩٥

(٦) سورة آل عمران ١٨٥

(١) سورة الدهر ١٤

(٣) سورة الدهر ١٣

(٥) سورة لقمان ١٦

(٧) إبلء مامن به الرحمن ٩٤:١

وقوله تعالى : ﴿ إِن تَبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ﴾ ^(١) ؛ فَإِنَّ الظَّاهِرَ عَوْدَ الضمير إلى الإبداء ؛ بدليل قوله : ﴿ وَإِنْ تَخْفَوْهَا وَتُوْتُوهَا أَلْفَقْرَاءَ فَهَوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ ^(٢) ، فذكر الضمير العائد على الإخفاء ، ولو قصد الصدقات لقال . « فهي » ؛ وإنما أنت « هي » والذي عاد إليه مذكر ؛ على حذف مضاف ، أى وإبداؤها نعم ما هي ، كقوله : القرية أسأله .

ومنه ﴿ سَمِيرًا ﴾ ^(٣) وهو مذكر ، ثم قال : ﴿ إِذَا رَأَيْتَهُمْ ﴾ فعمله على النار .
وأما قوله : ﴿ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ ﴾ ^(٤) ،
ف قيل : الضمير عائد على الآيات المتقدمة في اللفظ .

وقال البغوي : إنما قال : ﴿ خَلَقَهُنَّ ﴾ ، بالتأنيث ، لأنه أجرى على طريق جمع التذكير ، ولم يخرج على طريق التثنية للمذكر على المؤنث ؛ لأنه فيما لا يعقل .
وقيل في قوله : ﴿ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ ^(٥) : إن المراد آدم فأنه رداً إلى النفس . وقد قرئ : شاذاً « من نفس واحد » .

وحكى الثعلبي في تفسيره ^(٦) في سورة « اقرب » بإسناده إلى المبرد ؛ سئل عن ألف مسألة ، منها : ما الفرق بين قوله تعالى : ﴿ جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ ﴾ ^(٧) وقوله : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحُ عَاصِفَةٌ ﴾ ^(٨) وقوله : ﴿ أَنْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ ^(٩) و ﴿ كَانَهُمْ أَنْجَازُ ﴾

(١) سورة البقرة ٢٧١

(٢) سورة الفرقان ١١ ، ١٢ ، والآيات : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَمِيرًا . إِذَا رَأَيْتَهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا . ﴾

(٣) سورة فصلت ٣٧

(٤) في تفسيره للسمي الكشف والبيان .

(٥) سورة يونس ٢٢

(٦) سورة الأنبياء ٨١

(٧) سورة الحاقة ٧

تَحْلِي مُنْقَعِرٍ ^(١) ، فقال : كل ما ورد عليك من هذا الباب ، فلك أن تردّه إلى اللفظ تذكيرا ، ولك أن تردّه إلى المعنى تأنيثا ؛ وهذا من قاعدة أن اسم الجنس تأنيثه غير حقيقى ، فتارة يلحظ معنى الجنس فيذكر ، وتارة معنى الجماعة فيؤنث ؛ قال تعالى فى قصة شعيب : ﴿ وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ ^(٢) ﴾ ، وفى قصة صالح : ﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ ^(٣) ﴾ . وقال : ﴿ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا ^(٤) ﴾ ، وقرئ « تشابهت » .

وأبدى الشهيل للحذف والإثبات معنى حسنا فقال : إنما حذفت منه ؛ لأن «الصيحة» فيها بمعنى العذاب والخرى ، إذ كانت منتظمة بقوله : ﴿ وَمِنْ خِزْيٍ يَوْمَئِذٍ ^(٥) ﴾ ، فقوى التذكير ؛ بخلاف قصة شعيب ، فإنه لم يذكر فيها ذلك .

وأجاب غيره : بأن الصيحة يراد بها المصدر بمعنى الصياح ، فيجىء فيها التذكير ، فيطلق ويراد بها الوحدة من المصدر ، فيكون التأنيث أحسن .

وقد أخبر سبحانه عن العذاب الذى أصاب به قوم شعيب بثلاثة أمور ، كلها مفردة اللفظ :

أحدها : الرجة . فى قوله : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ^(٦) ﴾ .

والثانى : الظلة . فى قوله : ﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظَّلَّةِ ^(٧) ﴾ .

والثالث : الصيحة . وجمع لهم الثلاثة ؛ لأن الرجة بدأت بهم فأصحروا فى الفضاء ، خوفا من سقوط الأبنية عليهم ، فضربتهم الشمس بحرّها ، ورفعت لهم الظلة ، فهرعوا إليها يستظلون بها من الشمس ، فنزل عليهم العذاب وفيه الصيحة ؛ فكان ذكر الصيحة مع الرجة والظلة أحسن من ذكر الصياح ، فكان ذكر التاء أحسن .

(٢) سورة هود ٩٤

(٤) سورة البقرة ٧٠

(٦) سورة النكبت ٣٧

(١) سورة القمر ٢٠

(٣) سورة هود ٦٧

(٥) سورة هود ٦٦

(٧) سورة الشعراء ١٨٩

فإن قلت : ما الفرق بين قوله سبحانه : ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴾ ^(١) ، وبين قوله : ﴿ فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ﴾ ^(٢) .

قيل : الفرق بينهما من وجهين :

لفظي ومعنوي .

أما اللفظي ، فهو أن الفصل بين الفعل والفاعل في قوله : ﴿ حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ﴾ ^(٢) ، أكثر منها في قوله : ﴿ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴾ ^(١) ، والحذف مع كثرة الحواجز أحسن .

وأما المعنوي فهو أن « مَنْ » في قوله : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴾ ^(١) ، راجعة على الجماعة ، وهي مؤنثة لفظاً ؛ بدليل : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا ﴾ ^(٣) ، ثم قال : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴾ ^(١) ، أى من تلك الأمم ، ولو قال « ضلت » لتعينت التاء . والكلامان واحد وإن كان معناهما واحداً - فكان إثبات التاء أحسن من تركها ، لأنها ثابتة فيما هو من معنى الكلام المتأخر .

وأما ﴿ فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ﴾ ^(٢) ، فالفرق مذكر ، ولو قال : « ضلُّوا » لكان بغير تاء ، وقوله : ﴿ حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ﴾ ^(٢) في معناه ، بخاء بغير تاء ، وهذا أسلوب لطيف من أساليب العرب ، أن يدعوا حكم اللفظ الواجب في قياس لغتهم ، إذا كان في مركبه كلمة لا يجب لها حكم ذلك الحكم .

تنبيه

جاء عن ابن مسعود : ذكروا القرآن . ففهم منه ثعلب أن ما احتمل تأنيثه وتذكيره كان تذكيره أجود .

(٢) سورة الأعراف ٣٠

(١) سورة النحل ٣٦

(٣) سورة النحل ٣٦

وَرُدَّ بِأَنَّهُ يَمْتَنِعُ إِرَادَةُ تَذَكِيرٍ غَيْرِ الْحَقِيقِيِّ التَّأْنِيثِ ، لِكَثْرَةِ مَا فِي الْقُرْآنِ مِنْهُ بِالتَّأْنِيثِ :
﴿ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ ﴾ ^(١) . ﴿ وَالتَّنَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴾ ^(٢) . ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ ﴾ ^(٣) .
وإذا امتنع إرادة غير الحقيقي ، فالحقيقي أولى .

قالوا : ولا يستقيم إرادة أن ما احتمل التذكير والتأنيث غلب فيه التذكير ، لقوله تعالى :
﴿ وَالنَّخْلَ بِاسْقَاتٍ ﴾ ^(٤) . ﴿ أَفْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ ^(٥) ، فأنث مع جواز التذكير ، قال
تعالى : ﴿ أَفْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴾ ^(٦) ، ﴿ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ ﴾ ^(٧) : قال فليس المراد ما فهم ، بل المراد
الموعظة والدعاء ، كما قال تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ . . . ﴾ ^(٨) ، حذفت الجارة
والمقصود ذكروا الناس بالقرآن ، أى ابعثوهم على حفظه كيلا ينسوه .

وقال الواحدى : إن قول ابن مسعود على ما ذهب إليه ثعلب ، والمراد أنه إذا احتمل
اللفظ التذكير والتأنيث ولم يحتاج فى التذكير إلى مخالفة المصحف ذكراً ، نحو : ﴿ وَلَا يُقْبَلُ
مِنْهَا شَفَاعَةٌ ﴾ ^(٩) .

قال : ويدل على إرادته هذا أن أصحاب عبد الله من قراء الكوفة كحمزة والكسائى
ذهبوا إلى هذا فقرأوا ما كان من هذا القبيل بالتذكير ، نحو : ﴿ يَوْمَ يَشْهَدُ عَلَيْهِمْ
أَلْسِنَتُهُمْ ﴾ ^(١٠) . وهذا فى غير الحقيقي .

[ضابط التأنيث] ^(١١)

ضابط التأنيث ضربان :

حقيقى وغيره ، فالحقيقى لا يحدف التأنيث من فعله غالبا إلا أن يقع فصل ، نحو :

(٢) سورة القيامة ٢٩

(٤) سورة ق ١٠

(٦) سورة القمر ٢٠

(٨) سورة ق ٤٥

(١٠) سورة النور ٢٤

(١) سورة الحج ٧٢

(٣) سورة إبراهيم ١١

(٥) سورة الحاقة ٧

(٧) سورة يس : ٨٠

(٩) سورة البقرة ٤٨

(١١) هذا الفصل ساقط من ت

قام اليوم هند ، وكلما كثر الفصل حَسُنَ الحذف ، والإثبات مع الحقيقي أولى ما لم يكن جمعا .
وأما غير الحقيقي فالحذف فيه مع الفصل حَسَن ، قال تعالى : ﴿ فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ ﴾ ^(١) ،
فإن كثر الفصل ازداد حسنا ، ومنه : ﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ ﴾ ^(٢) ويحسن الإثبات
أيضا ؛ نحو : ﴿ وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ ﴾ ^(٣) فجمع بينهما في سورة هود .
وأشار بعضهم إلى ترجيح الحذف ، واستدل عليه بأن الله تعالى قدمه عليه حيث جمع
بينهما في سورة واحدة . وفيما قاله نظر .



التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي وعكسه

قد سبق منه كثير في نوع الالتفات ؛ و يغلب ذلك فيما إذا كان مدلول الفعل من الأمور الهائلة المهددة المتوعدة بها ، فيعدل فيه إلى لفظ الماضي تقريراً وتحقيقاً لوقوعه ، كقوله تعالى :

﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ قَفْزَعٌ مِّنَ السَّمَوَاتِ ﴾ ^(١) .

وقوله في الزمر : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ ﴾ ^(٢) .
وقوله : ﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ ^(٣) .

وقوله : ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاَهُمْ ﴾ ^(٤) ،
أى نحشرهم .

وقوله : ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا ﴾ ^(٥) . ثم تارة يجعل المتوقع فيه كالواقع ،
فيؤتى بصيغة الماضي مراداً به المضى ، تنزيلاً للتعقّب منزلة ما وقع ، فلا يكون تعبيراً عن
المستقبل بلفظ الماضي ، بل يجعل المستقبل ماضياً مبالغة .

ومنه : ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ ^(٦) . ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ﴾ ^(٧) ونحوه .

وقد يعبر عن المستقبل بالماضى مراداً به المستقبل ؛ فهو مجاز لفظى ، كقوله تعالى :

(٢) سورة الزمر ٦٨
(٤) سورة الكهف ٤٧
(٦) سورة النحل ١

(١) سورة النمل ٨٧
(٣) سورة إبراهيم ٢١
(٥) سورة الأعراف ٤٨
(٧) سورة الأعراف ٤٤

﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي السُّورِ قَفَرٌ﴾^(١) ؛ فإنه لا يمكن أن يراد به المضي ؛ لمنافاة ﴿يُنْفَخُ﴾ الذي هو مستقبل في الواقع . وفائدة التعبير عنه بالماضي الإشارة إلى استحضار التحقق ، وإنه من شأنه لتحقيقه أن يعبر عنه بالماضي وإن لم يرد معناه . والفرق بينهما أن الأول مجاز ، والثاني لا مجاز فيه إلا من جهة اللفظ فقط .

وقوله : ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى﴾^(٢) ؛ أى يقول ، عكسه لأن المضارع يراد به الديمومة والاستمرار ، كقوله : ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾^(٣) .

وقوله : ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(٤) ، أى فكان استحضاراً لصورة تكونه .

وقوله : ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكٍ سُلَيْمَانَ﴾^(٥) أى ماتلت .

وقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ﴾^(٦) ، أى علمنا .

فإن قيل : كيف يتصور التقليل^(٧) في علم الله ؟

قيل : المراد أنهم أقل معلوماته ؛ ولأن المضارع هنا بمعنى الماضي فـ « قد » فيه للتحقيق لا التقليل .

وقوله : ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ﴾^(٨) ، أى فلم قتلتم !

وقوله : ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾^(٩) أى لم يتعارفوا حتى تأتيتهم .

وقوله : ﴿مُنْفَكِينَ﴾^(١٠) ، قال مجاهد : « منتهين » وقيل : زائلين من الدنيا .

- | | |
|--|----------------------|
| (١) سورة النمل ٨٧ | (٢) سورة المائدة ١١٦ |
| (٣) سورة البقرة ٤٤ | (٤) سورة آل عمران ٥٩ |
| (٥) سورة البقرة ١٠٢ | (٦) سورة الحجر ٩٧ |
| (٧) أى التقليل المراد من كلمة « قد » . | (٨) سورة البقرة ٩١ |
| (٩) سورة البينة ١ | (١٠) سورة البينة ١ |

وقال الأزهرى : ليس هو من باب « ما انفك » و « ما زال » إنما هو من انفكك الشيء إذا انفصل عنه .

وقوله : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ ^(١) ۚ ﴾ ، المعنى : فلم عذب آباءكم بالمسخ والقتل ؟ لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يؤمر بأن محتج عليهم بشيء لم يكن بعد ؛ لأن الجاحد يقول : إني لا أعذب ، لكن احتج عليهم بما قد كان .

وقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ^(٢) ۚ ﴾ . فعدل عن لفظ « أصبحت » إلى « تصبح » ، قصدا للبالغة في تحقيق اخضرار الأرض لأهيتها ؛ إذ هو المقصود بالإنزال .

فإن قلت : كيف قال النحاة : إنه يجب نصب الفعل المقرون بالفاء إذا وقع في جواب الاستفهام ، كقوله : ﴿ فَهَلْ لَنَا مِن شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا ^(٣) ۚ ﴾ و « فتصبح » هنا مرفوع ؟

قلت : لوجوه :

أحدها : أن شرط الفاء المقتضية للنصب أن تكون سببية ، وهنا ليست كذلك ، بل هي للاستئناف ؛ لأن الرؤية ليست سببا للإصباح .

الثاني : أن شرط النصب أن ينسبك من الفاء وما قبلها شرط وجزاء ، وهنا ليس كذلك ؛ لأنه لو قيل : إن تر أن الله أنزل ماء تصبح ؛ لم يصح ؛ لأن إصباح الأرض حاصل ؛ سواء رُئي أم لا .

فإن قيل : شاع في كلامهم إلغاء فعل الرؤية ، كما في قوله : « ولا تزال - تراها - ظالمة »

أى ولا تزال ظالمة ؛ وحينئذ فالمعنى منصب إلى الإنزال لا إلى الرؤية ؛ ولا شك أنه يصح أن يقال : « إن أنزل تُصبح » ، فقد انعقد الشرط والجزاء .

قلت : إلغاء فعل الرؤية في كلامهم جائز لا واجب ، فمن أين لنا ما يقتضى تعيين محل الآية عليه ؟

الثالث : إن همزة الاستفهام إذا دخلت على موجب تقلبه إلى النفي ، كقوله تعالى : ﴿ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُتَمِّى إِلَهَيْنِ ﴾^(١) ، وإذا دخلت على نفي تقلبه إلى الإيجاب : فالهمزة في الآية للتقرير ، فلما انتقل الكلام من النفي إلى الإيجاب لم ينتصب الفعل ، لأن شرط النفي كون السابق منفياً محضاً : ذكره العزيزي^(٢) في " البرهان " .

ونظير هذه الآية قوله تعالى في سورة السجدة : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً ﴾^(٣) .

الرابع : أنه لو نصب لأعطى ما هو عكس الغرض لأن معناه إثبات الاخضرار ، فكان ينقلب بالنصب إلى نفي الاخضرار ، مثاله أن تقول لصاحبك : ألم تر أنى أنعمت فتشكر ! إن نصبت فأنت ناف لشكره ، شاكٍ تفريصه ، وإن رفعت فأنت مثبت لشكره . ذكر هذا الزمخشري في الكشف ، قال : وهذا ومثاله مما يجب أن يرغب له من اتسم بالعلم في علم الإعراب وتوقير أهله .

وقال ابن الخباز : النصب يفسد المعنى ؛ لأن رؤية المحاطب الماء الذى أنزله الله ليس سبباً للاخضرار ؛ وإنما الماء نفسه هو سبب الاخضرار .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ ﴾^(٤) ،

(١) سورة المائدة ١١٦

(٢) العزيزي بن عبد الملك ، المعروف بشيعة ؛ ذكره صاحب كشف الظنون .

(٤) سورة فاطر ٩

(٣) سورة السجدة ٢٧

فقال : « تثير » مضارعا ، وما قبله وما بعده ماضياً ، مبالغة في تحقيق إثارة الرياح السحاب للسامعين وتقدير تصوّره في أذهانهم .

فإن قيل : أهمّ الأفعال المذكورة في الآية إحياء الموتي ، وقد ذكر بلفظ الماضي ، وما ذكرته يقتضى أولوية ذكره بلفظ المضارع ، إذ هو أهمّ ، وإثارة السحاب سبب أعيد على قريب .

قيل : لا نسلم بأهمية إحياء الأرض بعد موتها ؛ فالمقدمات المذكورة أهمّها وأدّلّها على القدرة أعجبها وأبعدّها عن قدرة البشر ، وإثارة السحاب أعجبها ؛ فكان أولى بالتخصيص بالمضارع ؛ وإنما قال : إن إثارة السحاب أعجب لأن سببها أخفى ؛ من حيث إنّنا نعلم بالفعل أن نزول الماء سبب في اخضرار الأرض ، وإثارة السحاب وسوقه سبب نزول الماء . فلو خُلينا وظاهر العقل لم نقل : إن الرياح سببها ، لعدم إحساسنا بمادة السحاب وجهته .

ومن نواحق ذلك العدول عن المستقبل إلى اسم المفعول ، لتضمّنه معنى الماضي ، كقوله : ﴿ يَوْمٌ يَجْمُوعُ لَهُ النَّاسُ ﴾ ^(١) ، تقريراً للجمع فيه ، وأنه لا بد أن يكون معاداً للناس ، مضروباً لجميعهم ، وإن شئت فوازن بينه وبين قوله : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ﴾ ^(٢) لتعرف صحة هذا المعنى .

فإن قلت : الماضي أدلّ على المقصود من اسم المفعول ، فلم عدل عنه إلى مادالته أضعف ؟ قلت : لتحصل المناسبة بين « مجموع » و « مشهور » في استواء شأنهما طلباً للتعديل في العبارة .

ومنه العدول عن المستقبل إلى اسم الفاعل ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ لَوَاقِعُ ﴾ ^(١) ، فإن اسم الفاعل ليس حقيقة في الاستقبال ، بل في الحال .

مشكلة اللفظ للفظ

هي قسمان : أحدهما - وهو الأكثر - المشكلة بالثاني للأول ؛ نحو «أخذه ماقدمَ وما حدث» . وقوله تعالى : ﴿وَأَسْخُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ﴾^(١) ؛ على مذهب الجمهور وأن الجرّ للجوار : ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ . وَالسَّمَاءُ رَفَعَهَا﴾^(٢) .
وقد تقع المشكلة بالأول للثاني كما في قراءة إبراهيم بن أبي عبيلة : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾
بكسر الدال ، وهي أفصح من ضم اللام للدال .

مشابكة اللفظ للمعنى

ومتى كان اللفظ جزئاً لا كان المعنى كذلك ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ۖ ﴾ ^(١) ، ولم يقل من « طين » كما أخبر به سبحانه في غير موضع : ﴿ إِنِّي خَالِقُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ۖ ﴾ ^(٢) إنما عدل عن الطين الذى هو مجموع الماء والتراب إلى ذكر مجرد التراب لمعنى لطيف ؛ وذلك أنه أدنى العنصرين وأكثرهما ، لما كان المقصود مقابلة من ادعى فى المسيح الإلهية أتى بما يصغر أمر خلقه عند من ادعى ذلك ؛ فلهذا كان الإتيان بلفظ التراب أمس فى المعنى من غيره من العناصر ؛ وما أراد سبحانه الامتنان على بنى إسرائيل أخبرهم أن يخلق لهم من الطين كهينة الطير ، تعظيماً لأمر ما يخلقه بإذنه ؛ إذ كان المطلوب الاعتداد عليهم بخلقه ليعظموا قدر النعمة به .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ ۖ ﴾ ^(٣) فإنه سبحانه إنما اقتصر على ذكر الماء دون بقية العناصر ؛ لأنه أتى بصيغة الاستغراق ، وليس فى العناصر الأربع ما يعم جميع المخلوقات إلا الماء ؛ ليدخل الحيوان البحرى فيها .

ومنه قوله تعالى : ﴿ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ۖ ﴾ ^(٤) ؛ فإنه سبحانه أتى بأغرب ألفاظ القسم بالنسبة إلى أخواتها ؛ فإن « والله » و « بالله » أكثر استعمالاً وأعرف من « تالله » لما كان الفعل الذى جاور القسم أغرب الصيغ التى فى بابه ؛ فإن « كان » وأخواتها أكثر استعمالاً من « تفتأ » ، وأعرف عند العامة ؛ ولذلك أتى بعدها بأغرب ألفاظ الهلاك بالنسبة ، وهى لفظة « حَرَضَ » :

(١) سورة آل عمران ٥٩

(٢) سورة س ٧١

(٣) سورة يوسف ٨٥

(٤) سورة النور ٤٥

ولما أراد غير ذلك قال : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ ^(١) ، لما كانت جميع الألفاظ مستعملة .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَزْكُتُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَنَتَسَكَّمُ النَّارُ ﴾ ^(٢) ؛ فإنه سبحانه لما نهى عن الركون إلى الظالمين ، وهو الميل إليهم والاعتماد عليهم ، وكان دون ذلك مشاركتهم في الظلم ، أخبر أن العقاب على ذلك دون العقاب على الظلم ؛ وهو مس النار الذي هو دون الإحراق والإضطرام ؛ وإن كان المس قد يطلق ويراد به الإشعار بالعذاب .

ومنه قوله تعالى : ﴿ لئن بسطت إلى يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك ﴾ ^(٣) ؛ فإنه نشأ في الآية سؤال ، وهو أن الترتيب في الجمل الفعلية تقديم الفعل وتعقيبه بالفاعل ، ثم بالمفعول ، فإن كان في الكلام مفعولان : أحدهما يعدى وصول الفعل إليه بالحرف ، والآخر بنفسه ، قدم ماتعدى إليه الفعل بنفسه ؛ وعلى ذلك جاء قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ ﴾ ^(٤) .

إذا ثبت هذا ، فقد يقال : كيف توخى حسن الترتيب في عجز الآية دون صدرها ؟ والجواب أن حسن الترتيب منع منه في صدر الآية مانع أقوى ، وهو مخافة أن يتوالى ثلاثة أحرف متقاربات المخرج ؛ فينقل الكلام بسبب ذلك ؛ فإنه لو قيل « لئن بسطت يدك إلى » والطاء والتاء مقاربة المخرج ؛ فلذلك حسن تقديم المفعول الذي تعدى الفعل إليه بالحرف على الفعل الذي تعدى إليه بنفسه ؛ ولما أمن هذا المحذور في عجز الآية لما اقتضته البلاغة من الإتيان باسم الفاعل موضع الجملة الفعلية ، لتضمنه معنى الفعل الذي تصح به المقابلة ، جاء الكلام على ترتيبه ؛ من تقديم المفعول الذي تعدى الفعل إليه بنفسه ، على

(٢) سورة هود ١١٣

(٤) سورة الفتح ٢٤

(١) سورة فاطر ٤٢

(٣) سورة المائدة ٢٨

المفعول الذى يعدى إليه بحرف الجر . وهذا أمر يرجع إلى تحسين اللفظ ؛ وأما المعنى فعلى نظم الآية ؛ لأنه لما كان الأول حريصاً على التعدى على الغير قدم التعدى على الآلة ، فقال : إلى يدك ، ولما كان الثانى غير حريص على ذلك ، لأنه نفاه عنه ، قدم الآلة فقال : « يدى إليك » ؛ ويدل لهذا أنه عثر عن الأول بالفعل وفى الثانى بالاسم .

ويؤيد ذلك أيضاً قوله فى سورة المتحنة : ﴿ إِنْ يَشَقُّوْكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءُ وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ ﴾^(١) ؛ لأنه لما نسبهم للتعدى الزائد قدم ذكر المبسوط إليهم على الآلة ؛ وذلك الجواب السابق لا يمكن فى هذه الآية .

ومثله قوله : ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾^(٢) ؛ مقتضى الصناعة أن يؤتى بالتجنيس للازدواج فى صدر الآية ، كما أتى به فى عجزها ، لكن منعه توخى الأدب والتهديب فى نظم الكلام ؛ وذلك أنه لما كان الضمير الذى فى « يجزى » عائداً على الله سبحانه ، وجب أن يعدل عن لفظ المعنى الخاص إلى رديفه ، حتى لا تنسب السيئة إليه سبحانه ، فقال فى موضع السيئة : « بما عملوا » ، فعوض عن تجنيس المزاوجة بالإرداف لما فيه من الأدب مع الله ، بخلاف قوله : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾^(٣) ، فإن هذا المحذور منه مفقود ، فجرى الكلام على مقتضى الصناعة .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشُّعْرَى ﴾^(٤) ؛ فإنه سبحانه خصَّ الشُّعْرَى بالذكر دون غيرها من النجوم ؛ وهو رب كل شئ ، لأن العرب ظهر فيهم رجل يعرف بابن أبى كبشة عبد الشُّعْرَى ، ودعا خلقاً إلى عبادتها .

وقوله : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَقْتَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾^(٥) ، ولم يقل : « لا تعلمون » لما فى الفقه من الزيادة على العلم .

(٢) سورة النجم ٣١

(٤) سورة النجم ٤٩

(١) سورة المتحنة ٢

(٣) سورة الشورى ٤٠

(٥) سورة الإسراء ٤٤

وقوله حكاية عن إبراهيم: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾^(١) فإنه لم يخل هذا الكلام من حسن الأدب مع أبيه ، حيث لم يصرح فيه بأن العذاب لاحق له ، ولكنه قال : ﴿إِنِّي أَخَافُ﴾^(٢) فذكر الخوف والمس ، وذكر العذاب ونكره ولم يصفه بأنه يقصد التهويل بل قصد استعطافه ؛ ولهذا ذكر «الرحمن» ولم يذكر «المنتقم» ولا «الجبار» على ، حد قوله :

فما يوجع الحرمان من كف حارم كما يوجع الحرمان من كف رازق
ومنه قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾^(٣) فإنه قد يقال : ما الحكمة في التعبير بالسخرية دون الاستهزاء ؟
وهذا قيل : « فحاق بالذين استهزؤا بهم » ليطابق ما قبله ؟

والجواب أن الاستهزاء هو إسماع الإساءة ، والسخرية قد تكون في النفس ولهذا يقولون : سخرت منه كما يقولون : عجبت منه ؛ ولا يقال : تجنب ذلك لما في ذلك من تكرار الاستهزاء ثلاث مرات ؛ لأنه قد كرر السخرية ثلاثا في قوله تعالى : ﴿إِنْ تَسَخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسَخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾^(٤) ، وإنما لم يقل : « نستهزئ بكم » لأن الاستهزاء ليس من فعل الأنبياء .

وأما قوله : ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾^(٥) فالعرب تسمى الجزاء على الفعل باسم الفعل ، كقوله : ﴿تَسُوا اللَّهَ فَنَسِيْهُمْ﴾^(٦) ؛ وهو مجاز حسن ؛ وأما الاستهزاء الذي نحن بصددده فهو استهزاء حقيقة ، لا يرضى به إلا جاهل .

ثم قال سبحانه : ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ﴾^(٧) ، أى حاق بهم من الله الوعيد

(٢) سورة الأنعام ١٠

(٤) سورة البقرة ١٥

(٦) سورة الأنعام ١٠

(١) سورة مريم ٤٥

(٣) سورة هود ٣٨

(٥) سورة التوبة ٦٧

البالغ لهم على السنة الرسل ما كانوا به يستهزئون بأنستهم ، فزنت كل كلمة منزلتها .
 وقوله : ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ ^(١) ولم يذكر
 الكعبة ، لأن البعيد يكفيه مراعاة الجهة ، فإن استقبال عينها حرج عليه ، بخلاف القريب ؛
 وما خص الرسول بالخطاب تعظيما وإيجابا لشرعته عظم نصريحا بعموم الحكم ، وتأكيدا
 لأمر القبلة .

قاعدة

إذا اجتمع الحمل على اللفظ والمعنى ، بدى باللفظ ثم بالمعنى ، هذا هو الجادة في القرآن ،
 كقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا ﴾ ^(٢) ، أفرد أولا باعتبار اللفظ ، ثم جمع
 ثانيا باعتبار المعنى ، فقال : ﴿ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ ^(٣) فعاد الضمير مجوعا ؛ كقوله تعالى :
 ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ ^(٤) ،
 فعاد الضمير من « يدخله » مفردا على لفظ « من » ، ثم قال : « خالدين » وهو حال
 من الضمير .

وقوله : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ ^(٥) .
 وقوله : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أُنْذِنَ لِي وَلَا تَفْتِنَنِي إِلَّا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ﴾ ^(٦) .
 وقوله : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ ... ﴾ ^(٧) إلى قوله : ﴿ فَلَمَّا
 آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ ﴾ ^(٨) .

وقد يجرى الكلام على أوله في الأفراد ، كقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ

(٢) سورة البقرة ٨
 (٤) سورة الأنعام ٢٥
 (٦) سورة التوبة ٧٥، ٧٦

(١) سورة البقرة ١٤٩، ١٥٠
 (٣) سورة الطلاق ١١
 (٥) سورة التوبة ٤٩

قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ... (١) الْآيَتِينَ ، فكرر فيها ثمانية ضمائر ، كلها عائد على لفظ « من » ، ولم يرجع منها شيء على معناها ، مع أن المعنى على الكثرة .

وقد يقتصر على معناها في الجميع ، كقوله تعالى في سورة يونس : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾ (٢) . وما ذكرنا من البداءة باللفظ عند الاجتماع هو الكثير ، قال الشيخ علم الدين العراقي : ولم يحىء في القرآن البداءة بالحمل على المعنى إلا في موضع واحد ؛ وهو قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّدُكُونِنَا وَمَحْرَمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا ﴾ (٣) فأنث « خالصة » حملا على معنى « ما » ، ثم راعى اللفظ فذكر ؛ وقال : ﴿ وَمَحْرَمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا ﴾ .

واعترض بعض الفضلاء وقال : إنما يتم ما قاله من البداءة بالحمل على المعنى في ذلك ؛ إذا كان الضمير الذي في الصلّة التي في بطون هذه الأنعام يقدر مؤنثا ؛ أما إذا قدر مذكرا فالبداءة إنما هو بالحمل على اللفظ .

وأجيب بأن اعتبار اللفظ والمعنى أمر يرجع إلى الأمور التقديرية ؛ لأن اعتبار الأمرين أو أحدهما إنما يظهر في اللفظ ؛ وإذا كان كذلك صدق أنه إنما بدى في الآية بالحمل على المعنى ؛ فيتم كلام العراقي .

ونقل الشيخ أبو حيان في تفسيره عن ابن عصفور : أن الكوفيين لا يميزون الجمع بين المجلتين إلا بفواصل بينهما ؛ ولم يعتبر البصريون الفاصل ، قال : ولم يرد السماع إلا بالفواصل ، كما ذهب إليه الكوفيون . ونازعه الشيخ أثير الدين بقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ

الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى ﴿١﴾ ، وقال : ألا تراه كيف جمع بين الجملتين دون فصل ! انتهى .

والذى ذكره ابن عصفور فى شرح ” المقرب “ له : شَرَطَ الكوفيون فى جواز اعتبار اللفظ بعد اعتبار المعنى الفصل ؛ فيجوزون : مَنْ يقومون اليوم وينظر فى أمرنا إخواننا ، ولا يجوزون : مَنْ يقومون وينظر فى أمرنا إخواننا ؛ لعدم الفصل ، وإنما ورد السماع بالفصل . انتهى .

وهذا يقتضى أن الكوفيين لا يشترطون الفصل عند اجتماع الجملتين إلا أن يقدم اعتبار المعنى ويؤخر اعتبار اللفظ كما فى قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى ﴾ (١) إنما بدى فيه بالحمل على اللفظ .

وقال ابن الحاجب : إذا حُمِلَ على اللفظ جاز الحمل بعده على المعنى ؛ وإذا حُمِلَ على المعنى ضَعُفَ الحمل بعده على اللفظ ؛ لأن المعنى أقوى . فلا يبعد الرجوع إليه بعد اسباب اللفظ ، ويضعف بعد اعتبار المعنى القوى الرجوع إلى الأضعف .

وهذا معترض بأن الاستقراء دلّ على أن اعتبار اللفظ أكثر من اعتبار المعنى ، وكثرة موارد تدل على قوله ؛ وأما العود إلى اللفظ بعد اعتبار المعنى فقد ورد به التنزيل ، كما ورد باعتبار المعنى بعد اعتبار اللفظ ، فثبت أنه يجوز الحمل على كل واحد منهما ، بعد الآخر من غير ضعف .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا ﴾ (٢) فقرأه الجماعة بتذكير « يقنّت » حملا على لفظ « مَنْ » فى التذكير « وتعمل » بالتأنيث ، حملا على معناها ؛ لأنها للمؤنث . وقرأ حمزة والكسائى « يعمل » بالتذكير فيهما حملا على لفظها

رعاية المناسبة في المتعاطفين . وتوجيه الجماعة أنه لما تقدم على الثاني صريح التأييد في « منكن » حسن الحمل على المعنى .

وقال أبو الفتح في « المحتسب » : لا يجوز مراجعة اللفظ بعد انصرافه عنه إلى المعنى . وقد يورد عليه قوله : ﴿ وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ . وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ ^(١) ثم قال : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا ﴾ ^(٢) ، فقد راجع اللفظ بعد الانصراف عنه إلى المعنى ؛ إلا أن يقال : إن الضمير في « جاء » يرجع إلى الكافر لدلالة السياق عليه ؛ لا إلى « مَنْ » .

ومنه الفرق بين « أسقى » و « سقى » بغير همز ؛ لما لا كلفة معه في السقيا ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ ^(٣) فأخبر أن السقيا في الآخرة لا يقع فيها كلفة ، بل جميع ما يقع فيها من الملاذ يقع فرصة وعفوا ، بخلاف « أسقى » بالهمزة ، فإنه لا بد فيه من الكلفة بالنسبة للمخاطبين ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَأَسْقِينَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا ﴾ ^(٤) ، ﴿ لَأَسْقِينَهُمْ مَاءً غَدَقًا ﴾ ^(٥) ، لأن الإسقاء في الدنيا لا يخلو من الكلفة أبداً .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴾ ^(٦) ، قال أبو سلمة محمد بن بحر الأصمعي في تفسيره : إنما خص الموزون بالذكر دون المكيل ، لأمرين :

أحدهما : أن غاية المكيل ينتهي إلى الموزون ، لأن سائر المكيلات إذا صارت قطعاً دخلت في باب الموزون وخرجت عن المكيل ، فكان الوزن أعم من المكيل .

والثاني : أن في الموزون معنى المكيل ؛ لأن الوزن هو طلب مساواة الشيء بالشيء

(٢) سورة الدهر ٢١

(٤) سورة الجن ١٦ .

(١) سورة الزخرف ٣٦، ٣٧، ٣٨

(٣) سورة المرسلات ٢٧

(٥) سورة الحجر ١٩

ومقايسته وتعديله به ، وهذا المعنى ثابت في المكيال ، فخصّ الوزن بالذكر لاشتغاله على معنى المكيال .

وقال الشريف المرتضى في "الغرر" ^(١) : هذا خلاف المقصود ؛ بل المراد بالموزون القدر الواقع بحسب الحاجة ، فلا يكون ناقصا عنها ولا زائداً عليها زيادة مضرّة .
ومنه قوله تعالى : ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾ ^(٢) ، فذكر في مدة اللبث السنة ، وفي الانفصال العام ؛ للإشارة إلى أنه كان في شدائد في مدته كلّها ، إلا خمسين عاما قد جاءه الفرج والغوث ؛ فإنّ السّنة تستعمل غالبا في موضع الجدب ؛ ولهذا سمّوا شدة القحط سنة .

قال الشّهيلي : ويجوز أن يكون الله سبحانه قد علم أن عمره كان ألفا ؛ إلا أن الخمسين منها كانت أعواما ، فيكون عمره ألف سنة ينقص منها ما بين السنين الشمسية والقمرية في الخمسين خاصة ؛ لأنّ الخمسين عاما بحسب الأهلة أقل من خمسين سنة شمسية ، بنحو عام ونصف .

وأبّن على هذا المعنى قوله : ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ ^(٣) وقوله : ﴿ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ ؛ فإنه كلام ورد في موضع التكثير والتّيسيم بمدة ذلك اليوم ، والسنة أطول من العام .

(١) الفرر ١ : ١٣ ؛ عبارته : « ووجه الآية وما يشهد له ظاهر لفظها غير ما سلكه أبو مسلم ؛ وإنما أراد تعالى بالموزون القدر الواقع بحسب الحاجة .. »

(٢) سورة الماعج ٤

(٣) سورة النكبت ١٤

النَّحْتِ

نحو الحوقلة والبسمة ، جعله ابن الزمكاني من ^(١) نظوم القرآن ، ومثله بقوله : ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً ﴾ ^(٢) ، قال : وكفى ، من كفيته الشيء ؛ ولم يجيء للعرب كفيته بالشيء ، فجعل بين الفعلين الفعل المذكور ؛ وهو متعد ، وخص من الفعل اللازم وهو اكتفيت به ، بالباء ، وكذلك انتصب « شهيداً » على التمييز أو الحال ؛ كأنه قيل : كفى بالله فاكتمف به ، فاجتمع فيه الخبر والأمر .



الإبدال

من كلامهم إبدال الحروف ، وإقامة بعضها مقام بعض ؛ يقولون : مدحه ومدحه ، وهو كثير ، ألف فيه المصنفون ، وجعل منه ابن فارس ^(١) قوله تعالى : ﴿ فَأَنْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ ^(٢) ، فقال : فالراء واللام متعاقبان ، كما تقول العرب : فَلَقَ الصَّبحَ وَفَرَّقَهُ . قال : وذُكِرَ عن الخليل - ولم أسمع سماعاً - أنه قال في قوله تعالى : ﴿ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ ﴾ ^(٣) ، إنما أراد « فحاسوا » فقامت الجيم مقام الحاء .

قال ابن فارس : وما أحسب الخليل قال هذا ، ولا أحقُّه عنه .

قلت : ذكر ابن جنى في " المحتسب " : أنها قراءة أبو السَّمال ، وقال : قال أبو زيد - أبو غيره - قلت له : إنما هو « فحاسوا » ، فقال : حاسوا وجاسوا واحد . وهذا يدل على أن بعض القراء يتخير بلا رواية ، ولذلك ^(٤) نظائر . انتهى .

وهذا الذي قاله ابن جنى غير مستقيم ، ولا يحلُّ لأحد أن يقرأ إلا بالرواية . وقوله : « إنهما بمعنى واحد » لا يوجب القراءة بغير الرواية كما ظنه أبو الفتح وقائل ذلك ، والقارىء به هو أبو السَّوار الغنوي لا أبو السَّمال فاعلم ذلك . كذلك أسنده الحافظ أبو عمرو الداني ، فقال : حدثنا المازني ، قال : سألت أبا السَّوار الغنوي ، فقرأ : « فحاسوا » بالحاء غير الجيم ، فقلت : إنما هو « فحاسوا » قال : حاسوا وجاسوا واحد ، يعني أن اللفظين بمعنى واحد ؛ وإن كان أراد أن القراءة بذلك تجوز في الصلاة ، والغرض كما جازت بالأولى ، فقد غلط في ذلك وأساء .

(٢) سورة الشعراء ٦٣

(١) في فقه اللغة ١٧٣

(٤) انظر المحتسب الورقة ٩١ ، البحر المحيط لأبي حيان ٦ : ١٠

(٣) سورة الإسراء ٥

وزعم الفارسي في تذكرته في قوله: ﴿إِنِّي أَخْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ﴾^(١)، أنه بمعنى حبّ الخيل؛ وسميت الخيل خيرا لما يتصل بها من العز والمنعة، كما روى: «الخليل معقود بنواصيها الخير»، وحينئذ فالمصدر مضاف إلى المفعول به.

وقيل في قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ﴾^(٢): إن أصله «ملاقح»، لأنه يقال: ألقحت الريح السحاب، أي جمعتها، وكل هذا تفسير معنى، وإلا فالواجب صون القرآن أن يقال فيه مثل ذلك.

وذكر أبو عبيدة في قوله: ﴿إِلَّا مُكَاً وَتَصْدِيَةً﴾^(٣)، معناه «تصددة»، فأخرج الدال الثانية ياء لكثرة الدال الأولى، كما حكاها صاحب «الترقيص»^(٤).

وحكى عن أبي ريش في قول امرئ القيس:

* فَسَلِّي ثِيَابِي مِنْ ثِيَابِكَ تَنْسَلِي *^(٥)

معناه «تَنَسَّلِ» فأخرج اللام الثانية [ياء] لكسرة اللام الأولى، ومثله قول الآخر:

وَإِنِّي لَا سَتْنَعِي وَمَا بِي نَعْسَةٌ لَعَلَّ خِيَالًا مِنْكَ يَلْقَى خِيَالِيَا^(٦)

أراد أستنعس؛ فأخرج السين ياء.

وقال الفارسي في «التذكرة»^(٧): قرأ أبو الحسن - أو من قرأ له - قوله تعالى

فما حكى عن يعقوب في القلب والإبدال: ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾^(٨)، «غير

(١) سورة ص ٣٢

(٢) سورة الأفعال ٣٥

(٣) محمد بن علي الأزدي؛ ذكره صاحب كشف الظنون، وينقل عنه السيوطي في الزهر.

(٤) ديوانه ١٣؛ وصدره:

* وَإِنْ تَكُ سَاءَتْكَ مِنِّي خَلِيقَةٌ *

(٦) مجنون بن عامر، تزيين الأسواق ٧٠ (٧) هي المعروفة بتذكرة أبي علي؛ ذكره

صاحب كشف الظنون ص ٣٨٤، وقال: «وهو كبير في مجلدات، لحصه أبو الفتح عثمان بن جني».

(٨) سورة الأنعام ١٤٥

عائد » ، واستحسنه الفارسي ألا يعود إليه كما يعود في حال السعة من العشاء إلى الغذاء .
وقيل في قوله تعالى : ﴿ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ ﴾ ^(١) : إن خرقه واخترقه ،
وخلقه ، واختلقه ، بمعنى : هو قول أهل الكتابين في المسيح وعزير ، وقول قريش
في الملائكة .

وجوز الزمخشري كونه ^(٢) من خرق الثوب ؛ إذا شقه ، أى أنهم اشتقوا له
بنين وبنات .



المحاذاة

ذكره ابن فارس ^(١) ، وحقيقته أن يؤتى باللفظ على وزن الآخر لأجل انضمامه إليه ؛ وإن كان لا يجوز فيه ذلك لو استعمل منفردا ؛ كقولهم : أتيتهم الغدايا والعشايا ، فقالوا : الغدايا ، لانضمامها إلى العشايا .

قيل : ومن هذا كتابة المصحف ، كتبوا : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ﴾ ^(٢) بالياء ؛ وهو من ذوات الواو ؛ لما قرن بغيره مما يكتب بالياء .

ومنه قوله تعالى : ﴿ لَسَطَهُمْ ﴾ ^(٣) فاللام التي في ﴿ لَسَطَهُمْ ﴾ جواب ﴿ لَوْ ﴾ . ثم قال : ﴿ فَلَقَاتُلُوكُمْ ﴾ فهذه حوزيت بتلك اللام ؛ وإلا فالعنى : لَسَطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَقَاتُلُوكُمْ .

ومثله : ﴿ لَاَعْدَبْنَهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَاَذْبَحَتْهُ ﴾ ^(٤) فهما لما قسم - ثم قال : ﴿ أَوْ كَيَاتِنِي ﴾ ، فليس ذا موضع قسم ؛ لأنه عذر ^(٥) للهدهد ؛ فلم يكن ليُقسم على الهدهد أن يأتي بعذر ، لكنه لما جاء به على أثر ما يجوز فيه القسم أجراه مجراه ^(٦) .

(٢) سورة الضحى ٢

(١) فقه اللغة ١٥

(٣) من قوله تعالى في سورة النساء ٩٠ : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتُلُوكُمْ ﴾

(٤) سورة النمل ٢١

(٥) في الأصول : « حذر الهدهد » ، وما أنبته عن فقه اللغة .

(٦) بعده في فقه اللغة : « ومن الباب : وزنه فآثرن ، وكلته فآكلال ، أى استوفاه كيلا ووزنا ؛ ومنه

قوله جل ثناؤه : ﴿ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعْتَدُونَهَا ﴾ ، تستوفونها ؛ لأنها حق للأزواج على النساء » .

ومنه ^(١) الجزء عن الفعل بمثل لفظه نحو : ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ . اللَّهُ يُسْتَهْزَىٰ بِهِمْ ﴾ ^(٢) أى يحازيهم جزاء الاستهزاء .
 وقوله : ﴿ وَمَكْرُؤًا وَّمَكْرَ اللَّهِ ﴾ ^(٣) ﴿ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ ﴾ ^(٤) .
 ﴿ وَجَزَاءً سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ ^(٥) .

(١) فى فقه اللغة : « ومن هذا الباب الجزاء على الفعل بمثل لفظه » .
 (٢) سورة البقرة ١٤ ، ١٥
 (٣) سورة آل عمران ٥٤
 (٤) سورة التوبة ٧٩
 (٥) سورة الشورى ٤٠

قواعد في النفي

قد تقدم في شرح معاني الكلام جمل من قواعده ؛ ونذكر هاهنا زيادات .

اعلم أن نفي الذات الموصوفة قد يكون نفيا للصفة دون الذات ، وقد يكون نفيا للذات . وانتفاء النهي عن الذات الموصوفة قد يكون نهيا عن الذات ، وقد يكون نهيا عن الصفة دون الذات ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ ^(١) ، فإنه نهى عن القتل بغير الحق . وقال : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ ﴾ ^(٢) .

ومن الثاني قوله : ﴿ لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ ﴾ ^(٣) ، ﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ ^(٤) أى فلا يكون موتكم إلا على حال كونكم ميّتين على الإسلام ، فالنهي في الحقيقة على خلاف حال الإسلام ؛ كقول القائل : لا تصل إلا وأنت خاشع ، فإنه ليس نهيا عن الصلاة ، بل عن ترك الخشوع .

وقوله : ﴿ لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى ... ﴾ ^(٥) الآية .

وقد ذكرنا أن النفي بحسب ما يتسلط عليه يكون أربعة أقسام :

الأول : بنفي المسند نحو ، ما قام زيد بل قعد ، ومنه قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِحْقَاقًا ﴾ ^(٦) فالمراد بنفي السؤال من أصله ؛ لأنهم متعقّقون ؛ ويلزم من نفيه نفي الإحاف .

(٢) سورة الأنعام ١٥١
(٤) سورة آل عمران ١٠٢
(٦) سورة البقرة ٢٧٣

(١) سورة الإسراء ٣٣
(٣) سورة المائدة ٩٥
(٥) سورة النساء ٤٣

الثاني : أن ينفي المسند إليه ، فينتفى المسند ، نحو ما قام زيد إذا كان زيد غير موجود ؛ لأنه يلزم من عدم زيد نفي القيام . ومنه قوله تعالى : ﴿ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ ^(١) ، أى لا شافعين لهم فتنفعهم شفاعتهم .
ومنه قول الشاعر ^(٢) :

* عَلَى لَاحِبٍ لَا يُهْتَدَى لِمَنَارِهِ *

أى : على طريق لا منار له ، فيهتدى به ؛ ولم يكن مراده أن يثبت المنار فينتفى الاهتداء به .

الثالث : أن يُنْفَى المتعلق دون المسند والمسند إليه ، نحو ما ضربت زيدا بل عمراً .
الرابع : أن ينفي قيد المسند إليه أو المتعلق ؛ نحو ما جاءنى رجل كاتب بل شاعر ، وما رأيت رجلاً كاتباً بل شاعراً ؛ فلما كان النفي قد ينصب على المسند وقد ينصب على المسند إليه أو المتعلق ، وقد ينصب على القيد احتمل فى قولنا : ما رأيت رجلاً كاتباً أن يكون النفي هو القيد ؛ فيفيد الكلام رؤية غير الكاتب ؛ وهو احتمال مرجوح ؛ ولا يكون النفي المسند ؛ أى الفعل ، بمعنى أنه لم يقع منه رؤية عليه ؛ لا على رجل ولا على غيره ؛ وهو فى المرجوحية كالذى قبله .

(١) سورة الدثر ٤٨

(٢) هو امرؤ القيس ، ديوانه ٦٦ ، وبقيته :

* إِذَا سَافَهُ الْعَمُودُ النَّبَاطِيُّ جَرَجَرًا *

نفى الشئ رأساً

لأنه عدم كمال وصفة أو لا تنفاء ثمرته ، كقوله تعالى في صفة أهل النار : ﴿ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴾ ^(١) فنفى عنه الموت ، لأنه ليس بموت صريح ، ونفى عنه الحياة ، لأنها ليست بحياة طيبة ولا نافعة ، كقوله تعالى : ﴿ وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ ﴾ ^(٢) أى ما هم بسكارى مشروب ، ولكن سُكَارَى فرع .

وقوله : ﴿ لَا يَنْطِقُونَ . وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ ^(٣) ، وهم قد نطقوا بقولهم : ﴿ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذَّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا ﴾ ^(٤) ، ولكنهم لما نطقوا بما لم ينفع فكأنهم لم ينطقوا .

وقوله : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ ^(٥) .

وقوله : ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ ^(٦) .

ومنه قوله : ﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ ^(٧) ، فإن المعتزلة احتجوا على نفى الرؤية ، لأن النظر لا يستلزم الإبصار ، ولا يلزم من قوله : ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ ^(٨) إبصار .

وهذا وهم ، لأن الرؤية تقال على أمرين : أحدهما الحسبان والثاني العلم ، والآية من المعنى الأول ، أى تحسبهم ينظرون إليك ؛ لأن لهم أعينا مصنوعة بأجفانها وسوادها ، يحسب الإنسان أنها تنظر إليه بإقبالها عليه ، وليست تبصر شيئاً .

(١) سورة طه ٧٤

(٢) سورة المرات ٣٥ ، ٣٦

(٣) سورة الأعراف ١٧٩

(٤) سورة الأعراف ١٩٨

(٥) سورة الحج ٢

(٦) سورة الأنعام ٢٧

(٧) سورة الملك ١٠

(٨) سورة القيامة ٢٣

ومنه : ﴿ فَقَاتِلُوا أَمِةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ ﴾ ^(١) .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَالُهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ ^(٢) ؛ فإنه وصفهم أولاً بالعلم على سبيل التوكيد القسمي ، ثم نفاه أخيراً عنهم لعدم جريهم على موجب العلم ؛ كذا قاله السكاكي وغيره .

وقد يقال : لم يتوارد النفي والإثبات على محل واحد ، لأن المثبت أولاً نفس العلم ، والنفي إجراء العمل بمقتضاه . ويحتمل حذف المفعولين أو اختلاف أصحاب الضميرين .

قال : ونظيره في النفي والإثبات قوله : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ ^(٣) .

قلت : المنفي أولاً التأثير ، والمثبت ثانياً نفس الفعل .

ومن هذه القاعدة نزول الإشكال في قوله : ﴿ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ ^(٤) والمعنى : إن لم تفعل بمقتضى ما بلغت فأنت في حكم غير المبلغ ، كقولك لطالب العلم : إن لم تعمل بما علمت فأنت لم تعلم شيئاً ، أى في حكم من لم يعلم .

ومنه نفي الشيء مقيداً والمراد نفيه مطلقاً ؛ وهذا من أساليب العرب يقصدون به المبالغة في النفي وتأكيده ، كقولهم : فلان لا يرجي خيره ، ليس المراد أن فيه خيراً لا يرجي ، وإنما غرضهم أنه لا خير فيه على وجه من الوجوه .

ومنه : ﴿ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ ^(٥) ، فإنه يدل [على] أن قتلهم لا يكون إلا بغير حق ، ثم وصف القتل بما لا بد أن يكون من الصفة ، وهي وقوعه على خلاف الحق .

(٢) سورة البقرة ١٠٢

(٤) سورة المائدة ٦٧

(١) سورة التوبة ١٢

(٣) سورة الأنفال ١٧

(٥) سورة آل عمران ٢١

وكذلك قوله: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾^(١)، إنها وصف لهذا الدعاء ، وأنه لا يكون إلا عن غير برهان .

وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾^(٢) ، تغليظ وتأكيد في تحذيرهم الكفر .

وقوله: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾^(٣) ؛ لأن كل ثمن لها لا يكون إلا قليلا ،

فصار نفى الثمن القليل نفيا لكل ثمن .

وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾^(٤) ، فإن ظاهره نفى الإلحاف في المسألة ،

والحقيقة نفى المسألة البتة؛ وعليه أكثر المفسرين ، بدليل قوله: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ

مِنَ التَّعَقُّفِ﴾^(٥) ، ومن لا يسأل لا يلحِف قطعاً ؛ ضرورة أن نفى الأعم يستلزم نفى الأخص .

ومثله قوله: ﴿مَالِ الظَّالِمِينَ مِنْ حِمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾^(٦) ، ليس المراد نفى الشفيع

بقيد الطاعة ؛ بل نفية مطلقاً ؛ وإنما قيده بذلك لوجوه :

أحدها : أنه تكييل بالكفار ؛ لأن أحداً لا يشفع إلا بإذنه ؛ وإذا شفع يشفع ،

لكن الشفاعة مختصة بالمؤمنين ، فكان نفى الشفيع المطاع تنبيها على حصوله لأضدادهم ؛

كقولك لمن يناظر شخصا ذا صديق نافع : لقد حدثت صديقا نافعا ، وإنما تريد التنويه بما

حصل لغيره ، لأن له صديقا ولم ينفع .

الثاني : أن الوصف اللازم للموصوف ليس بلازم أن يكون للتقيد ؛ بل يدل لأغراض

من تحسينه أو تقييحه ، نحو : له مال يتمتع به ، وقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ

يَذَرُسُونَهَا﴾^(٦) ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٧) .

(٢) سورة البقرة ٤١

(٤) سورة البقرة ٢٧٣

(٦) سورة سبأ ٤٤

(١) سورة المؤمن ١١٧

(٣) سورة البقرة ٢٧٣

(٥) سورة غافر ١٨

(٧) سورة البقرة ١٧٤ .

الثالث: قد يكون الشفيع غير مطاع في بعض الشفاعات، وقد ورد في بعض الحديث ما يوهم صورة الشفاعة من غير إجابة، كحديث الخليل مع والده يوم القيامة؛ وإنما دل على التلازم دليل الشرع.

وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِّ﴾ ^(١) أى من خوف الذل، فنفى الولي لا تنفاء خوف الذل؛ فإن اتخاذا الولي فرع عن خوف الذل وسبب عنه.

وقوله: ﴿لَا تَأْخُذْهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ ^(٢)، نفى الغلبة؛ والمراد نفى أصل النوم والسنة عن ذاته؛ ففي الآية التصريح بنفى النوم وقوعا وجوازا، أما وقوعا فبقوله: ﴿لَا تَأْخُذْهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ ^(٣)، وأما جوازا فبقوله: ﴿الْقَيُّومُ﴾، وقد جمعها قوله صلى الله عليه وسلم: «إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام».

وقوله: ﴿قُلْ أَتَنْبِئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾ ^(٤)؛ أى بما لا وجود له، لأنه لو وجد لعلمه بوجود الوجوب، تعلق علم الله تعالى بكل معلوم.

وقوله تعالى: ﴿لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ ^(٥)، على قول من نفى القبول لا تنفاء سببه، وهو التوبة، لا يوجد توبة فيوجد قبول.

وعكسه: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ﴾ ^(٦)، فإنه نفى لوجدان العهد؛ لا تنفاء سببه، وهو الوفاء بالعهد.

وقوله: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَتْمُ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ ^(٧)، أى من حجة، أى لا حجة عليها، فيستحيل إذن أن ينزل بها حجة.

(٢) سورة البقرة ٢٥٥

(٤) سورة آل عمران ٩٠

(٦) سورة يوسف ٤٠

(١) سورة الإسراء ١١١

(٣) سورة يونس ١٨

(٥) سورة الأعراف ١٠٢

ونظيره من السنة قوله صلى الله عليه وسلم : « الدجّال أعور والله ليس بأعور » ، أى بذى جوارح كوامل بتخيل جوارح له نواقص .

ونظيره قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي ﴾ ^(١) ليس المراد أن كلمات الله تنفد بعد نفاد البحر ؛ بل لا تنفد أبدا ، لا قبل نفاد البحر ولا بعده . وحاصل الكلام : لنفد البحر ولا تنفد كلمات ربي .
ووقع في شعر جرير قوله :

فِيَالِكَ يَوْمًا خَيْرُهُ قَبْلَ شَرِّهِ تَغَيَّبَ وَاشِيَهُ وَأَقْصَرَ عَاذِلُهُ ^(٢)
قال الأصمعي : أنشدته كذلك لخلف الأحمر ، فقال : أصلحه :
* فَيَالِكَ يَوْمًا خَيْرُهُ دُونَ شَرِّهِ *

فإنه لا خير لخير بعده شر ، وما زال العلماء يصلحون أشعار العرب ، قال الأصمعي :
قللت : والله لا أرويه أبدا إلا كما أوصيتني ^(٣) .

(١) سورة الكهف ١٠٩

(٢) ديوانه ٤٨٠ ، وروايته : « وذلك يوم » .

(٣) الخبر كما رواه المرزباني بسنده في الموشح عن عيسى بن إسماعيل ص ١٢٥ : سمعت الأصمعي يقول :
قرأت على خلف شعر جرير ؛ فلما بلغت قوله :

وَيَوْمَ كَانَهُمُ الْقَطَاةُ مُحَبَّبٍ إِلَيَّ هَوَاهُ غَالِبٍ لِي بِاطِلُهُ
رُزِقْنَا بِهِ الصَّيْدَ الْغَرِيرَ وَلَمْ نَكُنْ كَمَنْ نَبِلُهُ مُحْرَمَةٌ وَجَبَائِلُهُ
فِيَالِكَ يَوْمًا خَيْرُهُ قَبْلَ شَرِّهِ تَغَيَّبَ وَاشِيَهُ وَأَقْصَرَ عَاذِلُهُ !

فقال : وبه ! وما ينفعه خير يشول إلى شر ! قلت له : هكذا قرأت على أبي عمرو ، فقال له : صدقت ، وكذا قاله جرير ، وكان قليل التنقيح مشرد الألفاظ ؛ وما كان أبو عمرو ليقرئك إلا كما سمع ، قللت : فكيف يجب أن يقول ؟ قال : الأجود له لو قال :

* فَيَالِكَ يَوْمًا خَيْرُهُ دُونَ شَرِّهِ *

فأروه هكذا ، فقد كانت الرواة قديما تصلح من أشعار القدماء . قللت : والله لا أرويه بعد هذا إلا هكذا !

نقل ابن رشيقي هذه الحكاية في "العمدة" وصوّبها^(١).

قال ابن المنير: ووقع لي أن الأصمعي وخلف الأحمر وابن رشيقي أخطئوا جميعا وأصاب جرير وحده ؛ لأنه لم يرد إلا فيالك يوم خير لا شرفيه ، وأطلق « قبل » للنفي كما قلناها ، في قوله تعالى : ﴿ لَنَفِدِ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي ﴾^(٢) ، وقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾^(٣) وقوله : ﴿ أَمْ لَهُمْ أَذِينَ يُبْعِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ ﴾^(٤) ؛ فإن ظاهره نفي هذه الجوارح ، والحقيقة توجب نفي الآية عن أن يكون له فضلا عما لا يكون له .

وقوله : ﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾^(٥) ، فالمراد لا ذاك ولا علمك به ؛ أي كلاهما غير ثابت .

وقوله : ﴿ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَهُمْ مِنْ سُلْطَانٍ ﴾^(٦) ؛ أي شركاء لا ثبوت لها أصلا ، ولا أنزل الله بإشراكها حجة ، أي تلك ، وإنزال الحجة كلاهما منتف .

وقوله : ﴿ أَتَنْبِئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ ﴾^(٧) ، أي ما لا ثبوت له ولا علم الله متعلقا به ؛ نفيا للمازوم وهو النياية بنفي لازمه ، وهو وجوب كونه معلوما للعالم بالذات ، لو كان له ثبوت ، بأي اعتبار كان .

وقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ ﴾^(٨)

(١) العمدة ٢ : ١٩٣ ؛ قال ابن رشيقي بعد أن أورد الخبر : « قلت أنا : أما هذا الإصلاح فليح الظاهر ، غير أنه خلاف الظاهر ؛ وذلك أن الشاعر أراد أنه كان في ليلة وصال ؛ ثم فارق حبيبته نهرا ؛ وذلك هو النهر الذي ذكر ، والرواية جعله لم يفارق ؛ فغير عليه المعنى ؛ إلا أن تكون الرواية : « ويوم كلبهم الحباري » ، فيثبت ؛ على أن « دون » تحتل ما قصد ، وتحتل معنى « قبل » ، فهي لفظة مشتركة ، وتكون أيضا بمعنى « بعد » ، لأنها من الأضداد ، ولكن في غير هذا الموضع .

- | | |
|-----------------------|-------------------|
| (٢) سورة الكهف ١٠٩ | (٣) سورة الرعد ٢ |
| (٤) سورة الأعراف ١٩٥ | (٥) سورة لقمان ١٥ |
| (٦) سورة آل عمران ١٥١ | (٧) سورة يونس ١٨ |
| (٨) سورة آل عمران ٩٠ | |

أصله لن يتوبوا فلن يكون لهم قبول توبة ، فأوثر الإلحاق ذهابا إلى انتفاء الملزوم بانتفاء اللازم ؛ وهو قبول التوبة الواجب في حكمه تعالى وتقدس .

وقوله : ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْإِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا ﴾ ^(١) ، معلوم أنه لا إكراه على الفاحشة لمن لا يريد تحصنًا ؛ لأنها نزلت فيمن يفعل ذلك .

ونظيره : ﴿ لَا تَأْكُلُوا أَرْبَابًا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً ﴾ ^(٢) ، وأكل الربا منهي عنه قليلا وكثيرا ؛ لكنها نزلت على سبب ؛ وهو فعلهم ذلك ؛ ولأنه مقام تشنيع عليهم ، وهو بالكثير أليق .

وقوله : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بُاسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ... ﴾ ^(٣) الآية ، المعنى آمنا بالله دون الأصنام وسائر ما يدعى إليه دونها ، إلا أنهم نفوا الإيمان بالملائكة والرسل والكتب المنزلة والدار الآخرة والأحكام الشرعية ، ولهذا أنه لما رد بقوله : ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بُاسَنَا ﴾ ^(٤) ، بعد إثباته إيمانهم ، لأنه ضروري لا اختياري ، أوجب ألا يكون الكلام مسوقا لنفي أمور ، يُراعى فيها الحصر والتقييد ، كقوله : ﴿ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ ^(٥) ، فإنه لم يقدم المفعول في « آمنا » حيث لم يرد ذلك المعنى ، فركب تركيبا يورم أفراد الإيمان بالرحمن عن سائر ما يلزم من الإيمان .

وقوله : ﴿ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ ^(٦) ، فقيل من هذا الباب ، فهي صفة لازمة ، وقيل التكبر قد يكون بحق ، وهو التنزه عن الفواحش والدنایا والتباعد من فعلها . وأما قوله : ﴿ وَالْإِنَّمِ وَالْبَغْيِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ ^(٧) ، فإن أريد بالبغي الظلم كان قوله : ﴿ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ تأكيذا ، وإن أريد به الطلب كان قيذا .

(٢) سورة آل عمران ١٣٠

(٤) سورة الملك ٢٩

(٦) سورة الأعراف ٣٣

(٢٦) — برهان — ثالث

(١) سورة النور ٣٣

(٣) سورة المؤمن ٨٤ ، ٨٥

(٥) سورة الأعراف ١٤٦

قاعدة

اعلم أن نفي العام يدل على نفي الخاص ، وثبوته لا يدل على ثبوته ، وثبوت الخاص يدل على ثبوت العام ، ولا يدل نفيه على نفيه ؛ ولا شك أن زيادة المفهوم من اللفظ توجب الالتذاذ به ، فلذلك كان نفي العام أحسن من نفي الخاص ، وإثبات الخاص أحسن من إثبات العام .

فالأول : كقوله تعالى : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾ ^(١) ، ولم يقل : « بضوئهم » بعد قوله ﴿ أَضَاءَتْ ﴾ لأن النور أعم من الضوء ؛ إذ يقال على القليل والكثير ؛ وإنما يقال الضوء على النور الكثير ، ولذلك قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا ﴾ ^(٢) ، ففي الضوء دلالة على الزيادة ، فهو أخص من النور ، وعدمه لا يوجب عدم الضوء ، لاستلزام عدم العام عدم الخاص ، فهو أبلغ من الأول ، والغرض إزالة النور عنهم أصلاً ، ألا ترى ذكره بعده : ﴿ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ ﴾ ^(٣) .

وهاهنا دقيقة ، وهي أنه قال : ﴿ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾ ^(٣) ، ولم يقل : « أذهب نورهم » لأن الإذهاب بالشيء إشعار له بمنع عودته ، بخلاف الذهاب ؛ إذ يفهم من الكثير استصحابه في الذهاب ، ومقتضى منعه من الرجوع .

ومنه قوله تعالى : ﴿ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ ﴾ ^(٤) ، ولم يقل : « ضلال » ؛ كما قالوا :

(٢) سورة يونس ٥

(٤) سورة الأعراف ٦١

(١) سورة البقرة ١٧

(٣) سورة البقرة ١٧

﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ ﴾^(١) ، لأنّ نقي الواحد يلزم منه نقي الجنس البتة .
وقال الزمخشري^(٢) : لأن الضلالة أخصّ من الضلال ، فكان أبلغ في نقي الضلال
عنه^(٣) ، فكانت له قال : ليس بى شيء من الضلال ، كما لو قيل [لك]^(٤) لك ثمرة ؟
فقلت : مالى ثمرة .

ونازعه ابن المنير^(٥) وقال : تعليقه نفيها أبلغ [من نقي الضلال]^(٦) لأنها أخص
[منه]^(٧) وهذا غير مستقيم ، فإنّ نقي الأعم أخصّ من نقي الأخص ، ونقي الأخص أعم من
نقي الأعم ، فلا يستلزمه لأنّ^(٨) الأعم لا يستلزم الأخص . فإذا قلت : هذا ليس بإنسان
لم يلزم سلب الحيوانية عنه ، وإذا قلت : هذا ليس بحيوان ، لم يكن إنسانا ، والحق
أن يقال : الضلالة أدنى من الضلال [وأقل]^(٩) ، لأنها لا تطلق إلا على الفعلة
[الواحدة]^(١٠) منه ، والضلال يصلح للقليل والكثير ، ونقي الأدنى أبلغ من نقي الأعلى
لا من جهة كونه أخصّ ، بل من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى .

والثاني : كقوله تعالى : ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾^(١) ، ولم يقل
« طولها » ، لأن العرض أخصّ ، إذ كل ماله عَرْض فله طول ، ولا ينعكس . وأيضاً
إذا كان للشيء صفة يغنى ذكرها عن ذكر صفة أخرى ، تدلّ عليها كان الاختصار عليها
أولى من ذكرها ؛ لأن ذكرها كالتكرار ، وهو مملّ ؛ وإذا ذكرت فالأولى تأخير الدلالة
على الأخرى ؛ حتى لا تكون المؤخرة قد تقدمت الدلالة عليها .

(٢) الكشف ٢ : ٨٩ .

(٤) من الكشف

(٥) في حاشيته على الكشف المروية بالاتصاف (٢ : ٨٩) .

(٦) من حاشية ابن المنير .

(٧) حاشية ابن المنير : « ضرورة أن الأعم » .

(٩) سورة آل عمران ١٣٣ .

(٨) من حاشية ابن المنير .

وقد يخلّ بذلك مقصود آخر كما في قوله : ﴿ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴾ ^(١) لأجل السجع وإذا كان ثبوت شيء أو نفيه يدل على ثبوت آخر أو نفيه ، كان الأولى الاقتصار على الدال على الآخر ، فإن ذكر فالأولى تأخير الدال .

وقد يخلّ بذلك لمقصود آخر ؛ كما في قوله تعالى : ﴿ مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُعَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ﴾ ^(٢) وعلى قياس ما قلنا ينبغي الاقتصار على صغيرة ، وإن ذكرت الكبيرة منها فلتذكر أولاً .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٍ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ﴾ ^(٣) وعلى ذلك القياس يكفي « لها أف » أو يقول « ولا تنهرهما » « فلا تقل لهما أف » ؛ وإنما عدل عن ذلك للاهتمام بالنهي عن التأفif ، والعناية بالنهي ؛ حتى كأنه قال : نهى عنه مرتين : مرة بالمفهوم ، وأخرى بالنطوق .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ لَا تَأْخُذْهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ ^(٤) فإن النوم غشية ثقيلة تقع على القلب تمنعه معرفة الأشياء ، والسنة مما يتقدمه من النعاس ، فلم يكتف بقوله : ﴿ لَا تَأْخُذْهُ سِنَّةٌ ﴾ ^(٤) ؛ دون ذكر النوم ؛ لئلا يتوهم أن السنة إنما لم تأخذه لضعفها ، ويتوهم أن النوم قد يأخذه لقوته ؛ فجمع بينهما لنفي التوهمين ، أو السنة في الرأس ، والنعاس في العين ، والنوم في القلب ؛ تلخيصه هو منزعه عن جميع المفترقات ، ثم أكد نفي السنة والنوم بقوله : ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ ^(٥) لأنه خلقهما بما فيهما ، والمشاركة إنما تقع فيما فيهما ، ومن يكن له ما فيهما ؛ فحال نومه ومشاركته ؛ إذ لو وجد شيء من ذلك لفسدتا بما فيهما .

وأيضاً فإنه يلزم من نفي السنة نفي النوم أنه لم يقل : لا ينام ؛ وإنما قال : ﴿ لَا تَأْخُذْهُ ﴾ ^(٤)

(٢) سورة الكهف ٤٩

(٤) سورة البقرة ٢٥٥

(١) سورة مريم ٥١

(٣) سورة الإسراء ٢٣

يعنى لا تغلبه ؛ فكأنه يقول : لا يغلبه القليل ولا الكثير من النوم . والأخذ في اللغة بمعنى القهر والغلبة ؛ ومنه سى الأسير : مأخوذاً وأخيداً . وزيدت «لا» في قوله : ﴿وَلَا نَوْمٌ﴾^(١) لنفيهما عنه بكل حال ، ولولاها لاحتمل أن يقال : لا تأخذه سنة ولا نوم في حال واحدة ، وإذا ذكرت صفات فإن كانت للمدح فالأولى الانتقال فيها من الأدنى إلى الأعلى ؛ ليكون المدح متزايداً بتزايد الكلام ؛ فيقولون : فقيه عالم ، وشجاع باسل ، وجواد فياض ، ولا يعكسون هذا لفساد المعنى ؛ لأنه لو تقدم الأبلغ لكان الثانى داخلاً تحته ، فلم يكن لذكره معنى ؛ ولا يوصف بالعالم بعد الوصف بالعلام .

وقد اختلف الأدباء في الوصف بالفاضل والكامل : أيهما أبلغ على ثلاثة أقوال : ثالثهما أنهما سواء .

قال الأقليشي^(٢) : والحق أنك مهما نظرت إلى شخص ، فوجدته مع شرف العقل والنفس كريم الأخلاق والسجايا ، معتدل الأفعال وصفته بالسكال ، وإن وجدته وصل إلى هذه الرتب بالكسب والمجاهدة وإمالة الرذائل وصفته بالفضل ؛ وهذا يقتضى أنهما متضادان ؛ فلا يوصف الشخص الواحد بهما إلا بتجاوز .

وقال ابن عبد السلام في قوله تعالى : ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾^(٣) إنما قدم الغيب مع أن علم الغيبات أشرف من المشاهدات ، والتمدح به أعظم ، وعلم البيان يقتضى تأخير الأمدح . وأجاب بأن المشاهدات له أكثر من الغائب عتاً ، والعلم يشرق بكثرة متعلقاته ؛ فكان تأخير الشهادة أولى .

وقول الشيخ : إن المشاهدات له أكثر فيه نظر ؛ بل في غيبه ما لا يحصى ﴿وَيَخْلُقُ﴾

(١) سورة البقرة ٢٥٥

(٢) الأقليشي : منسوب إلى أقليش ، بضم الهزرة وسكون انقاف ، إحدى مدن الأندلس . ولعله عبدالله ابن يحيى التجيبي الأقليشي ؛ شرح الشهاب ، واختصر كتاب مشكل القرآن لابن فورك ؛ وتوفى سنة ٥٠٢ . وانظر معجم البلدان ١ : ٣١٣ .

(٣) سورة المؤمنون ٩٢

مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١﴾ ؛ وإنما الجواب أن الانتقال للأمدح ترقى ؛ فالمتقصد هنا بيان أن الغيب والشهادة في علمه سواء ، فنزل الترقى في اللفظ منزلة ترقى في المعنى ، لإفادة استوائهما في علمه تعالى . ويوضحه قوله تعالى : ﴿ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَأَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ ﴾ (٢) فصرح بالاستواء .

هذا كله في الصفات ، وأما الموصوفات فعلى العكس من ذلك ؛ فإنك تبدأ بالأفضل ، فتقول : قام الأمير ونائبه وكتابه ؛ قال تعالى : ﴿ وَأَخْلِيلَ وَالْبَغَالِ وَالْحَمِيرِ لَتَرْكَبُوهَا ... ﴾ (٣) الآية ، فقدم الخليل لأنها أحمَد وأفضل من البغال ، وقدم البغال على الحمير لذلك أيضاً .

فإن قلت : قاعدة الصفات منقوضة بالقاعدة الأخرى ؛ وهى أنهم يقدمون الأهم فالأهم في كلامهم كما نص عليه سيبويه وغيره .

وقال الشاعر :

أَبَى دَهْرُنَا إِسْعَافَنَا فِي نُفُوسِنَا وَأَسْعَفَنَا فِيمَنْ نُحِبُّ وَنُكْرِمُ
فَقُلْتُ لَهُ نَعْمَاكَ فِيمَا أَتَمَّمَا وَدَعْ أَمْرَنَا إِنْ الْمَهْمُ الْمَقْدَمُ

قلت : المراد بقوله : « تقدم الأهم فالأهم » فيما إذا كانا شيئين متغايرين مقصودين ، أحدهما أهم من الآخر ؛ فإنه يقدم ، وأما تأخر الأمدح في الصفات فذلك فيما إذا كانتا صفتين لشيء واحد ؛ فلو أخرنا الأمدح لكان تقديم الأول نوعاً من العبث .

هذا كله في صفات المدح ؛ فإن كانت للذم فقد قالوا : ينبغي الابتداء بالأشد ذمًا ، كقوله تعالى : ﴿ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ (٤) ؛ قال ابن النفيس (٥) : في كتاب

(٢) سورة الرعد ١٠

(٤) سورة النحل ٩٨

(١) سورة النحل ٨

(٣) سورة النحل ٨

(٥) هو علي بن أبي الحزم القرشي علاء الدين ، المعروف بابن النفيس ؛ أعلم أهل عصره بالطب ؛ سكن مصر وتوفي بها سنة ٦٩٨ هـ ؛ ذكره السبكي في الطبقات ٥ : ١٢٩ ؛ وكتابه طريق الفصاحة ؛ ذكره صاحب كشف الظنون ص ١١١٤ .

” طريق الفصاحة “ : وهو عندى مشكل ؛ ولم يذكر توجيهه .

وقال حازم فى ” منهاجه “ : يبدأ فى الحسن بما ظهور الحسن فيه أوضح ، وما النفس بتقديمه أعنى ، ويبدأ فى الذم بما ظهور القبح فيه أوضح ، والنفس بالالتفات إليه أعنى ؛ وينتقل فى الشيء إلى ما يليه من المزية فى ذلك ، ويكون بمنزلة المصور الذى يصور أولاً ما حل من رسوم تخطيط الشيء ، ثم ينتقل إلى الأدق فالأدق .

قائدة

نفى الاستطاعة قد يراد به نفي الامتناع ، أو عدم إمكان وقوع الفعل مع إمكانه ؛ نحو هل تستطيع أن تكلمنى ؟ بمعنى هل تفعل ذلك وأنت تعلم أنه قادر على الفعل ؟

وقد حمل قوله تعالى حكاية عن الحواريين : ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ ﴾ ^(١) على المعنى الأول ؛ أى هل يحمينا إليه ؟ أو هل يفعل ربك ؟ وقد علموا أن الله قادر على الإنزال ، وأن عيسى قادر على السؤال ، وإنما استفهموا هل هنا صارف أو مانع ؟ .

وقوله : ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً ﴾ ^(٢) . ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدًّا ﴾ ^(٣) . ﴿ فَمَا أَسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴾ ^(٤) .

وقد يراد به الوقوع بمشقة وكلفة كقوله تعالى : ﴿ لَنْ نَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ ^(٥)

(٢) سورة يس ٥٠
(٤) سورة الكهف ٧٢ .

(١) سورة المائدة ١١٢
(٣) سورة الأنبياء ٤٠
(٥) سورة الكهف ٦٧

فائدة

قوله تعالى : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾ ^(١) ، قالوا : المجاز يصح نفيه بخلاف الحقيقة ، لا يقال للأسد ليس بشجاع .
وأجيب بأن المراد بالرَّمَى هنا المرتب عليه ، وهو وصوله إلى الكفار ؛ فالوارد عليه السلب هنا مجاز لا حقيقة ؛ والتقدير : وما رميتَ خلقاً إذ رميتَ كسبا ، أو ما رميتَ انتهاءً إذ رميتَ ابتداءً ؛ وما رميتَ مجازاً إذ رميتَ حقيقة



إخراج الكلام مخرج الشك في اللفظ دون الحقيقة لضرب من المسامحة وحسن العناد

كقوله : ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ ^(١) ؛ وهو يعلم أنه على الهدى ، وأنهم على الضلال ، لكنه أخرج الكلام مخرج الشك ، تقاضيا ومسامحة ، ولا شك عنده ولا ارتياب .

وقوله : ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ ^(٢) .

ونحوه : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ ^(٣) أوردته على طريق الاستفهام ؛ والمعنى : هل يتوقع منكم إن توليتم أمور الناس وتأمرتم عليهم لما تبين لكم من المشاهد ولاح منكم في الخيال : ﴿ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ ^(٣) تهالكا على الدنيا ؟

وإنما أورد الكلام في الآية على طريق سوق غير المعلوم سياق غيره ، ليؤدبهم التأمل في التوقع عن يتصف بذلك إلى ما يجب أن يكون مسببا عنه من أولئك الذين أصحهم الله وأعمى أبصارهم ، فيلزمهم به على أطف وجه ؛ إبقاء عليهم من أن يفاجئهم به ، وتأليفا لقلوبهم ، ولذلك التفت عن الخطاب إلى الغيبة ، تفاديا عن مواجهتهم بذلك .

وقد يخرج الواجب في صورة الممكن ، كقوله تعالى : ﴿ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ ^(٤) .

﴿ فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنَّكَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ ﴾ ^(٥) .

(٢) سورة الزخرف ٨١

(٤) سورة الإسراء ٧٩

(١) سورة سبأ ٢٤

(٣) سورة القتال ٢٢

(٥) سورة المائدة ٥٢

﴿وَعَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ﴾^(١).

﴿وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾^(٢).

وقد يخرج الإطلاق في صورة التقييد كقوله : ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾^(٣).

ومنه قوله تعالى حاكيا عن شعيب : ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾^(٤) فالمعنى لا يكون أبدا من حيث علّقه بمشيئة الله ؛ لما كان معلوماً أنه يشاؤه ؛ إذ يستحيل ذلك على الأنبياء ، وكل أمر قد علّق بما لا يكون فقد نفى كونه على أبعد الوجوه .

وقال قطرب : في الكلام تقديم وتأخير ، والاستثناء من الكفار لامن شعيب ، والمعنى : لنخْرِجَنَّك يا شعيب ، والذين آمنوا معك من قريتنا ؛ إلا أن يشاء الله أن نعودوا في ملتهم . ثم قال تعالى حاكيا عن شعيب : ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا﴾^(٤) ، على كل حال .

وقيل الهاء عائدة إلى القرية ، لا إلى الله .



(٢) سورة الققرة ٢١٦

(٤) سورة الأعراف ٨٩

(١) سورة الإسراء ٨

(٣) سورة الأعراف ٤٠

الاعراض عن ضييع الجحيم

كقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ ^(١) ، أعرض عن ذكر مقدار الجزاء والثواب ، وذكر ماهو معلوم مشترك بين جميع أعمال البشر ، تفخيما لمقدار الجزاء ، لما فيه من إيهام المقدار ، وتنزيلا له منزلة ماهو غير محتاج إلى بيانه ، على حدّ « فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ » ، أعرض عن ذكر الجزاء إلى إعادة الشرط ، تنبيها على عِظَم ما يُنال ، وتفخيما لبيان ما أتى به من العمل ، فصار السكوت عن مرتبة الثواب أبلغ من ذكرها .

وكقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ ^(٢) ، وهذه الآية تتضمن الرجوع والبقاء والجمع ، ألا تراه كيف رجع بعد ذكره المبتدأ الذي هو الذين عن ذكر خبره إلى الشروع في كلام آخر ، فبنى مبتدأ على مبتدأ وجمع ؟ والمعنى قوله : ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ ﴾ ^(٣) من خبر المبتدأ الأول ، وتقديره : إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَهُمْ ، لأننا لا نضيع أجر من أحسن عملا .



الْهِدْم

وهو أن يأتي الغير بكلام يتضمن معنى ، فتأتي بضده ؛ فإنك قد هدمت ما بناه
 المتكلم الأول ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾ ^(١)
 هدمه بقوله : ﴿ مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ ﴾ ^(٢) ، وبقوله : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ ^(٣) ،
 وبقوله : ﴿ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ ﴾ ^(٤) ؛ تقديره إن كنتم صادقين في دعواكم .
 ومنه : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ﴾ ^(٥)
 هدمه بقوله : ﴿ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ ^(٥) ، وقوله : ﴿ مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ ﴾ ^(٦) .
 ومنه : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ﴾ ^(٧) هدمه بقوله :
 ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ ^(٧) ، أى في دعواهم الشهادة .



- (٢) سورة المؤمنون ٩١
- (٤) سورة المائدة ١٨
- (٦) سورة المؤمنون ٩١

- (١) سورة المائدة ١٨
- (٣) سورة آل عمران ٥٧
- (٥) سورة التوبة ٣٠
- (٧) سورة المنافقون ١

التوسّع

منه الاستدلال بالنظر في الملكوت ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَضَرِّيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (١) .

ويكثر ذلك في تقديرات العقائد الإلهية : لتتمكن في النفوس ، كقوله : ﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾ (٢) ؛ وذلك بعد ذكر النطفة وتقلبها في مراتب الوجود ، وتطورات الخلقة .

وكقوله تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٣) .

ومنه التوسّع في ترادف الصفات ؛ كقوله تعالى : ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ مَجْجٍ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكْدِيرْهَا ﴾ (٤) ، فإنه لو أريد اختصاره لكان : ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ مَجْجٍ ﴾ (٥) مظلم .

ومنه التوسّع في الذم كقوله تعالى : ﴿ وَلَا تُطِيعُ كُلَّ حَافٍ مِثْنٍ . هَمَّازٌ مَشَاءُ بَنِيمٍ ﴾ (٥) إلى قوله : ﴿ عَلَى الْخُرُطُومِ ﴾ (٦) .

(٢) سورة القيامة ٤٠

(٤) سورة النور ٤٠

(٦) سورة القلم ١٦

(١) سورة البقرة ١٦٤

(٣) سورة الزمر ٦٧

(٥) سورة القلم ١١، ١٠

التشبيه

اتفق الأدباء على شرفه في أنواع البلاغة ، ولأنه إذا جاء في أعقاب النماذج أفادها كلاً ، وكساها حلة وجمالاً ، قال المبرد في "الكامل" : هو جار في كلام العرب حتى لو قال قائل : هو أكثر كلامهم لم يبعد .

وقد صنف فيه أبو القاسم^(١) بن البنداري البغدادي كتاب "الجان في تشبيهات القرآن" .

[مباحث التشبيه]

وفيه مباحث :

الأول

في تعريف

وهو إلحاق شيء بذى وصف في وصفه .

وقيل : أن تثبت للمشبه حكماً من أحكام المشبه به .

وقيل : الدلالة على اشتراك شيئين في وصف هو من أوصاف الشيء الواحد ؛ كالطَّيْب

في المسك ، والضياء في الشمس ، والنور في القمر . وهو حكم إضافي لا يرد إلا بين الشيئين بخلاف الاستعارة .

(١) هو أبو القاسم عبد الله بن محمد بن الحسين بن نافيا ، الأديب الشاعر الأنصاري ، المتوفى سنة ٤١٠ هـ ؛ ويرجع من كتابه الجان نسخة مصورة بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية ؛ عن نسخة مخطوطة بمكتبة الأسكندرية .

الثانى

فى الغرض منه

وهو تأنيس النفس بإخراجها من خفيّ إلى جليّ ؛ وإدناؤه البعيد من القريب ؛
ليفيد بيّانا .

وقيل : الكشف عن المعنى المقصود مع الاختصار ؛ فإنك إذا قلت : زيد أسد ، كان
الغرضُ بيان حال زيد ، وأنه متصف بقوة البطش والشجاعة وغير ذلك ؛ إلا أنا لم نجد
شيئا يدل عليه سوى جعلنا إياه شبيها بالأسد ، حيث كانت هذه الصفات مختصة به ؛
فصار هذا أبين وأبلغ من قولنا : زيد شهم شجاع قوى البطش ونحوه .

الثالث

فى أنه حقيقة أو مجاز

والحقيقون على أنه حقيقة ، قال الزنجاني^(١) فى "المعيار" : التشبيه ليس بمجاز ؛
لأنه معنى من المعانى ، وله ألفاظ تدل عليه وضعاً ؛ فليس فيه نقل اللفظ عن موضوعه ؛
وإنما هو توطئة لمن سلك سبيل الاستعارة والتمثيل ؛ لأنه كالأصل لها ، وهما كالفرع له .
والذى يقع منه فى حيز المجاز عند البيانين هو الذى يحى ، على حد الاستعارة .
وتوسط الشيخ عز الدين ، فقال : إن كان بحرف فهو حقيقة ، أو بحذفه فمجاز ، بناء
على أن الحذف من باب المجاز .

(١) هو عبد الوهاب بن إبراهيم بن عبد الوهاب الخزرجى الزنجاني ؛ أحد علماء العربية ؛ توفى سنة ٦٥٥
ذكره الزركلى فى الأعلام ٢ : ٦٠٨ (المطبعة العربية) ، وصاحب كشف الظنون ٣ : ١٧٤ ؟

الرابع في أدواته

وهي أسماء ، وأفعال ، وحروف .

فالأسماء : مثل ، وشبهه ، ونحوها ، قال تعالى : ﴿ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ ﴾ ^(١) . ﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى ﴾ ^(٢) . ﴿ وَأَتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ﴾ ^(٣) . ﴿ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا ﴾ ^(٤) .
والأفعال كقوله : ﴿ يَحْسَبُهُ الظَّالِمَانُ مَاءً ﴾ ^(٥) . ﴿ يُحَيِّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَلَّا تَسْمَعُ ﴾ ^(٦) .

والحروف إما بسيطة كالكاف ؛ نحو : ﴿ كَرَّمَادًا شَتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ ﴾ ^(٧) . ﴿ كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ ^(٨) وإما مركبة ، كقوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ ^(٩) .

الخامس

في أقسامه

وهو ينقسم باعتبارات :

الأول

أنه إما أن يشبه بحرف ، أو لا .

وتشبيه الحرف ضربان :

أحدهما : يدخل عليه حرف التشبيه فقط ، كقوله تعالى : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ ﴾ ^(١٠) .
وقوله : ﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴾ ^(١١) .

- | | |
|-----------------------|----------------------|
| (١) سورة آل عمران ١١٧ | (٢) سورة هود ٢٤ |
| (٣) سورة البقرة ٢٥ | (٤) سورة البقرة ٧٠ |
| (٥) سورة النور ٣٩ | (٦) سورة طه ٦٦ |
| (٧) سورة إبراهيم ١٨ | (٨) سورة آل عمران ١١ |
| (٩) سورة الصافات ٦٥ | (١٠) سورة النور ٣٥ |
| (١١) سورة الرحمن ٢٤ | |

- ﴿ فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءَ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴾^(١) .
 ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴾^(٢) .
 ﴿ وَحُورٌ عِينٌ . كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴾^(٣) .
 ﴿ وَجَنَّةٌ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾^(٤) .

وثانيها : أن يضاف إلى حرف التشبيه حرف مؤكد ، ليكون ذلك علما على قوة التشبيه وتأكيده ، كقوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴾^(٥) .

- ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ ﴾^(٦) .
 ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ ﴾^(٧) .
 ﴿ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴾^(٨) .
 ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾^(٩) .

فإن قيل : كيف استرسل أهل الجنة وقوله : ﴿ كَلِمًا رَزَقُوا مِنْهَا مِنْ نَمْرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رَزَقْنَا مِنْ قَبْلُ ﴾^(١٠) ، ولا شك أنه ليس به ، واحتازت بلقيس فقالت : ﴿ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾^(١١) ، ولم تقل : هو هو ؟

قيل : أهل الجنة وثقوا بأن الغرض مفهوم ؛ وأن أحدا لا يعتقد في الحاضر أنه عين المستهلك الماضي ؛ وأما بلقيس فالتبس عليها الأمر ، وظنت أنه يشبهه ،

(٢) سورة الرحمن ١٤

(٤) سورة الحديد ٢١

(٦) سورة الصافات ٤٩

(٨) سورة القمر ٢٠

(١٠) سورة البقرة ٢٥

(١) سورة الرحمن ٣٧

(٣) سورة الواقعة ٢٢، ٢٣

(٥) سورة الرحمن ٥٨

(٧) سورة الأعراف ١٧١

(٩) سورة الحاقة ٧

(١١) سورة النمل ٤٢

لأنها بَنَتْ على العادة ، وهو أن السرير لا ينتقل من إقليم إلى آخر في طرفة عين .

وأما التشبيه بغير حرف ، فيُقصد به المبالغة ، تنزيلاً للثاني منزلة الأول تجوزاً ، كقوله : ﴿ وَأَرْوَاهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ ^(١) .

وقوله : ﴿ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾ ^(٢) .

وقوله : ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ ^(٣) .

وكذلك : ﴿ تَمْرٌ مَرَّةَ السَّحَابِ ﴾ ^(٤) .

وجعل الفارسي منه قوله تعالى : ﴿ قَوَارِيرًا . قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ ﴾ ^(٥) ، أى كأنها في بياضها من فضة ، فهو على التشبيه ، لا على أن القوارير من فضة ، بدليل قوله : ﴿ بَكَاسٍ مِنْ مَعِينٍ . بَيْضَاءَ ﴾ ^(٦) ، فقوله : ﴿ بَيْضَاءَ ﴾ مثل قوله : ﴿ مِنْ فِضَّةٍ ﴾ .

تنبيهان

الأول : هذا القسم يشبه الاستعارة في بعض المواضع ، والفرق بينهما - كما قاله حازم وغيره - أن الاستعارة ، وإن كان فيها معنى التشبيه ، فتقدير حرف التشبيه لا يجوز فيها ، والتشبيه بغير حرف على خلاف ذلك ؛ لأن تقدير حرف التشبيه واجب فيه .

وقال الرماني في قوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَا ثُمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً ﴾ ^(٧) ، أى تبصر ، لأنه لا يجوز تقدير حرف التشبيه فيها .

(٢) سورة الأحزاب ٤٦

(٤) سورة النمل ٨٨

(٦) سورة الصافات ٤٥ ، ٤٦

(١) سورة الأحزاب ٦

(٣) سورة آل عمران ١٣٣

(٥) سورة النمل ١٦ ، ١٥

(٧) سورة الإسراء ٥٩

وقد اختلف البيانون في نحو قوله تعالى : ﴿ صُمُّ بُكْمٌ مُعْتَمِدٌ ﴾ ^(١) ، إنه تشبيه بليغ أو استعارة ؟ والمحققون - كما قاله الزحشرى - على الأول ، قال : ^(٢) « لأن المستعار له مذكور - وهم المنافقون - ، أى مذكور في تقدير الآية ، والاستعارة لا يذكر فيها المستعار له ^(٣) ، ويجعل الكلامُ خلواً عنه ، بحيث يصلح ^(٤) لأن يراد به المنقول عنه و [المنقول] ^(٥) إليه ، لولا القرينة ^(٦) ، ومن ثم ترى المفلقين السحرة [منهم كأنهم] ^(٧) يتناسون التشبيه ويضربون عنه ^(٨) صفحا .

وقال السكاكى : لأن من شرط الاستعارة إمكان حمل الكلام على الحقيقة في الظاهر ، وتناسى التشبيه ، وزيد أسد لا يمكن كونه حقيقة ، فلا يجوز أن يكون استعارة .

الثانى : قد يترك التشبيه لفظا ويراد معنى ، إذ لو لم يرَدْ معنى ولم يكن منوياً ، كان استعارة .

مثاله قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ يَنْبَسْنَ لَكُمُ الْأَخْيَاطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْأَخْيَاطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ﴾ ^(١) ، فهذا تشبيه لا استعارة ، لذكر الطرفين : الخيط الأسود ، وهو ما يمتد معه من غسق الليل شبيهاً بخيط أسود وأبيض ، وبُيِّنَا بقوله : ﴿ مِنَ الْفَجْرِ ﴾ والفجر - وإن كان بيانا للخيط الأبيض - لكن لما كان أحدهما بياناً للآخر لدلالته عليه ، اكتفى به عنه ، ولولا البيان كان من باب الاستعارة ؛ كما أن قولك : رأيت أسداً ، استعارة ، فإذا زدت « من فلان » صار تشبيهاً ، وأما أنه لم زيد ﴿ مِنَ الْفَجْرِ ﴾ حتى صار تشبيهاً ؟ وهلا اقتصر به

(١) سورة البقرة ١٨

(٢) عبارة الكشف : « والاستعارة إنما تطلق حيث يطوى ذكر المستعار له

(٣) الكشف : « صالحاً لأن يراد به المنقول عنه » (٤) من الكشف

(٥) الكشف : « لولا دلالة الحال أو فعوى السلام ؛ كقول زهير :

لَدَىٰ أَسَدٍ شَاكِيَ السَّلَاحِ مُقَدِّفٍ لَهُ لِبَدٌ أَظْفَارُهُ لَمْ تُقَلِّمْ

(٦) الكشف : « عن نومه » .

(٧) سورة البقرة ١٨٧

على الاستعارة التي هي أبلغ ! فلأن شرط الاستعارة أن يدلّ عليه الحال ، ولو لم يذكر ﴿ مِنْ الْفَجْرِ ﴾ لم يعلم أن الخيطين مستعاران من « بدا الفجر » ، فصار تشبيها .

التقسيم الثاني

ينقسم باعتبار طرفيه إلى أربعة أقسام ، لأنها :

إما حسيان ، كقوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾ ^(١) ، وبله : ﴿ كَانَهُمْ أَفْجَارُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴾ ^(٢) .

أو عقليان ، كقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسَوَةً ﴾ ^(٣) .

وإما تشبيه المعقول بالمحسوس ، كقوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ ﴾ ^(٤) ، وقوله : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ ﴾ ^(٥) ، وقوله : ﴿ كَمَثَلِ الْخِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ ^(٦) ، لأن حملهم التوراة ليس كالحمل على العاتق ، إنما هو القيام بما فيها .

وأما عكسه فمنعه الإمام ، لأن العقل مستفاد من الحس ، ولذلك قيل : مَنْ فَقَدَ حَسًّا فَقَدْ فَقَدَ عِلْمًا ؛ وإذا كان المحسوس أصلا للمعقول فتشبيهه به يستلزم جعل الأصل فرعاً والفرع أصلاً ، وهو غير جائز .

(٢) سورة القمر ٢٠
(٤) سورة العنكبوت ٤١
(٦) سورة الجمعة ٥

(١) سورة يس ٣٩
(٣) سورة البقرة ٧٤
(٥) سورة إبراهيم ١٨

وأجازه غيره كقوله :

وَكُنَّ النُّجُومَ بَيْنَ دُجَاهِ سُنَنِ لَاحَ يَنْهِنُ ابْتِدَاعُ^(١)

وينقسم باعتبار آخر إلى خمسة أقسام :

الأول : قد يشبه ما تقع عليه الحاسة بما لا تقع ، اعتمادا على معرفة النقيض والضد ، فَإِنَّ إدراكهما أبلغ من إدراك الحاسة ، كقوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُ رُئُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾^(٢) ، فشبه بما لا تشك أنه منكر قبيح ، لما حصل في نفوس الناس من بشاعة صور الشياطين ، وإن لم ترها عيانا .

الثاني : عكسه ، كقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ ﴾^(٣) ، أخرج ما لا يحس - وهو الإيمان - إلى ما يحس - وهو السراب - والمعنى الجامع بطلان التوهم بين شدة الحاجة وعظم الفاقة .

الثالث : إخراج ما لم تجر العادة به إلى ما جرت به ، نحو : ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ ﴾^(٤) ، والجامع بينهما الارتفاع بالصورة . وكذا قوله : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلْنَاهُ مِنْ السَّمَاءِ ﴾^(٥) ، والجامع البهجة والزينة ، ثم الهلاك ، وفيه العبرة .

الرابع : إخراج ما لا يعرف بالبديهة ، إلى ما يعرف بها ، كقوله : ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾^(٦) ، الجامع العظم ، وفائدته التشويق إلى الجنة بحسن الصفة .

(١) البيت لاقاضى التنوخى ؛ وهو من شواهد المفتاح ١٤٦ ، وانظر التيسية ٢ : ٣١٠ ، وأسرار البلاغة ٢٠٧
 (٢) سورة الصافات ٦٥
 (٣) سورة النور ٣٩
 (٤) سورة الأعراف ١٧١
 (٥) سورة يونس ٢٤
 (٦) سورة آل عمران ١٣٢

الخامس : إخراج مالا قوة له في الصفة إلى ماله قوة فيها ، كقوله : ﴿ وَلَهُ أَلْجَاؤِ الْمُنْشَاتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴾^(١) ، والجامع فيهما العِظَم ، والفائدة البيان عن القدرة على تسخير الأجسام العظام في أعظم ما يكون من الماء .
وعلى هذه الأوجه تجرى تشبيهات القرآن .

التقسيم الثالث

ينقسم إلى مفرد ومركب :

والمركب أن يُزَع من أمور مجموع بعضها إلى بعض ؛ كقوله تعالى : ﴿ كَمَثَلِ الْجَمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾^(٢) ، فالتشبيه مُركَّب من أحوال الجمار ؛ وذلك هو حَمْلُ الأسفار التي هي أوعية العلم ، وخزائن ثمرة العقول ، ثم لا يُحْسَن ما فيها ، ولا يفرق بينها وبين سائر الأحوال التي ليست من العلم في شيء ، فليس له مما يحمل حظّ سوى أنه يتقل عليه ويتعبه .

وقوله : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنَكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ﴾^(٣) .

وقوله : ﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَلْحِيَاءَ الدُّنْيَا كَمَا أَتْرَكْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾^(٤) ، قال بعضهم : شبه الدنيا بالماء ، ووجه الشبه أمران : أحدهما أن الماء إذا أخذت منه فوق حاجتك تضررت ، وإن أخذت قدر الحاجة انتفعت به ، فكذلك الدنيا . وثانيهما أن الماء إذا أطبقت كفك عليه لتحفظه لم يحصل فيه شيء ، فكذلك الدنيا ، وليس المراد تشبيهها بالماء وحده ؛ بل المراد تشبيهه بهجة الدنيا في قلة البقاء والدوام بأنيق النبات الذي يصير بعد تلك البهجة والغضاضة والطراوة إلى ما ذكر .

(٢) سورة الجمعة •

(٤) سورة الكهف ٤٥

(١) سورة الرحمن ٢٤

(٣) سورة العنكبوت ٤١

ومن تشبيه المفرد بالمركب قوله : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ ﴾ ^(١) ، فإنه سبحانه أراد تشبيه نوره الذى يلقى في قلب المؤمن ، ثم مثله بمصباح ؛ ثم لم يقنع بكل مصباح ؛ بل بمصباح اجتمعت فيه أسباب الإضاءة ؛ بوضعه في مشكاة ؛ وهى الطاقة غير النافذة ؛ وكونها لا تنفذ ؛ لتكون أجمع للتبصر ، وقد جعل فيها مصباح في داخل زجاجة ، فيه السكوكب الدرّية في صفائها ، ودُهْن المصباح من أصفى الأدهان وأقواها وقودا ، لأنه من زيت شجر في أوسط الزجاج لا شرقية ولا غربية ، فلا تصيبها الشمس في أحد طرفي النهار بل تصيبها أعدل إصابة .

وهذا مثل ضربه الله للمؤمن ، ثم ضرب للكافر مثلين : أحدهما : ﴿ كَسْرَابٍ بِقِيَعَةٍ ﴾ ^(٢) ، والثاني : ﴿ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ ﴾ ^(٣) شبه في الأول ما يعلمه من لا يقدر الإيمان المعتبر بالأعمال التي يحسبها بقية ، ثم يخيب أمله ، بسراب يراه الكافر بالساهرة ، وقد غلبه عطش يوم القيامة ، فيجئته فلا يجد ماء ، ويجد زبانية الله عنده ، فيأخذونه فيلقونه إلى جهنم .

البحث السادس

ينظم قواعد تتعلق بالتشبيه

الأولى : قد تشبّه أشياء بأشياء ، ثم تارة يصرح بذكر المشتبهات ، كقوله تعالى :

(١) سورة النور ٣٥

(٢) من قوله تعالى في سورة النور ٣٩ : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسْرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ ﴾ .

(٣) من قوله تعالى في سورة النور ٤٠ ، في الآية بعدما : ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَفْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرَاهَا ﴾ .

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ﴾^(١)، وتارة لا يصرح به بل يحى مطوياً على سنن الاستعارة، كقوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾^(٢)، ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ...﴾^(٣) الآية.

قال الزمخشري^(٤): والذي عليه علماء البيان أن التمثيلين جميعاً من جملة التمثيلات المركبة^(٥) لا المفردة؛ بيانه أن العرب تأخذ أشياء فرادى [معزولاً بعضها من بعض، لم يأخذ هذا بحُجْزَة ذاك] ^(٦) فتشبهها بنظائرها كما ذكرنا^(٧)، ونشبه كيفية حاصلة من مجموع أشياء تضامّت حتى صارت شيئاً واحداً بأخرى، كقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ...﴾^(٨) الآية.

ونظائره من حيث اجتمعت تشبيهات؛ كما في تمثيل الله حال المنافقين أول سورة البقرة، قال الزمخشري: وأبلغه الثاني؛ لأنه أدلّ على فرط الحيرة، وشدة الأمر وفضاعته؛ ولذلك أُخِّرَ، قال: وهم يتدرجون في نحو هذا، من الأهون إلى الأغلظ.

الثانية: أعلى مراتب التشبيه في الأبلغية ترك وجه الشبه وأداته، نحو زيد أسد؛ أما ترك وجهه وحده، فكقوله: زيد كالأسد؛ وأما ترك أداته وحدها؛ فكقوله زيد الأسد شدة.

وفي كلام صاحب "المفتاح" إشارة إلى أن ترك وجه الشبه أبلغ من ترك أداته؛ قال: لعموم وجه الشبه.

(٢) سورة فاطر ١٢

(٤) الكشاف ٦١:١

(٦) من الكشاف

(٧) عبارة الكشاف: «كما فعل امرؤ القيس وجاء في القرآن».

(١) سورة غافر ٥٨

(٣) سورة الزمر ٢٩

(٥) الكشاف: «دون المفرقة».

(٨) سورة الجمعة ٥

وخالفه صاحب " ضوء الصباح " ،^(١) لأنه إذا عَمَّ واحتمل التعدد ، ولم تبق دلالة على مابه الاشتراك دلالة منطوق بل دلالة مفهوم ؛ فيحتمل أن يكون مابه الاشتراك صفة ذم لا مدح ، وهو غير لازم في ترك الأداة ؛ إلا أن يقال : يلزم مثله من تركها ، لأن قرينة ترك الأداة ، تصرف إرادة المدح دون الذم .
وذكرها كقولك : زيد كالأسد شدة .

الثالثة : قد تدخل الأداة على شيء وليس هو عين المشبّه ، ولكنه ملتبس به ، واعتمد على فهم المخاطب ، كما قال تعالى : ﴿ كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ... ﴾^(٢) الآية ، المراد : كونوا أنصارا لله خالصين في الانقياد ؛ كشأن مخاطبي عيسى إذ قالوا .
ومما دل على السياق قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ ﴾^(٣) ، وفيه زيادة ، وهو تشبيه الخارق بالمعتاد .

الرابعة : إذا كانت فائدته ، إنما هي تقريب الشبّه في فهم السامع وإيضاحه له ، فحقه أن يكون وجه الشبه في المشبّه به أتمّ ، والقصد التنبيه بالأدنى على الأعلى ، مثل قياس النحوى ؛ ولا سيما إذا كان الدنوّ جدا أو العلوّ جدا ، وعليه بنى المعرّى قوله :
ظلمناك في تشبيه صدغيك بالمسك وقاعدة التشبيه نقصان ما يحكى
وقول آخر :

كالبحر والكاف أتى صِفَتَ زائدة فيه فلا تَظَنِّهَا كافَ تشبيه

(١) اختصر ابن مالك كتاب المفتاح وسماه الصباح في تلخيص المفتاح ؛ ونظمه أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن الرا كشى الضمير ، ثم شرحه وسماه ضوء الصباح على ترجيز الصباح . كشف الظنون ٤ : ١٧٦

(٢) سورة الصف ١٤

(٣) سورة الأعراف ١٧١

وأما قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ ﴾ ^(١) فيمكن أن يكون التشبه به أقوى ، لكونه في الذهن أوضح ؛ إذ الإحاطة به أتم .

وأما قوله تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ﴾ ^(٢) ؛ فهو من تشبيه الغريب بالأغرب ؛ لأن خلق آدم من خلق عيسى ليكون أقطع للخصم ، وأوقع في النفس . وفيه دليل على جواز القياس ، وهو ردّ فرع إلى أصل لشبه ما ؛ لأن عيسى ردّ إلى آدم لشبه بينهما ؛ والمعنى أن آدم خلق من تراب ولم يكن له أب ولا أم ، فكذلك خلق عيسى من غير أب .

وقوله : ﴿ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ﴾ ^(٣) شبههم بالخشب ، لأنه لا روح فيها ، وبالمسندة لأنه لا ارتفاع بالخشب في حال تسنيده .

الخامسة : الأصل دخول أداة التشبيه على المشبه به ، وهو الكامل ، كقولك : ليس الفضة كالذهب ، وليس العبد كالحر ؛ وقد تدخل على المشبه لأسباب :

منها وضوح الحال ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَيْسَ الَّذِي كَرُمْتَ كَالْأُنثَىٰ ﴾ ^(٤) ؛ فإن الأصل ليس الأنثى كالذكر ؛ وإنما عدل عن الأصل ؛ لأن معنى : ﴿ وَلَيْسَ الَّذِي كَرُمْتَ ﴾ الذي طلبت ﴿ كَالْأُنثَىٰ ﴾ التي وهبت لها ، لأن الأنثى أفضل منه . وقيل : لمراعاة الفواصل ، لأن قبله : ﴿ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ ﴾ ^(٥) .

وهم ابن الزمكاني في ” البرهان “ حيث زعم أنّ هذا من التشبيه المقلوب ، وليس كذلك لما ذكرنا من المعنى .

(٢) سورة آل عمران ٥٩

(٤) سورة آل عمران ٣٦

(١) سورة النور ٣٥

(٣) سورة المنافقين ٤

وقيل : لما كان جَعْلُ الفرع أصلا والأصل فرعاً في التشبيه في حالة الإثبات يقتضى المبالغة في التشبيه ؛ كقولهم : القمر كوجه زيد ، والبحر ككفيه ، كان جعل الأصل فرعاً والفرع أصلاً في كماله الذى يقتضى نفى المبالغة في المشابهة ؛ لانفى المشابهة ، وذلك هو المقصود هنا ، لأن المشابهة واقعة بين الذكر والأنثى في أعم الأوصاف وأغلبها ، ولهذا يقاد أحدهما بالآخر .

ومنها قصد المبالغة ، فيقلب التشبيه ، ويُجعل المشبه هو الأصل ويسمى تشبيه العكس ؛ لاشتماله على جعل المشبه مشبهاً به ، والمشبّه به مشتبهاً ؛ كقوله تعالى : ﴿ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ﴾ ^(١) كان الأصل أن يقولوا : إنما الربا مثل البيع ؛ لأنّ الكلام في الربا لافى البيع ، لكن عدلوا عن ذلك وتجرءوا ، إذ جعلوا الربا أصلاً ملحقاً به البيع في الجواز ، وأنه الخلق بالحل .

ويحتمل أن يكون المراد إلزام الإسلام ، فيحرّم البيع قياساً على الربا ، لاشتماله على الفضل طرداً لأصلهم ؛ وهو في المعنى نقضٌ على علة التحريم ؛ ويؤيده قوله تعالى : ﴿ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾ ^(٢) ، وفيه إشارة إلى أن الواجب اتباع أحكام الله واقتفاؤها من غير تعرض لإجرائها على قانون واحد ، وأن الأسرار الإلهية كثيراً ما تنحى ؛ وهو أعلم بمصالح عباده فيسلم له عنان الاتقياد ؛ وأنهم جعلوا ذلك من باب إلزام الجدلى ، وجاء الجواب بفك الملازمة ، وأن الحكمة فرقت بينهما . وفيه إبطال القياس في مقابلة النص .

ومنه قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ ﴾ ^(٣) ؛ فإن الظاهر العكس ، لأن

(٢) سورة البقرة ٢٧٥

(١) سورة البقرة ٢٧٥

(٣) سورة النحل ١٧

الخطاب لعبدة الأوثان ؛ وسمّوها آلهة تشبيها بالله سبحانه ، وقد جعلوا غير الخالق ، مثل الخالق ، فخولف في خطابهم ؛ لأنهم بالغوا في عبادتهم وغلّوا ، حتى صارت عندهم أصلا في العبادة ، والخالق سبحانه فرعا ، فجاء الإشكال على وفق ذلك .

والظاهر أنهم لما قاسوا غير الخالق بالخالق خوطبوا بأشد الإلزامين ؛ وهو تنقيص المقدس لا تقديس الناقص .

قال السكاكي : وعندى أن المراد بـ « من لا يخلق » الحى القادر من الخلق تعريضا بإنكار تشبيه الأصنام بالله تعالى من طريق الأولى . وجعل منه قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴾ ^(١) بدل « هواد إلهه » ، فإنه جعل المفعول الأول ثانيا والثانى أولا : للتنبيه على أن الهوى أقوى وأوثق عنده من إلهه .

ومنه قوله تعالى : ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴾ ^(٢) .

وقوله : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ ^(٣) ، فإن بعضهم أورد أن أصل التشبيه أن يشبه الأدنى بالأعلى فيقال : « أفنجعل المجرمين كالمسلمين ، والفجار كالمتقين » فلم خولفت القاعدة ! .

ويقال : فيه وجهان :

أحدهما : أن الكفار كانوا يقولون : نحن نسود في الآخرة ، كما نسود في الدنيا ويكونون أتباعا لنا ، فكما أعزنا الله في هذه الدار يعزنا في الآخرة ، فجاء الجواب على معتقدهم أنهم أعلى ، وغيرهم أدنى .

الثانى : لما قيل قبل الآية : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ

ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا^(١)؛ أى يظنون أن الأمر بهمل ، وأن لا حشر ولا نشر ، أم لم يظنوا ذلك ولكن يظنون أنا نجعل المؤمنين كالمجرمين ، والمتقين كالفجار

السادسة : أن التشبيه في الذم يشبه الأعلى بالأدنى ، لأن الذم مقام الأدنى ، والأعلى ظاهر عليه فيشبه به في السلب ، ومنه قوله : ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ﴾^(٢) ، أى في النزول لا في العلو .

ومنه : ﴿أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾^(٣) أى في سوء الحال ؛ وإذا كان في المدح يشبه الأدنى بالأعلى فيقال : تراب كالمسك وحصى كالياقوت ، وفي الذم مسك كالتراب وياقوت كالزجاج .

السابعة : قد يدخل التشبيه على لفظ وهو محذوف لامتناع ذلك ، لأنه بسبب المحذوف كقوله تعالى : ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ﴾^(٤) . فإن التقدير : ومثل واعظ الذين كفروا ، فالمشبه الواعظ ، والمقصود تشبيه حال الواعظ منهم بالناق للأنعام ، وهى لا تعقل معنى دعائه وإنما تسمع صوته ولا تفهم غرضه ، وإنما وقع التشبيه على الغنم التى ينطق بها الراعى ، ويمدّ صوته إليها ، وفيه وجوه :

أحدها : أن المعنى : مثل الذين كفروا كمثل الغنم لا تفهم نداء الناق ، فأضاف المثل إلى الناق ، وهو فى المعنى للمنوق به ، على القلب .

ثانيها : ومثل الذين كفروا ومثلنا ومثلك ، كمثل الذى ينطق ، أى مثلهم فى الإعراض

(٢) سورة الأحزاب ٣٢

(٤) سورة البقرة ١٧١

(١) سورة س ٢٧

(٣) سورة س ٢٨

ومَثَلنا في الدعاء والإرشاد ، كمثل الناقى بالغنم ، فحذف المثل الثانى اكتفاء بالأول ، كقوله : ﴿ سَرَّابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ ﴾ ^(١) .

وثالثها : أن المعنى : ومثل الذين كفروا في دعائهم الأصنام - وهى لا تعقل ولا تسمع - كمثل الذى ينطق بما لا يسمع ؛ وعلى هذا فالنداء والدعاء منتصبان بـ « ينطق » و « لا » توكيداً للكلام ، ومعناها الإلقاء .

رابعها : أن المعنى ومثل الذين كفروا في دعائهم الأصنام وعبادتهم لها واستزراقهم إياها ، كمثل الراعى الذى ينطق بغنمه وينادىها ، فهى تسمع نداء ولا تفهم معنى كلامه ، فيشبه من يدعوه الكفار من المعبودات من دون الله بالغنم من حيث لا تعقل الخطاب .

وهذا قريب من الذى قبله ، ويفترقان فى أنَّ الأول يقتضى ضرب المثل بما لا يسمع الدعاء والنداء جملة ، ويجب صرفه إلى غير الغنم ، وهذا يقتضى ضرب المثل بما لا يسمع الدعاء والنداء جملة ، وإن لم يفهمهما ، والأصنام - من حيث كانت لا تسمع الدعاء جملة - يجب أن يكون داعيها ونادىها أسوأ حالا من منادى الغنم . ذكر ذلك الشريف المرتضى فى كتاب " غرر الفوائد " ^(٢) .

ومنه قوله تعالى : ﴿ كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ ... ﴾ ^(٣) الآية ، وإنما وقع التشبيه على الحرث الذى أهلكته الريح ، قيل فيه إضممار ، أى مثل إهلاك ما ينفقون كمثل إهلاك ريح .

قال ثعلب : فيه تقديم وتأخير ، أى كمثل حرث قوم ظلموا أنفسهم أصابته ريح فيها صرٌّ فأهلكته .

(١) سورة النحل ٨١

(٢) وهو الكتاب المعروف بأبالى المرتضى ٢١٧-٢١٨

(٣) سورة آل عمران ١١٧

وأما قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾ ^(١) ، فإن التقدير : كما يحب المؤمنون الله ، قال : وحذف الفاعل ، لأنه غير ملتبس .
واعترض عليه بأنه لا حاجة لذلك ، فإن المعنى حاصل بتقديره مبنيًا للفاعل .
وأجيب بأنه تقدير معنى ، لكن محافظة على اللفظ فلا يقدر الفاعل ، إذ الفاعل في باب المصدر فضلة ، فلذلك جعله كذلك في التقدير .



الاستعارة

هى من أنواع البلاغة ، وهى كثيرة فى القرآن ، ومنهم من أنكره ؛ بناء على إنكار المجاز فى القرآن ، والاستعارة مجاز ، وقد سبق تقديره . ومنع القاضى عبد الوهاب المالكى إطلاق لفظ الاستعارة فيه ، لأن فيها إيهاما للحاجة ، وهذا كما منع بعضهم لفظى القرآن مخلوق ، وهو لا ينكر وقوع المجاز ، والاستعارة فيه إنما توقف على إذن الشرع .

ولا شك أن المجوزين للإطلاق شرطوا عدم الإيهام ؛ وقد يمنعون الإيهام المذكور لأنه فى الاصطلاح اسم لأعلى مراتب الفصاحة .

وقال الطرطوسى ^(١) : إن أطلق المسلمون الاستعارة فيه أطلقناها وإن امتنعوا امتنعنا ؛ ويكون هذا من قبيل أن الله تعالى عالم ، والعلم هو العقل ، ثم لا نصِّفه به لعدم التوقيف . انتهى .

والمشهور تجويز الإطلاق .

[مباحث الاستعارة]

ثم فيها مباحث :

الأول

وهى « استفعال » ، من العارية ، ثم نقلت إلى نوع من التخيل ^(٢) لقصد المبالغة

(١) هو القاضى نجم الدين إبراهيم بن على الطرطوسى التوفى سنة ٧٥٨ ، صاحب كتاب عمدة المحكام فيما لا ينفذ من الأحكام ؛ ذكره صاحب كشف الظنون (٢) ت : « التخيل » .

فى التخييل والتشبيه مع الإيجاز ؛ نحو لقيت أسدا ، وتمنى به الشجاع .
وحقيقتها أن تستعار الكلمة من شىء معروف بها إلى شىء لم يعرف بها ، وحكمة ذلك
إظهار الخفى وإيضاح الظاهر الذى ليس بجلى ، أو بحصول المبالغة أو للمجموع .
فمثال إظهار الخفى قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ ﴾ ^(١) ، فإن حقيقته أنه فى
أصل الكتاب ؛ فاستعير لفظ « الأم » للأصل ؛ لأن الأولاد تنشأ من الأم ، كما تنشأ
الفروع من الأصول . وحكمة ذلك تمثيل ما ليس بمرئى حتى يصير مرئيا ، فينتقل السامع من
حدّ السماع إلى حدّ العيان ؛ وذلك أبلغ فى البيان .

ومثال إيضاح ما ليس بجلى ليصير جليّا ، قوله تعالى : ﴿ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ
الذُّلِّ ﴾ ^(٢) ؛ لأن المراد أمر الولد بالذلّ لوالديه رحمة ؛ فاستعير للولد أولا جانب ، ثم
للجانب جناح ؛ وتقدير الاستعارة القريبة : وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَانِبَ الذِّلِّ ، أى اخفض
جانبك ذلا .

وحكمة الاستعارة فى هذا جعل ما ليس بمرئى مرئيا ؛ لأجل حسن البيان ، ولما كان المراد
خفض جانب الولد للوالدين ؛ بحيث لا يبقى الولد من الذلّ لهما والاستكانة مركبا ؛ احتيج
من الاستعارة إلى ما هو أبلغ من الأولى ؛ فاستعير الجناح ، لما فيه من المعانى التى لا تحصل
من خفض الجناح ؛ لأنّ مَنْ مَيَّلَ جَانِبَهُ إِلَى جِهَةِ السُّفْلِ أَذْنَى مِيلٍ ، صدق عليه أنه خفض
جانبه ؛ والمراد خَفَضَ يَلْصِقُ الْجَنْبَ بِالْإِبْطِ ؛ ولا يحصل ذلك إلا بخفض الجناح كالطائر ؛
وأما قول أبى تمام :

لانسقني ماء المسام فإتنى صبّ قد أستهذبت ماء بكائى ^(٣)

فيقال : إنه أرسل إليه قارورة ، وقال : ابعث إلى فيها شيئا من ماء الملام ؛ فأرسل

(٢) سورة الإسراء ٢٤

(١) سورة الزخرف ٤

(٣) ديوانه ٢٥:١

أبو تمام : أن ابعث لي ريشة من جناح الدّلّ أبعث إليك من ماء الملام .
وهذا لا يصحّ له تعلق به ، والفرق بين التشبيهين ظاهر ؛ لأنه ليس جعل الجناح للدّلّ
كجعل الماء للملام ، فإن الجناح للدّلّ مناسب ؛ فإن الطائر إذا وهى وتعب بسط جناحه وألقى
نفسه إلى الأرض . وللإنسان أيضاً جناح ؛ فإن يديه جناحاه ، وإذا خضع وأستكان
يطأطئ من رأسه ، وخفض من بين يديه ، فحسن عند ذلك جعل الجناح للدّلّ ، وصار
شبهاً مناسباً . وأما ماء الملام فليس كذلك في مناسبة التشبيه ؛ فلذلك استهجن منه . على أنه
قد يقال : إنّ الاستعارة التخيلية فيه تابعة للاستعارة بالكناية ؛ فإن تشبيه الملام بظرف
الشراب لاشتماله على مايكرهه الشارب لمرارته ، ثم استعار الملام له كئانه ، ثم يخرج منه شيء
يشبه بالماء ؛ فالاستعارة في اسم الماء .

الثاني

في أنها قسم من أقسام الجاز ؛ لاستعمال اللفظ في غير ماوضع له .
وقال الإمام فخر الدين : ليس بمجاز لعدم النقل . وفي الحقيقة هي تشبيه محذوف الأداة
لفظاً وتقديراً ؛ ولهذا حدّثها بعضهم بادعاء معنى الحقيقة في الشيء ، مبالغة في التشبيه ،
كقولهم : انشقت عصام ؛ إذا تفرقوا ، وذلك لامعصا لا للقوم ، ويقولون : كشفت الحرب
عن ساق .

ويفترقان في أن التشبيه إذا ذكرت معه الأداة فلا خفاء أنه تشبيه ؛ وإن حذفت فهذا
يلتبس بالاستعارة ؛ فإذا ذكرت المشبه كقولك : زيد الأسد فهذا تشبيه بليغ ، كقوله
تعالى : ﴿ صُمِّ بِكُمْ عُمَى ﴾^(١) ، وإن لم يذكر المشبه به فهو استعارة ، كقوله :
لدى أسدٍ شاكي السلاح مقذّف له ليدّ أظفاره لم تقلم^(٢)

(٢) البيت لزهير من المعلقة ؛ ديوانه ٢٣ .

(١) سورة البقرة ١٨

شاكي السلاح ؛ أي سلاحه ذو شوكة ، أي شائك . والمقذّف : الغليظ اللحم . واللبد : الشعر التراكم
فوق عنق الأسد .

فهذه استعارة نقلت لها وصف الشجاع ؛ إلى عبارة صالحة للأسد ، لولا قرينة السلاح لشككت : هل أراد الرجل الشجاع أو الأسد الضارى ؟

الثالث

لا بد فيها من ثلاثة أشياء أصول : مستعار ، ومستعار منه ، وهو اللفظ ؛ ومستعار له وهو المعنى ؛ ففي قوله تعالى : ﴿ وَأَشْتَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ ^(١) المستعار الاشتعال ، والمستعار منه النار ، والمستعار له الشيب ، والجامع بين المستعار منه والمستعار له مشابهة ضوء النهار لبياض الشيب .

وفائدة ذلك وحكمته وصف ما هو أخفى بالنسبة إلى ما هو أظهر . وأصل الكلام أن يقال : واشتعل شيب الرأس ؛ وإنما قلب للمبالغة ؛ لأنه يستفاد منه عموم الشيب لجميع الرأس ؛ ولو جاء الكلام على وجهه لم يفد ذلك العموم . ولا يخفى أنه أبلغ من قولك : كثر الشيب في الرأس ؛ وإن كان ذلك حقيقة المعنى ؛ والحق أن المعنى يعار ؛ أولاً ثم بواسطته يعار اللفظ ؛ ولا تحسن الاستعارة إلا حيث كان الشبه مقررّاً بينهما ظاهراً ؛ وإلا فلا بد من التصريح بالشبه ؛ فلو قلت : رأيت نخلة أو خامة وأنت تريد مؤمناً إشارة إلى قوله : « مثل المؤمن كمثل النخلة » أو « الخامة » لكنت كالملغز ^(٢) .

ومن أحسن الاستعارة قوله تعالى : ﴿ وَالضُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ ^(٣) ؛ وحقيقته « بدأ انتشاره » ، و« تنفس » أبلغ ؛ فإن ظهور الأنوار في المشرق من أشعة الشمس قليلاً قليلاً ، بينه وبين إخراج النفس مشاركة شديدة .

(١) سورة مريم ٤

(٢) هما حديثان نقلهما السيوطي في الجامع الصغير ٢٦٢ : ٢ ؛ أحدهما عن أبي هريرة : « مثل المؤمن كمثل خامة الزرع من حيث أنها الريح كفتها ، فإذا سكنت اعتدلت ؛ وكذلك المؤمن يكفأ بالبلاء ، ومثل الفاجر كالأرزاء صماء معتدلة ؛ حتى يقصمها الله تعالى إذا شاء » . وثانيهما عن ابن عمرو : « مثل المؤمن مثل النخلة ، إن أكلت أكلت طيباً ؛ وإن وضعت وضعت طيباً ، وإن وقعت على عدد نحر لم تكسره ، ومثل المؤمن مثل سبيكة الذهب إن نفخت عليها احمرت ، وإن وزنت لم تنقص » .

(٣) سورة التكاوير ١٨

وقوله : ﴿اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ ^(١) لأن انسلاخ الشيء عن الشيء أن يبرأ منه ، ويَزُول عنه حالا فحالا ، كذلك انفصال الليل عن النهار ؛ والانسلاخ أبلغ من الانفصال لما فيه من زيادة البيان .

وقوله : ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ ^(٢) .

﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ﴾ ^(٣) .

وقوله : ﴿كَأَنَّهُمْ كُمُوحٌ مُسْتَنَفِرَةٌ﴾ ^(٤) ، ويقولون للرجل المذموم : إنما هو حمار .

وقوله : ﴿وَأَلْتَفَتِ الْأَسَاقُ بِالسَّاقِ﴾ ^(٥) .

﴿أَيْنَمَا لَمَرَ دُودُونَ فِي الْخَافِرَةِ﴾ ^(٦) ، أى فى الخلق الجديد .

﴿بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ ^(٧) .

﴿خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ ^(٨) .

﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ ^(٩) .

﴿وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ أَحْطَبٍ﴾ ^(١٠) .

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾ ^(١١) .

﴿وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ ^(١٢) .

- | | |
|-----------------------|----------------------|
| (٢) سورة الكهف ٢٩ | (١) سورة يس ٣٧ |
| (٤) سورة الدثر ٥٠ | (٣) سورة نون ١٦ |
| (٦) سورة النازعات ١٠ | (٥) سورة القيامة ٢٩ |
| (٨) سورة البلد ٤ | (٧) سورة المطففين ١٤ |
| (١٠) سورة المسد ٤ | (٩) سورة العلق ١٥ |
| (١٢) سورة العنكبوت ٦٧ | (١١) سورة الدخان ٢٩ |

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾ ^(١) .

﴿ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ ^(٢) ، والمراد حفظهم وما يحصل لهم .

وقوله تعالى : ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ ﴾ ^(٣) ، أى أتمها كما أمرت .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ﴾ ^(٤) ، أى عصمك منهم ، رواه شعبة عن أبي

وجاء عن الحسن .

﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ ﴾ ^(٥) .

﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ ﴾ ^(٦) .

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ ﴾ ^(٧) .

﴿ فَخَوَّنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ ^(٨) .

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ ^(٩) ، فالدمغ

والقذف مستعار .

﴿ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ ﴾ ^(١٠) ، يريد لا إحساس بها، من غير صمم .

وقوله : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ ^(١١) ، فإنه أبلغ من « بَلِّغْ » ، وإن كان بمعناه ، لأن

تأثير الصدع أبلغ من تأثير التبليغ ؛ فقد لا يؤثر التبليغ ، والصدع يؤثر جزماً .

(٢) سورة الأعراف ١٣١

(٤) سورة الإسراء ٦٠

(٦) سورة الأنعام ٥٩

(٨) سورة الإسراء ١٢

(١٠) سورة السكهف ١١

(١) سورة الشعراء ٢٢٥

(٣) سورة الإسراء ٧٨

(٥) سورة الزخرف ٤

(٧) سورة الأعراف ١٥٤

(٩) سورة الأنبياء ١٨

(١١) سورة الحجر ٩٤

الرابع

تنقسم إلى مرشحة - وهي أحسنها - وهي أن تنظر إلى جانب المستعار وتراعيه ، كقوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهَدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ ﴾ ^(١) ، فإن المستعار منه الذي هو الشراء هو المراعى هنا ، وهو الذي رشح لفظي الربح والتجارة للاستعارة ؛ لما بينهما من الملاءمة .

وإلى تجريدية ؛ وهي أن تنظر إلى جانب المستعار له ، ثم تأتي بما يناسبه ويلائمه ، كقوله تعالى : ﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ ﴾ ^(٢) ، فالمستعار اللباس ، والمستعار له الجوع ، ف مجرد الاستعارة ، بذكر لفظ الأداة المناسبة للمستعار له وهو الجوع ، لا المستعار وهو اللباس ، ولو أراد ترشيحها لقال : وكساها لباس الجوع . وفي هذه الآية مراعاة المستعار له ؛ الذي هو المعنى ، وهو الجوع والخوف ؛ لأن ألمهما يذاق ولا يلبس .

وقد تجيء ملاحظة المستعار الذي هو اللفظ ، كقوله تعالى : ﴿ وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴾ ، إذا حملنا الحطب على النخيلة ، فاعتبر اللفظ فقال : « حمالة » ولم يقل : « رواية » فيلاحظ المعنى .

وأما الاستعارة بالكناية فهي ألا يصرح بذكر المستعار ، بل تذكر بعض لوازمه تنبيهاً به عليه ، كقوله : شجاع يفترس أقرانه ، وعالم يغترف منه الناس ، تنبيهاً على أن الشجاع أسد والعالم بحر .

ومنه المجاز العقلي كله عند السكاكي .

ومن أقسامها - وهو دقيق - أن يسكت عن ذكر المستعار ثم يوصي إليه بذكر شيء من
توابعه ورواده ؛ تنبيها عليه ، فيقول : شجاع يفترس أقرانه ، فنبهت بالافتراض على أنك
قد استعرت له الأسد .

ومنه قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ ﴾ ^(١) ، فنبه بالتقضى
الذى هو من توابع الحبل ورواده ، على أنه قد استعار للعهد الحبل لما فيه من باب الوصلة
بين المتعاهدين .

ومنها قوله تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ ^(٢) ،
لأن حقيقته « عملنا » لكن ﴿ قَدِمْنَا ﴾ أبلغ ؛ لأنه يدل على أنه عاملهم معاملة القادم
من سفره ؛ لأنه من أجل إهمالهم السابق عاملهم ؛ كما يفعل الغائب عنهم إذا قدم فرآهم
على خلاف ما أمر به . وفي هذا تحذير من الاغترار بالإهمال .

وقوله : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَىٰ الْمَاءُ حَمَلْنَا كُفْرًا فِي آبْجَارِيَةٍ ﴾ ^(٣) ، لأن حقيقة « طغى »
علا ، والاستعارة أبلغ ، لأن « طغى » ، علا قامرا .

وكذلك : ﴿ بَرِيحٌ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ ^(٤) ، لأن حقيقة « عاتية » شديدة ، والعنوة
أبلغ ، لأنه شدة فيها تمرد .

وقوله : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ... ﴾ ^(٥) ، الآية ؛ وحقيقته : لا تمنع
ما تملك كل المنع ، والاستعارة أبلغ ، لأنه جعل منع النائل بمنزلة غلّ اليدين إلى العنق ،
وحال الغلول أظهر .

(٢) سورة الفرقان ٢٣

(٤) سورة الحاقة ٦

(١) سورة البقرة ٢٧

(٣) سورة الحاقة ١١

(٥) سورة الإسراء ٢٩

وقوله تعالى : ﴿ وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَنْقَالَهَا ﴾ ^(١) ، قيل : أخرجت ما فيها من الكنوز .

وقيل : يحى به الموتى ، وأنها أخرجت موتاها ، فسمى الموتى ثقلا تشبها بالحمل الذى يكون فى البطن ؛ لأن الحمل يسمى ثقلا ، قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ ﴾ ^(٢) .

ومنها : جعل الشيء للشيء وليس له من طريق الإدعاء والإحاطة به نافعة فى آيات الصفات ، كقوله تعالى : ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ ^(٣) .

وقوله : ﴿ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ ^(٤) .
ويسمى التخيل : قال الزمخشري : ولا تجد بابا فى علم البيان أدق ولا أعون فى تعاطى المشبهات منه ، وأما قوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ ^(٥) قال الفراء : فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه جعل طلعا رهوس الشياطين فى القبح .

والثانى : أن العرب تسمى بعض الحيات شيطانا ؛ وهو ذو القرن .

والثالث : أنه شوك قبيح المنظر ، يسمى رهوس الشياطين .

فعلى الأول يكون تخيلا ، وعلى الثانى يكون تشبها مختصا .

تقسيم آخر

الاستعارة فرع التشبيه ، فأنواعها كأنواعه خمسة :

(٢) سورة الأعراف ١٨٩

(٤) سورة الزمر ٦٧

(١) سورة الزلزلة ٢

(٣) سورة القمر ١٤

(٥) سورة الصفات ٦٥

الأول : استعارة حسيّ لحسيّ بوجه حسيّ ، كقوله تعالى : ﴿ وَأَشْتَغَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ ^(١) ؛ فإن المستعار منه هو النار ، والمستعار له هو الشَّيب ، والوجه هو الانبساط ؛ فالطرفان حسيّان والوجه أيضاً حسيّ ، وهو استعارة بالكناية ؛ لأنه ذكر التشبيه ، وذكر المشبه وذكر المشبه به مع لازم من لوازم المشبه به ؛ وهو الاشتغال .
وقوله : ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ﴾ ^(٢) ، أصلُ الموج حركة المياه ؛ فاستعمل في حركتهم على سبيل الاستعارة .

الثاني : حسيّ لحسيّ بوجه عقليّ ، كقوله تعالى : ﴿ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴾ ^(٣) فالمتعار له الريح والمستعار منه المرأة ، وهما حسيّان ، والوجه المنع من ظهور النتيجة ، ^(٤) والأثر وهو عقليّ وهو أيضاً استعارة بالكناية .

قال في الإيضاح ^(٥) : وفيه نظر ، لأن العقيم صفة للمرأة لا اسم لها ؛ ولهذا جعل صفةً للريح ، لا اسماً . والحق أن المستعار منه مافى المرأة من الصفة التي تمنع من الحبل والمستعار له مافى الريح من الصفة التي تمنع من إنشاء مطر وإلقاح شجر [والجامع لهما ما ذكر] ^(٦) . وهو مندفع بالعناية ، لأن المراد من قوله : « المستعار منه » المرأة التي عبر عنها بالعقيم ، ذكرها السكاكي بلفظ ماصدق عليه .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ ﴾ ^(٧) ، المستعار له ظلمة النهار من ظلمة الليل ، والمستعار منه ظهور المسلوخ عند جلده ، والجامع عقليّ وهو ترتب أحدهما على الآخر .

(٢) سورة الكهف ٩٩

(٤) ت، م : النفخة ؛ وما أنبتته عن الإيضاح ٢ : ٢٩٧

(٦) من كتاب الإيضاح

(١) سورة مريم ٤

(٣) سورة الذاريات ٤١

(٥) الإيضاح ٢ : ٩٧

(٧) سورة يس ٣٧

وقوله : ﴿ فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَّمْ تَنْنِ بِالْأَمْسِ ﴾ ^(١) ، أصل الحصيد النبات والجامع الهلاك ، وهو أمر عقلي .

الثالث : معقول لمعقول ، كقوله تعالى : ﴿ مَنْ بَعَثْنَا مِنْ مَرْقَدِنَا ﴾ ^(٢) ، فالرقاد مستعار للموت ؛ وهما أمران معقولان ، والوجه عدم ظهور الأفعال ؛ وهو عقلي ، والاستعارة تصریحیة لكون المشبه به مذكورا .

وقوله : ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْفَضْبُ ﴾ ^(٣) ، المستعار السكوت ، والمستعار له الغضب ، والمستعار منه الساكت ، وهذه ألطف الاستعارات ، لأنها استعارة معقول لمعقول ، لمشاركتة في أمر معقول .

الرابع : محسوس لمعقول ، كقوله تعالى : ﴿ مَسَّتْهُمْ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ ﴾ ^(٤) ، أصل البأس في الأجسام ، فاستعير لمقاساة الشدة ، وكون المستعار منه حسیا ، والمستعار له عقليا ، وكونها تصریحیة ظاهر ، والوجه الاحق وهو عقلي .

وقوله : ﴿ بَلْ تَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ ﴾ ^(٥) فالقذف والدمغ مستعاران .

وقوله : ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أُنْمَأَتْ تَقْفُوا إِلَّا مُحِبِّلٍ مِنْ اللَّهِ وَحَبِّلٍ مِنْ النَّاسِ ﴾ ^(٦) .

وقوله : ﴿ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ﴾ ^(٧) .

(٢) سورة يس ٥٢
(٤) سورة البقرة ٢١٤
(٦) سورة آل عمران ١١٢

(١) سورة يونس ٢٤
(٣) سورة الأعراف ١٥٤
(٥) سورة الأنبياء ١٨
(٧) سورة آل عمران ١٨٧

وقوله : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ ^(١) وكلّ خَوْضٍ ذكره الله في القرآن فلفظه مستعار من الخَوْض في الماء .

وقوله : ﴿ فَأَصْدَغَ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ ^(٢) استعارة لبيانه عما أوحى إليه ، كظهور ماء في الزجاجه عند انصداعها .

وقوله : ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ ﴾ ^(٣) ، البنيان مستعار وأصله للحيطان .

وقوله : ﴿ وَيَبْفُقُونَهَا عِوَجًا ﴾ ^(٤) العِوَج مستعار .

وقوله : ﴿ لِنُخْرِجَ الظَّالِمِينَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ ^(٥) وكلّ ما في القرآن من

الظلمات والنور مستعار .

وقوله : ﴿ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ ^(٦) .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾ ^(٧) ؛ الوادي مستعار ، وكذلك الهَيِّمان ،

وهو على غاية الإيضاح

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾ ^(٨) .

الخامس : استعارة معقول لمحسوس : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ ﴾ ^(٩) المستعار منه التكبر ،

والمستعار له الماء ، والجامع الاستعلاء المفرط .

وقوله : ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ ^(١٠) ، العتوّ هاهنا مستعار .

(٢) سورة الحجر ٩٤

(٤) سورة هود ١٩

(٦) سورة الفرقان ٢٣

(٨) سورة الإسراء ٢٩

(١٠) سورة الحاقة ٦

(١) سورة الأنعام ٦٨

(٣) سورة التوبة ١٠٩

(٥) سورة إبراهيم ١

(٧) سورة الشعراء ٢٢٥

(٩) سورة الحاقة ١١

وقوله : ﴿ تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ ^(١) فلفظ الغيظ مستعار .

وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ ^(٢) فهو أفصح من مضيئة .

﴿ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ ^(٣) .

ومنها الاستعارة بلفظين ، كقوله تعالى : ﴿ قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ ﴾ ^(٤) ؛ يعنى تلك

الأوانى ليس من الزجاج ، ولا من الفضة ، بل فى صفاء القارورة وبياض الفضة . وقد سبق عن الفارسيّ جمعه من التشبيه .

ومثله : ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾ ^(٥) ، ينبى عن الدوام والسوط ينبى عن

الإيلام ؛ فيكون المراد - والله أعلم - تعذيبهم عذاباً دائماً مؤلماً .



(٢) سورة الإسراء ١٢

(٤) سورة الدهر ١٦

(١) سورة الملك ٨

(٣) سورة محمد ٤

(٥) سورة الفجر ١٣

التورية

وتسمى الإيهام والتخييل والمغالطة والتوجيه ؛ وهى أن يتكلم المتكلم بلفظ مشترك بين معنيين: قريب وبعيد ، ويريد المعنى البعيد ، يوم السامع أنه أراد القريب ؛ مثاله قوله تعالى : ﴿ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾^(١) ، أراد بالنجم النبات الذى لاساق له ، والسامع يتوهم أنه أراد الكوكب ، لاسيما مع تأكيد الإيهام بذكر الشمس والقمر .

وقوله : ﴿ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلَّى فِي الْمِحْرَابِ ﴾^(٢) والمراد المعرفة .

وقوله : ﴿ وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ﴾^(٣) ، أراد بها فى نعمة وكرامة ، والسامع يتوهم أنه أراد من النعمة .

وقوله : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ ﴾^(٤) أراد بالأيدي القوة الخارجة .

وقوله : ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴾^(٥) ، أى مُقَرَّبُونَ يجعل فى آذانهم القِرَاطة ، والخلق الذى فى الأذن يسمى قُرْطًا وُخَلَدَ ، والسامع يتوهم أنه من الخلود .

وقوله : ﴿ وَيُدْخِلُهُمْ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ ﴾^(٦) ، أى علمهم منازلهم فيها ، أو يومهم إرادة العرف ، الذى هو الطيب .

وقوله : ﴿ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ ﴾^(٧) .

وقوله : ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ ﴾^(٨) فذكر « رضوان » مع « الجنات » مما يومهم إرادة خازن الجنات .

(٢) سورة آل عمران ٣٩

(٤) سورة الناريات ٤٧

(٦) سورة القتال ٦

(٨) سورة التوبة ٢١

(١) سورة الرحمن ٦

(٣) سورة الفاشية ٨

(٥) سورة الدهر ١٩

(٧) سورة المائدة ٤

وكان الأنصار يقولون : ﴿رَاعِنَا﴾^(١) أى أرعنا سمعنا وانظر إلينا والكفار يقولونها «فاعل» من الرعونة . وقال أبو جعفر : هى بالعبرائية ، فلما عوتبوا قالو : إنما نقول مثل ما يقول المسلمون ، فنهى المسلمون عنها .

وقوله : ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾^(٢) فقوله ﴿الولى﴾ هو من أسماء الله ، ومعناه الولى لعباده بالرحمة والمغفرة ، وقوله : ﴿الحميد﴾ يحتمل أن يكون من «حامد» لعباده المطيعين ، أو «محمود» في السراء والضراء ، وعلى هذا فالضمير راجع إلى الله سبحانه . ويحتمل أن يكون الولى من أسماء المطر ، وهو مطر الربيع ، والحميد بمعنى المحمود ، وعلى هذا فالضمير عائد على الغيث .

وقوله : ﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾^(٣) ، فإن لفظة «ربك» رشحت لفظة «ربه» ، لأن يكون تورية ؛ إذ يحتمل أنه أراد بها الإله سبحانه والملك ، فلو اقتصر على قوله : ﴿فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾^(٣) ، ولم تدل لفظة «ربه» إلا على الإله فلما تقدمت لفظة «ربك» احتمل المعنيين .

نبيه

[فى الفرق بين التورية والاستخدام]

كثيراً ما تلتبس التورية بالاستخدام ؛ والفرق بينهما أن التورية استعمال المعنيين فى اللفظ وإيهال الآخر ؛ وفى الاستخدام استعمالهما معا بقرينتين .

(١) من قوله تعالى فى سورة البقرة ١٠٤ :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا﴾ .

(٢) سورة الشورى ٢٨

(٣) سورة يوسف ٤٢

وحاصله أن المشترك إن استعمل في مفهومين معا فهو الاستخدام ؛ وإن أريد أحدهما مع ملح الآخر باطنا فهو التورية .

ومثال الاستخدام قوله تعالى : ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ . يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُنْبِتُ ۖ ^(١) ، فَإِنَّ لَفْظَةَ « كتاب » يراد بها الأمد المحتوم والمكتوب ، وقد توسطت بين لفظتين ، فاستخدمت أحد مفهوميها ، وهو الأمد واستخدمت « يمحو » المفهوم الآخر ، وهو المكتوب . وقوله تعالى : ﴿ لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ ۖ ^(٢) ؛ فإن الصلاة تحتل إرادة نفس الصلاة ، وتحتل إرادة موضعها فقوله : ﴿ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا ۖ ^(٢) استخدمت إرادة نفس الصلاة ، وقوله : ﴿ إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ ۖ ^(٢) ، استخدمت إرادة موضعها .



التجريد

وهو أن تعتقد أن في الشيء من نفسه معنى آخر، كأنه مبين له، فتخرج ذلك إلى ألفاظه بما اعتقدت ذلك، كقولهم: لئن لقيت زيدا للتلقين معه الأسد، ولئن سألتك لتسألن منه البحر. فظاهر هذا أن فيه من نفسه أسداً وبحراً وهو عينه هو الأسد والبحر؛ لأن هناك شيئاً منفصلاً عنه، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (١)، فظاهر هذا أن في العالم من نفسه آيات، وهو عينه ونفسه تلك الآيات.

وكقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٢)، وإنما هذا ناب عن قوله: «وَأَعْلَمَ أَنِّي عَزِيزٌ حَكِيمٌ».

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ (٣).

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (٤).

وقوله: ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْمُخْلَدِ﴾ (٥)، ليس المعنى أن الجنة فيها دار خلدٍ وغير

دار خلد، بل كل ما دار خلد؛ فكأنك لما قلت: في الجنة دار الخلد اعتقدت أن الجنة منظوية على دار نعيم ودار أكل وشرب وخلد، فجردت منها هذا الواحد، كقوله:

* وفي الله إن لم تُنصفوا حكمٌ عدلٌ *

وقوله: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ (٦)، على أحد

(٢) سورة البقرة ٢٦٠

(٤) سورة الأحزاب ٢١

(٦) سورة الأنعام ٩٥

(١) سورة آل عمران ١٩٠

(٣) سورة ق ٣٧

(٥) سورة فصلت ٢٨

التأويلات في الآية عن ابن مسعود: هي النطفة تخرج من الرجل ميتة، وهو حي، ويخرج الرجل منها حياً وهي ميتة، قال ابن عطية: في تفسيره هذه الآية: إن لفظة الإخراج في تنقل النطفة حتى تكون رجلاً، إنما هو عبارة عن تغيير الحال، كما تقول في صبيّ جيّد البنية: يخرج من هذا رجل قوياً.

وقد يحتمل قوله: ﴿وَنُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾^(١)، أى الحيوان كله ميتة، ثم يحييه قال: وهو معنى التجريد.

وذكر الزمخشري أن عمرو بن عبيد قرأ في قوله تعالى: ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾^(٢)، بالرفع، بمعنى حصلت منها [سما] ^(٣) وَرْدَةٌ، قال: وهو من التجريد. وقرأ على وابن عباس في سورة مريم: ﴿يَرِئُنِي وَارِثٌ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾^(٤)، قال ابن جني: هذا هو التجريد، وذلك أنه يريد: وهب لي من لدنك ولياً يرثني منه وارث من آل يعقوب، وهو الوارث نفسه، فكانه جرّد منه وارثاً.



(٢) سورة الرحمن ٣٧، وانظر الكشاف ٤: ٣٥٨
(٤) سورة مريم ٦
(٢٩ - برهان - ثالث)

(١) سورة الأنعام ٩٥
(٣) من الكشاف

التجنيس

وهو إما تام بأن تتساوى حروف الكلمتين ، كقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ ^(١).

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ . فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذِرِينَ ﴾ ^(٢)؛ وفي ذلك رد على من قال ^(٣) : ليس منه في القرآن غير الآية الأولى .

وإما بزيادة في إحدى الكلمتين ، كقوله تعالى : ﴿ وَالتَّفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ . إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴾ ^(٤) .

وإما لاحق ، بأن يختلف أحد الحرفين ، كقوله : ﴿ وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ . وَإِنَّهُ لِحَبِّ النَّخْلِ لَشَدِيدٌ ﴾ ^(٥) .

﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ . إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ ^(٦) .

﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ ﴾ ^(٧) .

﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾ ^(٨) .

وقوله : ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ أَلْحَوفِ ﴾ ^(٩) .

وإما في الخط ، وهو أن تشبها في الخط لا اللفظ ، كقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ يَخْشَوْنَ أَنََّّهُمْ يُخْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ ^(١٠) .

(٢) سورة الصافات ٧٢، ٧٣

(١) سورة الروم ٥٥

(٣) هو ابن الأثير صاحب التل السائر ؛ ذكره في الجزء الأول ص ٢٤٦

(٥) سورة العاديات ٨، ٧

(٤) سورة القيامة ٢٩ ، ٣٠

(٧) سورة الأنعام ٢٦

(٦) سورة القيامة ٢٢، ٢٣

(٩) سورة النساء ٨٣

(٨) سورة غافر ٧٥

(١٠) سورة الكهف ١٠٤

وقوله : ﴿ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ . وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ ^(١) .
 وإما في السمع لقرب أحد المخرجين من الآخر ، كقوله تعالى : ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ
 نَاضِرَةٌ . إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ ^(٢) .

تنبيهات

الأول : نازع ابنت أبي الحديد في الآية الأولى وقال : عندي ^(٣) أنه ليس
 بتجنيس أصلاً ، وأن الساعة في الموضعين بمعنى واحد ، والتجنيس أن يتفق اللفظ
 ويختلف المعنى ، وألا تكون إحداها حقيقة والأخرى مجازاً ؛ بل تكونا حقيقتين ؛ وإن
 زمان القيامة - وإن طال - لكنه عند الله تعالى في حكم الساعة الواحدة ؛ لأن قدرته
 لا يعجزها أمر ، ولا يطول عندها زمان ؛ فيكون إطلاق لفظة «الساعة» على أحد الموضعين
 حقيقة ، وعلى الآخر مجازاً ؛ وذلك يُخرج الكلام من التجنيس ؛ كما لو قلت : ركب
 حماراً ، ولقيت حماراً ، وأردت بالناسي البليد . وأيضاً لا يجوز أن يكون المراد بالساعة
 الساعة الأولى خاصة ؛ وزمان البعث ، فيكون لفظ الساعة مستعملاً في الموضعين حقيقة بمعنى
 واحد ؛ فيخرج عن التجنيس .

الثاني : يقرب منه الاقتضاب ، وهو أن تكون الكلمات يجمعها أصل واحد في اللغة ،
 كقوله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَاسِمِ ﴾ ^(٤) .
 وقوله : ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الصَّدَقَاتِ ﴾ ^(٥) .
 وقوله : ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ ﴾ ^(٦) .

(٢) سورة القيامة ٢٢، ٢٣

(٣) سورة الروم ٤٣

(٦) سورة الواقعة ٨٩

(١) سورة الشعراء ٧٩، ٨٠

(٣) انظر الفلك السائر ١٣

(٥) سورة البقرة ٢٧٦

وقوله : ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾^(١).

﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْفَالِقِينَ﴾^(٢).

﴿وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾^(٣).

﴿يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾^(٤).

﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾^(٥).

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾^(٦).

﴿أَتَأْتَلُّهُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾^(٧).

الثالث : اعلم أن الجناس من المحاسن اللفظية لا المعنوية ، ولهذا تركوه عند قوة المعنى بتركه ؛ ولذلك مثالان :

أحدهما قوله : ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾^(٨) ، فذكر الرازي في تفسيره^(٩) أن الكاتب الملقب بالرشيدى ، قال : لو قيل : « أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَدْعُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ » [أو هم أنه أحسن ، لأنه كان]^(١٠) تحصل به رعاية معنى التجنيس أيضاً ؛ مع كونه موازنا لـ « تذكرون » .

وأجاب الرازى : بأن فصاحة القرآن ليست لأجل رعاية هذه التكلفات ، بل لأجل قوة المعانى وجزالة الألفاظ .

وقال بعضهم : مراعاة المعانى أولى من مراعاة الألفاظ ، فلو كان « أَتَدْعُونَ »

(٢) سورة الشعراء ١٦٨

(٤) سورة يوسف ٨٤

(٦) سورة الأنعام ٧٩

(٨) سورة الصافات ١٢٥

(١٠) من تفسير الفخر الرازى

(١) سورة فصلت ٥١

(٣) سورة الرحمن ٥٤

(٥) سورة النور ٣٧

(٧) سورة التوبة ٣٨

(٩) تفسير الفخر الرازى ١٠٩ : ٧

«وتَدْعُونَ» كما قال هذا القائل لوقع الإلباس على القارى فيجعلهما بمعنى واحد تصحيفا منه،
وحينئذ فينخرم اللفظ، إذا قرأ و «تَدْعُونَ» الثانية بسكون الدال؛ لاسيما وخط المصحف
الإمام لاضبط [فيه] ولا نقط.

قال: ومما صحف من القرآن بسبب ذلك وليس بقراءة قوله تعالى: ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾^(١) بالسين المهملة.

وقوله: ﴿إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾^(٢) بالباء الموحدة.

وقوله: ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾^(٣) بالعين المهملة.

وقرأ ابن عباس «مَنْ فرعون» على الاستفهام.

قلت: وأجاب الجويني عن هذا بما يمكن أن يتخلص منه: أن «يذر» أخص من
«يدع» وذلك لأن الأول، بمعنى ترك الشيء اعتناء به، بشهادة الاشتقاق، نحو الإيداع،
فإنه عبارة عن ترك الوديعة مع الاعتناء بحالها، ولهذا يُختار لها مَنْ هو مؤتمن عليها؛ ومن ذلك
الدعة بمعنى الراحة. وأما «تذر» فعناها الترك مطلقا، والترك مع الإعراض^(٤) والرفض
الكلّي؛ ولا شك أن السياق إنما يناسب هذا دون الأول؛ فأريد هنا تبشيع حالهم
في الإعراض عن ربهم، وأنهم بلغوا الغاية في الإعراض.

قلت: ويؤيده قول الراغب^(٥): يقال: فلا يذر الشيء أى يقذفه لقلة الاعتداد به^(٦).
وألوذرة قطعة من اللحم [وتسميتها بذلك]^(٧) لقلة الاعتداد به؛ نحو قولهم: [فيم لا يعتد به]^(٨): هو
لحم على وضم، قال تعالى: ﴿أَجِئْنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾^(٩). وقال تعالى:
﴿وَيَذَرُكَ وَآلِهَتَكَ﴾^(١٠). ﴿فَذَرُهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾^(١١) ﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾^(١٢)

(٢) سورة التوبة ١١٤

(١) سورة الأعراف ١٥٦

(٤) ت: «الاعتراض».

(٣) سورة عبس ٣٧

(٥) في المفردات ٥٣٩ مع تصرف في العبارة؛ وتقديم وتأخير

(٧) من المفردات

(٦) المفردات: «لقلة اعتداده به»

(٩) سورة الأعراف ١٢٧

(٨) سورة الأعراف ٧٠

(١١) سورة البقرة ٢٧٨

(١٠) سورة الأنعام ١١٢

وإنما قال ﴿يَذَرُونَ﴾ ولم يقل «يتركون» و«يُخَلَّفُونَ» لذلك . انتهى .

وعن الشيخ كمال الدين بن الزمكاى أنه أجاب عن هذا السؤال بأن التجنيس تحسين ، وإنما يستعمل فى مقام الوعد والإحسان ؛ وهذا مقام تهويل ، والقصد فيه المعنى ، فلم يكن لمراعاة اللفظة فائدة .

وفيه نظر ، فإنه ورد فى قوله : ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ ^(١) .

المثال الثانى : قوله تعالى : ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ ^(٢) قال : معناه : وما أنت مصدق لنا ، فيقال : ما الحكمة فى العدول عن الجنس ، وهلا قيل : «وما أنت بمصدق لنا ولو كنا صادقين» ، فإنه يؤدى معنى الأول مع زيادة رعاية التجنيس اللفظى ؟

والجواب أن فى «مُؤْمِنٍ لَنَا» من المعنى ما ليس فى «مصدق» ، وذلك أنك إذا قلت : «مصدق لى» فعناه . قال لى : صدقت ، وأما «مؤمن» فعناه مع التصديق إعطاء الأمن ، ومقصودهم التصديق وزيادة ، وهو طلب الأمن ؛ فلهذا عدل إليه .

فتأمل هذه الطائفت الغريبة والأسرار العجيبة فإنه نوع من الإعجاز !

فائدة

قال الخفاجى : إذا دخل التجنيس نفي عُدَّ طباقا ، كقوله تعالى : ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ^(٣) ، لأن «الذين لا يعلمون» هم الجاهلون ، قال : وفى هذا يختلط التجنيس بالطباق .

(٢) سورة يوسف ١٧

(١) سورة الجاثية ٢٧

(٣) سورة الزمر ٩

الطَبَاق

هو أن نجتمع بين متضادين مع مراعاة التقابل ، كاليابض والسواد ، والليل والنهار ؛ وهو قسمان : لفظي ومعنوي ؛ كقوله تعالى : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا ﴾ ^(١) ، طابَق بين الضحك والبكاء ، والليل والكثير .

ومثله : ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ ^(٢) .
 ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى . وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾ ^(٣) .
 ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَانًا وَهُمْ رُقُودٌ ﴾ ^(٤) .

﴿ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾ ^(٥) .

وقوله تعالى : ﴿ تُوَفِّي الْمَلَكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلَكَ مِمَّنْ تَشَاءُ ... ﴾ ^(٦) الآية .
 ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ . وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ . وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ . وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ﴾ ^(٧) .

ثم إذا شرط فيهما شرط وجب أن يشترط في ضديهما ضد ذلك الشرط ، كقوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَىٰ . وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴾ ^(٨) الآية ، لما جعل التيسير

(٢) سورة الحديد ٢٣

(٤) سورة الكهف ١٨

(٦) سورة آل عمران ٢٦

(٨) سورة الليل ٦٠

(١) سورة التوبة ٨٢

(٣) سورة النجم ٤٣، ٤٤

(٥) سورة الرعد ١٠

(٧) سورة فاطر ١٩-٢٢

مشتراكا بين الإعطاء والتقى والتصديق ، وجعل ضده وهو التعسير مشتركا بين أضداد تلك الأمور ، وهى المنع والاستغناء والتكذيب .

ومنه: ﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ . قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴾ ^(١) ، قابل بين العلو والدنو .

وقوله : ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ . وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴾ ^(٢) .

وقوله : ﴿ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ ^(٣) ، فذكر الليل والنهار وما ضدان ، ثم قابلهما بضدين وهما الحركة والسكون ، على الترتيب ، ثم عبّر عن الحركة بلفظ « الإرداف » فاستلزم الكلام ضربا من المحاسن زائدا على المبالغة ، وعدّل عن لفظ الحركة إلى لفظ « ابتغاء الفضل » لكون الحركة تكون للمصلحة دون المفسدة ؛ وهى تسير إلى الإعانة بالقوة وحسن الاختيار الدال على رجاحة العقل ، وسلامة الحس ، وإضافة الظرف إلى تلك الحركة المخصوصة واقعة فيه ، ليهتدى المتحرك إلى بلوغ المآرب .

ومن الطباق المعنوى قوله تعالى: ﴿ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ . قَالُوا رَبَّنَا عَلَّمْنَا إِيَّاكُمْ لَمْرُسُلُونَ ﴾ ^(٤) ، معناه : ربنا يعلم إنا لصادقون .

وقوله : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ﴾ ^(٥) ، قال أبو على فى ” الحجة “ : لما كان البناء رفعا للمبنى قوبل بالفرش الذى هو على خلاف البناء ، ومن ثم وقع البناء على ما فيه ارتفاع فى نصيبه إن لم يكن مدرا .

(٢) سورة الفاشية ١٣، ١٤

(٤) سورة يس ١٥، ١٦

(١) سورة الحاقة ٢٢، ٢٣

(٣) سورة القصص ٧٣

(٥) سورة البقرة ٢٢

ومنه نوع يسمى الطباق الخفي ؛ كقوله تعالى : ﴿ مِمَّا خَطِيئَتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأَذْخَلُوا نَاراً ﴾ ^(١) ، لأن الغرق من صفات الماء فكأنه جمع بين الماء في النار والنار ، قال ابن منقذ ^(٢) : وهي أخفى مطابقة في القرآن .

قلت : ومنه قوله تعالى : ﴿ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً ﴾ ^(٣) ؛ فكأنه جمع بين الأخضر والأحمر ، وهذا أيضاً فيه تدبيح بديعي .

ومنه : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ ^(٤) ، لأن معنى القصاص القتل ، فصار القتل سبب الحياة .

قال ابن المعتز ^(٥) ؛ وهذا من أملح الطباق وأخفاه .

وقوله تعالى في الزخرف : ﴿ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا ﴾ ^(٦) ؛ لأن « ظل » لا تستعمل إلا نهاراً ، فإذا لمع مع ذكر السواد كأنه طباق يُذكر البياض مع السواد .
وقوله : ﴿ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴾ ^(٧) .



(٢) هو الأمير أسامة بن منقذ ؛ أحد أبطال

الإسلام وأدبائهم وشعرائهم ؛ وصاحب كتاب لباب الآداب ، والبديع في نقد الشعر . توفي سنة ٥٨٤ .

(٤) سورة البقرة ١٧٩

(١) سورة نوح ٢٥

(٣) سورة يس ٨٠

(٥) هو عبد الله بن المعتز الخليفة العباسي ، وصاحب كتاب البدیع ؛ توفي سنة ٢٩٦ .

(٧) سورة غافر ٤١

(٦) سورة النحل ٥٨

المقابلة

[مباحث المقابلة]

وفيها مباحث :

الأول : في حقيقتها

وهي ذكر الشيء مع ما يوازيه في بعض صفاته ، ويخالفه في بعضها ، وهي من باب « المفاعلة » ، كالمقابلة والمضاربة ، وهي قرينة من الطباق ؛ والفرق بينهما من وجهين :
الأول : أن الطباق لا يكون إلا بين الضدين غالبا ، والمقابلة تكون لأكثر من ذلك غالبا .

والثاني : لا يكون الطباق إلا بالأضداد ، والمقابلة بالأضداد وغيرها ؛ ولهذا جعل ابن الأثير الطباق أحد أنواع المقابلة.

الثاني : في أنواعها

وهي ثلاثة : نظري ، وتقيضي ، وخلافي . والخلافي أتمها في التشكيك ، وأزمرها بالتأويل ، والتقيضي ثانيها ، والنظري ثالثها .

وذكر الشيخ أبو الفضل يوسف بن محمد النحوي القلعي أن القرآن كله وارد عليها بظهور نكته الحكيمية العلمية ، من الكائنات والزمانيات والوسائط الروحانيات ، والأوائل الإلهيات ؛ حيث اتحدت من حيث تعددت ، واتصلت من حيث انفصلت ؛ وأنها قد ترد على شكل المربع تارة ، وشكل المسدس أخرى ، وعلى شكل

المثلث ، إلى غير ذلك من التشكيلات العجيبة ، والترتيبات البديعة ، ثم أورد أمثلة من ذلك .

مثال مقابلة النظيرين ، مقابلة السنة والنوم في قوله تعالى : ﴿ لَا تَأْخُذْهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ ^(١) لأنهما جميعا من باب الرقاد المقابل باليقظة .

وقوله : ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ﴾ ^(٢) ، وهذمه في مقابلة النقيضين أيضاً ، ثم السنة والنوم بانفرادهما متقابلان في باب النظيرين ومجموعهما يقابلان النقيض الذي هو اليقظة .

ومثال مقابلة الخلافين ، مقابلة الشرّ بالرشد في قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدَ يَمْنُ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ ^(٣) فقابل الشرّ بالرشد ؛ وهما خلافان ، وضد الرشد الغي ، وضد الشر الخير ، والخير الذي يخرج لفظ الشر ضمناً نظير الرشد قطعاً ، والغى الذي يخرج لفظ الرشد ضمناً نظير الشر قطعاً ، فقد حصل من هذا الشكل أربعة ألفاظ : نطقان وضمنان ؛ فكان بهما رباعيتان .

وهذا الشكل الرباعي يقع في تفسيره على وجوه ، فقد يرد وبعضه مفسر ، مثل ما ذكرناه ، وقد يرد وكله مفسر ، كقوله تعالى : ﴿ فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى . وَلَكِنْ كَذَبَ وَتَوَلَّى ﴾ ^(٤) فقابل «صدق» بـ«كذب» و«وصلى» الذي هو أقبل بـ«تولى» .

وقوله : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيًا . إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾ ^(٥) ، اللغو في الحيثية المنكرة والتأثيم في الحيثية الناكرة ، واللغو منشأ المنكر ومبدأ درجاته ، والتأثيم منشأ التكبر ومبدأ درجاته ، فلا نكير إلا بعد منكر ، ولا اعتقاد إنكار إلا بعد اعتقاد تأثيم ، ومنشأ اللغو في أول طرف المنكر هات وآخره في طرف المحظورات ومبدأ التأثيم .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ أَلْجَعَلُ فِيهَا مَنْ يَفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ ^(٦) فقابل الإفساد بالسبح والحمد ، وسفك الدماء بالتقديس ،

(٢) سورة الكهف ١٨

(٤) سورة القيامة ٣١، ٣٢

(٦) سورة البقرة ٣٠

(١) سورة البقرة ٢٥٥

(٣) سورة الجن ١٠

(٥) سورة الواقعة ٢٥، ٢٦

فالتسبيح بالحمد إذن ينفي الفساد ، والتقديس ينفي سفك الدماء ، والتسبيح شريعة للإصلاح ، والتقديس شريعة حقن الدماء ، وشريعة التقديس أشرف من شريعة التسبيح ؛ فإن التسبيح بالحمد للإصلاح لا للفساد ، وسفك الدماء للتسبيح لا للتقديس ؛ وهذا شكل مربع ، من أرضي وهو الإفساد وسفك الدماء ، وسمائي وهو التسبيح والتقديس ، والأرضي ذو فصلين ، والسمائي ذو فصلين ، ووقع النفس من الطرفين المتوسطين ؛ فالطرفان الإفساد في الطرف الأول ، والتقديس في الطرف الآخر ، والوسطان آخر الأرض ، وأول السماء ، فالأول متشرف على الآتي والآخر ملقت إلى الماضي :

وَكَمَ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنْ كُلِّ مُوجَزٍ يَدُورُ عَلَى الْمَعْنَى وَعَنْهُ يُبَاصِعُ^(١)
لَقَدْ جَمَعَ الْإِسْمُ الْحَمْدَ كُلَّهَا مَقَاسِيمَ ————— مَجْمُوعَةً وَالْمَشَايِعُ
وهذا القدر الذي ذكره هذا الخبر مرمي عظيم ، يوصل إلى أمور غير متجاسر عليها ،
كما في آية الكرسي وغيرها .

وقسم بعضهم المقابلة إلى أربع :

أحدها : أن يأتي بكل واحد من المقدمات مع قرينة من الثواني ، كقوله تعالى :
﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا . وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴾^(٢) .

والثانية : أو يأتي بجميع الثواني مرتبة من أولها ، كما قال تعالى : ﴿ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾^(٣) .

وكذلك : ﴿ وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾^(٤) .

(٢) سورة النبأ ١٠، ١١

(٤) سورة البقرة ٢١٧

(١) يماصم : يدافع .

(٣) سورة القصص ٧٣

الثالث : أن يأتي بجمع المقدمات ثم يجمع الثواني مرتبة من آخرها ، ويسمى رد العجز على الصدر ، كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ أُسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَمِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ ^(١) .

الرابع : أن يأتي بجميع المقدمات ثم بجميع الثواني مختلطة غير مرتبة ، ويسمى الف ، كقوله تعالى : ﴿ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ ^(٢) فنسبة قوله : ﴿ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ﴾ ^(٢) إلى قوله : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ، كنسبة قوله : ﴿ يَقُولَ الرَّسُولُ ﴾ إلى : ﴿ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ ، لأن القولين المتباينين يصدران عن متباينين .

وكما قال تعالى : ﴿ وَلَا تَنْظُرُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ ^(٣) فنسبة قوله : ﴿ وَلَا تَنْظُرُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ ^(٣) إلى قوله : ﴿ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ ^(٣) كنسبة قوله : ﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ ﴾ ^(٣) إلى قوله : ﴿ فَتَطْرُدَهُمْ ﴾ ^(٣) فجمع المقدمات التالين بالالتفات .

وجعل بعضهم من أقسام التقابل مقابلة الشيء بمثله وهو ضربان :
مقابل في اللفظ دون المعنى كقوله تعالى : ﴿ وَمَكْرُوهًا مَكْرًا وَمَكْرُوهًا مَكْرًا ﴾ ^(٤) .

(٢) سورة البقرة ٢١٤

(٤) سورة النمل ٥٠

(١) سورة آل عمران ١٠٦ ، ١٠٧

(٣) سورة الأنعام ٥٢

و مقابل فى المعنى دون اللفظ ، كقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَبِّي ﴾ (١) ؛ فإنه لو كان التقابل هنا من جهة اللفظ ، لكان التقدير : « وإن اهتديت ، فإنما اهتديت لها » .

و بيان تقابل هذا الكلام من جهة المعنى ، أن النفس كل ما هو عليها لها ، فهو أعنى أن كل ما هو وبال عليها وصار لها فهو بسببها ومنها ؛ لأنها أماراة بالسوء ، وكل ما هو مما ينفعها فبهداية ربها وتوفيقه إياها ، وهذا حكم لكل مكلف ، وإنما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسند إلى نفسه ، لأنه إذا دخل تحته مع علو محله كان غيره أولى به .

ومن هذا الضرب قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّا فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٢) ، فإنه لم يدع التقابل فى قوله : ﴿ لَيْسَكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ ، لأن القياس يقتضى أن يكون « والنهار لتبصروا فيه » ، وإنما هو مراعى من جهة المعنى لامن جهة اللفظ ، لأن معنى « مبصراً » تبصرون فيه طرق القلب فى الحاجات .

واعلم أن فى تقابل المعانى باباً عظيماً يحتاج إلى فضل تأمل ، وهو يتصل غالباً بالفواصل ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ (٣) إلى قوله ﴿ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (٤) . وقوله : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ ﴾ (٥) إلى قوله : ﴿ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٦) . فانظر فاصلة الثانية ﴿ يَعْلَمُونَ ﴾ التى قبلها ﴿ يَشْعُرُونَ ﴾ لأن أمر الديانة والوقوف على أن المؤمنين : يجتمعون وهم مطيعون يحتاج إلى نظر واستدلال ، حتى يكسب الناظر

(٢) سورة النمل ٨٦

(٤) سورة البقرة ١٣

(١) سورة ساء ٥٠

(٣) سورة البقر ١١ ، ١٢

المعرفة والعلم؛ وإنما النفاق - وما فيه من الفتنة والفساد - أمر دنيوى مبنى على العادات ، معلوم عند الناس ، فلذلك قال فيه ﴿ يَعْلَمُونَ ﴾ .

وأيضاً فإنه لما ذكر السفه ^(١) فى الآية الأخرى - وهو جهل - كان ذكر العلم طباقاً ، وعلى هذا تجىء فواصل القرآن ، وقد سبق فى بابہ .

ومن المقابلة قوله تعالى : ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا ﴾ ^(٢) ، فتقدم اقتران الوعد بالفقر والأمر بالفحشاء ، ثم قول بـ شىء واحد وهو الوعد ، فأوهم الإخلال بالثانى ، وليس كذلك ؛ وإنما لما كان الفضل مقابلاً للفقير ، والمغفرة مقابلة للأمر بالفحشاء ؛ لأن الفحشاء توجب العقوبة ، والمغفرة تقابل العقوبة ، استغنى بذكر المقابل عن ذكر مقابله ، لأن ذكر أحدهما ملزوم ذكر الآخر .

(١) من قوله فى الآية : ﴿ قَالُوا أَنْتُمْ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ﴾

(٢) سورة البقرة ٢٦٨ .

تقسيم

من مقابلة اثنين باثنين : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا ۖ ﴾^(١) .
 ومن مقابلة أربعة بأربعة : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَىٰ... ﴾^(٢) الآية .
 ومن مقابلة خمس بخمس قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً
 فَمَا فَوْقَهَا ۖ ﴾^(٣) ، للدلالة على الحقير والكبير ؛ وهو من الطباق الخفي ، الثاني : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ
 آمَنُوا ۖ ﴾ و ﴿ أَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ ﴾ ، الثالث : ﴿ يَضِل ۖ ﴾ و ﴿ يَهْدَى ۖ ﴾ به ، الرابع : ﴿ يَنْقُضُونَ
 عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ ۖ ﴾ ، الخامس : ﴿ يَقْطَعُونَ ۖ ﴾ و ﴿ أَنْ يُوْصَلَ ۖ ﴾ .
 ومن مقابلة ست بست : قوله تعالى : ﴿ زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ
 وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَلِيلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ
 مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ ﴾^(٤) ، ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ أَوْتَيْنَاكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ لِمَنْ
 لَدَيْنَ أَنْتَقُوا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ

(١) سورة التوبة ٨٢

(٢) سورة الليل ٥-١٠ ، والآيات بتكملها :

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَىٰ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ،
 وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ . فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۖ ﴾

(٣) سورة البقرة ٢٦ ، وبعبارة : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ، وَأَمَّا
 الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ، يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا
 وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ . الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ
 اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوْصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ۖ ﴾ .

(٤) سورة آل عمران ١٤

وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ﴿١﴾ ، قابل الجنات والأنهار والخلد والأزواج والتطهير والرضوان بإزاء النساء في الدنيا ، وختم بالحرث ، وهما طرفان متشابهان ، وفيهما الشهوة والمعاش الدنياوى ، وآخر ذكر الأزواج كما يجب في الترتيب الأخرى ، وختم بالرضوان .

فائدة

قد يحىء نظم الكلام على غير صورة المقابلة في الظاهر ؛ وإذا توّمل كان من أكل المقابلات ؛ ولذلك أمثلة :

منها قوله تعالى : ﴿ إِنَّ لَكَ أَنْ لَا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى . وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ﴾ ^(٢) فقابل الجوع بالعُرَى ؛ والظما بالضحى ^(٣) ؛ والواقف مع الظاهر ربما يُحِيلُ أَنْ الْجُوعَ يَقَابِلَ بِالظَّمَا ، والعرى بالضحى .

والمدقق يرى هذا الكلام في أعلى مراتب الفصاحة ؛ لأن الجوع ألم الباطن والضحى موجب لحرارة الظاهر ، فاقتضت الآية جميع نفي الآفات ظاهرا وباطنا ؛ وقابل الخلو بالخلو ، والاحتراق بالاحتراق . وهاعنا موضع الحكاية المشهورة بين المتنبي وسيف الدولة ؛ لما أنشد :

وَقَفْتَ وَمَا فِي الْمَوْتِ شَكٌّ لَوَاقِفٍ كَأَنَّكَ فِي جَفْنِ الرَّدَى وَهُوَ نَائِمٌ ^(٤)

(١) سورة آل عمران ١٤، ١٥

(٢) في اللسان عن الأبيث : « ضحى الرجل بضحى ضحا ، إذا أصابه حر الشمس » .

(٣) ديوانه ٣ : ٣٨٦ ، وبعده :

تَمَرُّ بِكَ الْأَبْطَالُ كُلَّمَا هَزِيمَةً وَوَجْهَكَ وَضَّاحٌ وَتَغْرُكَ بِأَسْمٍ

ونقل المكبرى عن الواحدى : لما أنشد المتنبي هذا البيت والذى بعده ، أنكر عليه سيف الدولة تطبيق عجزى البيتين على صدريهما ، وقال له : ينبغي أن تطبق عجز الأول على الثانى ، وعجز الثانى على الأول ؛ ثم قال له : وأنت في هذا مثل امرئ القيس في قوله :

كَأَنِّي لَمْ أَزْكَبْ جَوَادًا لِلذِّةِ وَلَمْ أَتَبَطَّنْ كَاعِبًا ذَاتَ خَلْخَالٍ
وَلَمْ أَسْبِأِ الرِّقَّ الرَّوَى وَلَمْ أَقُلْ لِيخِيلِي كَرِّى كَرَّةً بَعْدَ إِجْفَالٍ

قال : ووجه الكلام في البيتين على ماقاله أهل العلم بالشعر ، أن يكون عجز الأول على الثانى ، والثانى على =

ومنها قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ﴾^(١) ؛ فإنه يتبادر فيه سؤال ؛ وهو أنه لم لا قيل : « مثل الفريقين كالأعمى والبصير ، والأصم والسميع » ، لتكون المقابلة في لفظ « الأعمى » وضده بالبصير ، وفي لفظ « الأصم » وضده السميع !

والجواب أنه يقال : لما ذكر انسداد العين أتبعه بانسداد السمع ، وبضد ذلك لما ذكر انفتاح البصر أعقبه بانفتاح السمع ؛ فما تضمنته الآية الكريمة هو الأنسب في المقابلة والآتم في الإعجاز .

== الأول ؛ ليستقيم الكلام ، فيكون ركوب الخيل مع الأمر للخيل بالكر ، وسبب الخمر مع تبطن السكائب . فقال له أبو الطيب : أدام الله عز مولانا ! إن صح أن الذي استدرك هذا على امرئ القيس أعلم منه بالشعر فقد أخطأ امرؤ القيس وأخطأت أنا ، ومولانا يعرف أن البراز لا يعرف الثوب معرفة الحائك ؛ لأن البراز يعرف جلته وتفصيله ؛ لأنه أخرجه من الفزلية إلى الثوبية ؛ وإنما قرن امرؤ القيس لثة النساء بلذة الركوب للصيد ، وقرن الساحة في شراء الخمر للأضياف بالشجاعة في منازلة الأعداء ؛ وأنا لما ذكرت الموت في أول البيت أتبعته بذكر الردى ليجانسه . ولما كان وجه التهنيز لا يخلو من أن يكون عوساً ، وعينه من أن تكون باكية ، قلت : « وجهك وضاح » ، لأجمع بين الأضداد في المعنى . فأعجب سيف الدولة ووصله بخمسمائة دينار .

(١) سورة هود ٢٤

رد العَجْر على الصِّدْر وعكسه

﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَجَلٍ سَأَرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾^(١)
﴿ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ﴾^(٢) .

العكس

وهو أن يقدم في الكلام جزء ثم يؤخر ، كقوله تعالى : ﴿ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾^(٣) وقدره الزمخشري^(٤) ، أى لاحتلّ بين المؤمن والمشرک ، والآية صرحت بنفي الحلل من الجهتين ، فقد يستدل بها من قال : إن الكفار مخاطبون بالفروع .
ومثله قوله تعالى : ﴿ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ﴾^(٥) أى ذبايحكم ، وهذه رخصة للمسلمين .

(٢) سورة المائدة ٩٦

(٤) الكشف : ٤١٣

(١) سورة الأنبياء ٣٧

(٣) سورة المتحنة ١٠

(٥) سورة المائدة ٥

إجماع انخضم بالحجة

وهو الاحتجاج على المعنى المقصود بحجة عقلية ، تقطع المعاند له فيه . والعجب من ابن المعتز في بديعه ، حيث أنكر وجود هذا النوع في القرآن ، وهو من أساليبه .

ومنه قوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ ^(١) ثم قال النحاة : إنَّ الثاني امتنع لأجل امتناع الأول ، وخالفهم ابن الحاجب وقال : الممتنع الأول لأجل امتناع الثاني ؛ فالتعدد منتف لأجل امتناع الفساد .

وقوله : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ ^(٢) .

وقوله : ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾ ^(٣) .

وقوله حكاية عن الخليل : ﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ ﴾ ^(٤) إلى قوله : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ ﴾ ^(٥) .

وقوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ ^(٦) ؛ المعنى أن الأهلون أدخل في الإمكان من غيره ؛ وقد أمكن هو ، فالإعادة أدخل في الإمكان من بدء الخلق .

وقوله تعالى : ﴿ مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ . . . ﴾ ^(٧) الآية ، وهذه حجة عقلية ، تقديرها أنه لو كان خالقان لاستبدت كل منهما بخلقها ، فكان الذي يقدر عليه أحدهما لا يقدر عليه الآخر ، ويؤدى إلى تناهى

(٢) سورة يس ٧٩ ، ٨١

(٤) سورة الروم ٢٧

(١) سورة الأنبياء ٢٢

(٣) سورة الأنعام ٣٠ ، ٨٣

(٥) سورة المؤمنون ٩١

مقدوراهما ؛ وذلك يُبطل الإلهية ، فوجب ^(١) أن يكون الإله واحدا ، ثم زاد في الحجاج فقال : ﴿ وَلَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ ^(٢) ، أى ولعلب بعضهم بعضا فى المراد ، ولو أراد أحدهما إحياء جسم والآخر إمانته لم يصح ^(٣) ارتفاع مرادها ؛ لأن رفع النقيضين محال ، ولا وقوعهما للتضاد ، فنفى وقوع أحدهما دون الآخر ؛ وهو المغلوب ، وهذه تسمى دلالة التامع ، وهى كثيرة فى القرآن ، كقوله تعالى : ﴿ إِذْنٌ لَّابْتِغْوَا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ ^(٤) .

وقوله : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّاسْمَعَهُمْ ﴾ ^(٥) .

وقوله : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا يُمْنُونَ . أَأُنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴾ ^(٦) فبين أنا لم نخلق المني لتعذرنا علينا ، فوجب أن يكون الخالق غيرنا .

ومنه نوع منطقي وهو استنتاج النتيجة من مقدمتين ، وذلك من أول سورة الحج إلى قوله : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾ ^(٧) ، فنطق على خمس نتائج من عشر مقدمات ؛ فالمقدمات من أول السورة : ﴿ وَأُنَبِّتُ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ ^(٨) ، والنتائج من قوله : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ ﴾ ^(٩) إلى قوله : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾ ^(٧) .

وتفصيل ترتيب المقدمات والنتائج أن يقال : أخبر الله أن زلزلة الساعة شئ عظيم ، وخبره هو الحق ، ومن أخبر عن الغيب بالحق فهو حق بأنه هو الحق ، وأنه يأتي بالساعة

(٢) سورة المؤمنون ٩١
(٤) سورة الإسراء ٤٢
(٦) سورة الواقعة ٥٨ : ٥٩
(٨) سورة الحج ٥

(١) ت : « مقدورهما » .
(٣) ت : « رفع » .
(٥) سورة الأنفال ٢٣
(٧) سورة الحج ٧
(٩) سورة الحج ٦

على تلك الصفات ، ولا يُعلم صدقُ الخبر إلا بإحياء الموتى ، ليدركوا ذلك ، ومن يأتي بالساعة يحيي الموتى ؛ فهو يحيي الموتى . وأخبر أنه يجعل الناس من هول الساعة سُكارى لشدة العذاب ، ولا يقدر على عموم الناس لشدة العذاب إلا مَنْ هو على كل شيء قدير ؛ فإنه على كل شيء قدير . وأخبر أن الساعة يُجازى فيها من يجادل في الله بغير علم ، ولا بُدَّ من مجازاته ، ولا يجازى حتى تكون الساعة آتية ، ولا تأتى الساعة حتى يبعث مَنْ في القبور ، فهو يبعث مَنْ في القبور . والله ينزل الماء على الأرض الهامدة فتنبث من كل زوج بهيج ، والقادر على إحياء الأرض بعد موتها يبعث من في القبور .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ ^(١) مقدمتان ونتيجة ، لأن اتباع الهوى يوجب الضلال ، والضلال يوجب سوء العذاب ؛ فانتج أن اتباع الهوى يوجب سوء العذاب . وقوله : ﴿ فَلَمَّا أَفْلَحَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ ﴾ ^(٢) ، أى القمر أفل ، وربى فليس بآفل ، فالقمر ليس بربى ، أثبتته بقياس اقترانى جلى من الشكل الثانى ، واحتج بالتعبير على الحدوث ، والحدوث على المحدث .

التقسيم

وليس المراد به القسمة العقلية التي يتكلم عليها المتكلم ؛ لأنها قد تقتضى أشياء مستحيلة كقولهم : الجواهر لا تخلو إما أن تكون مجتمعة أو متفرقة ، أو لا متفرقة ولا مجتمعة ، أو مجتمعة ومتفرقة معا ، أو بعضها مجتمع وبعضها متفرق ، فإن هذه القسمة صحيحة عقلا ، لكن بعضها يستحيل وجوده ، وهو استيفاء المتكلم أقسام الشيء ؛ بحيث لا يغادر شيئا وهو آلة الحصر ومظنة الإحاطة بالشيء ، كقوله تعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ ﴾ ^(١) فإنه لا يخلو العالم جميعا من هذه الأقسام الثلاثة ؛ إما ظالم نفسه ، وإما سابق مبادر إلى الخيرات ، وإما مقتصد فيها ، وهذا من أوضح التقسيمات وأكملها .

ومثله قوله : ﴿ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً . فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ . وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ . وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴾ ^(٢) ، وهذه الآية مماثلة في المعنى للتي قبلها ، وأصحاب المشأمة هم الظالمون لأنفسهم ، وأصحاب الميمنة هم المقتصدون ، والسابقون هم السابقون بالخيرات .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ لَهُ مَبَينٌ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا ﴾ ^(٣) الآية ، فاستوفى أقسام الزمان ولا رابع لها .

وقوله : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ ﴾ ^(٤) إلى قوله ﴿ مَا يَشَاءُ ﴾ ^(٤) ، وهو في القرآن كثير ، وخصوصا في سورة براءة .

ومنه قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ ^(٥) ، وليس في رؤية البرق إلا الخوف من الصواعق والطمع في الأمطار ، ولا ثالث لها .

(٢) سورة الواقعة ٧-١٠

(١) سورة فاطر ٣٢

(٣) سورة مريم ٦٤ ، وبمدها : ﴿ وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾

(٥) سورة الرعد ١٢

(٤) سورة النور ٤٥

وقوله: ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾^(١)، فاستوفت أقسام الأوقات، من طَرَفِي كُلِّ يَوْمٍ
ووسطه مع المطابقة والمقابلة.

وقوله: ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾^(٢)، فلم يترك سبحانه
قسما من أقسام الهيئات.

ومثله آية يونس: ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا ﴾^(٣).
لكن وقع بين ترتيب الآيتين مغايرة أوجبتهما المبالغة، وذلك أن المراد بالذِّكْرِ في الأولى
الصلاة فيجب فيها تقديم القيام، ثم عند العجز القعود، ثم الاضطجاع، وهذه بخلاف الضر،
فإنه يجب فيها تقديم الاضطجاع، وإذا زال بعض الضر قعد المضطجع، وإذا زال كل الضر
قام القاعد، فدعا لتتم الصحة، وتكمل القوة.

فإن قلت: هذا التأويل لا يتم إلا إذا كانت الواو عاطفة، فإنها تحصل في الكلام
حسن اتساق، وائتلاف الألفاظ مع المعاني، وقد عدل عنها إلى «أو» التي سقط
معها ذلك.

قلت: يأتي التضرع على أقسام، فإن منه ما يتضرع المضرور عند وروده، ومنه ما يقعه،
ومنه ما يأتي وصاحبه قائم لا يبلغ به شيئا، والدعاء عنده أولى من التضرع، فإن الصبر
والجزع عند الصدمة الأولى، فوجب العدول عن الواو، لتوخي الصدق في الخبر، والكلام
بالائتلاف، ويحصل النسق، والخبر بذلك التأويل الأول عن شخص واحد، وبالثاني عن
أشخاص فغلب الكثرة، فوجب الإتيان بـ «أو» وابتدئ بالشخص الذي تضرع لأن،
خبره أشد فهو أشد تضرعا، فوجب تقديم ذكره، ثم القاعد؛ ثم القائم، فحصل حسن الترتيب
وائتلاف الألفاظ ومعانيها.

(٢) سورة آل عمران ١٩١

(١) سورة الروم ١٧، ١٨

(٣) سورة يونس ١٢

وقوله : ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورَ . أَوْ يَزُوجُهُمْ ذُكْرًا وَّ إِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا﴾ ^(١) ، قسم سبحانه حال الزوجين إلى أربعة أقسام اشتمل عليها الوجود ، لأنه سبحانه إما أن يُفرد العبد بهبة الإناث ، أو بهبة الذكور ، أو يجمعهما له ، أو لا يهب شيئاً . وقد جاءت الأقسام في هذه الآية لينتقل منها إلى أعلى منها ، وهى هبة الذكور فيه ، ثم انتقل إلى أعلى منها وهى هبتهما جميعاً ، وجاءت ^(٢) كل أقسام العطية بلفظ الهبة ، وأفرد معنى الحرمان بالتأخير ، وقال فيه ﴿يجعل﴾ فعدّل عن لفظ الهبة للتغاير بين المعانى ، كقوله : ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ . لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا﴾ ^(٣) ، فذكر امتداد إنمائه بلفظ الزرع ، ومعنى الحرمان بلفظ الجعل .

وقيل : إنما بدأ سبحانه بالإناث لوجوه غير ما سبق .

أحدها : جبراً لمن ، لأجل استئصال الأبوين لمساكنهن .

الثانى : أن سياق الكلام أنه فاعل لما يشاء ، لا ما يشاء الأبوان ، فإن الأبوين لا يريدان إلا الذكور غالباً ؛ وهو سبحانه قد أخبر أنه يخلق ما يشاء ؛ فبدأ بذكر الصنف الذى يشاؤه ولا يريد به الأبوان غالباً .

الثالث : أنه قدم ذكر ما كانت تؤخره الجاهلية من أمر البنات حتى كانوا يثدوهن ؛ أى هذا النوع الحقير عندكم مقدّم عندى فى الذّكر .

الرابع : قدّمهن لضعفهن ، وعند العجز والضعف تكون العناية أتم .

وقيل : لينقله من الغم إلى الفرج .

وتأمل كيف عرّف سبحانه الذكور بعد تنكير ، فجبر نقص الأنوثة بالتقديم ، وجبر

نقص التأخر بالتعريف فإنّ التعريف تنويه .

(٢) ت : « وجاء فيه كل أقسام العطية »

(١) سورة الشورى ٤٩ ، ٥٠

(٣) سورة الواقعة ٦٣ - ٦٥

وهذا أحسن مما ذكره الواحدى أنه عرّف الذكور لأجل الفاصلة .

ولما ذكر الصنفين معا قدّم الذكور ، فأعطى لكل من الجنسين حقه من التقديم والتأخير . والله أعلم بما أراد .

بقى سؤال آخر ؛ وهو أنه عطف الثانى والرابع بالواو ، والثالث بـ « أو » ولعله ، لأنّ هبة كلٍّ من الإناث والذكور قد لا يقتزن بها ، فكأنّه وهب لهذا الصنف وحده أو مع غيره فلذلك تعينت « أو » . فتأمل لطائف القرآن وبدائعه !

ومن هذا التقسيم أخذ بعض العلماء أن الخنثى لا وجود له ؛ لأنه ليس واحدا من المذكورين ، ولا حجة فيه ، لأنه مقام امتنان ؛ والمنة بغير الخنثى أحسن وأعظم . أو لأنه باعتبار ما فى نفس الأمر ؛ والخنثى لا يخرج عن أحدهما .



التعديد

هى إيقاع الأنفاظ المبدّدة على سياق واحد ؛ وأكثر ما يؤخذ فى الصفات ؛ ومقتضاها ألا يعطف بعضها على بعض لاتحاد محلها ويجرى بها مجرى الوصف فى الصدق على ما صدق ؛ ولذلك يقلّ عطف بعض صفات الله على بعض فى التنزيل ، وذلك كقوله : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ ^(١).

وقوله : ﴿ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ﴾ ^(٢).

وقوله : ﴿ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ ﴾ ^(٣).

وإنما عطف قوله : ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ﴾ ^(٤) ؛ لأنها أسماء متضادة المعانى فى موضوعها ، فوقع الوهم بالعطف عن يستبعد ذلك فى ذات واحدة ؛ لأن الشئ الواحد لا يكون ظاهرا باطنا من وجه ، وكان العطف فيه أحسن . ولذلك عطف « الناهون » على « الآمرون » ، « وأبكارا » على « ثيبات » من قوله : ﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ﴾ ^(٥).

وقوله : ﴿ أَرْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُمْ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا ﴾ ^(٦) ، فجاء العطف لأنه لا يمكن اجتماعهما فى محل واحد بخلاف ما قبله .

وقوله : ﴿ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ ﴾ ^(٧) ، إنما عطف

(٢) سورة الحشر ٢٤

(٤) سورة الحديد ٣

(٦) سورة التحريم ٥

(١) سورة البقرة ٢٥٥

(٣) سورة الحشر ٢٣

(٥) سورة التوبة ١١٢

(٧) سورة غافر ٣

فيه بعضا ولم يعطف بعضا ، لأن « غافرا » و « قابلا » يشعران بحدوث المغفرة والقبول ، وهما من صفات الأفعال وفعله في غيره لا في نفسه ، فدخل العطف للمغايرة لتنزلها منزلة المجلتين ، تنبيها على أنه سبحانه يفعل هذا ويفعل هذا . وأما شديد العقاب فصفة مشبهة ، وهي تشعر بالديموم والاستمرار ؛ فتدل على القوة ، ويشبه ذلك صفات الذات .

وقوله : ﴿ ذِي الطَّوْلِ ﴾ ^(١) ، المراد به ذاته ، فترك العطف لاتحاد المعنى .

وقد جاء قليلا في غير الصفات ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ . . . ﴾ ^(٢) الآية ، قال الزمخشري ^(٣) : العطف الأول كقوله : ﴿ ثِيَابَ وَأَبْكَارًا ﴾ ، في أنهما جنسان مختلفان ، إذا اشتركا في حكم لم يكن بدّ من توسيط العاطف بينهما ، وأما العطف الثاني فن عطف الصفة على الصفة بحرف الجمع ؛ فكان معناه : أن الجامعين والجامعات لهذه الصفات ^(٤) أعدّ لهم مغفرة . انتهى .

وقل بعضهم : الصفات المتعاطفة إن علم أن موصوفها واحد من كل وجه ، كقوله : ﴿ غَافِرٍ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ ﴾ ^(٥) ، فإن الموصوف « الله » ، وإما في النوع كقوله : ﴿ ثِيَابَ وَأَبْكَارًا ﴾ ^(٦) فإن الموصوف الأزواج ، وقوله : ﴿ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ ^(٧) ؛ فإن الموصوف النوع الجامع للصفات المتقدمة . وإن لم يعلم أن موصوفها واحد من جهة وضع اللفظ . فإن دلّ دليل على أنه من عطف الصفات اتبع كهذه الآية ، فإن هذه الأعداد لمن جمع الطاعات العشر ، لا لمن انفرد بواحدة منها ؛ إذ الإسلام والإيمان كل منهما شرط في الآخر ، وكلاهما شرط في حصول الأجر على البواقي ، ومن كان مسلما مؤمنا فله أجره ، لكن ليس هذا الأجر العظيم الذي أعدّه الله في هذه الآية

(٢) سورة الأحزاب ٣٥

(٤) الكشاف : « هذه الطاعات »

(٦) سورة التحريم ٥

(١) سورة غافر ٣

(٣) الكشاف ٣: ٤٢٦

(٥) سورة غافر ٣

(٧) سورة التوبة ١١٢

الكرامة ، وقرن به إعداد المغفرة زائدا على المغفرة ؛ فاختص هذه الآية جعل الزخشرى ذلك من عطف الصفات ، والموصوف واحد ؛ فهو لم يكن كذلك واحتمل تقدير موصوف مع كل صفة وعدمه محمل على التقدير ؛ فإن ظاهر العطف التغاير . ولا يقال : الأصل عدم التقدير ؛ لأن الظاهر يقدم على رعاية ذلك الأصل .

ومثاله قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ . . . ﴾ ^(١) الآية ، ولو كان من عطف الصفات لم يستحق الصدقة إلا من جميع الصفات الثمان ، ولذلك إذا وقف على الفقهاء والنحاة والفقراء استحق من فيه إحدى الصفات .



ثم بعونه الله ومجيئ توفيقه الجزء الثالث منه كتاب البرهانه في علوم القرآن

للإمام بدر الدين الزركشى

ويليه الجزء الرابع وأوله : مقابلة الجمع بالجمع : وهو أحد أساليب القرآن المندرجة تحت النوع السادس والأربعين

فہرست



فَهْرَسُ الْمَوْضُوعَاتِ

٣	القسم الحادى عشر ^(*) : المتن وإرادة الواحد
٦	القسم الثانى عشر : إطلاق الجمع وإرادة الواحد
٨	القسم الثالث عشر : إطلاق لفظ التثنية والمراد الجمع
٨	القسم الرابع عشر : التكرار على وجه التأكيد
١١	فوائد التكرير
٢٣	صنيعهم عند استئصال تكرير اللفظ
٣٤	القسم الخامس عشر : الزيادة فى بنية الكلمة
٣٦	القسم السادس عشر : التفسير
٣٨	الجملة التفسيرية
٢٨	القسم السابع عشر : خروج اللفظ مخرج الغالب
٤٠	القسم الثامن عشر : القسم
٤٧	القسم التاسع عشر : إبراز الكلام فى صورة المستحيل ليدل على بقية الجملة
٤٨	القسم العاشر : الاستثناء والاستدراك
٥١	القسم الحادى والعشرون : المبالغة
٥٥	الاختلاف فى تقدير المبالغة فى الكلام

(*) تابع أقسام التوكيد ، وهو الأسلوب الأول من أساليب القرآن المدرجة تحت النوع السادس والأربعين ، وأوله فى الجزء الثانى ص ٢٨٢ .

صفحة

٥٦

القسم الثاني والعشرون : الاعتراض

٦٤

حكم الاعتراض بين واو العطف وما دخلت عليه

٦٤

القسم الثالث والعشرون : الاحتراس

٦٨

القسم الرابع والعشرون : التنذيل

٧٠

القسم الخامس والعشرون : التميم

٧٠

القسم السادس والعشرون : الزيادة

٧٥

حروف الزيادة

٧٥

زيادة « إن »

٧٦

زيادة « أن »

٧٦

زيادة « ما »

٧٨

زيادة « لا »

٨٢

زيادة « من »

٨٣

زيادة « الباء »

٨٥

زيادة « اللام »

٩٠

القسم السابع والعشرون : الاشتغال

٩١

القسم الثامن والعشرون : التعليل

الأسلوب الثاني

الحذف

١٠٣

فصل في أن الحذف نوع من أنواع المجاز على المشهور

١٠٤

فصل في أن الحذف خلاف الأصل

أوجه الكلام على الحذف

صفحة

١٠٤

١٠٤

١٠٨

١١١

١١٧

١١٨

١٢٣

١٢٤

١٢٦

١٢٦

١٢٩

١٣٤

الوجه الأول : في فوائده

الوجه الثاني : في أسبابه

الوجه الثالث : في أدلته

الوجه الرابع : في شروطه

الوجه الخامس : في أقسامه :

١ - الاقتطاع

٢ - الاكتفاء

٣ - الضمير والتمثيل

٤ - الاستدلال بالفعل لشئئين ، وهو في الحقيقة لأحدهما

٥ - أن يقتضى الكلام شئئين وهو في الحقيقة لأحدهما

٦ - أن يذكر شئان يعود الضمير على أحدهما دون الآخر

٧ - الحذف المقابل

٨ - الاختزال

حذف الاسم

١٣٥

١٣٩

١٤٣

١٤٦

١٥٢

١٥٢

١٥٣

حذف المبتدأ

حذف الخبر

حذف الفاعل

حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه

حذف المضاف إليه

حذف المضاف والمضاف إليه

حذف الجار والمجرور

صفحة

١٥٤	حذف الموصوف
١٥٥	حذف الصفة
١٥٦	حذف المعطوف
١٥٧	حذف المعطوف عليه
١٥٨	حذف البديل منه
١٥٨	حذف الموصول
١٥٩	حذف المخصوص في باب نعم إذا علم من سياق الكلام
١٦٠	حذف الضمير المنصوب المتصل
١٧٠	حذف النفعول
١٧٩	حذف الحال
١٨٠	حذف المنادى
١٨٠	حذف الشرط
١٨١	حذف جواب الشرط
١٨٣	حذف الأجوبة
١٩٢	حذف جواب القسم
١٩٤	حذف الجملة
١٩٦	حذف القول

حذف الفعل

١٩٨	الخاص
١٩٩	العام

حذف الحرف

٢١٥	فائدة ، في حذف الجار ثم إيصال الفعل إلى المجرور
-----	---

صفحة

٢١٦

فصل فيما حذف في آية وأثبت في أخرى

٢٢٠

الإيجاز

القول في التقديم والتأخير

٢٣٣

الفصل الأول : أسبابه

٢٣٨

الفصل الثاني : أنواعه

النوع الأول ما قدم والمعنى عليه

(وهو أقسام)

٢٣٩

١ - التقدم بالسبق

٢٤٦

٢ - بالذات

٢٤٧

٣ - بالعلة والسبب

٢٤٩

٤ - بالمرتبة

٢٥١

٥ - بالداعية

٢٥١

٦ - التعظيم

٢٥٢

٧ - الشرف

٢٦٢

٨ - الغلبة والكثرة

٢٦٢

٩ - سبق ما يقتضى تقديمه

٢٦٣

١٠ - مراعاة اشتقاق اللفظ

٢٦٥

١١ - الحث عليه خيفة من التهاون به

٢٦٥

١٢ - لتحقيق ما بعده واستغنائه عنه في تصويره

٢٦٦

١٣ - الاهتمام عند المخاطب

٢٦٧

١٤ - للتنبيه على أنه مطلق لا مقيد

صفحة

- ٢٦٨ ١٥ - للتنبيه على أن السبب مرتب
٢٦٨ ١٦ - التنقل
٢٧٠ ١٧ - الترقى
٢٧١ ١٨ - مراعاة الأفراد
٢٧٢ ١٩ - التحذير منه والتنفير عنه
٢٧٢ ٢٠ - التخويف
٢٧٣ ٢١ - التعجيب من شأنه
٢٧٣ ٢٢ - كونه أدل على القدرة
٢٧٣ ٢٣ - قصد الترتيب
٢٧٤ ٢٤ - خفة اللفظ
٢٧٤ ٢٥ - رعاية الفواصل

النوع الثانى

- ٢٧٥ مما قدم والنية به التأخير

النوع الثالث

- ٢٨٤ ما قدم فى آية وأخر فى أخرى

أسلوب القلب

- ٢٨٨ قلب الإسناد
٢٩٢ قلب المعطوف
٢٩٢ العكس
٢٩٣ المستوى
٢٩٣ مقلوب البعض

صفحة

٢٩٤

٢٩٦

٢٩٧

٧٩٩

٣٠٠

٣٠١

المدرج

الترقى

الاقتصاص

الإلغاز

الاستظهار

الترديد

التغليب وهو أنواع :

٣٠٢

: تغليب المذكر

الأول

٣٠٣

: تغليب المتكلم على المخاطب والمخاطب على الغائب

الثاني

٣٠٥

: تغليب العاقل على غيره

الثالث

٣٠٨

: تغليب المتصف بالشيء على ما لم يتصف به

الرابع

٣٠٩

: تغليب الأكثر على الأقل

الخامس

: تغليب الجنس الكثير الأفراد على فرد من غير هذا الجنس

السادس

٣١٠

معمور فيما بينهم ، بأن يطلق اسم الجنس على الجميع

٣١١

: تغليب الموجود على ما لم يوجد

السابع

٣١١

: تغليب الإسلام

الثامن

٣١١

: تغليب ما وقع بوجه مخصوص على ما وقع بغير هذا الوجه

التاسع

٣١٢

: تغليب الأشهر

العاشر

اللائقات
(وفيه مباحث)

٣١٤	البحث الأول في حقيقته
٣١٤	البحث الثاني في أقسامه :
٣١٥	الأول : من التكلم من الخطاب
٣١٦	الثاني : من التكلم إلى الغيبة
٣١٧	الثالث : من الخطاب إلى التكلم
٣١٨	الرابع : من الخطاب إلى الغيبة
٣١٩	الخامس : من الغيبة إلى التكلم
٣٢٢	السادس : من الغيبة إلى الخطاب
٣٢٥	السابع : بناء الفعل للمفعول بعد خطاب فاعله .
٣٢٥	البحث الثالث في أسبابه
٣٣١	البحث الرابع في شرطه
٣٣٣	البحث الخامس في أنه يقرب من اللاتفات نقل الكلام إلى غيره
٣٣٨	التضمين
	وضع الخبر موضع الطلب
٣٤٧	في الأمر والنهي
٣٥٠	وضع الطلب موضع الخبر
٣٥٣	وضع النداء موضع التعجب
٣٥٥	وضع جمع القلة موضع الكثرة
٣٥٩	تذكير المؤنث
٣٦٥	تأنيث المذكر

٣٧٢	التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي وعكسه
٣٧٧	مشاكلة اللفظ للفظ
٣٧٨	مشاكلة اللفظ للمعنى
٣٨٧	النحت
٣٨٨	الإبدال
٣٩١	المحاذاة
٣٩٣	قواعد في النفي
٣٩٥	نفي الشيء رأساً
	إخراج الكلام مخرج الشك في اللفظ دون الحقيقة لضرب من المسامحة
٤٠٩	وحسم العناد
٤١١	الإعراض عن صريح الحكم
٤١٢	الهدم
٤١٣	التوسع

التشبيه

(وفيه مباحث)

٤١٤	الأول : في تعريفه
٤١٥	الثاني : في الغرض منه
٤١٥	الثالث : في أنه حقيقة أو مجاز
٤١٦	الرابع : في أدواته
٤١٦	الخامس : في أقسامه
٤٢٣	السادس : ينتظم قواعد تتعلق بالتشبيه

الاستعارة

(وفيها مباحث)

٤٣٢	: هي « استفعال » من العارية	الأول
٤٣٤	: في أنها قسم من أقسام المجاز	الثاني
	: لا بد فيها من ثلاثة أصول : مستعار ، ومستعار منه ، ومستعار له	الثالث
٤٣٥		
٤٣٨	: تنقسم إلى مرشحة وتجريدية	الرابع
٤٤٠	: هي فرع التشبيه وأنواعها كأنواعه	الخامس
٤٤٥		التورية
٤٤٦		الفرق بين التورية والاستخدام
٤٤٨		التجريد
٤٥٠		التجنيس
٤٥٥		الطباق

المقابلة

(وفيها مباحث)

٤٥٨	حقيقتها
٤٥٨	أنواعها

أقسامها

٤٦٠	: أن يأتي بكل واحد من المقدمات مع قرينة من القوافي	أحدها
٤٦١	: أن يأتي بجميع الثواني مرتبة من أولها	ثانيها
	: أن يأتي بجميع المقدمات ثم بجميع الثواني مرتبة من آخرها .	ثالثها

- ٤٦١ : أن يأتي بجميع المقدمات ثم بجميع الثواني مختلطة غير مرتبة
٤٦٢ مقابلة الشيء بمثله
٤٦٤ تقسيم
٤٦٥ فائدة ، قد يحىء نظم الكلام على غير صورة المقابلة في الظاهر
٤٦٧ رد العجز على الصدر
٤٦٧ العكس
٤٦٨ إجماع الخصم بالحجة
٤٧١ التقسيم
٤٧٥ التعديد

